الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد السابع والعشرون . السنة الثالثة . أبريل ٢٠٠١ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 3 - Issue 27 - April 2001

"وقفة مع الصديق الأمريكى"

محمد حسنين هيكل

بيكاسو:
لا أرسم
ما أرى
أرسم
ما أعرف



الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثالثة
العدد السابع والعشرون
أبريل ٢٠٠١

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربي والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

كتّاب العدد:

- أحمد أبو شادى .. صحفى.
- أحمد توفيق.. أستاذ الباثولوجى بمعهد بحوث صحة الحيوان.. بالقاهرة.
- أحمد عثمان.. باحث فى التاريخ المصرى القديم مقيم فى لندن.
- أحمد مستجير.. أستاذ بكلية الزراعة جامعة القاهرة.
- رولاند بنروز .. ناقد فنى انجليزى.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- صبرى حافظ .. أستاذ الأدب العربى الحديث بجامعة لندن.
- عزمى بشارة.. سياسى عربى عضو الكنيست الإسرائيلى.
- محمد حسنين هيكل .. صحفى.
- محمد عدنان سالم .. ناشر سورى.
- محمود أحمد .. صحفى.
- نبيل على.. خبير الأبحاث اللغوية العربية والإلكترونية.

رسوم العدد للفنانين: **محمد حجى - نبيل تاج - سعد الدين شحاتة**

المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٢ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٢٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٢٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهماً - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا دينار واحد - الجزائر ١٠ دنانير - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٢٠٠ ريال.
Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمــــة..

حــــــديث الأولــــويـات

«نهايات طرق».. العنوان اختاره محمد حسنين هيكل لمقاله، واختارته «وجهات نظر» لغلاف عددها الشهر الماضى، والذى نفد عن آخره. والثابت أنه عند «نهايات الطرق» تكون هناك «وقفة».. لإمعان تفكير أو لاستخلاص عبرة... أو لاستجلاء حقائق ربما غطاها غبار الطريق. وربما قبل – أو بالأحرى بعد ذلك – استشراف «آفاق جديدة».

فى هذا الإطار.. ربما، أو على تماس – طبيعى – منه، تأتى دعوة الأستاذ هذه المرة، مع بشائر موسم رحلات الربيع «العربية» إلى واشنطن – إلى «وقفة مع الصديق الأمريكى».

الدعوة و«صياغتها» تستدعى من الذاكرة القريبة أصداء ما كان قبل ثلاثين عاما، عشية التحضير لحرب أكتوبر. عندما فاجأ الرئيس أنور السادات الكثيرين – وفى أجواء «ضبابية» غائمة – بما أسماه : «وقفة مع الصديق السوفيتى».

ومع ملاحظة أن سياسات الرئيس السادات هى الأصل الذى ما زال مُعتَمَداً حتى الآن، «تَدُلُّ عليه الأفعال رغم التَّبايُن فى الأقوال». فإن الذاكرة الرسمية العربية تستطيع أن تَستَعيد فصلاً من تَجربة «أنور السادات» ـ وليس من تَجربة غيره ـ بدون حَرَج.

ويوضح هيكل أنه ورغم أن تلك «الوَقفة مع الصديق السوفيتى» سنة ١٩٧٢ (قبل قرابة ثلاثين سنة) كانت مُخاطَرة، إلا أنها مُخاطَرة حَقَّقَت طلبها رغم المحاذير. بل إنه «لولا هذه «الوَقفة» لكان من المُتَعَيِّن تأجيل معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ إلى ظرف آخر يَصعُب تقدير موعده ـ أو لكانت المعركة ـ فى أكتوبر ١٩٧٣ ـ نوعاً من القمار الأحمَق مُؤدِيًا إلى إفلاس مُؤَكَّد !»

ومتيقناً من أن التاريخ – بالضرورة – لا يعيد نفسه. ولا هو – وإن أردنا – قابل لذلك، فإنه ليس من الضرورى أن تكون «الوَقفة مع الصديق الأمريكى» بطريقة السادات نفسها «الدرامية» أو بأسلوبه ذاته « الصدَمات الكهربائية» كما أن الخطوة – أو بالأحرى «الوَقفة» – ليس حتمياً أن تأتى من القاهرة ، أو أن تكون من عاصِمة عَرَبية واحدة ـ فهذا « مَوقِعٌ يَتَّسِع الآن لأكثر من طَرَف ويَحتاجه أكثر من طَرَف»!

أياً ما كان الأمر، فإن الثابت على أية حال، أن واشنطن تعمل جاهدةً على «إعادة ترتيب أولويات المنطقة». فضلاً عن أنه – حتى وإن كان من ناحية أخرى – قد بات واضحاً للعيان هذه اللحظة – يقول هيكل – أن العلاقات العربية ـ الأمريكية لا تستطيع أن تُواصِل المشى على «المَسارات» الحالية، وإلا فإن منطقة الشرق الأوسط تكون مُقبلة على مَرحلة فيها «دولة واحدة مُستَقِلَّة»، هى إسرائيل!

ومرة أخرى – ورغم استرجاع أصداءٍ لتاريخ مؤثر – يحرص هيكل على التأكيد على أن لا أحد يَطلُب أن تكون «الوَقفة مع الصديق الأمريكى» ـ من نفس عيار تلك «الوَقفة مع الصديق السوفيتى» ـ لأن واقع الحال لم يَعُد يَسمَح (فى وقت «السِّلم») ! ـ بذلك «النوع» من «حَقِّ القرار» الذى مارَسَه العَرَب يوماً (وَسَط «الحَرب») ـ ومع ذلك فإن دَواعى الأمن القومى والاستقلال ـ وحتى الكبرياء ـ الوَطَنى ـ تَفرض أنه فى لحظة ما ـ بوَسيلة ما ـ بأسلوب ما. لا بُدَّ من «وَقفة مع الصديق الأمريكى» ! وإلا فإن السؤال يبقى مشروعاً، أو على الأقل مطروحاً: « لماذا أصبح مُستَحيلاً سنة ٢٠٠١ (مع الصديق الأمريكى) ـ ما كان مُمكِناً حتى سنة ١٩٧٢ (مع الصديق السوفيتى) ـ أو شىء منه ؟»

«حديث الأولويات» تسهم فيه بشكل كبير السياسة الإسرائيلية التى تبذل جهداً غير خافٍ على أحد لإعادة صياغة الأولويات الأمريكية ذاتها. فشارون ذهب إلى واشنطن – مستبقا الآخرين – ليس فقط لأغراض العلاقات العامة، ولغسل يديه – فى مخيلة السامعين والمستقبلين – من الدماء، وإنما، وربما كان هذا هدف الرحلة «الاستباقية» الأهم، ليتأكد فى الوقت المناسب – أو ربما ليؤكد – أن «رغبته وتياره فى السياسة الإسرائيلية بتحييد الولايات المتحدة فى المفاوضات، تتسق مع رغبة الإدارة الأمريكية بعد كلينتون بإعادة العراق والخليج إلى تصدر جدول أعمالها فى المنطقة». كما يقول عزمى بشارة فى مقاله لـ«وجهات نظر» عن «مرحلة شارون، السياسة والمستقبل».

إعادة صياغة الأولويات الأمريكية لتلفت انتباهها الفعلى – على الأقل حالياً – بعيداً عن الملف العربى الإسرائيلى، تتفق تماما مع براجماتية شارون – يقول بشارة – والذى تتحدد فى أن غايته ليست أكثر من البقاء فى السلطة «دون التوصل إلى اتفاق سلام شامل ودون التدهور إلى حرب شاملة إذا أمكن..» المرحلة الانتقالية طويلة المدى هى خيار فى هذا السياق، واستنزاف السلطة الفلسطينية إلى درجة تصبح فيها العودة إلى التفاوض مع إسرائيل واسترجاع أموال الضرائب من إسرائيل وتخفيف الحصار الاقتصادى هدفا فى حد ذاته بالنسبة لها، هى وسيلة لتحقيق هذا الخيار..

وفى دراسة العضو العربى فى الكنيست الإسرائيلى، والمعايش اليومى لآليات السياسات الحزبية فى إسرائيل، والذى يرى أن الليكود وحزب العمل لا يمثلان مشروعين سياسيين متباينين بحدود واضحة. (بدليل التقارب الواضح فى وجهات النظر – رغم صراع يبدو على السلطة – بين باراك ونتنياهو من ناحية وبين شارون وبيرس من ناحية أخرى) يوضح بشارة مغزى اختيار شيمون بيريز(العمل) ليكون «رجل العلاقات العامة، الذى تتحدد مهمة وجوده فى تحسين صورة شارون (الليكودى حالياً)» ويجعل ابتلاعه – رغم حجمه – أسهل. مؤكداً على أن الرجلين المخضرمين سياسيا، وبالمراهنة على عدم قدرة الشعب الفلسطينى على الاحتمال، يؤمنان أنه لا يوجد حل دائم «مُرضٍ» للقضية الفلسطينية، وأن الأفضل هو الأوضاع القائمة (شارون) أو المراحل الانتقالية (شارون وبيرس) إلى أن يخلق الله ما لا تعلمون.

عاد شارون من واشنطن إذن – قبل أن يذهب إليها الآخرون – بوعدٍ واضح «أن الأزمة ستترك لأهلها» – أو هكذا قال – ويأمل – لم يفصح بالضرورة عنه – بتركها للزمن «يزيحها إلى زوايا النسيان»... وباطمئنانٍ – يبدو غير بعيد عن الشواهد والدلائل – إلى أن «الأولويات يعاد ترتيبها»!!

وجهات نظر

تنـــويـه

وقعت أخطاء مطبعية طفيفة فى بعض النسخ من عدد شهر مارس عام ٢٠٠١، الذى تم توزيعه صبيحة عيد الأضحى المبارك، وأمكن تداركها فى بقية النسخ. وتعتذر «وجهات نظر» لقرائها عن هذا الخطأ.

"وَقفة مع الصديق الأمريكى"



محمد حسنين هيكل

"١"

زيارات الربيع إلى واشنطن!

■■ مع بَشائر الربيع يبدأ موسم السَفر العربى إلى واشنطن، والسَفر على مُستوى القمَم العربية - أو بعضها - غايته الحوار والتشاور مع «الصديق الأمريكى» - وذلك تقليدٌ مُستحدَث جاءت به مُتغيِّرات أساسية فى السياسة العربية بدأت منذ سنة ١٩٧٥، ولا زال ذلك التقليد مُستمراً، مَرعياً، مُحافَظاً عليه وزيادة، بدليل أن عُروضه فى العاصمة الأمريكية تَزداد تنوُّعاً كل موسم، وتتوسَّع مَظاهرها كل زيارة.

الموسم هذه المرة له أهمية يَختلف بها عن أى موسم سبق، لأنه يجىء بعد سلسلة من الوقائع بَدَّلت المشهَد فى الشرق الأوسط، وغَيَّرت أجواءه، وفاجأته بما لم يكن يَتوقَّع

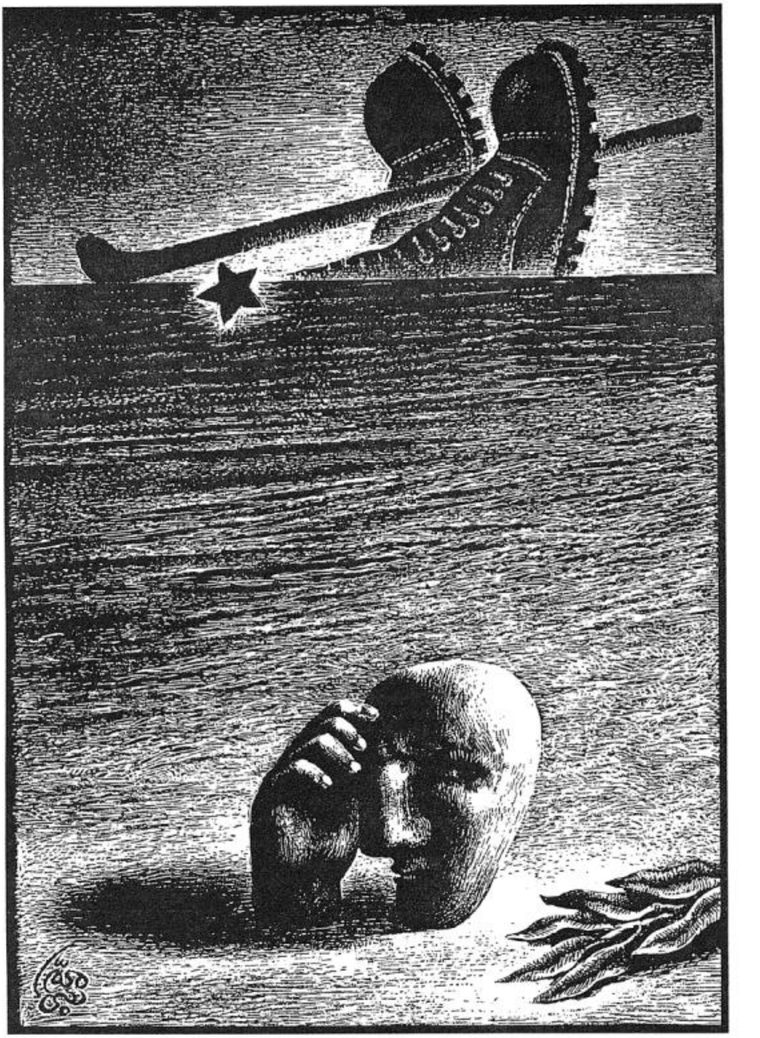
(١) أولى المفاجآت (قبل موسم زيارات الربيع إلى واشنطن) - هى نتيجة انتخابات أمريكية للرئاسة خرج بها «بيل كلينتون» من البيت الأبيض، ولم يجئ بعده «نائبه آل جور» كما كانت مُعظم العواصم العربية تتوقَّع - إلى ما قبل أسبوعين على الأكثر من يوم الاقتراع. وكان ظن مُعظم العواصم العربية أن «آل جور» -!- عندما يجىء سوف يُكمل «المسيرة» من حيث تَركها «بيل كلينتون»، وهو فى اعتبار عَدَد من الملوك والرؤساء العَرَب أول رئيس أمريكى قَضى «كل هذا الوقت» مع «قضايانا الكبرى» وخصوصاً فلسطين، وكان رهان هذا العَدَد من الملوك والرؤساء العَرَب عالياً على «كلينتون»، وقد تمنَّى بعضهم - أو ألحّ - على السُلطة الفلسطينية أن تنتهز فرصة وجوده فى البيت الأبيض وتقبَل - ولو فى الدقيقة الأخيرة من إدارته - حزمة المقترَحات التى طرَحها للقفز فوق السدود الأكثر وُعورة فى القضية الفلسطينية (القدس، واللاجئين، وحدود الدولة، وخريطة الاستيطان). وعندما بَدا أن السُلطة الفلسطينية مُتَرَدِّدة زادت الغوايات والضغوط - تُحَرِّض على «قفزة جريئة» تقوم بها السُلطة الفلسطينية بحجَّة أن وجود «كلينتون» فى البيت الأبيض فُرصة لا تتكَرَّر، ولأن «المعتدلين العرب» اعتمادا على ذلك سوف يُساعدون، وإذا لم يكن فى مَقدورهم قبول شىء نيابة عن السُلطة الفلسطينية، فإنهم يَتعَهَّدون - عندما تقع «القفزة الجريئة» - بتوفير «شَبَكة أمان» تتلقَّفها فى الهواء قبل أن ترتطم بالأرض!

لكن الوقت نفد قبل أن تقتنع السُلطة بـ«القفزة الجريئة». فهى من الأصل لم ترَ الحوض الذى كان عليها أن تقفز إليه، وعندما دَقَّقت النظر وَجَدَت قاع الحوض فارغاً بلا ماء يكفيها لتغطس فيه وتقلب - وهى فى الغالب لم تَشعُر أنها مُستعدَّة لكَسر رأسها على بلاط حوض فارغ! - وهى على الأرجَح لم تكن مُتأكِّدة أن هناك «شَبَكة أمان» جاهزة - وحتى إذا كانت جاهزة فإن كفاءتها بدت موضع شك من اتساع الخروق. ولم تفقد العواصم العربية - أو بعضها - ثقتها فى صحَّة رهانها بمَنطق أن «جور» استمرار لـ«كلينتون» - فهما إدارة واحدة رغم اختلاف الطبائع والأمزجة.

وعندما نجَحَ «جورج بوش» الابن - فإن العواصم العربية تَركت رهانها فى الساحة ولم تسحَبه، ذلك أنه إذا كان المنتظَر من «جور» أن يُواصل سياسة «كلينتون» - فإن المؤكَّد أن «بوش» الجديد هو ابن «بوش» القديم - «عرَفناه صَديقاً»، و«تعامَلنا معه وتعامَل معنا»، و«أحببناه وأحَبَّنا» - وبالتأكيد فإن الابن مُلتزِمٌ بتوَجُّهات الأب، أكثر من التزام أى خَلَف سياسى بسَلَف له سَبَقه فى منصبه (أى «جور» بعد «كلينتون»)، وقد أصبحا عَدُوَّين لدودَين بعد أن كانا صَديقَين حَميمَين - وإذن فإن المقادير التى أسقطت «جور» كانت كَريمة مع العَرَب حين جاءت لهم بـ«جورج بوش»!)

(٢) وكانت المفاجأة الثانية (قبل موسم زيارات الربيع إلى واشنطن) هى نتيجة انتخابات رئاسة الوزارة فى إسرائيل، وكانت تلك عملية تابَعَتها العَواصم العربية - كلها - دون أن يَبِين فى رَدّ فعلها إشارة تَدُلُّ على قدر كاف من الفَهم لمعناها!

كان التَصَوُّر الشائع - فى العواصم العربية - أن «باراك» دَعا إلى انتخابات رئاسة الوزارة كجنرال أجرى تقديراً إستراتيجياً لموقفه، وحَسَب الحساب دقيقاً لاحتمالاته، وهَدَفه من الدَعوة لانتخابات قبل أوانها أن يُدَعِّم مركزه ويُحاصر الأحزاب (أو الطوائف؟!) التى تزدَحِم بها الكنيست، ويَحصُل على تفويض واسع وكامل لإنقاذ «مَسيرة السلام» (على طريقته) - وهذا التفويض يَجعَل منه فى الشكل وفى الفعل -



«نابليون إسرائيلي» مُكلّفاً بإنقاذ الدولة من أعدائها ومن نفسها أيضاً!

وكما حَدَث في حالة «كلينتون» و«بوش» ـ حَدَث في حالة «باراك» و«شارون» ـ فقد ظلّت العواصم العربية ـ كلها تقريباً ـ وإلى ما قبل أسبوعين اثنين من يوم الاقتراع ـ تَظُن أن القادِم إليها «باراك» وليس «شارون».

وبَدَأت الصَدَمات تَجيء ليلة ظهور نتائج الانتخابات الإسرائيلية. فقد سَقَطَ «باراك» ـ ونَجَحَ «شارون» ـ وكان نجاحه بأغلبية لم يَسبق لها مثيل في انتخابات سَبَقَت (على مُستوى الكنيست أو على مُستوى رئاسة الوزارة) ـ أي أنه تفويض واسِع من الناخب الإسرائيلي للسياسة الإسرائيلية الأخطَر في تَشَدُّد مواقفها، والأعنَف في إدارة هذه المواقف!

اضيف إلى ذلك أمام عَواصِم عربية مأخوذة بالصَدَمات أن «الأصدقاء» ـ! ـ في حِزب العَمَل (المعتَبَر في تقدير هذه العواصِم «حِزب السلام») تَمَزَّق وخَرَج منه جيلُ الشَباب ـ! ـ الذي كان عليه المعَوَّل (!) مُهاجراً أو مَنفياً، ناقماً في الحالتين، وشديد الإحساس بالإهانة إلى دَرَجَة أن واحِداً من شباب هذا الجيل («حاييم رامون» ـ ٥٥ سنة!) ـ قال لـ «باراك» في اجتماع لمركز الحِزب:

«إن كل ما فعلته طول رئاستك للوزارة هو انك وَقَفت في مكانٍ أعلى من الحِزب ثم..... (وَصفُ فعل تَصعُب كتابته على الوَرَق) ـ وقُلت لنا: هذا هو المطَر فازرعوا واحصُدوا واشكروا «الرب» الذي أفاضَ عليكم نِعَمَه!»

وبرغم هذه الصَدَمات كانت العَواصِم العربية (أو بعضها) تَرفُض تَصديق ما تراه، وتَبحَث لنفسها عن ذرائع للطمانينة، وقد عَثَرَت عليها، وأولها «أن مَجيء شارون سوف يُثبت للإدارة الأمريكية عجز إسرائيل عن مسيرة السلام، وبالتالي فهي الطرَف الذي يَقَع اللوم عليه وليس العرب، «وكذلك فإن الأصدقاء القدامى ـ العائدين من جديد ـ أولى بالفهم ـ وسوف يُقَدِّرون» ! ـ واقدَر على «الضغط» ـ وسوف «يَضغطون» ـ بالطبع على إسرائيل !»

(٣) وكانت المفاجأة الثالثة (قبل موسِم زيارات الربيع إلى واشنطن) هي تَصعيد الغارات الأمريكية على بَغداد دون إخطار مُسبق أو تشاوُر مع الحكومات العربية «الصديقة» ـ التي وَجَدَت نفسها مُحرَجة أمام جماهير غاضبة: أقلقها ما وَقَع في إسرائيل، ثم أثارَها تَصاعُد الغارات فجأة على العراق.

وتَفَشّى في العواصِم العَرَبية ـ كلها تقريباً ـ نَوعٌ من الارتباك لا يَعرف ماذا يَفعل؟ ـ بل ولا يَعرف ماذا يَقول ؟!

وعندما خَفَّ وَقع الصَدمة تَصَوَّرت العواصِم العربية ـ بعضها ـ أن هناك خطأ في تَرجَمة إشارات مُبَكِّرة بينها وبين واشنطن، وهي إشارات جرى تَبادُلها عبر رُسُل أو عن طريق رسائل من هنا إلى هناك، ومن هناك إلى هنا.

● وعلى سبيل المثال فمن بين هذه الإشارات ـ أنه ظَهَرَ في بعض العواصِم الخليجية مَبعوثٌ يُمَثِل نائب الرئيس الأمريكي «ديك تشيني» الذي قيل أن وَضعَه في إدارة «بوش» يَختَلف عن وَضع أي نائب رئيس سبقه، فهوَ في واقع الأمر رئيس الوزراء الفعلي مع رئيس دولة (لا) يَملك و(لا) يَحكُم.

وفي إحدى هذه العواصِم الخليجية (وذلك طبقاً لإيجاز حَضَره عَدَدٌ من الصحفيين المختارين، في اجتماع بالمقر التنفيذي للرئاسة وهو مُواجِه للبيت الأبيض) ـ سَمِعَ المبعوث الأمريكي ما يُمكن اعتباره رسالة لَوم إلى السياسة الأمريكية بسبب «تَقاعُسها في حصار العراق، مما جَعَلَ هذا الحصار يَتَداعى ويَتآكل ـ ويُوشك على السقوط !» ـ ومَثار اللوْم «أن ذلك «التَقاعُس» غير مَفهوم «لأصدقاء أمريكا من العَرَب» ـ ونتيجته أن النظام العراقي يَقوى ولا يَضعف». ـ وكان هناك من البداية انقسام في الرأي بين هؤلاء «الأصدقاء العَرَب لأمريكا» ـ فيهم من يرى أن أمريكا عازمة على إسقاط النظام، وفيهم من يَشُك في «صِحَّة نواياها أو صدق عَزمِها» ـ والآن ثَبَتَ للجميع ـ الذين صَدَّقوا والذين شَكّوا ـ أن «الولايات المتحدة لها قَصدٌ في الباطن يَختَلف عما تقول به في الظاهِر».

ويَبين مما طُرِح في ذلك الإيجاز الصحفي في المقر التنفيذي للرئاسة ـ وفي صَدَد مُهِمَّة المبعوث الأمريكي ـ أن هذا المبعوث أشار إلى «تَصعيد الغارات» باعتباره شاهِداً على «حَزم السياسة الأمريكية تجاه صدام». وكان الرَدُّ عليه «أن هذه الغارات وحدها لن تُسقط النظام العراقي، بَل على العَكس سوف تُكسبه تعاطُفاً ـ ثم إن شَعبيَّته سوف تَزداد عندما تثبت مَقدرة احتماله!».

وقيل فى ذلك الاجتماع أن المبعوث الأمريكى سمع بعد ذلك من مضيفيه تعبيراً صريحاً عن التوجس يقول له : «إنكم بما تفعلون - أو بما لا تفعلون - تضعوننا بين نارين : نار أن سياسة النظام فى العراق خطر على حدودنا، ونار أن سياستكم تجاه هذا النظام خطر على حكوماتنا !»

وطبقاً لمعلومات طرحت فى نفس الإيجاز فى المبنى التنفيذى للرئاسة - فإن المبعوث الأمريكى أشار إلى «أن الإدارة الأمريكية الجديدة، وإدارة «كلينتون» قبلها - كلتاهما مصابة بخيبة أمل من عجز المعارضة العراقية عن إسقاط النظام» - وكان الرد الذى سمعه بنفاد صبر :

«لا تحدثونا فى هذا الموضوع. الناس كلهم يعرفون أنكم إذا أردتم الخلاص من «صدام حسين» فلن تعجزكم الوسائل - وأنجعها أن وكالة المخابرات المركزية لابد أن تكون قادرة فى أى وقت على الخلاص منه بوسيلة ما -!- ودون انتظار مساعدة من معارضة عراقية مفككة ومعزولة؟!»

● وعلى سبيل المثال كذلك أنه ضمن تلك الإشارات أيضاً وصلت إلى واشنطن رسالة حملها زائر عربى قصد إليها فى «مهمة خاصة» - مؤداها :

«أن مجىء «شارون» إلى رئاسة الوزارة فى إسرائيل أحدث استنفارا شديداً فى العالم العربى مع أن مجيئه كان فى الأسابيع الأخيرة متوقعاً» !

والمأزق الذى يواجه كل الأطراف أنه يصعب «تسويق شارون» بوصفه «أملاً» يستحق أن يعطيه العرب فرصة تسمح لمسيرة السلام أن تتواصل - والاقتراح (هكذا بالتحديد) : «أن «شارون» جرعة شديدة المرارة ويلزمها كساء خارجى من السكر حتى يمكن بلعها. وكساء السكر المعقول الذى يمكن التفكير فيه أن يجىء «شيمون بيريز» وزيراً للخارجية، بحيث يتصدى هو -وليس «شارون» - لقيادة «عملية التفاوض على الناحية الإسرائيلية. والسبب أن «بيريز» وجه مألوف فى المنطقة، وملامحه مقترنة بالدعوة لاستمرار مسيرة السلام» !».

وبالفعل فإن هذا «الرجاء العربى» تم نقله إلى اثنين من المبعوثين الإسرائيليين ذهبا مبكراً باسم «شارون» إلى واشنطن لشرح طلباته وسياساته - هما «زالمان شوفال» و«دورى جولد» - وكلاهما كان سفيراً لإسرائيل لدى الولايات المتحدة على عهد حكومات سابقة لتجمع أحزاب الليكود.

وحدث أيضاً أن الرئيس الأمريكى الذى انتهت إدارته وهو «بيل كلينتون» عرف بهذا «الرجاء العربى» بعد أن غادر واشنطن، ووجدها فرصة لعودة إلى الأضواء يحن إليها، وهكذا فإنه عزز «الرجاء العربى» بمجىء «بيريز»، وأضاف إليه من عنده «تزكية» بدخول «باراك» وزيراً للدفاع فى حكومة «شارون»، وبذلك يطمئن العرب إلى أن «مسيرة السلام مستمرة كما كانت فى إدارتى»، وأن «حزمة المقترحات التى قدمتها» مازالت على المائدة. ولم يبق «كلينتون» اقتراحه سراً، وإنما أذاعه فى حديث صحفى قال فيه أنه «بنفسه» أبلغ «شارون» «مباشرة» به).

....

....

[وليس معنى ذلك أن دخول «بيريز» فى وزارة «شارون» كان «رجاء» عربياً أو «وساطة» عربية - لأن الحقيقة أن دخول «بيريز» (حتى وإن كانت فكرة كساء السكر -! - لعلقم «شارون» واردة فيه) كان داعيه الأكبر والأهم داخلياً إسرائيلياً - ولعله كان مطلب مؤسسة عسكرية تريد وزارة تعطيها غطاءاً سياسياً واسعاً، وفترة ثبات فى السلطة تحتاجها لمواجهة مهام أمنية لازمة. وكان من العناصر المساعدة على دخول «بيريز» أنه صديق حميم لـ«شارون» وزميل فكر متقارب معه، حتى وإن غطى أحدهما تقاطيع وجهه بالسكر، ووجد الآخر أنه فى غنى عن حلاوة مذاق (صناعى) وخداع بصر (بالألوان).

وهكذا دخل «بيريز» وزارة «شارون» - ولم يدخل «باراك» رغم أن «شارون» كان يريده - لكن حزب «باراك» نفسه كان ساخطاً على رئيسه السابق، ممروراً منه - وكان على رئيس الوزراء الجديد أن يختار الرجل أو يختار الحزب. وتحقق ما أرادته بعض العواصم العربية ودخل «بيريز» - ولم يتحقق رجاء «كلينتون» وتأكد استبعاد «باراك» !]

....

....

وعلى أية حال فقد ظل الارتباك ظاهراً، والإشارات متناقضة - والاتصالات متقطعة ومتعثرة بين واشنطن وبين العواصم العربية (أو بعضها) - وهى أحياناً بالرموز، وأحياناً عن طريق الرسائل والرسل.

ولعله كان أفضل للجميع لو أن موسم زيارات الربيع إلى العاصمة الأمريكية بدأ مبكراً - دون تداخلات - من رسائل ورسل - زادت فى خلط الأمور بدل أن يساعدوا على جلائها. لكن موسم الربيع فى واشنطن كان عليه أن ينتظر عقد مؤتمر عربى على مستوى القمة فى عمان، وهو مؤتمر فرض نفسه وتوقيته منذ شهور، ولم يكن فى اعتبار أطرافه حين قبلوا به وعينوه أواناً لبداية الانتظام السنوى للقمة العربية - أنه سوف يحل متوافقاً مع ما وقع من متغيرات.

على أنه فى فترة الحيرة ما بين التوقعات الأولية والمتغيرات الطارئة - تعلل رجاء الجميع بزيارة كان مقرراً أن يقوم بها الجنرال «كولين باول» وزير الخارجية الأمريكى الجديد - إلى منطقة الشرق الأوسط فى مهمة استطلاعية.

وكان تقدير العواصم العربية - أو بعضها - أنها سوف تسمع وتفهم من الجنرال الدبلوماسى ما لم يستطع الرسل والرسائل نقله بدقة، وترجمة إشاراته بأمانة فى اللغة وفى الدلالة !

وبمجمل الظروف فإن انتظار وزير الخارجية الأمريكى الجديد اكتسب أهمية كبيرة فى الموضوع وفى الشكل :

— فى الموضوع لأن «الوزير الجنرال» لديه - بالتأكيد - ما يقدمه لمضيفيه شرحاً وإيضاحاً.

— وفى الشكل لأن مجىء «الوزير الجنرال» - بعد الخلط فى الإشارات - تبدى محيراً ومشوقاً، متشابهاً مع أسلوب «صمويل بيكيت» فى مسرحيته الشهيرة : «فى انتظار جودو» - وكان «جودو» المتحرك على المسرح فى المشهد الجديد نجماً لامعاً من نجوم واشنطن لأكثر من ربع قرن عاش فيها الدخائل، واطلع على الأسرار، وخبر حروب السلاح وحروب السياسة من أرفع الدرجات، وهو الآن وزير للخارجية الأمريكية قادماً إليها بعد تجربة سبقت له - رئيساً لأركان الحرب فى البنتاجون - وكذلك فإنه جمع «المجد» من طرفيه ! - ثم هو يجىء إلى المنطقة ممثلاً لإدارة جديدة فى الولايات المتحدة، تواجه موقفاً بالغ التعقيد فى منطقة بالغة التوتر - والأجوبة التى يحملها ترد على أسئلة حرجة - تواجه قمة عربية على وشك الانعقاد (جمهور متلهف)، وموسماً من مواسم الربيع فى واشنطن لم يبق عليه غير شهر واحد !

٢

إخطــار الأصـدقـاء

على الطريقـة الأمـريكيـة

إذا كان صحيحاً - وهو صحيح - ما صدر رسمياً من تصريحات فى عدد من العواصم العربية وأولها القاهرة - بما معناه أن الولايات المتحدة لم تستشر أحداً من أصدقائها العرب - ولا أخطرتهم - بتصعيد الغارات الجوية على بغداد - فذلك معناه «الأسهل» أن الولايات المتحدة ضبطت متلبسة بخيانة أصدقائها والتقصير فى حقهم - لكن المعنى «الأهم» (بصرف النظر عن الصداقات والحقوق) أن العواصم العربية المهتمة كانت فى حالة غياب عن حوار سياسى يخصها دار فى واشنطن - وكان حواراً نصف سرى فى الواقع لأنه وإن دار فى غرف مقفلة - تسرب منه كثير إلى بعض العارفين الواصلين من كبار الخبراء والمحللين، وبينهم «آرثر شليزنجر» و«لورانس كابلان» و«جيمس تراوب» و«جون بارى» - وكذلك فإنهم - وربما غيرهم أيضاً - تابعوه وخاضوا فى تفاصيله، وكتبوا عنه وهم يتابعون ويدرسون خطوط السياسات المتوقعة من إدارة «بوش» الجديدة.

ويبين مما تسرب أنه أثناء فترة الريبة التى انقضت من إعلان نتائج الانتخابات الأمريكية يوم الثلاثاء ٧ نوفمبر، إلى تثبيت هذه النتائج فى منتصف ديسمبر سنة ٢٠٠٠ - أى فترة خمسة أسابيع أو أكثر - كان الحزب الجمهورى واثقاً من فوز مرشحه. ولأنه لم يكن فى مقدور «جورج بوش» الابن أن يشكل - على الفور - وزارة أو يعلن سياسة، فقد وجد أركان حكمه وأولهم نائبه «ديك تشينى» أنه لا داعى لقضاء فترة الريبة فى انتظار عد الأصوات، وأولى من ذلك الاستفادة بفسحة الوقت فى عقد اجتماعات «تخطيط سياسى» يكون جاهزاً للعمل فى مناطق لها حساسية خاصة بالنسبة للولايات المتحدة وأولها الشرق الأوسط. وعلى هذا الأساس تكونت «مجموعة رئاسية» تضم شخصيات كان معروفاً «أنهم رجال ونساء قادمون» إلى المواقع الرئيسية للإدارة الجديدة، وكانت المجموعة تضم نائب الرئيس المنتخب «ديك تشينى» ومعه صديقه الموثوق به «دونالد رومسفيلد» (أصبح عند التشكيل الرسمى للإدارة) وزيراً للدفاع - والسيدة «كوندوليزا رايس» (أصبحت عند التشكيل الرسمى للإدارة) مستشارة الرئيس للأمن القومى - والجنرال «كولين باول» (أصبح عند التشكيل الرسمى للإدارة) وزيراً للخارجية - و«ريتشارد أرميتاج» (أصبح عند التشكيل الرسمى للإدارة) نائباً لوزير الخارجية - و«بول وولفويتز» (أصبح عند التشكيل الرسمى للإدارة) نائباً لوزير الدفاع - و«ريتشارد هاس» (أصبح عند التشكيل الرسمى للإدارة) مسئولاً عن التخطيط السياسى للإدارة الجديدة.

□

ويبين مما تسرب - وبالتحديد فيما كتبه «آرثر شليزنجر» و«لورانس كابلان» و«جون بارى» - أن مجموعة التخطيط الرئاسية توصلت فى شأن أزمة الشرق الأوسط إلى خطوط محددة :

(١) أولها أنه ضمن مراجعة عامة للسياسة الأمريكية - وهى مراجعة تقوم بها كل إدارة جديدة، خصوصاً إذا كانت قادمة من قاعدة حزبية مختلفة عن سابقتها - وهدف المراجعة هو التأكد من أن «أفكارها» وليس أفكار الإدارة السابقة هى النافذة والمنفذة، وإعادة النظر فى الأولويات. وبالطبع فإن منطقة الشرق الأوسط كانت مدار استقصاء واسع ودقيق، ليس فقط بسبب أهمية المصالح الأمريكية فيها - وإنما أيضاً لأن شكل التطورات على ساحاتها المختلفة بدا وكأنه يأخذ منحنى خطراً - أو على الأقل غير ملائم.

وجرت مراجعة عادت - كما يجب أن يكون - إلى أصول المسائل، وهنا فلم يكن هناك خلاف بين أفراد المجموعة الرئاسية على أن

المصلحة الأمريكية العُليا لها فى المنطقة ثلاثة مَطالب : السيطرة على البترول - وضمان أمن إسرائيل - وتوسيع النفوذ الأمريكى فى المنطقة بصفة عامة.

وتَبْدَى للمجموعة الرئاسية أن البترول العربى - بترول الخليج بالدرجة الأولى - لا يَتَعَرَّض للتهديد، فهو فى حماية وجود أمريكى عسكرى قوى على الأرض - وفى عُهدة نُظُم محلية موالية. ثم إن أمن إسرائيل ليس مَكشوفاً، بل العكس فإن إسرائيل لم تكن فى يوم من الأيام مغطاة بدَرَجة التَّفوق التى تتمتَّع بها الآن.

وبرغم ذلك كان واضحاً للمجموعة الرئاسية أن هناك مَخاطر تَتَحفَّز فى المنطقة - وتَزحف إلى حيث تستطيع أن تمس أمن الخليج وأمن إسرائيل - وتُؤثر سلباً على النفوذ الأمريكى - والسبب أن مشكلة فلسطين التى كانت «تَفاعُلاتها مضبوطة» منذ مؤتمر مدريد سنة ١٩٩١ - والتى جَرى وَضعها على طريق الحَل والتصفية بعد اتفاق اوسلو سنة ١٩٩٣ - تَبَدَت مُعَرَّضة للانفلات، وهو انفلات راحَ «يَفيض» على ما حَوله بنوعٍ من «الانسكاب» spill-over - وبسَبَبه استيقظت مَشاعر كَراهية لإسرائيل كانت مَحجوزة - ومَشاعر عَداء للولايات المتحدة كانت كامنة - ومُجمله أدى إلى وضع نُظُم صديقة للولايات المتحدة على «مَوقف دفاع» يَخشى من الاختراق ويَتَخوَّف من تَحَوُّل هذا الاختراق إلى تَطويق، وتلك أحوال يُضاعف من خطرها أنها تجىء فى ظروف اقتصادية واجتماعية حَرِجة، لا يَظهَر لها علاج قريب أو سَهل، وفى مَوعِد يمكن انتظاره والصَّبر عليه حتى يجىء !

(٢) وفيما بان من الخطوط المحَدَّدة التى تَوَصَّلت إليها مجموعة العَمَل الرئاسية أن السياسة الأمريكية وَصَلَت إلى هذا المنزلق الوَعر فى الشرق الأوسط لأن «بيل كلينتون» اندفع بَعيداً وراء حُلم راوَدَه بصُنع سلامٍ كامل ونهائى للقضية الفلسطينية، مُخالفاً فى ذلك كل الإدارات السابقة جُمهورية وديمقراطية - وبالتحديد من زَمَن الرئيس السابق «ريتشارد نيكسون» ووزير خارجيته «هنرى كيسنجر» (١٩٧٤ - ١٩٧٥) - إلى زَمَن «بوش» الأب ووزير خارجيته «جيمس بيكر» (١٩٩٠ - ١٩٩٢).

والحاصل أن كل الإدارات السابقة اختارت مُعالجة الأزمة بأسلوب «خطوة خطوة»، مُدركة أن طلب السلام الكامل والشامل سوف يَطرَح قضايا مُستحيلة الحَل : أولها القدس (وهى صراع آلِهة ورُسُل - كذلك قيل) - وثانيها: اللاجئون (وقضيتهم بالنسبة لإسرائيل سؤال مَصير : يَطرَح عليها أن تكون دَولة يهودية أو لا تكون ؟) - إلى جانب قضايا أخرى لا تَقِل خطورة واستعصاء على الحل (وبينها الاستيطان والحدود).

والواقع أن هَدَف «كلينتون» من مُقاربة الحَل الكامل والنهائى - كان هَدَفاً شخصياً، وقد جاراه رئيس الوزراء الإسرائيلى «إيهود باراك» على أمل أن الرئيس الأمريكى المُتشوِّق لصُنع السلام (والمُتلهِّف على جائزته) - قادرٌ بقوة مَنصبه على الإتيان بمُعجزة تاريخية تستطيع إسرائيل أن تتعلَّق بها وتفوز بتسوية ختامية لكل الحسابات المعلَّقة بينها وبين العَرَب على أساس الأمر الواقع وبلا تَنازل يأخذ منها شيئاً تحوزه الآن أو تطلبه قبل إغلاق الدَفاتر !



موسم زيارات الربيع هذه المرة يختلف عن أى موسم سبق

....

[كان هناك بين أعضاء المجموعة الرئاسية مَن ذهَبوا إلى أن «باراك» لم يكن يُجارى رَغبة «كلينتون»، وإنما الحقيقة أن «كلينتون» هو الذى استسلم للغواية مرة أخرى - وهى هذه المرة غواية «إيهود باراك» وليست غواية «مونيكا لوينسكي» - وقد رَجَّح هذا الظن عندما تَبَيَّن أن الرَجلين - «كلينتون» و«باراك» - كانا على اتصال تليفونى مُنتظم كل يوم فى ساعة مُحَدَّدة (قبل أن ينام «كلينتون» فى ليل واشنطن، وفور أن يَصحو «باراك» فى فجر تل أبيب.

وفيما يقول به «بوديستا» رئيس أركان البيت الأبيض على عهد «كلينتون» - أن الرئيس الأمريكى السابق كان مَبهوراً بـ«باراك» لسَبَبين :

أوَّلهما - أنه كان العسكرى الذى حَمل أرفع الأوسمة فى الجيش الإسرائيلى (المقاتل) - و«كلينتون» (فى نَظَر الكثيرين) لديه عُقدة التَهَرُّب من الجُندية فى فيتنام.

والثانى - أن «كلينتون» كان مأخوذاً بنفوذ رئيس وزراء إسرائيل وَسَط الجالية اليهودية فى أمريكا بتأثيرها النافذ فى الإعلام - وكان ذلك سَبَب قبوله لوَساطة «باراك» فى عَفوٍ رئاسى وَقَّعه فى اللحظة الأخيرة عن بليونير يهودى أمريكى («مارك ريتش») هَرَبَ إلى سويسرا بعيداً عن مُتناوَل القضاء الأمريكى الذى كان يُطارده فى تُهَم فساد، وكانت «دنيز ريتش» (زوجة البليونير الهارب وشريكته حتى بعد طلاقهما) واحدة من أكبر المُتبرِّعين لحفلات «كلينتون» ولمكتَبَته التذكارية فى ولايته الأصلية «أركنسو» - وكانت تلك آخر فضيحة خَتَم بها «كلينتون» رئاسة حافلة بالفضائح !]

....

وفى المحَصِّلة (وهذه عَودة بعد استطراد إلى ما بان من مُداوَلات المجموعة الرئاسية) فقد كان الرأى الذى عَرَضَه «ريتشارد هاس» واحتل مساحة واسعة فى الحوار الرئاسى ومالت إليه الآراء «أن أزمة الشرق الأوسط لم تَبلُغ بَعد مرحلة النُّضج maturity الضرورية لحَلها (ومن المعروف أن لـ«ريتشارد هاس» نظرية مَشهورة فى هذا الشأن مُلخصها أن الأزمات لا تُحَل برَغبة الأطراف فى حلها، وإنما بتوافر شروط «مُعَيَّنة» تجعل الحَل مُمكناً) - وكان رأى «ريتشارد هاس» تحديداً أن «أزمة فلسطين غير قابلة للنُضج من الأساس لأنها تنطوى - ضمن عَوامل كثيرة - على مُقَدَّسات يَصعُب أن يكون لها «حَلٌ وَسط» - وهذا النوع من الأزمات ليس له دَواء غير وَصفة إجراءات تَتكفَّل به وهى :

- عَزل الأزمة - وإحكام عَزلها عن مُحيطها حتى لا يَتسع نطاقها ولو بالعَدوى.

- وإفراغ الأزمة أولاً بأول من عناصر التَوتُّر حتى لا تنفجر فى مكانها مُدَوِّية فى محيطها.

- ثم تركها بعد ذلك للزمن يُزيحها إلى النسيان، وفى هذا النسيان تستهلك الأزمة نَفسها بنفسها بالتحَلُّل والتآكل والتلاشى !».

(٣) وفيما تَسَرَّب أيضاً أن حوار المجموعة الرئاسية تَوَصَّل إلى أن «المأزق الراهن فى الشرق الأوسط - استحكم بسبب التعَسُّف مع الحقيقة فى طلب حَلٌ نهائى لأزمة الشرق الأوسط، والنتيجة أن القضية الفلسطينية عادت واحتلت رأس جدول الأعمال فى اهتمام حكومات وشعوب المنطقة. وبما أن الحَلّ الكامل الذى سَعى إليه «كلينتون» و«باراك» طلبٌ مُستحيل - فإن العَودة الضرورية إلى الخطوات الجُزئية نَقلة بعد نَقلة مُناوَرة صَعبة. ولابد من تَهيئة المنطقة لهذه المناوَرة بجهد عالى الكفاءة، مَرن وحازم فى نفس الوقت، يُحَقِّق نزول القضية الفلسطينية من البَند رقم واحد إلى البَند رقم اثنين أو ثلاثة إذا أمكن.

وإذا كان ذلك - فإن الفراغ الناشئ من إخلاء البَند رقم واحد (بعد تَنزيل الأزمة الفلسطينية منه) لا بد أن تَملأه أزمة أخرى يجرى تَصعيدها إلى رأس القائمة، وهذه الأزمة فى تقدير أهَم المُنَظِّرين للإدارة الجديدة - وهو «بول وولفويتز» المساعد المقرَّب من «ديك تشينى» نائب الرئيس، والمَكلَّف بمنصب نائب وزير الدفاع - هى بالطبع أزمة الخليج، وبمعنى آخر فإن المطلوب على عَجَل هو إحياء التحالف القديم لحَرب الخليج، وإعادة بناء الحصار على العراق، والحَشد من جديد لمحاولة إسقاط النظام فى بغداد، وذلك مَطلبٌ لم يَتيَسَّر تحقيقه - فى وَقته - بالحَرب - لكن المطالب الإستراتيجية لا تَسقُط بالتقادُم (كذلك قَدَّروا).

وقد تَجلَّت لأهمية - وضرورة - تغيير قائمة الأولويات مَزايا إضافية - مُلَخَّصها «أن مشكلة فلسطين وفيها القدس تملك جاذبية غلابة تَشد كل العَرَب إلى قضية واحدة، وذلك يَخلق مَناخاً مُتفجِّراً يَصعُب التعامُل معه - فى حين أن وَضع العراق على رأس القائمة يُفَرِّق صفوف العَرَب، وهو مَناخ يَسهُل ويَطيب التعامُل فيه !

(٤) وفيما تَبَيَّن أنه دارت فى المجموعة الرئاسية مُناقشات كان بعضها عنيفاً إلى حَدٌ نَكَأ جراحاً قديمة، وبالذات فى العلاقة ما بين «ديك تشينى» نائب الرئيس والجنرال «كولين باول» وزير الخارجية.

والظاهر أن المناقشات زادت سخونتها عندما طُرح للبحث أسلوب إقناع الدُوَل العربية - وشعوبها إذا أمكن - بتغيير قائمة أولويات المنطقة، بمعنى «تنزيل» بَند فلسطين و«تصعيد» بَند العراق - وكان الظنُّ فى البداية أنه يمكن «تَسريب» هذا التغيير فى الأولويات من خلال اتصالات تمهيدية جارية بالفعل بين الإدارة الجديدة وبين أطراف فى الشرق الأوسط تَتعجَّل استطلاع تَوَجُّهاتها - وكان التقدير أنه بعد «التسريب» يَتَهَيَّأ الجو لنقلة يَتحوَّل بها «التسريب» غير الرسمى إلى «إخطار» رسمى.

ولم يكن «كولين باول» - فيما ظَهَر من تفاصيل مُناقشات المجموعة الرئاسية - مُقتنعاً بأن قائمة الأولويات يمكن تغييرها بهذه السُرعة من «فلسطين» إلى «العراق». وكان «باول» يَعرف ويُوافق على أنه ليس من المرغوب فيه ترك فلسطين على رأس قائمة الأولويات - لكنه فيما يَتعلَّق بتصعيد بَند العراق كان يَحسب أن الأمر يلزمه علاج من نوع مُختلف لدَواعى مُتعَدِّدة بينها أن الحصار حول العراق بالفعل يَتهاوى، وأن هناك تَعاطفاً شعبياً عربياً واسع النطاق مع العراق، ثم إن النُّظم العربية حتى تلك التى شاركت فى

التحالف - تُبدى كثيراً من التململ والضيق بعد استمرار الحصار عشر سنوات، وعملية خنق للعراق لم يَعُد ممكناً أن تستمر إلى الأبد.

وطُرحت للبحث فكرة استبدال الحصار ضد العراق كما هو الآن بنوع آخر «أضيَق» ولكنه «مباشر» أكثر. وأطلق «تشينى» عليه وصف «العقوبات الذكيّة». والمطلوب منها أن تكون «عقوبات تُصيب نظام الرئيس «صدام حسين» وتُؤدّى إلى إسقاطه دون أن تُصيب الشعب العراقى وتزيد من مُعاناته»!

ويَظهر أن «الجنرال الدبلوماسى» لم يَستطع أن يتفهّم وَصف هذه «العقوبات الذكيّة» و«كيف يُمكن تنفيذها»؟

وهنا (طبقاً لبعض ما نُشر من معلومات وَردت فيما كتبه «جون بارى») وقعت مُشادة بين «كولين باول» وبين «ديك تشينى» استعيدت خلالها تجربة حرب الخليج حين تباينت الآراء بين «تشينى» (وهو وزير الدفاع وقتها) وبين «باول» (وهو رئيس هيئة أركان الحرب وقتها).

كان «تشينى» (أيامها) يرى استمرار زحف قوات التحالف (١٩٩١) حتى قلب بغداد.

وكان «كولين باول» (أيامها) يرى أن هدف ضرب العراق تحقّق بالكامل خلال شهر من القصف الجوى المستمر، وأن العمليات البرية من الأصل لم تكن لها ضرورة، وحتى بعد بدئها واستمرارها لعدة أيام فإن الذهاب إلى قلب بغداد ليس ضمن الهدف المقرّر للعمليات - بالإضافة إلى أن بعض دول التحالف تُظهر تحرّجها وتُبدى خشيتها من أن «الاستمرار فى العمليات أصبح غزواً للعراق وليس تحريراً للكويت».

ووسط مناقشات تلك الأيام قبل عشر سنوات - احتد «تشينى» وقال للجنرال (بوصفه وزيراً للدفاع و«كولين باول» مرؤوساً له) ما مُؤدّاه: «إننى لا أفهم أن تكون لدى الولايات المتحدة أكبر وأكفأ قوة عسكرية فى العالم ثم لا تستطيع هذه القوة أن تخدم سياستها، ثم يكون ذلك بتوصية من رئيس أركان - ترك مُهمّته وهى الحرب لكى يُفتى فى السياسة!» - ثم يقول «تشينى» لـ«باول» بحزم: «لا دخل لك بالتقديرات السياسية، والتزم بتقديم خُطط عسكرية لما يُطلب منك، وتلك حدودك»!

وهنا وفى إطار حوارات مجموعة العمل الرئاسية تحوّل الحوار (بعد عشر سنوات) إلى اشتباك بين نائب الرئيس ووزير الخارجية.

....

....

[وأظن أننى أستطيع الوثوق فى معلومات «جون بارى» لأنى عرفته عن قرب، وكان ضيفاً علىّ فى القاهرة ثلاث زيارات. والرجل صحفى بريطانى فى الأصل، وقد ذهب إلى الولايات المتحدة يُغطّى أخبارها ولكنه اختار البقاء فيها. وكنت أعرف بالتجربة كثيراً عن دقته فيما يكتب، وكان رئيس تحريره «فرانك جايلز» يقول عنه: «إن جون عندما يتحرّى خبراً يُعد له مادة كتاب كامل». وفى الولايات المتحدة أصبح «جون بارى» من أبرز المحلّلين السياسيين والعسكريين، ووثق صلاته بـ«ديك تشينى» وبأقطاب المؤسّسة العسكرية الأمريكية عموماً - ولا يُساورنى شك فى أنه كان يُعبّر عن رأى نائب الرئيس الأمريكى فى مقال شهير وضعته مجلة «نيوزويك» على غلافها تحت عنوان: «هل هو الرجل المناسب فى المكان المناسب؟» - وكان المقال عن «كولين باول»، والمقال من أوله إلى آخره تساؤلات عن صلاحية «كولين باول» لمنصب وزير الخارجية. وفى نوادى وصالونات «جورج تاون» - مركز السياسة والصحافة فى واشنطن - حكايات كلها تُشير إلى أن بقاء «كولين باول» فى منصبه أجل محدود - سنتان على أكثر تقدير؟!]

....

....

(٥) وفيما بان من حوار المجموعة الرئاسية - فى فترة الريبة ما بين النتائج الأوّلية لانتخابات الرئاسة وحتى تأكيدها بعد خمسة أسابيع بإعلان فوز «بوش» الابن - أن المناقشات تطرّقت لكيفية تحويل التسريب غير الرسمى عن تغيير قائمة الأولويات إلى إخطار رسمى، وبدأ سياق المناقشات بأسلوب وانتهى بأسلوب آخر:

● فى البداية كان هناك اقتراح بأنه ربما يكون كافياً توصيل الإخطار بواسطة السفراء الأمريكيين فى العواصم المعنية (وقد نُحّى هذا الاقتراح جانباً لأنه يُضيف خشونة الشكل إلى خشونة الموضوع).

● وكانت مجموعة الخارجية («باول» و«أرميتاج») لا تُمانع أن يقوم بالمهمّة مبعوث يُستحسن أن يكون وزير الدفاع «رومسفيلد» (لكن ذلك الاقتراح نُحّى جانباً بدوره لأن الإخطار عن طريق وزير الدفاع قد يبدو عسكرياً).

● وأخيراً وقعت المهمّة على «كولين باول»، وقبلها باقتناع أنها فى اختصاصه، ثم إنها لم تكن مُتناقضة - بشدة - مع اقتراحاته فى الاجتماع: فهو يُوافق على «تنزيل» أزمة فلسطين من رأس قائمة الأولويات، وهو لا يُمانع فى تصعيد الأزمة مع العراق، وإن كان يُبدى خشيته من أن الأحوال فى المنطقة تغيّرت كثيراً عما كانت عليه سنة ١٩٩١ - ومع أن أحداً لم يتوصّل إلى توصيف دقيق لاقتراح «العقوبات الذكيّة»، فقد وجد «كولين باول» فى ذلك الاقتراح مُخرجاً له من تصادم مُبكر مع «تشينى» يمكن أن يتحوّل إلى خلاف حسّاس بين البيت الأبيض ووزارة الخارجية، ويكشف الإدارة الجديدة من بداية عهدها ويُعرّضها للانشقاق وما يترتّب عليه سياسياً وإعلامياً - كذلك وجد «باول» فى اقتراح «العقوبات الذكيّة» مدخلاً له فى لقاءاته المتوقّعة مع ملوك ورؤساء المنطقة حين ينقل إليهم الإخطار بتغيير فى قائمة الأولويات.

ولكن «كولين باول» كان يُريد «توجيهاً رئاسياً» بشأن الأسلوب الذى يتّبعه؟!

(٦) وكان الردّ على طلب «كولين باول» - اقتراحاً طرحه «بول وولفويتز» نائب وزير الدفاع (وهو جنرال سابق - يهودى - لعب دوراً مُهمّاً فى حرب الخليج كضابط اتصال بين قيادة التحالف وبين رئاسة أركان حرب جيش الدفاع الإسرائيلى - وكان مُقيماً بهذه الصفة فى إسرائيل طوال شهرى يناير وفبراير ١٩٩١ - وكان هو المسئول عن مُطالبة القيادة الإسرائيلية السياسية والعسكرية بأهمية ضبط النفس وعدم الرد على صواريخ عراقية وُجّهت إلى عدد من المواقع فى إسرائيل، مُذكّراً الجميع فى تل أبيب بأن إسرائيل أول مُستفيد بتدمير القوة العراقية - وبدون تكلفة عليها فى الموارد أو فى الدم).

والآن كان اقتراح «وولفويتز» أن تجربته مع العرب أقنعته بأن أفضل أسلوب لفتح أى موضوع معهم هو «وضعهم أمام أمر واقع» يبدأ منه الحوار معهم!

وقام «وولفويتز» بتطوير اقتراحه من خلال المناقشة فعرض أن الولايات المتحدة تستطيع من جانبها وبدون تشاور مع أحد أن تبدأ بتصعيد عسكرى فى الغارات على العراق - ويُصاحب هذا التصعيد إعلان يُظهر هدف التصعيد على حقيقته حتى لا يفوت على أحد (بالتجاهل أو بالجهل) - وبعدها فسوف ينتقل الاهتمام بالضرورة (باقتناع العرب أو دون اقتناعهم) إلى حدث مُستجد وقع ويستوجب البحث العاجل فى أمره - وكذلك يكون جدول الأولويات قد بدأ حركته الأولى - لأن تصعيد الغارات سوف يطرح نفسه، وسوف تكون الأطراف العربية هى التى تفتح موضوعه لتسأل فيه بعد أن تكون رسالته قد وصلت إليها.

وبعدها يتوجّه «كولين باول» إلى المنطقة، ولن يكون عليه حرج فى كيف يُبادر ويعرض - لأنه سوف يكون أمام إلحاح ورجاء من الآخرين!

وإلحاح الآخرين ورجاؤهم مؤكّد لأن «باول» سوف يجىء والأطراف كلهم يستعدون لمؤتمر عربى على مستوى القمّة، ثم إن بعضهم يستعد لحزم الحقائب تأهّباً لزيارات موسم الربيع إلى واشنطن!

٣

الجنرال والدبلوماسية

وحدث فى مُقابلات «كولين باول» مع الملوك والرؤساء العرب فى زيارته السريعة (خمسة أيام لسبع عواصم) ما كان مُتوقّعاً بالضبط فى تقديرات «وولفويتز» التى أقرّها «الاجتماع الرئاسى» بعد عدّة جلسات امتدت من فترة الريبة ووصلت إلى حيث انعقد آخرها فى مكتب نائب الرئيس «ديك تشينى» قبل سفر وزير الخارجية إلى المنطقة بثلاثة أيام.

....

....

[ولم يُتح لى أن أطلع على محاضر ما دار فى اجتماعات وزير الخارجية الأمريكى مع من قابلهم من كبار المسئولين العرب - لكنه أتيح لى - كما أتيح لغيرى - أن أسمع أكثر من رواية وأن أقارن وأستوثق قبل أن أجازف بنقل رواية أو ذكر تفصيل.]

....

....

● وفى ملاحظة عامة (تكرّرت أكثر من مرة فيما سمعت) - أن وزير الخارجية الجديد بدا لمن قابلهم «غير مُستريح» فى أدائه. وطبقاً لوصف أحد الذين قابلوه فقد بدا مثل «فنجان فى غير طبقه». وفى تقدير صاحب الملاحظة أن «باول» ما زال «يشعر بعدم انسجام مع المكان» - أى أن «الجنرال الذى كانه ذات يوم لم يتأقلم بعد مع الدبلوماسى الذى حلّ محله داخل ثيابه الآن!» - وقد بدا من تصرّفه أنه يستشعر الفجوة، ويُحاول تغطيتها «بشىء من العلاقات العامة»، يستعيد به بعض الحكايات القديمة من تجربة حرب الخليج، خصوصاً مع الذين تعامل معهم تلك الأيام - ولوحظ أن «الجنرال» تعمّد أن تكون الحكايات ضاحكة تُشيع جوّاً من الألفة - تُجدّد الذكريات القديمة وتستعيد دفئها.

● وعندما بدأ «باول» كلامه عن مُهمّته كان قوله للجميع بما مُؤدّاه «أنه لا يحمل جديداً لأن إدارة «بوش» ما زالت بصدد تحديد سياساتها بعد غياب للحزب الجمهورى عن القرار «طال ثمانى سنوات» (طول رئاسة «كلينتون») - وقد استجدت فى هذه المدّة حقائق كثيرة أولها أن الولايات المتحدة بعد ما جرى فى الاتحاد السوفيتى وقعت عليها مسئوليات دولية واسعة - ثم إنه فى فترة هذا الغياب انتهى قرن وانتهت ألفية - وفى مسئولية الإدارة الجديدة مهام تنتمى إلى القرن الواحد والعشرين - وإلى الألفية الثالثة - وكانت إدارة كلينتون ختام زمن - وإدارة «بوش» عليها أن تكون بداية زمن. ولهذا فإنه يُريد أن يسمع أكثر مما يتكلم، وقد جاء «طالباً للعلم» يتمنّى أن يسمع من زعماء فى المنطقة «لم تنقطع تجربتهم» و«زادت

معارفهم»، وأمله أن يعود إلى واشنطن ومعه محصلة «أفكار» تريد الإدارة الجديدة أن تأخذها في الاعتبار عندما تقرر سياساتها لمرحلة جديدة.

● وهنا - وكما سبق توقعه - جاء السؤال (المنتظر وجوابه المقدر سلفاً) عن تصعيد الغارات الجوية على العراق ؟ - وكان رد «كولين باول» بما معناه «إظهار الأسف لأن الولايات المتحدة تصرفت قبل أن تتشاور مع أصدقائها وحلفائها، ودون إخطارهم - لكن الطائرات المكلفة بتنفيذ القرار (الأمريكي) بمنطقتي الحظر الجوى على العراق (واحدة في الجنوب وثانية في الشمال) - وجدت نفسها في مواجهة تصعيد عراقي متزايد ومستفز يهدد طائراتها بدقة في الرصد لم تكن موجودة من قبل، وبدقة في توجيه الصواريخ يمكن أن تصيب - وذلك معناه أن «النظام في العراق» يعيد بناء قدراته العسكرية مرة أخرى على نحو يهدد جيرانه - وهكذا فإن «التصعيد الأمريكي» كان رداً دفاعياً على «تصعيد عراقي» سبقه.

ثم راح «كولين باول» يشرح والجنرال القديم فيه أكثر بروزاً من الدبلوماسي الجديد فيه.

وقد دخل تفصيلاً في عملية تجديد شبكة الصواريخ العراقية، وأضاف معلومات حصلت عليها المخابرات المركزية الأمريكية من يوجوسلافيا التي باعت للعراق على أيام «ميلوسوفيتش» معدات توجيه إلكترونية متطورة - وزاد عليها أن الصين وفرت خبراء لتكثيف قوة اندفاع الصواريخ العراقية!

● وفي إحدى المقابلات لم يتمالك أحد المشاركين في الاجتماع نفسه من سؤال «باول» بما مؤداه :

«سيادة الوزير (Mr. Secretary) - إنك تحدثت الآن - دون مقاطعة - لمدة إحدى عشرة دقيقة، وفي هذه الدقائق - وهي قليلة - فإنك ذكرت اسم «العراق» أكثر من عشر مرات، وذكرت اسم «صدام حسين» أكثر من عشرين مرة - ونحن نتفهم ذلك - لكننا في نفس الوقت نستغرب أننا طوال حديثك لم نسمع ذكر «إسرائيل» إلا مرة واحدة، ولم نسمع اسم «شارون» ولا مرة واحدة.»

وبعد مناقشات في هذه النقطة كان تعليق «كولين باول» أنه «تحدث بمنطق أولويات فرضت نفسها وخصوصاً أن إسرائيل وشارون «قد» يكونان خطراً من «الخارج»، وأما «العراق» و«صدام» فإنهما خطر من «الداخل» يهدد الاستقرار، ويشجع على الفوضى، و«يعمل على زيادة التطرف والإرهاب» !»

● وفي القاهرة وفي عمان سأل «كولين باول» عن «حكاية هذه الطائرات الذاهبة والعائدة كل يوم إلى بغداد تحدياً للحصار - مع أنه يعرف أن الأمم المتحدة استؤذنت فيها؟» !

وفي القاهرة وعمان أيضاً سأل «كولين باول» : «متى يعود السفراء (سفير مصر وسفير الأردن) إلى مقر عملهم في إسرائيل ؟» - وفي القاهرة سمى «كولين باول» سفير مصر في إسرائيل بالاسم «بسيوني»، مشيراً إلى «أن عودته بسرعة إلى هناك الآن مهمة كـ «عربون حسن نية» لرئيس الوزراء الجديد «أرييل شارون»، وأيضاً لكي تكون الإدارة المصرية على علم بالتطورات الجارية في السياسة الإسرائيلية، وهي تطورات سوف تنعكس بلا شك على القرار الإسرائيلي!»



من الملاحظات اللافتة أن الجنرال كولين باول قام بتوجيه الدعوات لموسم زيارات الربيع لواشنطن وكان يريد أن يوحي لسامعيه بأفضلية تأجيلها

وجد «باول» في اقتراح «العقوبات الذكية» مدخلاً له في لقاءاته المتوقعة مع ملوك ورؤساء المنطقة حين ينقل إليهم الإخطار بتغيير في قائمة الأولويات

وكان رأى «كولين باول» أنه لا يجب التسرع في الحكم على «شارون» بما «يقوله» العرب عن ماضيه - وإنما الحكم عليه يجب أن يكون بتصرفاته. وفي استطاعة العرب بعقولهم وليس بعواطفهم أن «يقنعوه» بالكثير، ومن صالحهم أن يقتنع الرجل، وهو (أي «كولين باول») يستطيع تأكيد أن «شارون على استعداد للتفاوض وليس له غير شرط واحد هو توقف العنف بطريقة لا لبس فيها بحيث يعرف المواطن الإسرائيلي أن «العنف انتهى دوره» !»

● وفي دمشق سأل «كولين باول» عن النشاط الذي دب فجأة في خط أنابيب بترول العراق بعد أن كان ساكناً أو نائماً لقرابة عشرين سنة - وكانت لدى «كولين باول» أرقام محددة عن بترول عراقي يضخ في الأنبوب السوري بالمخالفة لقرارات حصار العراق - وكان تلميحه واضحاً إلى أن ذلك قد يسحب إجراءات الحصار من الخليج إلى البحر الأبيض.

وعندما جاء ذكر البحر الأبيض مد «كولين باول» إصبعاً وضغط على موضع وجع سائلاً عن الوجود السوري في لبنان ؟ هدفه ؟ وكيف ؟ وإلى متى ؟ - ورأيه أن الخروج واجب، وأن البحث عن أسلوب لتنفيذه ضرورة لا تمانع الولايات المتحدة أن تساعد فيها حتى تستقر الأمور في لبنان ليمارس حياة طبيعية داخله، وعلى حدوده، ومع جيرانه !

وكانت إحدى إيماءات «كولين باول» قذيفة «موجهة» حين تساءل «كيف يمكن أن يعتبر «شارون» مجنوناً يصعب التعامل معه - في حين يعتبر «صدام حسين» «عاقلاً» يسهل التعامل معه ؟» !

وهنا كان ما استنتجه بعض سامعيه في دمشق من أن «باول» يعرض صفقة مجملها : «تساعد مع «شارون» إذا ساعدتم مع «صدام» !»

(وخرج «باول» من دمشق يقول «أنه حصل على وعد بنوع من الرقابة الأمريكية على أنابيب البترول ما بين العراق إلى شواطئ سوريا». وبعد عودته إلى واشنطن نقل عنه إحساسه بأن «المسار السوري» يمكن تحريكه لمفاوضات سلام بين سوريا وإسرائيل - وإذا حدث مثل هذا «الانفتاح» على المسرح السوري، فهو «يستطيع أن يرى انكشافاً إستراتيجياً على طول المسافة عبر العراق وإيران حتى باكستان وأفغانستان» ! - ومن دمشق لم يصدر أي تعليق، وهو ما يمكن فهمه لأن «دمشق» هذه اللحظة مشغولة بـ عملية تقييم» مؤثرة على خيارات وعلى مصائر !)

● وفي لقائه مع ممثلي السلطة الفلسطينية انتهز وزير الخارجية الأمريكي الجديد فرصة اللقاء لمحاضرة عن «وحدة القيادة».

بدأ فطالب بوقف العنف، ورد «ياسر عرفات» بأن «السلطة فعلت كل ما في وسعها لتهيئة أجواء مناسبة للمفاوضات، لكن «الطرف الآخر» لم يترك وسيلة لتعكير هذه الأجواء إلا انتهزها»، ورد الجنرال القديم بأن «إسرائيل تقول بشيء آخر، ولدى أجهزتها معلومات مفصلة عن تشجيع - بل وتدبير - لعمليات إرهابية تحرض عليها وتقوم بها عناصر من السلطة» - لكن الذي يشغله أكثر وينبغي أن يشغل «عرفات» كذلك هو «أنه على الجانب الفلسطيني لا توجد وحدة قيادة، فهناك قيادة «يفترض أنها» - ! - شرعية، ولكن هناك من ورائها ومن حولها «قيادات أخرى» تنازعها شرعية إصدار الأوامر، وذلك مخالف لأبسط مبادئ «القيادة والسيطرة»!»

وحدث موقف درامي في لقاء «كولين باول» مع «ياسر عرفات»، وكان ذلك حين طلب الجنرال الدبلوماسي من الرئيس الفلسطيني أن يأمر بوقف العنف - وعلا صوت «ياسر عرفات» وتهدجت نبرة عباراته إلى حد الدموع وهو يقول مرتجفاً : «تكلمني أنا عن وقف العنف ؟.. تطلب ذلك من القتيل ولا تطلبه من القاتل ؟!» - ثم راح «ياسر عرفات» يحصي عدد القتلى من الرجال والنساء والأطفال - والبيوت التي تهدمت - والمزارع التي خربت - والجرحى في المستشفيات - وكله إلى جانب اقتصاد ينهار، وسلطة تعجز عن دفع مرتبات موظفيها «بمن فيهم رجال الأمن وحتى حرس الرئيس» !

□

ومن الملاحظات اللافتة أن الجنرال «كولين باول» قام بتوجيه الدعوات لموسم زيارات الربيع لواشنطن وكأنه يريد أن يوحي لسامعيه بأفضلية تأجيلها :

— من ذلك مثلاً إلحاحه على أن الإدارة الجديدة لديها عمليات مراجعة ضرورية لكل أولوياتها في الداخل والخارج. وفي الداخل فإنه أشار إلى الاقتصاد الأمريكي وما جرى في «أسواقه المالية»، وأحدث هزة في المجتمع الأمريكي. وفي الخارج فإن «كولين باول» أشار إلى «الخلافات مع أوروبا» ومع «روسيا» ومع «الصين»، وهي خلافات ترجع إلى منافسات اقتصادية وسياسية - وإلى شكوك في مشروع شبكة الصواريخ المضادة للصواريخ الذي يتبناه الرئيس «جورج بوش» وتعمل له إدارته.

ـ ومن ذلك ما أضافه «كولين باول» بما معناه «أن الرئيس «بوش» (الابن) له أسلوب في التعامل مع القضايا يختلف عن أسلوب سَلَفه «كلينتون» ـ بل ويختلف عن أسلوب والده («بوش» الأب) ـ ومن اختلاف الأساليب أن الرئيس الجديد يُفضِّل أن تظلّ علاقته بالسياسات «علاقة توجيه» وليست «علاقة تنفيذ»، وهو عَزُوفٌ عن الدخول في التفاصيل، ويُضايقه أن يُحاول أحد إدخاله فيها، وهو على اعتقاد أن سَلَفه أخطأ في الدخول بنفسه إلى مُقترحات مُحدّدة حملت اسمه وتعلّقت بها «فاعلية» الرئاسة في الموضوع الفلسطيني. وقد وَقَعَ ذلك أثناء اجتماعات «كامب دافيد»، وتكرَّرَ في اجتماعات «شرم الشيخ» وغيرها ـ والرئيس «بوش» (الابن) يرى أن الأطراف وحدهم هُم الذين يجب أن يتوصّلوا إلى أية مُقترحات يريدون طرحها من خلال عملية التفاوض ـ ولذلك فإن الرئيس الجديد «ليست لديه مُقترحات يُقدّمها» و«لن تكون لديه مُقترحات يُقدّمها».»

ـ ومن ذلك أن الدبلوماسي كادَ أن يَختفي تماماً وراء الجنرال حينما وَصَلَ «كولين باول» إلى قوله «انه يتمنّى أن لا يكون من شأن أية زيارات عربية قادمة إلى واشنطن زيادة في التوقُّعات لا داعي لها، خصوصاً وهو يُلاحظ «فيما سَمَعَ الآن» أن خطر «العراق» و«صدام» ليس محسوساً في المنطقة بالقدر الكافي، في حين أن هناك تركيزاً أكثر من اللازم على «إسرائيل» و«شارون»!

ثم يَستطرد «باول» ليقول «إن قادة المنطقة مَرجُوّون إذا ذهبوا إلى واشنطن أن يأخذوا في اعتبارهم أن الإدارة الجديدة تنظر إلى المنطقة ككُلٍ واحد لا يتجزّأ، وأن سياستها فيها رَبطة كاملة من الخليج إلى البحر الأبيض، ولا يستطيع أحد أن يُركّز على «خطر» ويَنسى «خطراً» غيره، ولا أن يطلب من أمريكا أن تضغط هنا على طَرَف، وأن تُخفف هناك عن طَرَف غيره!»

□

وكان ذلك كله يَجري وذلك كله يُقال وهناك مؤتمر عربي على مُستوى القمّة على وَشك أن ينعقد في عمّان.

[وبرغم أنه عند كتابة هذه السطور لم تكُن القمّة العربية في عمّان قد انعقدت أصلاً ـ فإنه من الصَعب تَصَوُّر أن هذه القمّة ـ عندما تُعلن قراراتها ـ سوف تستطيع الخروج على السياق العام للحوادث كما هو جار الآن.

وبالتالي فإن «الأمر الواقع» بالفعل فَرَضَ قائمة أولويات مُختلفة!] ■

66 ٤ 99

وقفة سابقة
مع «الصديق السوفيتي»

■■ لو جاز لأحد أن يُفكّر من خارج القيود والحدود وعلى طريقة «عَواصف العقول» brain storming ـ فقد يَخطر بباله أن يُعرض على القيادات العربية التي حَضَرَت قمّة عمّان أو التي تَخلّفت عنها، وتلك المسافرة إلى واشنطن مع موسم الربيع، أو التي رأت تأجيل السَفَر ـ اقتراحاً بإعادة قراءة ومُراجعة فصل من تجربة الرئيس «أنور السادات». لعل قراءته أو مُراجعته أن تستعيد صدى صَيحة مشهورة له أطلقها سنة ١٩٧٢ ـ «عندما فاضَ به الكَيل» كما كان يقول ـ وإذا هو يُعلنها «وَقفة مع الصديق».

كانت «الوَقفة» أيامها مع «الصديق السوفيتي» ـ وربما أن صَداها الآن يَطرح إمكانية «وَقفة مع الصديق الأمريكي» ـ دون أن تكون «الوَقفة» بالضرورة من القاهرة. أو أن تكون «الوَقفة» من عاصمة عَربية واحدة ـ فهذا مَوقعٌ يَتّسع الآنَ لأكثر من طَرَف ويَحتاج أكثر من طَرَف لـ«وَقفة مع الصديق الأمريكي»!

والشاهد أن تلك «الوَقفة مع الصديق السوفيتي» سنة ١٩٧٢ (قبل قرابة ثلاثين سنة) كانت مُخاطرة ـ لكنها مُخاطرة حقّقت طلبها رغم المحاذير. والواقع أنه لولا هذه «الوَقفة» لكان من المتعيّن تأجيل معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ إلى ظرف آخر يَصعُب تقدير موعده ـ أو لكانت المعركة ـ في أكتوبر ١٩٧٣ ـ نوعاً من القُمار الأحمق مُؤدّياً إلى إفلاس مُؤكّد!

ومع أن الرئيس «السادات» أجرى تلك «الوَقفة مع الصديق السوفيتي» بطريقته الدرامية، وبأسلوب الصَدَمات الكهربائية ـ فإنه ليس من الضروري أن تكون «الوَقفة مع الصديق الأمريكي» بنفس الطريقة أو بذات الأسلوب.

لكن الواضح للعيان هذه اللحظة أن العلاقات العربية ـ الأمريكية لا تستطيع أن تُواصل المشي على «المسارات» الحالية ـ وإلا فإن مَنطقة الشرق الأوسط تكون مُقبلة على مَرحلة فيها «دولة واحدة مُستقلة» ـ هي إسرائيل!

ولعل الذاكرة الرسمية العربية تستطيع أن تستعيد فصلاً من تجربة «أنور السادات» ـ وليس من تجربة غيره ـ بدون حَرَج، لأن سياسات الرئيس «السادات» هي الأصل الذي ما زال مُعتَمَداً حتى الآن، تَدلُّ عليه الأفعال رغم التباين في الأقوال.

وفي التمهيد لاستعادة تلك الصفحة فقد يَستذكر القارئون والمراجعون أن العلاقات العربية ـ السوفيتية تلك الأيام، بالتحديد في الفترة ما بين سنة ١٩٦٧ وسنة ١٩٧٣ ـ كانت لها أهمية غير مَسبوقة وغير ملحوقة، لأنه في تلك الأيام كان الاتحاد السوفيتي أهَمَّ نصير دُولي لمطلب تحرير الأرض العَرَبية، وكان ـ وقتها ـ مَصدر السلاح الوحيد الذي يمكن للعَرَب ـ بالفعل ـ استعماله مع وسائل سياسية واقتصادية إضافية ـ لتحقيق مَطلب تحرير الأرض.

وفي تلك الظروف لم يكن السلاح مُجَرَّد وسيلة ضمن وسائل ـ لكنه كان المفتاح، وبغيره يَظَل الباب مُغلقاً دون تحرير الأرض ودون العُبور إلى مُستقبل ـ لأن استمرار احتلال الأرض كان ارتهاناً للمستقبل في أسر الأمر الواقع.

....

....

[وربما أجَرّب تحويل صَدى تلك «الوَقفة مع الصديق السوفيتي» إلى صوت ـ وإلى صورة أيضاً. فقد كنت تلك الأيام أقرَب الناس إلى الرئيس «السادات» (حسب وَصفه هو في حديث صحفي أدلى به ـ شهر سبتمبر ١٩٧١ ـ نُشِرَ وقتها على نطاقٍ واسع في مصر وفي العالم العربي) ـ ووقتها لم يكن ذلك الخلاف الذي قام بيننا حول دور السياسة بعد دور السلاح في مرحلة ما بعد أكتوبر ١٩٧٣ قد ظهَرَ بَعد واستحكم.

وفي ذاكرتي وأوراقي فإنه في ربيع سنة ١٩٧٢ كان الرئيس «السادات» في حالة تَوَتُّر تَعدّدت دواعيها :

١ ـ فيها تأخر وصول صفقات سلاح من الاتحاد السوفيتي جرى التعاقُد عليها فعلاً من قبل، وبعضها عقود تَحمل توقيع الفريق «عبد المنعم رياض» ـ أي أنها أواخر سنة ١٩٦٧ وسنة ١٩٦٨.

٢ ـ وفيها أنه ألَحّ في طلب ما كان يُسَمّيه «طائرة الردع» ـ ويقصد القاذفة المقاتلة بعيدة المدى من طراز «توبوليف ٢٢» ـ لكنه لم يَحصُل على رَدّ ـ في الغالب فإن السوفييت اعتبروا تَوريد هذه الطائرات لمصر «تَشجيعاً لتَهَوُّر مُحتَمَل» يَندَفع إلى ضرب العُمق الإسرائيلي (بذريعة الرَدّ على غارات إسرائيلية في العُمق المصري) ـ وكانت للسوفييت في ذلك حساباتهم، ومعظمها إزاء الولايات المتحدة.

٣ ـ وفيها شعوره بأن السوفييت يُقدّمون له «سلاحاً دفاعياً» وهو يُريد «سلاحاً هجومياً» (كذلك كانت رُؤيَته) ـ والنتيجة أنه غير قادر حتى على فعل عسكري مُؤثر ـ يَخلق أوضاعاً سياسية مُتوازنة.]

....

....

[وسافر الرئيس «السادات» مرات إلى موسكو، وفي مرات أخرى إستقبل بعضاً من القادة السوفييت في القاهرة ـ وفي كل مرة كان يطلب ويرجو، لكنه توَصَّل في ربيع ١٩٧٢ إلى أن «إخواننا» (على حسب تعبيره) جعلوا «أذناً من طين وأذناً من عجين»، وأنه لا بد من «هَزّة»، وكان ذلك وَصفه قبل أن يَتَوَصَّل إلى تعبير «وَقفة»!

إن «الهَزّة» بدأت بمشهَد لم يسبق له (أو يُلحَق به) مثيل في السياسة العربية المعاصرة، وقد جرى هذا المشهَد (٣١ مايو ١٩٧٢) قبل أسابيع من «الوَقفة» التي أدّت إلى طرد الخبراء السوفييت من مصر.

ولعل الرئيس «السادات» أراد «للهَزّة» أن تُمَهِّد «للوَقفة»، وأن تكون نوعاً من لَفت النظر إلى نفاد صبره. وقد قام بتأليف مَشهَد هذه «الهَزّة» وإخراجه وتمثيله بنفسه، وقد سمعتُ وقائعه منه مُباشرة وبحضور الفريق «محمد أحمد صادق»، وأشرتُ إليه كتابة (سنة ١٩٧٧) في حياة الاثنين : الرئيس «السادات» والفريق «صادق»!]

....

....

[وكانت بداية المشهَد أن الرئيس «السادات» عَرَفَ أن الماريشال «إيجور باتيسكي» قائد الدفاع الجوي السوفيتي يقوم بزيارة للقاهرة بدعوة من الفريق «محمد أحمد صادق» وهو وقتها وزير الدفاع المصري. واتصل الرئيس «السادات» بالفريق «صادق» يطلب أن يَتَضَمّن برنامج الماريشال السوفيتي لقاءً معه «لأنه يريد أن يَسمَع منه مباشرة عن حالة الدفاع الجوي المصري».

وبالطبع جرى ترتيب مَوعد للماريشال مع الرئيس، واستغرب الفريق «صادق» حين تم إخطاره بأن «الموعد في قصر عابدين»، وأن الماريشال السوفيتي «مَطلوبٌ فيه وحده»، أي بدون حضوره وهو مضيفه الرسمي، فضلاً عن أن موضوع المقابلة وهو «حالة الدفاع الجوي المصري» داخلٌ في اختصاصه كوزير للدفاع (بل إن الفريق «صادق» تَوَقَّع أن يُدعى معه اللواء «محمد علي فهمي» قائد الدفاع الجوي المصري).]

....

....

[ومساء نفس اليوم الذي وَقَعَ فيه اللقاء بين «الرئيس المصري» و«الماريشال السوفيتي» كنت على مَوعد مع الرئيس «السادات» في بيته، ودَخَلَ معي في نفس اللحظة الفريق «محمد أحمد صادق» الذي كانت عَصَبيّته بادية ـ وله الحق ـ بسبب استبعاده من مقابلة مع رَجُل هو ضَيفه، ولشأنٍ هو من صَميم اختصاصه.]

[وبدأ الرئيس «السادات» وَصفه لتفاصيل المقابلة بينه وبين الماريشال، وكنت أسمع في «شَغَف»، وكان الفريق «صادق» يَسمَع بنوع من «القَرَف»، لم يَستطع ذلك الجُندي الذي «مات مُحترقاً بالوَطنيّة» أن يُداريه.



رأى مســـتشارو الإدارة الأمريكيـــة الجـــديدة أن « أزمـــة الشـــرق الأوســـط لـم تبلـــغ بعـــد مرحـــلة النضـــج الضـــرورية لحـــلها ، وأن علينـــا ، تركهـــا للزمـــن يزيحهـــا إلـــى زوايـــا النســـيان »

كان رأى ريتشـــــارد هـــاس أن أزمـــة فلسـطين غيـــر قـــابلة للنضـــج من الأســـاس لأنهـــا تنطـوى. ضمـن عـوامل كثيرة. عـــلى مقـدســـات يصـــعب أن يكـــون لهـــا ، حل وسـط ،

وعلى نحـو ما فإن الرئيس «السادات» راح يَروى تفاصيل المشهَد ويؤدِّيه بطبَقات صوته وبتعبيرات وجهه وإشارات يَده، وبدا لى (فى بعض اللحظات) وكأنه يُحاوِل إغاظة وزير دفاعه .. وقد أحَسَّ بعَدم رضاه عن استبعاده من المقابلة.

وبدأت رواية «السادات» - وبالحرف تقريباً - وبزيادة التشويق قائلاً : «آه يا محمد .. لو أنك كنت معى».

[وكانت الملاحظة صالحة لاثنين يَسمَعان روايته وكلاهما يبدأ اسمه بـ : «محمد» (محمد أحمد صادق ومحمد حسنين هيكل)].

....

....

ويَحكى الرئيس «السادات» :

«قصَدتُ أن يكون اللقاء مع «باتيسكى» فى المقر الرسمى لرئاسة الدولة فى قصر عابدين، وكنت أريده وحده لكنه جاء ومعه السفير السوفيتى (فى مصر وقتها «فلاديمير فينوجرادوف») ومعه أيضاً كبير الخبراء السوفييت (فى الجيش المصرى وقتها الجنرال «فاسيلى لاشنكو») ومعهم المترجم «إيْاه» (يَقصد «اليكسى» المترجم الرسمى للسفارة السوفيتية وقتها). لم أستطع مَنع هؤلاء من دخول الاجتماع (ووَجَّه الكلام إلى الفريق «صادق») - وإلا تَحَوَّل اللقاء إلى أزمة (مُوَجِّهاً حديثه مرة أخرى إلى الفريق «صادق») - لو كنت أعرف لطَلَبتُك معهم - لكن ربما كان أفضل أنك لم تَحضر وإلا لوَجَدوا أنفسهم وَسَط فضيحة «بجَلاجِل» وعليها شاهد هو أنت بالذات !»

وبَدا الفريق «صادق» غير مُستريح فى مقعَده، وملامح وَجهه تَتكَلَّف أن تبدو طبيعية - ويُواصِل الرئيس «السادات» حكايته :

«قرَّرتُ أن تكون المقابلة فى قصر عابدين بأبَّهته الملكية - ورأيت أن أحضرها بالملابس العسكرية والعلامات على كتفى علامات القائد الأعلى للجيش المصرى - فيلد مارشال.

جَوُّ عابدين أثر على الثلاثة وهُم يدخلون عندى فى المكتب - وبدلة فيلد مارشال لفَتَت نظرهم بالتأكيد !

قلت للجميع «تفضلوا واجلسوا - اجلسوا - وقُمتُ معهم إلى صالون المكتب. رَحَّبتُ بالماريشال «باتيسكى»، وبعد أن جاءت القهوة وبدأ اللقاء «الجَدّ» قُمتُ من مكانى وسْطهم فى الصالون وذهبتُ وراء المكتب وجلستُ على مقعَده، وقلت لـ«باتيسكى» : «هل تعرف مَن أنا ؟»

«الراجل اتخبط» (كذلك روى الرئيس «السادات»، وسَجَّلتُ عنه - بَعدها - ما روَى). (يَستكمل الرئيس روايته) رَدَّ («باتيسكى») علىَّ باستغراب : «أنت الرئيس أنور السادات»!

قلت له : «غير صحيح - نَظَرُك ضعيف يا ماريشال» !

زادَت «الحيرة» على وَجه ماريشال الاتحاد السوفيتى وعلى وَجه «فينوجرادوف» (السفير) و«لاشنكو» (كبير الخبراء). وقلتُ له : «انظر إلىَّ جَيِّداً، مَن تراه أمامك ؟ وما هذا الرداء الذى ألبسه ؟» - لم يَفهَم «باتيسكى» قصدى، واعتدل بجسمه الضخم البدين فى مقعَده وقال : «لا أفهَم يا سيادة الرئيس - أنتَ الرئيس «أنور السادات»، وزِيُّك هذا هو زىُّ «ماريشال» إذا لم أكن مُخطئاً؟» !

ورَدَدتُ عليه وقلتُ : «نعم - أمامك ماريشال، ولكن ليس الماريشال أنور السادات .. دَقِّق النظر جيداً .. أمامك هذه اللحظة الماريشال جوزيف ستالين بنفسه بلَحمه وشَحمه» !

ونَظَر «باتيسكى» إلى رفاقه و«بُرج من عَقله على وشك أن يطير» ورَدَّدَ مُتسائلاً : «جوزيف ستالين .. كيف ؟ هو مات من زَمَن طويل ؟ و«أنت هو أنت» - قالها المترجم «سيادتكم هو سيادتكم»..»

ورَدَدتُ عليه بشِدَّة : «لا يا ماريشال باتيسكى. الماريشال ستالين هو الذى يُكَلِّمك الآن. لك أن تَعتَبر أن الماريشال الذى يُكَلِّمك الآن هو «جوزيف ستالين»، وهو يَطلُب منك ويأمُرك أن تنقل إلى موسكو الإسراع فى تَوريد سلاح الردع الذى طلبناه منكم و«نشف ريقنا» فى تِكرار الطلب، وأنتم لا تسمعون..»

(ويَستَطرد الرئيس «السادات») :

«فينوجرادوف نَبيه، «فِهِم الفولة» قبل أن يفهمها «باتيسكى» وقال لى ضاحكاً : «سيادة الرئيس، خَلَعت قلوبنا من الخوف ؟» - ورَدَدتُ عليه : «سوف أخلَع قلوبكم فعلاً إذا لم تَتلَقَّ منكم ما طلبناه من سلاح .. بَلِّغ موسكو بما سَمِعت الآن منى» !»

واصَلَ الرئيس «السادات» روايته :

«فكَّرتُه بالقديم والجديد - فكَّرته أن «لسانى اهترأ» وأنا أتكَلَّم مع الزعماء السوفييت الثلاثة.

بريجنيف (زعيم الحزب الشيوعى السوفيتى) كَلَّمتُه مائة مرة.

وبادجورنى (رئيس الدولة) كَلَّمتُه مائة مرة.

وكوسيجين (رئيس الوزراء) كَلَّمتُه مائة مرة.

قلتُ لهم جميعاً : «يا ناس أنا حليف إستراتيجى للاتحاد السوفيتى، لكنكم تتركوننى خطوة أو خطوتين إلى الوراء دائماً بعد إسرائيل - الأمريكان يَضمَنون لإسرائيل خطوة أو خطوتين قبلنا، وهذا يضعنا فى موقف صعب سوف يُؤثر علينا وعليكم».

بعد أن تَكَلَّمتُ مع كل الزعماء فى الاتحاد السوفيتى لم يَعُد أمامى إلا أن أجىء إليكم بـ«ستالين» - وها هو «ستالين» أمامكم يُكَلِّمكم. وأنتم تعرفون «ستالين» لا يَطلُب ولكن «يأمُر» - ولا يَنتَظِر ولكن «يَذبَح» !»

تَوَقَّف الرئيس «السادات» عن الرواية لأن صَوت قرينته السيدة «جيهان السادات» جاءنا من الردهة الخارجية للصالون الذى كنا نجلس فيه نَسمَع روايته - ثم دَخَل سكرتيره السيد «فوزى عبد الحافظ» يُقَدِّم إليه ورقة، وقام إلى خارج الصالون قائلاً «أنه سوف يعود فى دقيقتين» - وفور خروجه التفت الفريق «صادق» إلىَّ وسألنى : «هل هذا كلام جَدّ ؟ هل أعجَبَتكَ هذه التمثيلية ؟» - وحاولتُ أن أخفِّف عنه، ولم يَبدُ أننى أقنَعته كى يُفسِح صَدره للأسلوب ويُركِّز أكثر على المعنى. لكن الفريق «صادق» مَضى يُكَرِّر وعلامات التعَجُّب كلها على وَجهه : «ستالين إيه «ياعَم» .. هل مَعقول هذا الكلام ؟!» - ولم يَبدُ الفريق «صادق» سعيداً حين رَجَوتُه مرة أخرى أن يَتقَبَّل الرواية على علاتها، وأن يَنتَظِر حتى نرى «النتيجة».

وعاد الرئيس «السادات» إلى الصالون الذى كنا فيه (الفريق «صادق» وأنا) - وأحَسَّ بالغريزة أن هناك تَبايُناً فى «تقبُّل» روايته بين الفريق «صادق» وبينى. وكان تعليقه مُوَجِّهاً الكلام لى : «صادق عسكرى مَكوى بالنشا ولن يَفهَم «الدراما» فى الموقف الذى حكيته لكما - لكنك أنت سوف تَفهَم». وانتقلنا إلى موضوع آخر. ثم خَرَجتُ مع الفريق «صادق» وقد قاربَ الليل مُنتَصَفه، كلانا عائد إلى بيته، لكن الفريق «صادق» لم يَنسَ قبل أن يُفارقنى أن يَسألنى : «هل فهمت الدراما فى الموقف ؟» - ثم أضاف ساخطاً : «ستالين قال !!» - وكانت علامات «الغَم» مرسومة بخطوط ثقيلة على مَلامح وزير الدفاع المصرى والقائد العام للقوات المسلحة.

وكانت تلك بداية عملية طرد الخبراء السوفييت التى بَلَغَت ذروَتها بعد ذلك بخمسة أسابيع بالضبط !

....

....

وقد سَمِعتُ من الرئيس «السادات» بعد ذلك (ومُباشرة أيضاً) تفاصيل إبلاغ السوفييت بقراره طرد خبرائهم. وقد وَقَع هذا الإبلاغ أثناء لقائه بالسفير السوفيتى («فلاديمير فينوجرادوف») عندما استدعاه يوم ٩ يونيو ١٩٧٢.

....

....

والذى حَدَث أنه فى صباح اليوم التالى، كنت على شاطئ «المنتَزَه» بالإسكندرية، ودَقَّ جَرَس التليفون، والطالب هو السيد «فوزى عبد الحافظ» سكرتير الرئيس «السادات» يقول أنه سوف يُوَصِّلنى بالرئيس لأنه يُريد أن يَتحَدَّث معى. وجاءنى صوت الرئيس «السادات» بغير ما انتظرت. فقد تَوَقَّعتُ أنه سوف يعود مرة أخرى إلى إبداء عَدَم رضاه عن سلسلة من المقالات كنت أكتبها فى ذلك الوقت تَحت عنوان «حالة اللا سلم واللا حَرب»، وكنت قد ألمحتُ فى إحدى حلَقاتها إلى أن الاتحاد السوفيتى هو المستفيد الأول من حالة اللا سلم واللا حَرب، وشَرَحتُ أسبابى، ولم يكن

الرئيس «السادات» مُوافقاً على الطرح ولا على أسبابه. فقد ظلَّ على يَقين برغم إنذاره الدرامي للسوفييت عن طريق الماريشال «باتيسكي» بأنه إذا كان على العَرَب أن يُحاربوا فليس أمامهم مَصدَر للسلاح غير الاتحاد السوفيتي، ومن هنا فإنه لم يكن مُتحَمِّساً لأي «كلام في العَلَن» يُؤخَذ على مَحمَل «لوم السوفييت».

وبتحَسُّب مُسبق لانتظار ما سوف يقوله بادرتُه في التليفون - ونحن في يوم جمعة، ومقال «بصراحة» مَنشورٌ (كالعادة أسبوعياً) على الصفحة الأولى من عَدَد «الأهرام» الصادر يومها :

«أظن أن لديك مُلاحظة على ما كتبته اليوم؟» - وردَّ بأنه لم يقرأ المقال بَعد ! - ثم سألني : «ما الذي أخذك إلى الإسكندرية دون أن تَقول لي ؟» - ولم يَنتظر ردّاً وإنما واصَلَ كلامه : «يقولون أنك صحفي لا يَفوتك خَبَر ؟ سافرتَ إلى الإسكندرية وفات عليك خَبَر يُساوي نصف عُمرك ؟» - ولم يَنتظر وإنما استكمل : «تعال إلى عندي في القناطر وتغدَّى معي (في الساعة الرابعة بعد الظهر) وسوف تَسمَع ما فاتك» !

وفي الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر وَصلتُ إلى حيث كان في استراحة القناطر، وجلَستُ إليه أسمَع منه، ومُعظم تفاصيل القصة بعد ذلك مَعروفة، وقد نشَرتُ تفاصيلها من قبل، ونشَرَ غيري ما وَصَلَ إليهم منها.]

....

....

على أن الأهَمَّ من رواية التفاصيل في هذا الحديث هو استخلاص وتركيز الأسباب التي دَعَت الرئيس «السادات» إلى تلك «الوقفة مع الصديق السوفيتي» سنة ١٩٧٢ - وكانت تلك الأسباب كما رآها الرئيس «السادات»، وبكلماته تقريباً - على النحو التالي :

١ - أن الاتحاد السوفيتي «لا يُعطينا ما يَكفي لتحرير أرضنا». فهو يُعطينا بالقطَّارة، ونحن لا نستَجدي وإنما «نشتري»، وصحيح أننا نتأخَّر أحياناً في التسديد، لكن الصحيح أيضاً أننا في النهاية «ندفع» !

٢ - أن الاتحاد السوفيتي يَحجُب عنا «سلاح الردع»، وهذا يزيد طَمَع إسرائيل فينا إذ تَعلَم أنها «تطولنا» ونحن لا «نطولها».

٣ - أن القيادة السوفيتية لا تتفَهَّم ضرورات وحقائق موقفنا، وأسوأ الجميع هو رئيس الوزراء «اليكسي كوسيجين» الذي يَنعَكس في كلامه إعجاب خفي بإسرائيل - وبالتالي فهذه القيادة لديها مُشاعر نحونا لا بد من جلائها. ثم أنه على الناحية العقائدية في قيادة الحزب رجالٌ مثل «سوسلوف» (عُضو المكتب السياسي السوفيتي لشئون الحزب) ومعه مُساعدوه «باناماريف» و«مازاروف» - يَرونَ أن تعاون بلادهم معنا استثمار سياسي ضائع. وفي الحقيقة (يَظُن الرئيس «السادات») أن بين أعضاء اللجنة المركزية عَدَداً من اليهود يَعملون سِراً لصالح إسرائيل، ويَفتَحون معها اتصالات تحت الأرض رغم أن العلاقات الدبلوماسية بين موسكو وتل أبيب مقطوعة منذ سنة ١٩٦٧.

٤ - وأخيراً (يُضيف الرئيس «السادات») أنه فوجئ بالبيان المشترك الذي صَدَرَ بعد اجتماع الرئيس الأمريكي «ريتشارد نيكسون» والزعيم السوفيتي «ليونيد بريجنيف» في موسكو قبل ثلاثة أسابيع، وضايَقَته عبارة جاء فيها أن الطرفين اتفقا على ضرورة السَعي إلى حالة من «الاسترخاء العسكري» في الشرق الأوسط، وهذا معناه «أن الروس اتفقوا مع الأمريكان علينا».

....

....

[وعندما سمعتُ من الرئيس «السادات» ذلك السبَب الذي ضايَقَه في البيان الأمريكي السوفيتي حاولت لَفت نَظره إلى أن وَصف «الاسترخاء العسكري» جاء في سياق البيان لاحقاً ومُتَرَتِّباً على «الوصول إلى تسوية عادلة لأزمة الشرق الأوسط» - لكن الرئيس «السادات» أصَرَّ على أن الكلام «مائع»، ومع تَسليمه بأن ترتيب السياق كما شرحته له صحيح - فقد كان من الواضح أنه ليس على استعداد للوقوف الآن والتدقيق لأنه اتخذ قراره، وتصَرَّف فعلاً بمُقتضاه.]

....

....

والحاصل أيامها أن عَدَداً من مُستشاري الرئيس «السادات» وأصدقائه (وكنت بينهم) كانوا على مَعرفة بأسباب ضيقه، لكنهم (وبغير استثناء تقريباً) تَحفَّظوا على خطوَته التي بدت لهم «رَهاناً بكل الرصيد على المكشوف» (حسب وَصف مستشاره القانوني وقتها الدكتور «محمد عبد السلام الزيات»، وهو يومها في مَنصب نائب رئيس الوزراء) - وكان تَقدير الجميع (تَقريباً) أن ذلك «الرَهانَ» يمكن أن يُؤدِّي إلى خسائر فادحة - إلا أن الرئيس «السادات» ظلَّ على ثقة بأن مُناوَرَته ضرورية «حتى يَعرف رأسه من رجليه»، و«حتى نحسب حسابنا على نور».

وربما أن ذلك كان ما دَعا عَدَداً من كبار مساعديه - وبينهم (في تلك الأيام) رئيس وزرائه الدكتور «عزيز صدقي» ونائبه السيد «محمد عبد السلام الزيات» ووزير دفاعه الفريق «محمد أحمد صادق» (رغم حساسيته الشديدة للسوفييت) ووزير خارجيته الدكتور «مراد غالب» (وكان قبلها ولسنوات طويلة سفيراً في موسكو) واللواء «أحمد إسماعيل علي» (وهو وقتها مدير المخابرات العامة) - أن يبذلوا جهوداً خارقة للعادة كي يمسكوا بالزمام ويَحولوا دون قفزة إلى المجهول لا تُضمَن عَواقبها.

وهكذا سافر وفدٌ كثيف منهم إلى موسكو لجهد خارق تَحَوَّل به مَجرى الحوادث فعلاً - وعاد الوفد الذي رأسه الدكتور «عزيز صدقي»، ومعه برنامج تفصيلي ومُحَدَّد بطلبات سلاح سبق التعاقد عليها وتأخَّرَ توريدها، وهي الآن جاهزة للشحن، ومعها موافقة على طلبات جديدة قدَّمَها الوفد المصري إلى موسكو، وقد جَرى تحديد مواعيد نهائية مُتلاحقة لتسليمها في الإسكندرية.

ونجَحَت مُناورة «السادات» في «المقامَرة على المكشوف» بصرف النظر عما إذا كان النجاح رَهاناً مَضموناً من الأصل، أو أن سفر وفد مصري رفيع المستوى أنقذ الموقف في موسكو.

وفي كل الأحوال فإن تلك «الوَقفة مع الصديق» بأسبابها الموضوعية، ووقائعها المثيرة، و«مَشاهدها الدرامية» - أدَّت إلى توافُر «حَجم وقُدرة» السلاح الذي حَقَّقَ ما تَحقَّق في أكتوبر سنة ١٩٧٣ من أوَّله إلى آخره - ولم يكن هناك سلاحٌ غيره يستطيع مُحاربة إسرائيل - ولم يكن هناك غيره على الإطلاق في ميادين القتال !

١٩٧٢ - ٢٠٠١

والتاريخ لا يُعيد نفسه - لكنَّ الحقائق المتشابهة تخلق أحياناً ضرورات مُتقاربة.

والحاصل أن حقائق اليوم تجيء وكأنها عملية استنساخ لحقائق الأمس، وعلى نحوٍ شديد التشابه إلى درجة التماثل - وفي الغالب فإنه يَستدعي نوعاً من ردِّ الفعل يَأبَى الوقوف أسير سُكون تتآكل فيه المواقف بالضعف إلى حَدِّ السقوط - ولعله على نَحو ما يَستدعي - وإن بأسلوب مُختلف - «وَقفة مع الصديق الأمريكي» هذه المرة.

ولقد كانت حقائق الأمس مُثيرة للقلق وَسَط «حالة حرب» - وحقائق اليوم الجديدة «بالاستنساخ» وَسَط حالة سلم لا تثير القلق فقط - لكنها تُحَوِّل السلام إلى «إهانة» لا يَقِلُّ أذاها عن الوقوف على حافة الخطر، ذلك أن «حالة الخطر» فيها كرامة اليَقظة والتَحَفُّز - وأما «حالة الإهانة» فليس لديها غير الانكسار والهوان !

□

ولإعادة التأكيد فإن الدواعي الرئيسية لتلك «الوَقفة مع الصديق السوفيتي» سنة ١٩٧٢ - كانت ثلاثة :

- السلاح الذي نشتريه وندفع ثَمَنه - وعَدَم كفايته.

- والتفَهُّم الذي ننتظره من «صديق» - لكنه يَتلكَّأ في تناوُل الأمور ويَتسَكَّع.

- والشَكُّ في عناصر على مُستوى القيادة هناك أو في بعضها - ومَبعَثه ظنون حول وجود «يهود» هناك مُتعاطفين مع إسرائيل.

- وبَيانات وَقَّعَ عليها «الصديق» - أو شارَك في التوقيع عليها - وفيها «ميوعَة يَصعُب قَبولها».

وبقياس الدَواعي السابقة لـ«وَقفة مع الصديق السوفيتي»، مع الدَواعي المستَجَدَّة التي قد تَستَدعي «وَقفة مع الصديق الأمريكي» - فإن الفارق يُصبح مَهولاً !

١ - في موضوع السلاح - أولاً - فإن العَرَب الذين اشتروا السلاح السوفيتي والذين كان في مقدورهم - ولو نظرياً - استعماله لرَدِّ عُدوان إسرائيل أو توَسُّعها - كانوا ثلاث دُوَل : مصر وسوريا والعراق.

وفي الفترة ما بين سنة ١٩٥٥ - عند عُقد أول صفقة سلاح بين مصر والاتحاد السوفيتي - وحتى سنة ١٩٧٥ - حين ظَهَرَ ما أطلِقَ عليه في ذلك الوقت سياسة «تنويع مَصادِر السلاح» - بَلَغَت عقود التسليح بين القاهرة وموسكو ما قيمته ١٤٠٠ مليون روبل - أو نفس الرقم بالدولار - طبق سعر الصَرف الرسمي أيامها. وبَلَغَت قيمة ما سَدَّدَته مصر من قيمة هذه العقود نصف بليون فقط - وقد تَمَّ سَداد معظمه في إطار اتفاقيات دفع - أي أنه كان سلاحاً في مقابل سلع (ضِمنها قطن وأثاث ومُستحضرات تجميل !)

وفي نفس الوقت فإن سوريا تعاقدَت - حتى سنة ١٩٧٥ - على ما قيمته ٨٠٠ مليون روبل - سَدَّدَت نصفها تقريباً.

وتعاقد العراق - حتى سنة ١٩٧٥ - على ما قيمته ٦٠٠ مليون روبل (وكانت مُشترياته من السلاح - في تلك المدَّة - أكثر، لكن جزءاً منها كان من مصادر غير سوفيتية).

وفي السنوات الممتدَّة ما بين ١٩٥٥ إلى ١٩٧٥ - أي مسافة عشرين سنة - بَلَغَ حجم المشتريات العربية كلها من السلاح السوفيتي - وفق بيانات مَعهَد «سيبري» SIPRI السويدي الذي يَتَوَلى مُتابَعة نفقات التسليح في العالم - ما قيمته الإجمالية ٢٨٠٠ مليون روبل - أي ٢٫٨ بليون دولار بسعر الصَرف الرسمي وقتها.

وفي هذه السنوات العشرين خاضَ العَرَب وفي ترساناتهم وفي أيديهم هذا السلاح السوفيتي - حرب السويس سنة ١٩٥٦ - وحرب سيناء سنة ١٩٦٧ - وحَرب الاستنزاف من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٠ - ثم حرب أكتوبر ١٩٧٣.

أي أن السلاح السوفيتي - وَضَعَ في ترسانات العَرَب وفي أيديهم ما يُمكن أن يُقاتلوا به. وقد خسروا بعض معاركهم، وانتصروا في بعضها الآخر - على أنهم في

كل الأحوال لم يَستَسلموا - وإنما ظلوا على أقدامهم يُقاومون رغم أن جراحَهم كانت بليغة فى بعض الأحيان.

وقد تَطلّب الأمر «وَقفة مع الصديق» السوفيتى - بَدَت ضرورية عندما أحَسّ «السادات» بتَرَدُّد هذا «الصديق» فى توريد السلاح كَمّا ونوعاً، وعلى نَحوٍ «جَعَلَه خطوة أو خطوتين وراء إسرائيل» - حسب تعبيره.

مع «الصديق» الأمريكى فإن السلاح قِصَّةٌ غريبة وعجيبة - ومُحزنة أيضاً!

ذلك أنه طبقاً لتقارير مَعهَد «سيبرى» SIPRI السويدى نفسه - وآخرها تقريره عن سنة ٢٠٠٠ - بشأن التكاليف العسكرية فى السنوات العشرة الأخيرة فقط - فإن العَرَب دَفعوا فى شراء الأسلحة ما قيمته ٥٠٥٦٠٠ مليون دولار (أى مائتين وخمسين مَرّة تقريباً أكثر مما دَفَعوه فى السلاح السوفيتى على مَدى عشرين سنة وأربع حروب آخرها أكتوبر ١٩٧٣!) - والعُقود فى غالبيتها الساحقة أمريكية والدَفع فورى وأحياناً مُقَدَّماً، والدليل أن نصيب السعودية وحدها فى هذه العقود ١٨٤٠٠٠ مليون دولار. ثم إن تقرير مَعهَد «سيبرى» يُلاحظ أنه لم يَجد أرقاماً يَتَحَمّل مسئولية نَشرها فى تقاريره عن مُشتريات السلاح فى ثلاثة بُلدان عربية هى: العراق - وليبيا - وقطر (!).

ومن المفارقات اللافتة للنظر أن حجم مُشتريات «سَلطَنة عُمان» من الأسلحة (طبقاً لتقرير مَعهَد «سيبرى») عن سنة ١٩٩٩ وحدها تبلُغ قيمته ١٦١٤ مليون دولار، وهو مَبلغ يُساوى ضِعف ما دَفَعَته مصر وسوريا من السلاح السوفيتى طوال الفترة من سنة ١٩٥٥ إلى سنة ١٩٧٥ - (على مَدى عشرين سنة وأربع حُروب آخرها أكتوبر ١٩٧٣).

يَزيد على ذلك أن السلاح العَرَبى الحالى لا يبدو من مُجمَل ما تقوله - وتَتَصَرّف به - السياسة العَرَبية الراهنة - كافياً أو مُستَعِداً - وذلك كلام مَسموعٌ بالتصريح وبالتلميح، ومَنشورٌ عَلَناً ومَنسوباً إلى مسئولين كبار - وبرغم ذلك لا يَتَوَقّف أحد ليَسأل ويَتَساءل، ولا يُفَكّر أحد فى أن تلك كلها دَواعٍ لـ«وَقفة مع الصديق الأمريكى» سنة ٢٠٠١ - تُستَلهم - وليس بالضرورة تُكَرّر - تلك «الوَقفة» التى اتخذها «أنور السادات» مع «الصديق السوفيتى» سنة ١٩٧٢!!

(والقضية ليست قضية سلاح يُساق إلى مَيادين القتال، ولكن القضية بالدَرَجة الأولى قُدرات لها مصداقيّة إلزام كل طَرَف بحَدّه!)

□

٢ - بين الأسباب الرئيسية التى دَعَت «أنور السادات» إلى «وَقفة مع الصديق السوفيتى» - وهذا هو السبب الثانى بينها - «التَلَكُّؤ فى تَناوُل قضايانا والتَسَكّع فى فهمها!



ربما كان مفيداً أن نتذكر أن الوقفة مع «الصديق السوفيتى» قبل ثلاثين سنة كانت مخاطرة.. لكنها مخاطرة حققت طلبها رغم كل المحاذير

لا أحد يطلب أن تكون «الوقفة مع الصديق الأمريكى» من نفس عيار تلك التى كانت مع «الصديق السوفيتى».. إلا أن دواعى الأمن القومى والاستقلال - وحتى الكبرياء الوطنى - تفرض أنه فى لحظة ما - بوسيلة ما - بأسلوب ما - لابد من «وقفة مع الصديق الأمريكى»

ومن المفارقات أنه كان يُقال للعَرَب باستمرار:

- «إن الولايات المتحدة لن «تُساعد» ما «دُمتُم» أصدقاء للسوفييت». وقد انتهت الصداقة العَرَبية السوفيتية - ولم يَعُد هناك اتحاد سوفيتى من الأصل - بل إن العَرَب شاركوا عَمَلياً فى سُقوطه (وتلك قصة أخرى مثيرة).

- وأن الولايات المتحدة لن «تسمَع» منهم ما داموا «مُصرّين على إلقاء إسرائيل فى البحر» - ومع أن مَقولة «إلقاء إسرائيل فى البحر» لم تَرِد على لسان مسئول عَرَبى واحد - فإن الولايات المتحدة واصلَت الادّعاء بها، برغم أن بعض العَرَب وَصلوا إلى اعتبار ٩٩٪ من أوراق الحَل فى يَد الولايات المتحدة، كما وَصلوا جميعاً - تقريباً - إلى اعتماد السلام «خِياراً إستراتيجياً» لا رَجعَة عنه - وبالفعل فإنهم مارسوا ذلك الخيار الإستراتيجى فى وَضح النهار على امتداد طريق طويل - واصل من أسوان إلى واشنطن، ومن كامب دافيد إلى أوسلو. (هذا غير ما يَجرى على طُرُق أخرى تحت جُنح الظلام!)

وبالزيادة على ذلك فإن النُظُم العَرَبية نَزَلت بالصراع العَرَبى الإسرائيلى دَرَجات، فلم يَعُد الصراع صراعاً، وإنما تَنازَل ليُصبح «مشكلة» - ولم تَعُد المشكلة عَرَبية - إسرائيلية، وإنما تَنازَلت لتُصبح «فلسطينية» - إسرائيلية - ثم تَدَهوَرت أحوالها فلم تَعُد «قضية»، وإنما أصبَحَت «عُنفاً» لا بد من وَقفه قبل الجلوس إلى مَوائد الدبلوماسية من جديد بعد سنوات من الدبلوماسية قديمة وعقيمة تَوَصّل بعضها إلى اتفاقيات وَضَع «الصديق الأمريكى» توقيعه ضماناً لها!

ثم كانت مُحَصّلة ذلك كله أن وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية - «الدبلوماسى الجنرال» - جاءهُم سنة ٢٠٠١ ليطلّ على المنطقة وهى تَستَعد لمؤتمر عَرَبى على مستوى القمّة - لإبلاغ من يلقاهُم: «أن عَدوّهُم هناك فى بغداد وليس هنا فى تل أبيب»!

ومع ذلك لا يَحدُث شىء - ويَبدأ موسم الربيع فى واشنطن ولا يَخطُر على بال أحد أنها الآن بالضرورة لا بُدّ أن تكون «وَقفة مع الصديق الأمريكى» سنة ٢٠٠١ - مثلما كان مع «الصديق السوفيتى» سنة ١٩٧٢!

□

٣ - تجىء - ثالثاً - مسألة الاشتباه فى وجود تأثير يهودى على قرار «الصديق السوفيتى».

وكان ذلك التأثير اليهودى الذى لَمَحَه الرئيس «السادات» - ومعه الملك «فيصل» مَلك السعودية وقتها - نوعاً من الظنون والرِيَب.

لكنه فى حالة «الصديق الأمريكى» - فإن التأثير اليهودى على واشنطن تَجاوَز الظنون والرِيَب ليُطالِع الجميع بحقائق لا تَحتَمِل الإنكار!

وعلى سبيل المثال فقد قيل -! - أن «بيل كلينتون» كان أكثر رئيس أمريكى فى تاريخ الولايات المتحدة - اهتم بأزمة الشرق الأوسط، وكَرّس أكبر جهد لحلّها، وشارك بنفسه فى تقديم مُقترحات لفكّ عُقَدِها، وكان وجوده فى البيت الأبيض فرصةً ما بعدها فرصة - لكن الحقيقة أن قائمة اليهود فى القيادة العليا الأمريكية فى عهد «كلينتون» لابد لها أن تُلفت النظر، وتُخَفّف ولو قليلاً من حماسة المُتَحَمّسين لـ«كلينتون» ومُقتَرَحاته. وفى القائمة مَثَلاً وعند المستوى الأعلى:

«مادلين أولبرايت» وزيرة الخارجية - «روبرت روبين» وزير الخزانة - «ويليام كوهين» وزير الدفاع - «جورج تنيت» مدير المخابرات المركزية الأمريكية - «صمويل بيرجر» مُستشار الرئيس للأمن القومى - «رَهم إيمانويل» كبير مُستشارى الرئيس - و«جون بودستا» رئيس أركان البيت الأبيض - «آلان جرينسبان» رئيس بنك الاحتياطى الفيدرالى - «إيفلين ليبرمان» المشرف على الإذاعات الخارجية بما فيها صوت أمريكا - «سوزان توماسيس» كبيرة مُساعدى «هيلارى كلينتون».

وهناك قوائم بكبار المسئولين اليهود فى الإدارة الأمريكية تشمل مئات من رؤساء الوكالات، ومساعدى الوزراء، ورؤساء الإدارات، ومديرى الهيئات. هذا غير السفراء فى وزارة الخارجية، حيث تَذكُر أوراق الخارجية الأمريكية نفسها أن سُفراء الولايات المتحدة فى ألمانيا - وفرنسا - وبولندا - والدانمرك - وهنجاريا - ورومانيا - وبلجيكا - وبلاروس - وجنوب أفريقيا - والهند - وتركيا - ونيوزيلندا - ومصر - وإسرائيل - والسويد - والمغرب - وسنغافورة - وزامبيا - والبرازيل - والمكسيك - وكندا - وكوبا - والنرويج - وسويسرا - جميعاً من اليهود، وفوقهم السفير «دنيس روس» المسئول لأكثر من عشر سنوات عن إدارة «مسيرة السلام» فى الشرق الأوسط!

ويَستوجب التأمُّل والدَرس أنه فى مؤتمر «كامب دافيد» سنة ١٩٧٨ (الذى حضره الرئيس «السادات» مع الرئيس «جيمى كارتر» لم يكن فى الوفد الأمريكى غير يهودى واحد هو «صَموئيل لويس» (سفير الولايات المتحدة فى إسرائيل)، وبَقيّة الأعضاء مسيحيون.

وفى «كامب دافيد»

كتاب الزاوية

عمارة الفقراء

وُلد حسن فتحى فى عام ١٩٠٠ لأسرة من ملاك الأراضى، وتخرج فى مدرسة المهندسخانة عام ١٩٢٥، وسافر إلى باريس حيث درس الفنون الجميلة، وعاد إلى مصر ليصبح أول معيد مصرى فى كلية الهندسة، ثم عين رئيسًا لقسم العمارة بكلية الفنون الجميلة عام ١٩٥٣.

وحصل على جوائز عديدة بينها جائزة الدولة التقديرية فى الفنون والعمارة عام ١٩٦٩، وجائزة الأغاخان للعمارة عام ١٩٨٠.

توفى حسن فتحى عام ١٩٨٩.

والفقرات التى نعرض لها من كتابه «عمارة الفقراء» الصادر بالإنجليزية وترجمه للعربية مصطفى إبراهيم فهمى.

١ - العمارة والتراث

العمارة مازالت من أكثر الفنون تعلقًا بالتراث، وعمل المهندس المعمارى يقصد به أن يتم استخدامه، وشكل العمل يتحدد إلى حد كبير بما سبقه، وهو يقام أمام الجمهور حيث يجب أن يراه أفراده كل يوم. وينبغى أن يحترم المهندس المعمارى أعمال سابقيه ويحترم إدراك الجماهير وذلك بألا يستخدم معماره كوسيلة للإعلان الشخصى. والحقيقة أنه ما من معمارى يستطيع تجنب استخدام عمل المعماريين السابقين له؛ ومهما كان ما يبذله من جهد جريا وراء الأصالة، فإن الجزء الأكبر من عمله يكون إلى حد بعيد منتسبًا إلى تراث أو آخر. فلماذا ينبغى إذن أن يزدرى تراث بلده هو نفسه أو منطقته. ولماذا ينبغى أن يجر تراثًا أجنبيًا فى تركيبات مصطنعة وغير مريحة.



لماذا أصبح مستحيلا سنة ٢٠٠١ (مع الصديق الأمريكى) ما كان ممكنا حتى سنة ١٩٧٢ (مع الصديق السوفيتى). أو شىء منه؟

الفلسطينية («كلينتون» و«ياسر عرفات» سنة ٢٠٠٠) كان الوفد الأمريكى كله يهوداً إلا مسيحى واحد هو «بيل كلينتون» نفسه !!

وفى سنة ١٩٧٢ فإن الرئيس «السادات» حين ساوَرَته شكوك فى تأثير يهودى على القادة السوفييت الملحدين - جَعَلَها «وَقفة مع الصديق». وفى سنة ٢٠٠١ والشكوك حقائق ثابتة، واليهودية فى الحالة الراهنة ليست مُجَرَّد ديانة وإنما هى صهيونية لا تُدارى هَواها ولا وَلاءها - ومع ذلك فإن أحداً لا يَجدها داعية «لوَقفة مع الصديق» !

وربما أن هذه النقطة تتَّسع لملاحَظة ضرورية - داعيها تَصَوُّرٌ له أنصاره يَرى أن هذا العَدَد من اليهود الذين كانوا فى إدارة «كلينتون»، والذين كان مُحتمَلاً أن يزيد عَدَدُهم أكثر لو أن «آل جور» فاز بالرئاسة - عَهدٌ مضى وانتهى حسابه لأن «جور» سَقَط، ونَجَحَ بَدَلاً منه «جورج بوش» (الابن) الذى لا يُوجَد فى إدارته وزير يهودى - هكذا يُقال -! - لكن هذا التَصَوُّر يَنسى فارقاً أساسياً بين التأثير اليهودى على الحزب الديمقراطى - وذات التأثير على الحزب الجمهورى.

والواقع أن كلا الحزبين مَفتوحٌ لإسرائيل وعليها بنفس الدَرَجة الحَميمة.

● لكن الحزب الديمقراطى مَفتوحٌ لها وعليها عن طريق يهود الولايات المتحدة (وبينهم مَن هو محسوب على اليسار الليبرالى المعتدل) - ولذلك فإن وجودهم فى واشنطن يَظهَر ويَملأ مساحة كبيرة من الصورة مع أى رئيس ديمقراطى هناك.

● والحزب الجمهورى مَفتوحٌ لها وعليها مُباشرة عن طريق الدور الإستراتيجى لإسرائيل فى الشرق الأوسط - ولذلك فإن الوجود اليهودى فى واشنطن قد لا يَبدو ظاهراً، لكنه يَملأ مساحة كبيرة من خريطة المنطقة هنا فى الشرق الأوسط.

أى أنه اختلاف فى طُرُق الاقتراب من واشنطن لإسرائيل فى حالة - أو من إسرائيل إلى واشنطن فى الحالة الثانية، وفى الحالتين فإنه ليس زيادة أو نقصاً فى التأثير. ويكفى للبُرهان على هذه الحقيقة استعادة تَوَجُّهات الحوار الرئاسى - والذى كان بمثابة افتتاحية لإدارة «بوش» (الابن)، وبمُقتضاه تَغَيَّرَت أولويات الشرق الأوسط، وضمنها : تَصعيد بَند العراق - تَنزيل بَند فلسطين - وإعلان التغيير بضرب بغداد. ومن هنا - على حسب تعبير «بول وولفويتز» - «يكون على العَرَب أن يَسألوا، وعلينا أن نُجيب بأنه تغيير فى الأولويات وليس أمامهم غير قُبوله» - وبالفعل فإن العَرَب سَمعوا من الجنرال «كولين باول»، وسألوه، وأجاب - وكان الرَجُل واضحاً على غير عادة «الدبلوماسية»، وكان قاطعاً على عادة «السلاح» !

□

كل ذلك وليست هناك «وَقفة مع الصديق الأمريكى» - ولا تَفكير فى «وَقفة» بصورة أو أخرى - ولا أحد يَطلُب أن تكون «الوَقفة مع الصديق الأمريكى» - من نفس عيار تلك «الوَقفة مع الصديق السوفيتى» - لأن واقع الحال لم يَعُد يَسمَح (فى وقت «السلم») ! - بذلك «النوع» من «حَقّ القرار» الذى مارَسَه العَرَب يوماً (وَسَط «الحَرب») - ومع ذلك فإن دَواعى الأمن القومى والاستقلال - وحتى الكبرياء - الوَطنى - تَفرض أنه فى لحظة ما - بوَسيلة ما - بأسلوب ما - لا بُدَّ من «وَقفة مع الصديق الأمريكى» !

وإذا لم يَحدُث ذلك - وعلى الأرجح لن يَحدُث - فربما كان على كل مُواطن عَرَبى أن يَسأل نفسه :

لماذا أصبح مُستَحيلاً سنة ٢٠٠١ (مع الصديق الأمريكى) - ما كان مُمكناً حتى سنة ١٩٧٢ (مع الصديق السوفيتى) - أو شىء منه ؟

وماذا جرى ؟ ومتى جرى ؟ وكيف جرى ؟

ثم - إلى أين من هُنا ؟! ■



Flight
Departures
Arrivals
EF025 ENGLAND
EF001 HONGKONG
EF254 YEMEN
EF261 NEWYORK
EF255 SAUDI ARA.
EF013 KUWAIT
EF225 JORDAN
EF420 EGYPT
EF540 SPAIN
QATAR
EGYPT
ETHIOPIA
JORDAN
BOTSWANA
KENYA
NAMIBIA
MOROCCO
ZIMBABWE
EFG - Hermes

كيف يمكن فهم شارون

المرحلة والسياسة والمستقبل

عزمي بشارة

■■ عندما نناقش ما يجرى فى إسرائيل يتنازعنا كما يتنازع الفكر السياسى العربى فى مراحل ترديه توجهان ينفى أحدهما الآخر بشكل مجرد ودون تفاعل جدلى او حوارى:

١ ـ يتعامل التوجه الأول مع السياسة الداخلية الإسرائيلية كانها العامل السياسى المركزى فى المنطقة، وكان مصير المنطقة يرتبط بانتقال بضعة آلاف من الأصوات من هذا المعسكر السياسى الإسرائيلى إلى ذاك. ويقزم هذا التوجه أهمية الاستراتيجيات العربية بل يغيبها، كما يسئ استخدام نداثنا الدائم للعرب لدراسة إسرائيل والمجتمع الإسرائيلى. أما فى أجواء الانتخابات الإسرائيلية ذاتها فتغيب الأخبار العربية تماماً ويسيطر هذا التوجه بشكل محبط على وسائل الإعلام العربية وخاصة الفضائيات التى تخلط التركيز على الموضوع مع الجهل به، محولة أى صحفى إسرائيلى يتقن العربية وأى نائب عربى فى الكنيست إلى محلل بل إلى مصدر مطلع على السياسة الإسرائيلية.

٢ ـ يتعامل التوجه الثانى مع الصراع السياسى والاجتماعى داخل الدولة العبرية كانه مجرد مؤامرة وتوزيع أدوار. وفى حين يحول الاتجاه الأول أى تفصيل عن الصراعات الشخصية داخل هذا الحزب الإسرائيلى أو ذاك إلى قضية كبرى، يعتبر التوجه الثانى حتى الصراعات الكبرى التى يعيشها المجتمع الإسرائيلى مجرد تمثيلية. والحقيقة انه يدور فى المجتمع الإسرائيلى صراع طبقى واقتصادى واجتماعى وثقافى كما يدور فيه صراع على السلطة.

فالصراع بين «معسكر اليمين ومعسكر اليسار» فى انتخابات رئاسة الحكومة الإسرائيلية هو أولاً وقبل كل شىء صراع بين نخب سياسية واجتماعية على السلطة وليس على القضية الفلسطينية ـ ويدور هذا الصراع على السلطة ضمن قواعد لعبة سياسية ديمقراطية متفق عليها وعلى عدم خرق قواعدها، كما يدور ضمن إجماع محدد على بديهيات سياسية مثل: ١) يهودية الدولة ٢) محورية سياسة الأمن وتقوية الجيش ٣) محورية العلاقة مع الولايات المتحدة ٤) محورية التنمية الاقتصادية وإقامة اقتصاد سوق متطور بشكل يتناسب مع التوزيع الديمجرافى لليهود فى الدولة ٥) أهمية تشجيع الهجرة واستيعاب المهاجرين اليهود ٦) رفض حتى العودة للاجئين الفلسطينيين، وهو يندرج فى الواقع ضمن البديهية الأولى ٧) رفض السيادة العربية فى القدس ٨) رفض إزالة كتل الاستيطان الأساسية.

ولكن الصراع على السلطة يتم أيضاً عبر تنافس توجهات سياسية مختلفة ضمن هذه البديهيات حول حجم «التنازلات» المطلوبة من إسرائيل لتحقيق سلام مع العرب بشكل يضمن الاعتراف بإسرائيل وبحاجتها الأمنية، وعبر تنافس متعلق بالموقف من العلاقة بين الدين والدولة ـ ولكن يجب الا ننسى أنه صراع على السلطة بين نخب ذات أصول اجتماعية مختلفة او ذات أصول فى تقاليد سياسية مختلفة يعود عهدها إلى الجماعة اليهودية السكانية المنظمة فى فلسطين قبل عام ٤٨ «اليشوف».

كانت هذه ملاحظة سريعة وضرورية. ولأننا لن نقوم ببحث هذه القضايا فى هذا النص، فإننا لا نريدها أن تكون غائبة عن الأذهان أثناء مراجعة سقوط باراك.

> **كما أن الصراعات الشخصية داخل هذا الحزب الإسرائيلى أو ذاك ليست قضية كبرى، فإن الصراعات الكبرى التى يعيشها المجتمع الإسرائيلى ليست مجرد تمثيلية**

[١]

ويبدو لأول وهلة أن الصراع الدائر على السلطة والذى عبر عنه فى الانتخابات الإسرائيلية عام ٢٠٠١ هو استمرار لذات الصراع المعهود بين اليسار واليمين، أو بين حركة العمل الصهيونية من جهة وبين تيارات اليمين المختلفة التى التقت فى ليكود عام ١٩٧٧ والقيادات الدينية الأقرب إلى التحالف مع معسكر اليمين من جهة أخرى. ولا شك بصحة هذا الانطباع الأولى ولكنه لم يعد كافياً لفهم ما يدور فى إسرائيل، خاصة أن العناصر الجديدة فى الصورة السياسية الإسرائيلية بدات تطغى على العناصر القديمة.

فالمهاجرون الروس مثلاً ويشكلون خمس سكان الدولة العبرية يعيشون صراعاً بين نزعتين: تؤكد الأولى على اهمية نمط الحياة العلمانى مقابل قدرة الأحزاب الدينية على الإملاء فى حكومة يمينية تتبوأ فيه الأخيرة منصب وزير الداخلية مثلاً، وبين نزعة علمانية هى الأخرى ولكنها تضع قضية «أرض إسرائيل» والصراع مع العرب فى المرتبة الأولى لتحصد أصوات الناخبين الروس الذين يميلون إلى التشدد فيما يتعلق بالصراع وإلى رؤية مسطحة للصراع مع العرب كصراع بقاء فى وطنهم الجديد.

تبدى قيادة الأحزاب الروسية موقفاً سياسياً يمينياً فى قضايا الصراع العربى الإسرائيلى منسجماً مع خيال جمهور لا يعرف إسرائيل فى حدود الرابع من حزيران عام ١٩٦٧ ويبدى دهشته من وجود عرب فى البلاد ويتعرض بسهولة للتعبئة القومية الإثنية الطابع. ولكن الجمهور الروسى أقل تشدداً من قيادته لأن جدول حياته اليومى يكتظ بجدول أعمال لا علاقة له بـ« أرض إسرائيل الكاملة»، وإنما بقضايا الدين والدولة والاندماج فى المجتمع الإسرائيلى والسياسات الاقتصادية والاجتماعية.

الصورة مقلوبة عند حركة شاس حيث تبدى القيادة السياسية موقفاً أقل تشدداً فى القضايا السياسية وأكثر تشدداً فى قضايا الدين مقابل قواعدها الجماهيرية التى تميل إلى الإصغاء لديماجوجية اليمين سياسياً، وهى أى القواعد الجماهيرية أقل تشدداً فى قضايا الدين من قيادتها الأرثوذكسية الطابع والمتاثرة بالمدارس الدينية الشرق أوروبية.

جمهور حركة شاس هو جمهور شرقى من ذوى الدخل والثقافة المحدودين، تقليدى اجتماعياً ومعرض لديماجوجية اليمين سياسياً. وقيادة شاس مضطرة إلى دعم مرشح اليمين لرئاسة الحكومة وإلا فقدت قطاعات كبيرة من جمهورها قد يحرضها اليمين ضد قياداتها الحزبية الانتهازية. ولذلك فهى غالبا ما تلجا إلى الديماجوجية القومية ايضا . لقد افشلت شاس (ومعها الأحزاب العربية) عملية حل الكنيست واصرت على إجراء انتخابات لرئاسة الحكومة وحدها لأنها خشيت أن تفقد عدة مقاعد نيابية لصالح الليكود، وخاصة أن موضوع الانتخابات هو القضية الفلسطينية، وما دامت الانتخابات تتمحور حول الموضوع السياسى فإن قسماً من مصوتى شاس يعود إلى أحضان الليكود.

لقد حاولت الأحزاب العربية حينه تبرير تصويتها ضد حل الكنيست بضرورة منع نتنياهو من المنافسة، فقد اشترط الأخير ولوجه المعركة الانتخابية بحل الكنيست وإجراء انتخابات نيابية. وتبين فيما بعد أن عدم حل الكنيست لم يجلب الفائدة لباراك بل بالعكس فقد تفوق عليه شارون بسرعة، كما

تبين أن انتصار باراك عام ١٩٩٩ لم يتم بجهوده الشخصية فحسب وإنما كان أيضاً حصيلة تجند قوى وأحزاب عديدة للانتخابات البرلمانية - وهذه الأحزاب لم تتجند في معركة انتخابات رئاسة حكومة مباشرة دون أن تجرى انتخابات للكنيست. وبذلك تورط باراك في مباراة شخصية ومنافسة فردية لا يمكن أن ينتصر فيها، فذاكرة الناس قصيرة تتذكر أخطاءه وتميل إلى نسيان ماضي شارون.

لقد خسر باراك عندما استهل فترته في السلطة بمواجهة مع حزبه ، حزب العمل، أدت إلى تآمر أقطاب هذا الحزب عليه في الكنيست وفي الائتلاف وإلى خلق مناخ إعلامي غير ودود. ثم خسر باراك عندما جعلت حركة ميرتس معركتها الأساسية مع شاس وليس مع اليمين (وهؤلاء من اليسار الصهيوني الذين عينوا أنفسهم أوصياء على العرب ينصحون الوسط العربي حالياً بضرورة التركيز على المعارك الرئيسية مع اليمين)، ثم خسر باراك عندما حاول أن يفرض على معسكره العلماني تنازلات للأحزاب الدينية بدا بعدها عديم المصداقية. وخسر باراك خسارته الكبرى عندما حاول أن يفرض تصوره للسلام الدائم بموجب جدول مواعيد أعد سلفاً، وعندما تعامل مع المواطنين العرب كأنهم في جيبه وكأنه لا خيارات أمامهم سوى خيار حزب العمل.

يتلخص مغزى انتصار شارون في السطر الأخير باستمرار التحول التدريجي نحو اليمين في المجتمع الإسرائيلي، ويعتقد بعض علماء الاجتماع الإسرائيليين أن العملية ذات أصول ديموجرافية، وهي إذاً عملية حتمية تستند إلى ازدياد نسبة المصوتين المتدينين والشرقيين من بين المواطنين نتيجة لارتفاع نسب الولادة لديهم. وبما أننا لا نؤمن بعقليات جوهرانية في السياسة تكرس يمينية المتدين أو الشرقي ، وبما أننا نرى أن المهاجرين الروس (وهم غربيون في القاموس الإسرائيلي) لا يقلون يمينية في نزاعاتهم السياسية عن القطاعين المذكورين، فإننا لا نقبل هذا الشرح للتحول المستمر نحو اليمين إلا كوصف لحالة مؤقتة.

لقد طرأت على المزاج السياسي الإسرائيلي ردة فعل يمينية عصبية على الانتفاضة وانهيار ما صور إسرائيليا على أنه نهج السلام، والمقصود بالطبع سياسة حزب العمل. ولكن هذا لا يكفي لتفسير وصول شارون إلى رأس السلطة في الدولة العبرية، وكنا في حينه قد رفضنا فكرة أن انتصار باراك في انتخابات آيار ٩٩ هو انتصار لليسار ، ولذلك فنحن لا نقبل مقولة تذبذب مزاج المجتمع الإسرائيلي من اليسار إلى اليمين.

لقد انتصر باراك في حينه على نتنياهو وليس على اليمين لأن الانتخابات تحمل طابعاً تنافسياً شخصياً أيضاً. وقد تأزمت مرحلة نتنياهو بفعل :

١ - جمود العملية السياسية وما أدت إليه من جمود اقتصادي وانخفاض في معدلات النمو مقارنة بالمرحلة التي سبقتها.

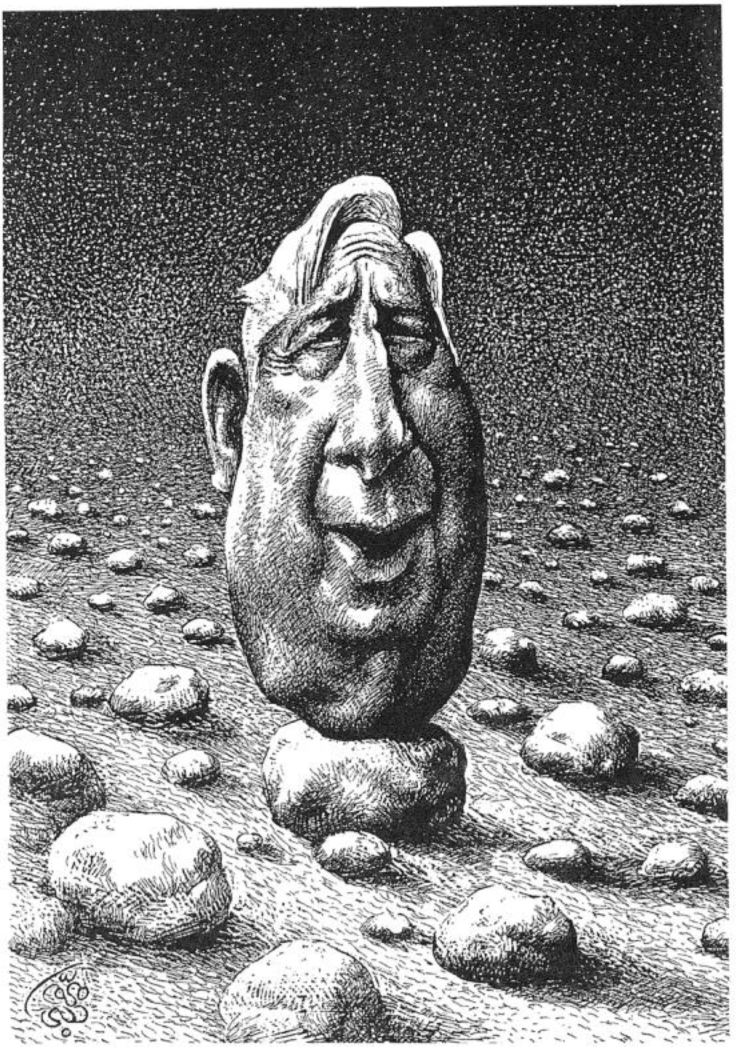
٢ - التناقض بين الانخراط في العملية السياسية بقيادة الولايات المتحدة وبين الارتباط بالمستوطنين وغلاة اليمينيين والمتدينين في الائتلافات الحكومية.

٣ - الصدام بين طريقة نتنياهو في الحكم والنظام الحزبي الإسرائيلي وصدامه مع نخب حزبه القديمة ومحاولة فرض نخب يمينية جديدة من المقربين إليه بدلاً من قيادة الحزب التقليدية.

لقد استهل باراك فترة حكمه بصدام من نفس النوع مع حزب العمل ، الذي رشحه لرئاسة الحكومة وحاول أن يحجم قيادات الحزب التقليدية. ولذلك تآمرت عليه قيادة هذا الحزب طيلة فترة حكمه القصيرة ، ولم تتجند بشكل جدي إلى جانبه في الانتخابات المبكرة.

هذا اللقاء بين شخصيتي باراك ونتنياهو فرضته طريقة الانتخابات الإسرائيلية الجديدة والسارية منذ عام ١٩٩٦. فقد فرضت هذه الطريقة نجوماً لم ينشأوا داخل جهاز الحزبين، وقلصت من نفوذ جهاز الحزب برلمانياً مع تحول التمثيل البرلماني إلى «سياسات هوية» (politics of identity [ABI]) يعبر من خلالها الروس والمغاربة والعلمانيون والمتدينون واهمين عن هويتهم، ويشكل هذا الوهم هوياتهم من جديد كاستراتيجية تتبعها نخبهم الجديدة للوصول إلى مصادر القوة السياسية ومنها إلى الكعكة الاقتصادية .

ولكن من الخطأ نعي الأحزاب السياسية التقليدية، فهي حية ترزق وتركل باراك كما ركلت نتنياهو في حينه، ولكن الأحزاب الإسرائيلية التقليدية من عمل وليكود ومفدال رغم فقدان العديد من وظائفها منذ اليشوف بقيت ذات جذور عميقة وقدرة على المقاومة. وما زالت وظيفتها الاندماجية الانصهارية الصهيونية تلح عليها بسبب خطر التفتت الثقافي أو الطائفي التي يواجهها المجتمع الإسرائيلي. وإذا كانت لدى الصهيونية غريزة بقاء متطورة فلا بد أن تحارب للعودة إلى طريقة الانتخابات القديمة التي لا تفصل بين التصويت لرئاسة الحكومة وبين التصويت للبرلمان، بحيث يكون التصويت لحزب وبرنامج وشخص وهوية في ورقة تصويت



هـــل يمكـــن فـهـــم شـــارون

واحدة لا بد من أن تزيد قوة الأحزاب من جديد.

لقد فقد باراك رفاق طريق مؤقتين في السنة والنصف من حكمه وحلفاء عديدين ضد نتنياهو إذ فقد تياراً علمانياً واسعاً تحالف معه ظناً منه أنه سيحدث انقلاباً بعلاقة الائتلافات الحكومية التي كرسها اليمين مع الأحزاب الدينية. كما فقد جزءا ممن انتخبوه لأنه سيجلب السلام، وفقد أصوات العرب، وفقد حتى أولئك الذين انتخبوه لأنه سيجلب الأمن.

وربح شارون لأن أعداءه بعد مرور ثمانية عشر عاماً على حرب لبنان باتوا أقل عدداً من أعداء باراك ونتنياهو، مما جعل الفارق بينه وبين باراك أكبر من ذلك الذي بينته الاستطلاعات بين نتنياهو وباراك. وربح شارون لأن المجتمع الإسرائيلي ما زال يراوح في ردة الفعل اليمينية الأمنية الحربجية على الانتفاضة الفلسطينية للتنازل عن كل شيء مقابل دولة. وربما كان أهم إنجاز لمرحلة باراك هو اضطراره في نهاية فترته إلى مواجهة شروط السلام العادل وفتحها للنقاش، بعد أن فشل في فرض شروط سلامه هو بالقوة على الفلسطينيين وبعد تفجر الانتفاضة.

وبقيت الكنيست على حالها، ويستطيع شارون لو رغب إقامة ائتلاف يميني من ٦٢ وربما ٦٤ نائباً، أي أنه توجد في الكنيست الحالية الخامسة عشرة أغلبية يمينية. وهذا يعني أن اليسار الصهيوني لم ينتصر عام ١٩٩٩.

لكن شارون فضل حكومة «وحدة وطنية» تماماً كما فضل الصمت عن برنامجه السياسي أثناء الدعاية الانتخابية، إذ أحاط نفسه بعشرين خبيراً ومستشاراً يتلخص عملهم بالمحافظة على صمته. لماذا؟ هل لأن شارون تغير؟ لا، ليس لأن شارون تغير بل هنالك سببان آخران لإخفاء شارون أفكاره السياسية أثناء الدعاية الانتخابية:

١ - لأن شارون لا يستطيع مواجهة العالم وحتى شعبه بأفكار تقود مباشرة إلى الحرب.

٢ - لأن هنالك فرقاً بين تحريض السياسي في المعارضة والمسؤوليات التي تفرضها السلطة.

لا يضمن شارون ألا تقود اقتراحات المرحلة الانتقالية إلى صدام أكثر حدة مع الشعب الفلسطيني. لذلك قد يحاول شارون إضافة مفهوم الدولة وبعض التواصل الإقليمي الفلسطيني بإزالة مستوطنات صغيرة ومعزولة داخل قطاع غزة إلى أفكاره حول «المرحلة الانتقالية الممتدة» حتى قبل الاتفاق على مواضيع مثل السيادة والقدس واللاجئين والحدود وذلك لتقليل نقاط الاحتكاك بين الفلسطينيين وإسرائيل حتى قبل التوصل إلى حل دائم - الدولة كمرحلة انتقالية وليس كحل دائم، أي الدولة الفلسطينية على جزء من الأرض دون التنازل عن القدس أو حق العودة. يبدو هذا الطرح مغرياً، ولكنه سيتحول في الواقع إلى أبارتهايد، وسيكون مقدمة لتصعيد الصدام مع السلطة الفلسطينية ومع شخوصها إذ لا يوجد أي التزام شاروني سياسي أو أخلاقي أو شخصي تجاه البنى التي أفرزتها أوسلو إذا لم تنسجم مع تكريس الوضع القائم الذي يضمن بقاءه في السلطة.



قد يفكر شارون في طرح مفهوم الدولة كمرحلة انتقالية وليس كحل دائم، (دون التنازل عن القدس أو حق العودة). وهذا الطرح، وإن كان يبدو مغرياً للوهلة الأولى، إلا أنه يتحول في الواقع إلى أبارتهايد

[٢]

كان سقوط باراك بهذا الفارق أمراً متوقعاً بعد أن انفضوا عنه. وقد تجسد فشله أكثر ما تجسد بعدم القدرة على الانتقال من عقلية العسكري الفاعل بناء على قواعد ثابتة وافتراضات عن نوايا «العدو» وقدرات محسوبة ومنفذين مأمورين إلى عقلية السياسي رئيس الحكومة في دولة منهمكة في صراع وعملية سياسية مع أعدائها وخاصة أن هذه الدولة تعيش داخليا حياة سياسية وحزبية موتورة وشديدة التعقيد وسريعة الانفعال بإيقاع ينافس وسائل الإعلام على الدراما في غاية إعلامية متوحشة.

فشل باراك الآمر العسكري في التعامل مع حزبه ثم مع بقية الأحزاب، كما فشل باراك الآمر في فرض شروطه ومواعيده على السوريين والفلسطينيين. ولا أدري هل كان جادا في اقتراحاته أثناء المفاوضات التي أدت إلى الانتفاضة ثم في المفاوضات التي رافقت الانتفاضة؟ أم أنه قصد منها إحراج القيادات العربية «باقتراحات كريمة» لكي يفضح عدم رغبتها بالسلام.

لم ينتخب باراك من أجل فضح القيادات العربية. وما دامت الانتفاضة مشتعلة وعدم الاستقرار السياسي يترجم مباشرة إلى عدم استقرار اقتصادي وحتى نفسي، فليس بمقدور أحد في المجتمع الإسرائيلي أن يرى اعتزاز باراك بفضح القيادات العربية انتصاراً، تماماً كما لم يفلح الإسرائيليون بالتعامل مع الانسحاب من طرف واحد من جنوب لبنان مهما قلبوه كانتصار، وكما لم ينجح في إقناع العرب أن الانسحاب الإسرائيلي من لبنان هزيمة وفضيحة لهم لأنهم - أي العرب - كشفوا عالميا كغير جديين في موضوع المسيرة السلمية.

لقد انتخب باراك لكي يجلب السلام فقرب المنطقة إلى حافة الحرب، وانتخب لكي يدفع بعلمنة المجتمع والدولة إلى الأمام فتعرجت طرقه بين التحالف مع المتدينين ومعاداتهم في الإعلام، وبين الإصرار على نقل مولد كهربائي في يوم السبت بشكل أغاظ المتدينين من ناحية، وقبول إعفاء تلامذة المدارس الدينية من الخدمة العسكرية بشكل أغاظ مؤيديه العلمانيين من ناحية أخرى.

وتبين خلال السنة ونصف السنة أن باراك غير قادر على إنجاز هذه المهام. وقد تبين هذا خلال فترة قصيرة لأنه جاء إلى السلطة مع مشاريع من نوع اقتراحات للحل الدائم مع الفلسطينيين واقتراحات الثورة المدنية وغير ذلك، أي أنه واجه حزب العمل بحماقة، وربما بغرور، بالحدود القصوى التي يترتب عليه أن يصلها من أجل تنفيذ هذه المهام التاريخية دون توفر الاستعداد لمواجهة هذه التحديات. ولأن الأسئلة كبيرة واستعداد باراك لطرح الأجوبة الوهمية الشاملة متوفر كما في عقلية الأمر في وحدة كوماندو(خلافا لواقعية بيرس أو رامون أو غيرهما التي تتسع لإجابات جزئية وحلول لكافة القضايا التفصيلية)، فقد فضح أمر حزب العمل. لقد فضح باراك أمر هذا الحزب عندما بين أنه غير قادر على تحقيق المهام التاريخية التي تبرر وجوده، من نوع تحقيق السلام الدائم مع الفلسطينيين.

لا تكفي سياسة حزب العمل الاقتصادية لتبرير وجوده فهي لا تختلف جوهريا عن سياسة الليكود، وما يتحكم بها في نهاية الأمر هو مجموعات الضغط الاجتماعية ذاتها مقابل رؤوس الأموال والبنوك والشركات الكبرى ذاتها، وضرورة الموازنة بين القوتين في برلمان منقسم إلى ممثلين عن نخب لقطاعات اجتماعية وعن مصالحها (لقد تبينت صحة هذه المقولة بشكل متطرف لافت للنظر عندما تبنت حكومة شارون ميزانية الدولة ذاتها التي أعدتها حكومة باراك والتي منع الليكود وشاس تمريرها في الكنيست عندما كانا في المعارضة).

وكان الهستدروت في الماضي يشكل قاعدة اجتماعية اقتصادية للحزب حتى بعد أن زال مشروعه الاقتصادي المتميز المتمحور حول اقتصاد الدولة والقطاع العام إذ كان يضمن ولاء قطاع واسع من الأخيرين والطبقات الوسطى للحزب.. ولكن إصلاح الهستدروت وخصخصة جزء كبير من ممتلكاته قضى على الهستدروت كقاعدة حزبية، كما أضعفت طريقة الانتخابات الجديدة بنية حزب العمل القديمة.

ولذلك ارتبط تميز حزب العمل عن اليمين ومبرر وجوده بمهمة تحقيق السلام مع العرب. ويميل الساسة الإسرائيليون إلى تقسيم التاريخ الإسرائيلي إلى مرحلتين كبيرتين مرحلة إقامة الدولة الصهيونية والحروب التي رافقت أو أعقبت إقامتها بسبب إقامتها، وبعدها مرحلة العمل من أجل تحقيق السلام مع العرب، أي مرحلة قبول إسرائيل في المنطقة ضمن حل وسط وتسوية إقليمية جعلتها حرب ٦٧ ممكنة ولم تؤثر عليها حرب ٧٣، بشكل جذري.

كان المبرر التاريخي لوجود حركة العمل الصهيونية هو عملية بناء الأمة / الدولة وما رافق ذلك من سياسات طبقية واقتصادية ذات طابع دولاني اشتراكي. وبعد ذلك أصبح مبرر وجودها، برأيها هي على الأقل، هو قدرتها على استحضار اتفاقيات السلام.

وقد تبين تحديدا في هذه المرحلة أكثر مما تبين في أي وقت مضى، وذلك بسبب مواجهة شروط السلام العادل مع سوريا وشروط السلام العادل مع الشعب الفلسطيني، وبسبب الإخفاق المباشر والواضح في تلبية هذه الشروط.. إن حزب العمل لا يعيش أزمة عادية بعد فشله في الانتخابات وإنما يتخبط في مأزق وجودي، ومن حق الباحث أو المعلق أن يتساءل عن مستقبل هذا الحزب.

وعندما يفقد حزب ما مبررات وجوده بمعنى مشروعه السياسي والأيديولوجي والفكري، أي الطرح الذي يواجه به المجتمع

هـــــل يمكـــن فهـــم شــــــارون

بأسره والذى يؤهله ليصبح حزب سلطة، أو حزبا قائدا لشعب بأكمله أو لأقلية قومية مثلا.. فإن هذا الحزب لا ينهار مباشرة وإنما يواصل مسيرته بقوة الاستمرار والقصور الذاتى مستفيدا من خبرات السلطة ووظائفها والأجيال التى تربت ضمن سياق مصالح السلطة وثقافة السلطة. ولكن هذه الأجيال والفئات الاجتماعية تتغير مع تغيير بنية المجتمع والسلطة.. وبعد فترة وجيزة يجد هذا الحزب ذاته دون البرنامج السياسى أو المشروع الذى يميزه وقد انفضت عنه الفئات الاجتماعية الواسعة التى يستند إليها وتمنحه الولاء بقوة الاستمرار حتى عندما لا يعبر عن مصالحها.. عند ذلك يتحول الحزب من حزب سلطة ذى تصور برنامجى شامل يقدمه للمجتمع ككل إلى حزب قطاعى يمثل مصالح نخبة تدعى بدورها تمثيل قطاع اجتماعى أو فئة اجتماعية بعينها.

يعانى حزب العمل وتعانى حركة العمل الصهيونية بشكل عام أزمة وجودية من هذا النوع.. وهو لا يشعر بالألم حتى الآن من شدة الصدمة، ويستمر بقوة الاستمرار دون أى مبرر فى الوجود، ولذلك أيضا تبدو شخصياته وشخوصه باهتة وعديمة اللون ومتآمرة على بعضها داخليا بشكل يثير القرف والاشمئزاز من السياسة بشكل عام. هذه الشخصيات الباهتة واللاهثة وراء المنصب والمتآمرة مع كل شىء ضد كل شىء والتى تشى بحزبها وشخوصه للإعلام إلى أن تنسى لمن كذبت أية كذبة ومتى؟ هى انعكاس لمأزق وجودى وفكرى وقيمى وسياسى. والوضع يشبه إلى حد بعيد وضع بعض القيادات والتيارات السياسية فى المجتمع العربى فى إسرائيل التى فقدت دورها التاريخى، أو لم تحصل على دور كهذا أصلا، ولهذا تعيش من خلال الصراع على المناصب الذى تتيحه الديمقراطية الإسرائيلية، وتردد وتجتر كلاما متناقضا وغير مفهوم حسب الحاجة، وتنتحل أفكارا متناقضة من مصادر مختلفة لأنه ليس لديها مشروع سياسى أو ثقافى أو اجتماعى للعرب فى هذه البلاد يجيب على القضايا الأساسية المتعلقة بعلاقتهم مع الدولة ومع الأمة العربية.

بوسع الباحث إذا شاء أن يثبت أن مصادر شارون السياسية والفكرية والعملية تعود جذورها إلى هناك، إلى حركة العمل الصهيونية.. ولكن هذه عملية سهلة وليست بحد ذاتها دليلا على مأزق حزب العمل الفكرى بقدر ما هى دليل على انتهازية شارون الباحث عن السلطة لدى اليمين، عندما لم يجدها لدى حزب العمل مثل بقية الجنرالات من أبناء جيله.. ولكن التعبير الحقيقى عن مأزق حركة العمل الصهيونية نجده فى التقارب السياسى وليس الشخصى فقط بين شارون وبيرس، إذ يؤمن كلا الرجلين المخضرمين سياسيا أنه لا يوجد حل دائم للقضية الفلسطينية، وأن الأفضل هو الأوضاع القائمة (شارون) أو المراحل الانتقالية (شارون وبيرس) إلى أن يخلق الله ما لا تعلمون، على مستوى تغير القيادات الفلسطينية وتغير سقف توقعاتها بالمراهنة أيضا على عدم قدرة الشعب الفلسطينى على الاحتمال.

لقد وجدنا تقاطعات فى التفكير بين نتنياهو وباراك بإصرارهما على عدم «التنازل» عن أى قطعة أرض لصالح الحلول الانتقالية وعلى أنه بالإمكان فرض حل دائم على الشعب الفلسطينى أو الاستمرار بالمواجهة. وقد نفذ نتنياهو بعض التزامات المرحلة الانتقالية. أما باراك فلم ينفذ أيا منها وكان هذا الموقف الرافض لتنفيذ الالتزامات الموقعة ثم تحويله إلى وسيلة ضغط على الفلسطينيين للقبول بشروط باراك للحل الدائم أحد أسباب اندلاع الانتفاضة!! هذا التقارب فى وجهات النظر بين باراك ونتنياهو من ناحية وبين شارون وبيرس من ناحية أخرى وكأن المشترك هو الجيل وليس الموقف السياسى هو دليل أن الليكود وحزب العمل لا يمثلان مشروعين سياسيين متباينين بحدود واضحة.

أفرز سقوط باراك المدوى فى انتخابات رئاسة الحكومة المباشرة يوم ٦ شباط ما يبدو وكأنه تصدع أيديولوجى داخل حزب العمل. إذ قام تيار يدعو لعدم الانضمام إلى حكومة وحدة وطنية والبقاء فى المعارضة لإعادة بناء الحزب وبلورة موقفه السياسى دون التلوث بمواقف القوى اليمينية المتطرفة التى سوف يضمها شارون إلى حكومته. ولا شك أن يوسى بيلين يمثل موقفا مثابرا بهذا الاتجاه، ولكن لا يمكن اعتبار البروفيسور شلومو بن عامى أو إبراهام بورج أصحاب مواقف مثابرة لأنهما فى الواقع يربطان الموقف بإمكانية التسلق داخل حزب العمل إلى منصب رئيس الحزب.

ويشكل البروفيسور بن عامى مثالا شخصيا بارزا لانحطاط السياسة الإسرائيلية، إذ حاول تفصيل بدلة سياسية تناسب متطلبات التسلق حتى رئاسة الحكومة. فأعاد إحياء أصوله الشرقية فى نوع من سياسات الهوية يجمع بين الهوية الشرقية والمؤهلات، وللدقة نقول الهوية الشرقية ولقب البروفيسور. وما دام بن عامى بروفيسور فإن تهمة العنصرية جاهزة للإلصاق فى وجه كل من ينتقد مؤهلاته. كما حاول بن عامى استنباط اشتراكية ديمقراطية إسرائيلية تضع القضايا الاجتماعية على رأس جدول أعمالها فى محاولة للمصالحة بين حزب العمل والطبقات الفقيرة. وقد حوله كتاب «مكان للجميع» والذى نشره مع دخوله إلى عالم السياسة الحزبية إلى أمل بعض اليساريين الباحثين عن مبرر للعودة لعالم حزب العمل، إذ اكتشفوا اشتراكيا فى صفوفه. ولكن ما لبث الكتاب أن أصبح موضع سخرية بعد أن أصبح بن عامى وزير شرطة يتجاهل مطالب المواطنين العرب بوقف عنف الشرطة العنصرى ضدهم إما لأنه مثل سابقيه أو لأنه اعتقد أن المواجهة مع كبار ضباط الشرطة ستؤدى إلى حشره فى يسار الخارطة السياسية وتقلل من إمكانيات فوزه فى المستقبل. وقد أدى تهاون وربما تواطؤ البروفيسور الليبرالى إلى مذبحة الأقصى بيد شرطته وتلاها مقتل ١٣ مواطنا عربيا بيد نفس الشرطة.

كما وجه بن عامى الليبرالى والمؤيد للعملية السلمية أقسى التهم وأسوأ الألفاظ ضد القيادة الفلسطينية بعد كامب ديفيد. وهنا لا يصلح بن عامى مثالا لليبرالى غير المثابر وغير مستقيم فحسب بل أيضا لحالة البروفيسور فى السياسة. فهو يتصرف كأن موقفه السياسى هو فرضية علمية أو فكرية ينهار العالم إذا ثبت خطؤها، أى إذا لم يتطرق موضوع بحثه كما توقعت فرضياته.

لقد تصرف عرفات، موضوع بحث البروفيسور، فى كامب ديفيد خلافا لفرضيات بن عامى، ولذلك فإن الحرج الأكاديمى التافه يضاف إلى سخطه السياسى على القيادة الفلسطينية. يجسد بن عامى نموذجا جيدا لبروفيسور التاريخ كسياسى هاو وتعامله مع التنافس فى الحزب بآليات التآمر بين محاضرين جامعيين على منصب أستاذية فى جامعة إسرائيلية، هذه المؤامرات التى تجعل المؤامرات فى حزب العمل تبدو شاحبة.

على اليسار الإسرائيلى إذاً ألا ينتظر منقذا من داخل حزب العمل على شاكلة بن عامى لمجرد أنه يعارض «حكومة الوحدة الوطنية».. فهذا ما يتوقعه منه جمهوره بعد خيبات الأمل الكبير منه، ولأنه لا أمل له بالتنافس على قيادة حزب العمل فى أجواء تأييد أغلبية حكومة «الوحدة الوطنية».

[٢]

لقد تبين بعد التحالف العمالى الليكودى الأخير أن التقسيم يسار - يمين فى المجتمع الإسرائيلى ليس تقسيما يفصل حزب العمل عن الليكود. فهذا التحالف يقبل ميزانية الدولة للعام ٢٠٠١ التى أعدتها حكومة باراك وعارضتها الأحزاب اليمينية، خاصة الليكود، بشدة عندما كانت فى المعارضة. لقد عادت هذه الأحزاب لتبنى نفس الميزانية، أى نفس السياسة بالأرقام، دون تغيير بند واحد وبدأت بالمصادقة عليها فور انتخاب شارون بعد أن كانت المصادقة عليها متعذرة فى مرحلة حكومة باراك.

وهذا يعنى أن الليكود وحزب العمل لا يمثلان مشروعين اقتصاديين اجتماعيين مختلفين، وإنما هناك مشروع السلطة ومشروع المعارضة. ومشروع المعارضة هو الوصول إلى السلطة لاتباع نفس السياسة. وتتلخص أزمة حزب العمل منذ تشكيل حكومة الوحدة الوطنية شمير - بيرس عام ١٩٨٤ أنه لم تعد لدى الحزب مهمة تاريخية واضحة تختلف عن الليكود.

لقد كان حزب العمل حزب دولة وتأميم وقطاع عام لأن كل هذا كان ضروريا بل مشتقا من مهمة بناء الدولة والاستيطان والحرب.. ولكن منذ الثمانينيات يتنافس حزب العمل مع الليكود فى انتهاج منهج السياسات الاقتصادية الهادفة إلى «تطبيع» المجتمع الإسرائيلى والتنافس على كسب تأييد الطبقات الوسطى باستمرار.

وانحسر الفرق بين الحزبين إلى أن اختزل إلى موضوع العملية السلمية بين تأييد ومعارضة أوسلو مثلا. وفى مرحلة نتنياهو تبين أن



لا يوجـد أى التـزام شــارونى سياســى أو أخلاقــى أو شخصــى تجــاه البنــى التــى أفرزتهــا أوســلو إذا لــم تنسجـم مع تكريـس الوضـع القـائـم الذى يضمن بقاءه فى السلطة



ارتبـط تمـيـز حـزب العمـل عـن اليمــــين ومبـرر وجــوده بمهمـــة تحقيــق السلام مع العرب. ثم جاء باراك ليفضــح أمـــر الحزب عندما بيّن أنه غير قادر على تحقيق المهـام التاريخية التى تبرر وجوده

الليكود لا يســتطيع أن يعــارض أوسلو منهجيا إلا فى المعارضة. كما تبين فى فترة باراك أن برنامج حــزب العــمل للســلام لا يرتقى فى حـدوده القصوى إلى تطلعات الفلسطينيين. ولذلك طمست الحـدود بين الحزبين حتى فى موضوع السلام.

أما فى موضوع الخلاف حول الموقف من الأحزاب الدينية فقد تبين فى مرحلة باراك أن ما يحدد الموقف منها هو حاجات البقاء فى السلطة - ولم تعـدل خطوات حكومة باراك الأخيرة ضد الأحزاب الدينية (إلغاء وزراء الأديان على سبيل المثال) هذا الانطباع لأنها اتخذت بعد أن يئس باراك من عودة هذه الأحزاب إلى الحكومة.

لقد نجح باراك فى الانتخابات الماضية محمولا على بساط الأساطير العسكرية المطرزة «بالخيال الجامح» عن بطولاته فى اقتحام هذه الطائرة المخطوفة وذلك البيت فى الفاكهاني وتمجيد ماضى باراك العسكرى خاصة فى التيار الصحافى المركزى الأمنى الطابع(زئيف شيف، دان مرغليت، ناحوم برنيع، آمنون إبراموفيتش وغيرهم من صناع الرأى العام، أو الأصح الخيال الشعبى) لم يمنع الصحافة ذاتها فيما بعد من استخدام نفس الرصيد كنقيصة تحط من قدره كآمر لا يعرف التعاون والتشاور والعمل الجماعى. وصحيح أن ذمة الإعلام التنافسى واسعة إلى درجة تقلب المزاج بين الحماس لصورة باراك الإعلامية وحتى التعب منها.

ولكن هذا التقلب لا يعكس طبيعة الإعلام الإسرائيلى، الذى يبنى تمثالا لفلان ثم يحطمه قبل أن يجف طينه فحسب، وإنما أيضا نزعات متصارعة فعلا فى المزاج السياسى الإسرائيلى بين تمجيد الماضى العسكرى بدون قيد أو شرط والمطالبة بمؤهلات مدنية تتجاوز ذلك من أجل إدارة المجتمع والدولة، بين الحنين إلى فردوس الاستيطان الزراعى العسكرتارى المفقود والذى يذكر به الجنرالات ذوو الصوت الأجش والأيدى الخشنة وبين متطلبات الحياة المدنية المركبة.

هكذا لم يمنع ذم عقلية الآمر العسكرى لدى باراك من انتخاب جنرال عسكرى مغامر لرئاسة الحكومة الإسرائيلية. وتختلط فى صورة شارون الشعبية المتخيلة صفات مطلوبة فى مرحلة الصدام مع العرب مثل: الحزم فى التعامل مع العرب بالقوة إذا لزم، الماضى العسكرى المغامر المختلط فى الخيال الشعبى بصورة بطل هوليوودى أو «شيرف» يحارب الأشرار بطريقته دون أن يلتزم بالتعليمات والقوانين الشكلية إذا تطلب الأمر ذلك، الاستخفاف بالبيروقراطية الحكومية وتنفيذ المهام المطلوبة مباشرة «كالبولدوزر».. هكذا عندما كان وزيرا للإسكان وأيضا عندما كان وزيرا للبنى التحتية .. ناهيك عن الاستيطان والأمن.

والحقيقة أن عقلية الرجل استيطانية خالصة، والبولدوزر من رموز الاستيطان التى تشق الطرق وتزيل العوائق (مثل العرب) دون أخذ أمر ما بعين الاعتبار سوى خدمة الهدف، الذى هو الانتشار اليهودى الاستيطانى فى البلاد وإقامة بناه التحتية الاقتصادية..ولذلك فإن توجهات شارون دولتية بحتة وأصوله فى الصهيونية العمالية حيث الدولة هى أداة الاستيطان وإرساء البنى التحتية، وهى أداة الحرب دون منازع.

مقابل هذه الصورة الشعبية تبرز أيضا الصورة التى يرسمها اليسار الصهيونى الذى هيمن فترة طويلة على ثقافة البلاد، ثم انحسرت هيمنته فى ثقافة النخبة والتى يسقط بموجبها قسما كبيرا مما يخجل فيه من ماضيه على الآخر - اليمين الصهيونى.. هكذا تتجمع صور كل المذابح التى نفذتها الهاجناه ليختزل الغضب عليها فى مذبحة دير ياسين التى قام بها اليمين (الايتسل). ولذلك أيضا تتكثف كل نزعاته العسكرتارية المغامرة بدءا بتمجيده للجندى العبرى الإنسان اليهودى الجديد بلغة بن جوريون وانتهاء بالتسلل إلى خلف خطوط «العدو» لذبح المدنيين انتقاما فى شخوص مثل شارون ورفائيل ايتان. وما كانوا إلا جنودا نفذوا أوامر زعماء مثل بن جوريون. لقد تبين أن قتل المدنيين فى مذبحة قبية مثلا انسجم مع أمر بن جوريونى مباشر كما كتب شبتاى طبيت مؤرخ بن جوريون الرسمى والمعجب به.

كانت بداية شارون وأمثاله «رامبو» الغاضب على تنصل مرسليه السياسيين منه، والعائد من الحرب إلى السياسة لكسب تعاطف المجتمع ضد هؤلاء فى مرحلة الأزمة والتخبط. ولكن سن شارون تجاوزت عمر رامبو، وهو لا يريد أن ينتقم أو يفضح كذب وتلون المجتمع الذى أرسله ليقتل ثم أخذ ينظف ضميره على حسابه، بل يريد أن يجلس فى كرسى رئيس الحكومة وأن يحكم دولة متطورة نسبيا ويدير مجتمعا شديد التركيب فى منطقته.

[٤]

لقد توقعنا أن يؤكد شارون على حل مرحلى طويل المدى على المسار الفلسطينى وهاهى صحيفة هآرتس ١٨/١/٢٠٠١، تسرب أنباء برنامجه هذا. كان الموضوع متوقعا للأسباب التالية:

١ - شارون مقتنع أن برنامج باراك لن يلقى قبولا لدى العرب والفلسطينيين وبالتالى لن يجلب سلاما.

٢ - هو ذاته لن يذهب أبعد من باراك لإرضائهم.

٣ - على الفلسطينيين إذن أن يغيروا وجهة نظرهم من الحل.

٤ - هذا الأمر لن يتم قريبا، إذن لا بد من مرحلة انتقالية طويلة، يخلق الله فيها ما لا تعلمون، وتولد فيها حقائق جديدة على الأرض.

وإذا أراد شارون أن يحافظ على سلطته فسوف يضطر إلى احترام قواعد اللعبة السياسية القائمة فى مجتمعه وفى المنطقة.. ولكن رغبته هذه سوف تصطدم بحدود موقفه السياسى اليمينى الذى يتعامل مع الفلسطينيين والعرب عموما بمنطق الردع كما سوف تصطدم بنزعاته الاستيطانية التوسعية.

لقد قال شارون لكولن باول أثناء زيارته الأولى للدولة العبرية بعد تعيينه وزيرا للخارجية أن الأمريكيين يستطيعون تفهم موقفه من الاستيطان لأنهم يدركون معنى ودافع الاستيطان الذى كان يدفعهم بالاستمرار للتوسع نحو الغرب.. وبقى أن يتحدث شارون عن اكتشاف «الأرض البكر» (العذراء بالإنجليزية الاستيطانية) وعن الهنود الحمر. وإذا أعدنا إلى الذاكرة أن المستوطنين الأمريكيين قد استخدموا مصطلحات ومفاهيم مستقاة من العهد القديم مثل «أرض الميعاد» وأنهم وسموا أنفسهم ومستوطناتهم بأسماء توراتية نكتشف أن هنالك ثيولوجيا سياسية كاملة تجمع بين الولايات المتحدة وإسرائيل وليس مجرد مصالح.

وإذا كان شارون يبنى لا على المصالح والحسابات البراجماتية وإنما على الثيولوجيا السياسية الغيبية فهذا يعنى أنه يقود بلاده والمنطقة إلى كارثة محققة. إذ لا ينقص العرب بتياريهما الكبيرين القومى والإسلامى وبتنوعات هذين التيارين الفكرية لاهوتا سياسيا لمواجهة إسرائيل والصهيونية والاحتلال فيه أيضا قدر كبير من الغيبية.

شارون الذى يؤمن «بالتنازلات المؤلمة»، كما تسمى فى القاموس الإسرائيلى إعادة أجزاء صغيرة من الأرض لأصحابها بعد سلبها منهم بقوة السلاح، فى سياق تحقيق السلام مع العرب يعرف جيدا أن تنازلاته هذه لا تعتبر تنازلا، كما لا تعتبر كافية حتى بنظر العرب أصحاب الخيار الإسرائيلى الذين خفتت أصواتهم إبان الانتفاضة. ولذلك فإن شارون يقترح المرحلة الانتقالية طويلة المدى فى محاولة لإحلال «البراجماتية أو التوجه الواقعى» محل برنامج السلام كبرنامج سياسى.

ولا تعود براجماتية شارون هذه إلى البراجماتية الأمريكية الفلسفية بل تقترب أكثر من مفهوم: «الغاية تبرر الوسيلة». وعلينا ألا ننسى أن الغاية هنا هى البقاء فى السلطة دون التوصل إلى اتفاق سلام شامل ودون التدهور إلى حرب شاملة إذا أمكن.. المرحلة الانتقالية طويلة المدى هى خيار فى هذا السياق. واستنزاف السلطة الفلسطينية إلى درجة تصبح فيها العودة إلى التفاوض مع إسرائيل واسترجاع أموال الضرائب من إسرائيل وتخفيف الحصار الاقتصادى هدفا بالنسبة لها، هى وسيلة لتحقيق هذا الخيار. لكن شارون لا يستطيع أن يتحكم بوتيرة الاستنزاف ودرجة التصعيد، فهو ليس اللاعب الوحيد.

وربما تتفق رغبة شارون وتياره فى السياسة الإسرائيلية بتحييد الولايات المتحدة فى المفاوضات مع رغبة الإدارة الأمريكية بعد كلينتون بإعادة العراق والخليج إلى تصدر جدول أعمالها فى المنطقة.

ومن المؤكد أن سياسة الولايات المتحدة فى حرب الخليج الثانية هى التى ادت إلى مؤتمر مدريد للسلام كجواب أمريكى على الانتفاضة وعلى ما سمى خطأ فى حينه «ازدواجية المعايير» الأمريكية، وأن الربط بين ضرب العراق وبين الحل السلمى للمسألة الفلسطينية هو اختراع أمريكى تماشى بعض العرب معه فى فترة «النظام العالمى الجديد». ولكن من الواضح لدى أى مراقب أمريكى وغير أمريكى لتطورات الأحداث فى المنطقة أن المعادلة قد انعكست فى الأذهان، بل فى الضمائر العربية فى السنوات العشر العجاف، سنوات حصار العراق، وسنوات تعثر مسيرة أوسلو وأن ضرب العراق بات مرتبطا بحصار الشعب الفلسطينى، وحصار الشعب الفلسطينى مرتبطا بضرب العراق. وأصبح هذا الربط عامل تفجر فى المنطقة، أو «عامل عدم استقرار» كما يحب الأمريكيون أن يسموا ما لا يندرج ضمن خططهم.

يكرر شارون ومعه أوساط رسمية وشعبية إسرائيلية الادعاء القائل أن إسرائيل لا تستطيع التفاوض فى ظل العنف الفلسطينى أو تحت التهديد باستخدامه، والحقيقة أن غالبية المستعمرين فى التاريخ الحديث فاوضوا أثناء الصراع العنيف ضد الاستعمار أو على أثره، وذلك لأن الاستعمار ذاته، أى الاحتلال ومؤسساته، وتفوق قوته على قوة المستعمر تشكل جميعا أشكالا من العنف أو من التهديد باستخدامه لا بد من موازنتها بعنف مضاد لكى تبدأ اصلا حالة مفاوضات حقيقية.

وقد صمدت إسرائيل فترة طويلة أمام العنف الفلسطينى الذى سمى بالكفاح المسلح وأسمته إسرائيل إرهابا.. ومع أن التفاوض لم يكن مطلب الكفاح المسلح الفلسطينى فى غالبية مراحله، إلا أن الدولة العبرية صمدت على أية حال، واقنعت ذاتها أنه لا معنى للتفاوض مع من يهدف لإبادة كيانها. ولكن انتفاضة الشعب الفلسطينى تحت الاحتلال أدت إلى مفاوضات محددة السقف وما لبثت أن أعادت المطالب التاريخية الفلسطينية إلى طاولة المفاوضات. ولم تتجرد إسرائيل ذاتها خلال التفاوض لا من سلاح القمع اليومى الاحتلالى المنظم ولا من سلاح الرد على العنف بعنف أشد وأكثر فاعلية وفتكا.

تدعى إسرائيل أن العنف يصعب المفاوضات وتثور ثائرة اليمين الإسرائيلى ضد استمرار التفاوض كلما قتل أو أصيب مستوطن إسرائيلى من كمين فلسطينى. ولكن لنتخيل ماذا كانت إسرائيل فاعلة لو عملت أجهزة الأمن الفلسطينية وفق لائحة أسماء معدة سلفا على تصفية كوادر الحزب الحاكم فيها، أو قيادات فى الجيش الإسرائيلى، أو حتى على تصفية قيادات ميدانية من المستوطنين بناء على قوائم جاهزة؟ فالقيادة الفلسطينية تفاوض فى حين تقوم أجهزة الأمن الإسرائيلية باغتيال كوادر وقيادات ميدانية من حركة فتح بموجب قوائم، أى ليس عرضا وأثناء القتال بل عن سبق إصرار وترصد.

ما زالت إسرائيل تحتكر أنماطا من العنف بحكم تعريفها كدولة محتلة. فهى وحدها القادرة على إغلاق مناطق بأكملها وعلى تقطيع أوصال قطاع غزة بشكل غير مسبوق منذ العام ١٩٦٧، وهى قادرة على تقييد تحرك المفاوض الفلسطينى ثم مصادرة حتى حقه بالسؤال، تماما كما اعترضت إسرائيل على حق المفاوض الفلسطينى أن يوجه أسئلة توضيحية حول افكار كلينتون - باراك.

وسوف يحاول شارون فى بداية فترة حكمه أن يلطف صورته أمام العالم، وفقط هامش المناورة الذى سيفسحه له العالم العربى سوف يمكنه من تمرير هذه الخطة. ولن يكون باستطاعة شارون أن يثبت أنه رجل السلام، إذا وجد نفسه مضطرا لمواجهة الانتفاضة والتضامن العربى معها. وفى الوقت الذى تمنع فيه سياسة الإغلاق إمكانية عقد جلسة للمجلس التشريعى الفلسطينى ناهيك عن المجلس الوطنى الفلسطينى، يعقد البرلمان الإسرائيلى جلساته بحرية ويقرر من طرفه بالإجماع الصهيونى إلغاء حق العودة للفلسطينيين وتحصين رفض إسرائيل لهذا الحق، كما يجتمع البرلمان الإسرائيلى ويقرر خصخصة أراضى اللاجئين الفلسطينيين كعائق قانونى أمام المطالبة بها مستقبلا.

يجرى هذا فى عالم يستسهل تعريف العنف كعملية رمى حجر أو كعملية انتحارية. ■

كتاب الزاوية

عمارة الفقراء

٢ - الفساد الحضارى

الحضارة تنطلق من الجذور
وتتسرب لتنفذ إلى كل طلع
إلى الورقة والزهرة والبرعم
ومن خلية للأخرى، وكأنها دم أخضر.
ويطلقها رذاذ المطر
كعطر من زهور منداة
يفعم الهواء
ولكن الحضارة التى تنصب على البشر
من فوقهم من عل. لا تلبث أن تنعقد
كما ينعقد السكر الرطيب. وهكذا يصبحون
مثل عرائس السكر وعندما
يبللهم بعض رذاذ من المطر الواهب للحياة
فإنهم يتلاشون. يذوبون
فى خليط لزج

إن الفساد الحضارى يبدأ بالفرد نفسه. الذى يواجه بخيارات لم يهيأ للقيام بها، وينبغى أن نعالجه عند هذه المرحلة. والبناء إنما هو نشاط خلاق حيث اللحظة الحاسمة هى لحظة التصور. تلك اللحظة التى تتخذ الروح عندها شكلاً. وتتحدد بالفعل كل ملامح المخلوق الجديد. وإذا كانت خصائص الكائن الحى تتقرر بلا رجعة فى لحظة الإخصاب، فإن خصائص المبنى تتحدد بكل مركب القرارات التى يعطيها كل من له يد فى الأمر.

وراثة اللغة

و

لغة الوراثة

نبيل علي

يواجه العقل الإنساني مع بداية القرن الواحد والعشرين وجهًا لوجه واقعًا جديدًا معقدًا في مجالات معرفية ثلاثة أصبحت تحتل موقع الصدارة على خريطة المعرفة الإنسانية.. هذه المجالات الثلاثة هي: البيولوجيا الجزيئية من ناحية. وعلم اللغة من ناحية أخرى. ثم المعلوماتية من ناحية ثالثة.. التي تقوم بدور الجسر الواصل بين علوم الطبيعيات وعلوم الإنسانيات.. ومن هذا المدخل يقدم الدكتور نبيل علي رؤية متقدمة للآفاق الجديدة للمعرفة الإنسانية، وهي تبحث عن قانون جديد أو محور جديد، خارج حضارة الفيزياء التي سيطرت على العلم مدة طويلة، ويحاول في هذه الدراسة تناول الإشكاليات المستجدة التي أظهرتها بصورة غير مسبوقة متغيرات عصر المعلومات، بحيث توشك المعرفة الإنسانية أن تنتقل من معرفة أحادية المحور تركز على مجال واحد بعينه إلى معرفة متعددة المحاور متشابكة المجالات.

هذه النظرة المعرفية الجديدة بكل إشكالياتها تحتاج من القارىء إلى أناة في النظر، وصبر على القراءة، وحوار مع النفس، لكنها قبل كل شيء تنطوي على دعوة للمثقفين والمفكرين لمناقشة هذا الاتجاه الجديد والإسهام في إبراز جوانبه.

المحرر

برغم كل ما تحقق من انتصارات علمية وإنجازات تكنولوجية، مازلنا نجهل الكثير عن بيولوجيا الكائن البشري ونشأته وتطوره، وكذلك عن اللغة التي صنعها هذا الكائن لتسهم بدورها في صنعه. فما أشد قصور معرفتنا عما يجري داخل أدمغتنا وأجسادنا وما تموج به منظومة لغتنا. وكل ما نسمعه حاليا عن خرائط المخ وخرائط الجينات ونظريات اللغويات ما هو إلا مجرد خطوة أولى على طريق طويل وشاق سعيا إلى فك طلاسم اللغزين التوءمين: لغز البيولوجي ولغز اللغة. وعلى ما يبدو، ستظل تطرح المرة تلو المرة تلك الأسئلة نفسها التي حيرت البشرية على مر القرون: كيف نشأت وتطورت الكائنات واللغات؟ وأين يلتقي مسار التطور البيولوجي مع نظيره اللغوي؟ وكيف يتفاعل الداخلي الحيوي مع الخارجي البيئي في توجيه كلا المسارين صوب غايات معينة؟. ولماذا تبلى أجيال البشر وتزدهر البشرية؟ وما السر وراء صمود اللغة أمام كل ما يفعله بها أهلها؟

وحديثنا الراهن يحوم حول العلاقة بين هذين اللغزين، وهو يقحم نفسه مجازفا في المواجهة المباشرة بينهما، متنقلا بين النظر إلى اللغة من منظور البيولوجيا الجزيئية، وإلى البيولوجيا الجزيئية من منظور اللغة. ولم يكن الدافع وراء هذا الحديث المجازف هو إغراء المبادرة بقدر ما هو قناعة كاتبه أن العلاقة البيولوجية - اللغوية ستلعب دورا حاسما في صياغة مصير البشرية: فلسفيا وعلميا وتربويا وتكنولوجيا، وبالتالي ثقافيا واقتصاديا. ما نسعى إليه هنا هو تجاوز ما شاع من الخطاب البيولوجي عن العلاج بالجينات، والاستنساخ والنعجة دوللي والقرد أندي، ومن الخطاب اللغوي عن إشكالية الرمز والمعنى، وثنائية النحو والمعجم، ودور اللغة النفسي والاجتماعي وما شابه، مع إقرارنا بالطبع بأهمية هذين الخطابين. نريد بحديثنا هذا أن ننفذ إلى المغزى المعرفي لهذا اللقاء البيولوجي - اللغوي المثير، والذي يمثل، من وجهة نظر الكاتب، ذروة اللقاء العلمي - التكنولوجي، فاللغة، بلا منازع، هي «سندريلا» العلوم الإنسانية، في حين يتربع البيولوجي حاليا على قمة العلوم الطبيعية. وما أكثر ما التقت فيما مضى العلوم المتقاربة: التقت الكيمياء مع الطبيعة، والرياضيات مع المنطق، والسياسة مع الاقتصاد، والميكانيكا مع الهيدروليكا، والتقى السيكولوجي مع الفسيولوجي، والتربوي مع الإعلامي، والأدبي مع اللغوي، واللاهوتي مع الأنثروبولوجي. ولكن شتان الفرق بين لقاءات المتقاربين هذه ولقاء المتباعدين: البيولوجي واللغوي: فهو يمثل من حيث مستوى المزج المعرفي، أقصى درجات قوة التهجين hybrid vigor بلغة أهل تربية الحيوانات. إنه - بحق - اللقاء الجامع الذي تندرج تحته معظم اللقاءات المعرفية الأخرى، إما كفروع تنبثق منه، وإما كروافد تصب فيه.

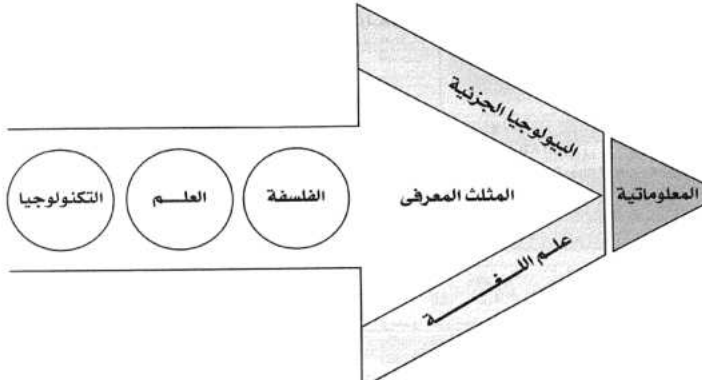
المثلث الذهبي

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو: كيف التقت اللغة، المنشغلة بالمفاهيم والمعاني والمجردات والبنى المعرفية والأمور الثقافية والتربوية، مع البيولوجي، المنشغل بالكيمياء الحيوية والوظائف العضوية والعناصر المادية

نريد بحديثنا هذا أن ننفذ إلى المغزى المعرفي لهذا اللقاء البيولوجي. اللغوى المثير، والذى يمثل، من وجهة نظر الكاتب، ذروة اللقاء العلمي. التكنولوجي، فاللغة، بلا منازع، هي «سندريلا» العلوم الإنسانية، في حين يتربع البيولوجي حاليا على قمة العلوم الطبيعية. وما أكثر ما التقت فيما مضى العلوم المتقاربة: التقت الكيمياء مع الطبيعة، والرياضيات مع المنطق، والسياسة مع الاقتصاد

من خلايا وبروتينات وأنسجة وعظام وغدد وأعصاب وأعضاء؟ إن الإجابة عن هذا السؤال هي صلب دراستنا الراهنة، ونكتفي حاليا بأن نشير إلى أن هذا اللقاء يقع - أساسا - على جبهة الرمز. فاللغة هي النسق الرمزي الأم الذي يَجُبُّ ما دونه من أنساق الرموز: أصواتا وألحانا وأشكالا وكتلا وإشارات وحركات، في الوقت الذي أصبح فيه للبيولوجي شقه الرمزي ونقصد به لغة الجينات، تلك اللغة التي أودعها الخالق الأعظم خلايا كائناته ليصوغ بها حياة هذه الكائنات ويوجه من خلالها مسار تطورها. لا يظهر مدى تعاضد هذا الثنائي الرمزي للغة والبيولوجي دون أن يُدعى للانضمام إليه طرف ثالث لا يقل إثارة وأهمية وتعاضدية ألا وهو المعلوماتية، بصفتها الأداة الرئيسية للتعامل مع الرمز. وبهذا، تكتمل عناصر «المثلث الذهبي: البيولوجي - اللغوي - المعلوماتي». إن كلا من هذه العناصر الثلاثة يمثل عالما رمزيا زاخرا بالتحديات والتوقعات والمخاوف، يتلاحم في أرجائه النظري الصوري مع التطبيقي العملي، ويقترب بفضله الواقعي من الخائلي virtual، ويتداخل المستقبلي مع التراثي. لقد تردد على الألسنة هذه الأيام سؤال، خلاصته: ما السبيل إلى عقل جديد يواجه به إنسان العصر عالمه الجديد؟ وفي اعتقادنا أن الإجابة عن هذا السؤال الحيوي تكمن في قلب هذا المثلث الذهبي: حيث تجمع أطرافه - كما سيتضح لنا - شتات المعرفة الإنسانية في منظومة متكاملة شديدة الرسوخ. هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإن لقاء عناصره الثلاثة يطرح إشكاليات مستجدة عديدة تستنفر العقل، وتفرض عليه ضرورة أن يجدد عتاده ويوسع من مجال رؤيته. ولا نبالغ إذا ما قلنا إن مثلثنا الذهبي هو بالنسبة إلى حضارة اليوم بمثابة رأس الحربة لركبها المنطلق الذي يصعب - بل يستحيل - التكهن بالمصير الذي يدفع إليه البشرية جمعاء. وما من أحد يدري هل ننتظر فردوسا أرضيا من صنع عوالم الرمز الثلاثة تلك، أم جحيما من صنع بربرية التكنولوجيا المتقدمة، وأوهامها الزائفة وكوابيسها المفزعة.

يشهد كل ضلع من أضلاع هذا المثلث المعرفي تلاقحا علميا بالغ الأهمية والإثارة، يتبادل فيه طرفاه موضعي التأثير والتأثر، وجانبي ثنائية المشكلة والحل. سنركز هنا على الضلع الواصل بين البيولوجي واللغة، وسنبدأ



شكل (1)

بتقديم طرفيه في إطار العلاقة الانعكاسية لـ «وراثة اللغة ولغة الوراثة»، ثم نحدد على ضوئها أين يلتقي الطرفان؟ وأين يفترقان؟ ونختتم بطرح تصورنا عن المغزى المعرفي للقاء اللغوى - البيولوجي بصفته الركيزة الأساسية لمثلثنا الذهبي.

وراثة اللغـــة

مع شيوعها وأهميتها وشدة التصاقها بنا، تظل اللغة ذلك الشائع المجهول: فهى دفينة مستترة، غائرة فى متاهات المخ البشرى وثنايا النسيج الاجتماعي. وهى - أى اللغة - لغز حير الفلاسفة والعلماء على مر العصور، ومصدر الإشكالية في تناول اللغز اللغوى هو حتمية الوقوع فى فخ «الحلقية» أو الارتداد دوما إلى نقطة البداية: فالتفكير فى اللغة يعنى التفكير فى ماهية التفكير ذاته، والبحث فى المعنى اللغوى يجرنا - حتما - إلى الخوض فى معنى المعنى.

وتتعدد الرؤى وتتباين فى شأن اللغة، ويتمحور الخلاف النظرى - فيما يخصنا هنا - حول السؤال الجوهرى: هل اللغة سلوك يكتسب، أم ملكة عقلية نولد بها؟ فى نظر سكينر، اللغة نوع من السلوك، السلوك الشفاهى كما أسماه، يتم اكتسابه من خلال التفاعل مع البيئة المحيطة. فنحن - كما يرى السلوكيون - نولد بأمخاخ خالية، صفحة بيضاء، ليس بها من وسائل معالجة الإشارات والمعلومات سوى عدد محدود من الآليات العامة لاستقبال المؤثرات وتوليد ردود الأفعال. فى ظل هذا التصور، يتم اكتساب اللغة - كغيرها من أنماط السلوك - عن طريق التقليد والتجربة والخطأ، ومن خلال تطبيق مبدأ الثواب والعقاب، من أجل تأكيد ردود الفعل الإيجابية تجاه المؤثرات اللغوية، وتثبيط السلبى منها. وهكذا تحولت عملية اكتساب اللغة إلى شيء أقرب ما يكون إلى تجارب بافلوف على كلبه الشهير، وردود فعله الشرطية الأكثر شهرة.

وفى منتصف الخمسينيات من القرن المنصرم، يتحرك بندول التنظير اللغوى إلى الاتجاه الآخر المناقض تماما لسلوكية سكينر، وذلك على يد نعوم تشومسكي ونموذجه الذهنى لتفسير أداء منظومة اللغة وكيفية اكتسابها. يفترض هذا النموذج أن البشر، على اختلاف أجناسهم، يولدون بملكة لغوية عامة يتوارثونها جيلا بعد جيل. يتم تطويع هذه «الغريزة اللغوية» - كما أطلق عليها البعض - لمطالب البيئة اللغوية الخاصة خلال عملية اكتساب الطفل لغته الأم. لقد افترض هذا النموذج الذهنى وجود «عضو لغوى» في بنية المخ البشرى يتولى القيام بالوظائف الذهنية المتعلقة باللغة. كغيره من مكونات المخ، يمكن النظر إلى هذا العضو بصفته نظاما فعالا لمعالجة المعلومات. يعمل هذا النظام البيولوجى المعلوماتى فى ظل مجموعة من القيود العامة التى توجه سلوك اللغة وعملية اكتسابها. تمثل مجموعة القيود هذه ما يعرف بمصطلح «النحو العام Universal Grammar»، أو «نحو الأنحاء» الذى تخضع له جميع اللغات الإنسانية قاطبة.

واجه تشومسكي صعوبة بالغة فى إثبات صحة الفرضية التى أقام عليها نموذجه الذهنى، ونحوه العام الذى تندرج فى إطاره جميع اللغات. وفى غياب الدليل البيولوجى المادى، لم يكن أمامه إلا أن يلجأ إلى التجريد النظرى. ومن خلاله، أثبت تشومسكي وجود العديد من القواسم المشتركة بين جميع اللغات، وفسر كثيرا من ظواهر الاختلاف بينها، وقد أسس برهانه على «تشريح» السلوك النحوى للغة الإنجليزية أساسا، مدعوما بشواهد عديدة من لغات أخرى تنتمى إلى أسر لغوية متباينة: وذلك من حيث أنماط تراكيب الجمل، وعلاقاتها النحوية، وعمل آليات التقديم والتأخير والإضمار والحذف والوصل والفصل وما شابه. لقد اتضح، بما لا يدع مجالا للشك، أن اللغات، مع شدة اختلافها وتنوعها، ودوام تطورها وتغيرها، تخضع لقيود معينة تمنعها من أن تشرد إلى ما هو غير نحوى، فلا توجد لغة - على سبيل المثال - تسمح بوجود أكثر من فعل للجملة الواحدة، وفى حين تسمح جميع اللغات بتعدد المفاعيل (أهدى فلان فلانا كتابا) إلا أنها تلتزم جميعا بوحدة الفاعل. وفى رأى تشومسكي، أن هذه القيود، التى يفرضها النحو العام للغات ذات أساس بيولوجى؛ بمعنى أن هناك فى المخ البشرى من العناصر المادية والوظائف الفسيولوجية ما يقيد عملية تطور اللغات بحيث لا يفلت زمامها وتتغير بصورة عشوائية، وذلك بالرغم من كل ما يطرأ عليها من إضافات وتحولات، وما يبتدعه الناطقون بها من جديد الألفاظ والتعابير، وما يسلكونه بها من مسالك شتى تلبية لمطالب حياتهم اليومية.

على الرغم من وجاهة التجريد النظرى الرياضى، ورصانة المنهجية العلمية التى صاغ بها تشومسكي نظريته العامة للغة، إلا أنها ظلت تنتظر سندا ماديا يأتيها من البيولوجى. وجاء الدليل الحاسم أخيرا من خلال دراسة أجريت على أسرة بريطانية يشكو أفرادها من عاهة لغوية مستديمة أفقدتهم القدرة على تكوين جمل نحوية سليمة، كان يقولون مثلا: «عانت فلان من قلب فى مرضه» بدلا من «عانى فلان من مرض فى قلبه». لقد أسفر التحليل البيولوجى لعينات من الدم أخذت من أفراد هذه الأسرة عن وجود جين معطوب توارثته سلالتها جيلا بعد جيل. صاحبت هذا الاكتشاف ضجة إعلامية كبيرة تعلن عن اكتشاف «جين النحو». ولا شك أن فى هذا ضربا من التبسيط الزائد: فلا يمكن لوظيفة ذهنية معقدة، مثل الوظيفة النحوية، أن يقوم بها جين واحد بعينه مهما بلغت قدرة هذا الجين. إن هذه الوظيفة مهمة فسيولوجية مركبة تتضافر فى القيام بها شبكة من الجينات، يمكن أن يؤدى عطب أى منها إلى خلل فى القدرة النحوية، كما حدث لأفراد الأسرة البريطانية المشار إليها. من جانب آخر، فالمخ البشرى بحكم طبيعته ينأى عن التخصص الوظيفى الضيق، ولا يمكن - بالتالى - أن تقوم آلياته بوظائف نحوية معينة كضبط أواخر الكلمات، أو مطابقة الفعل مع فاعله، أو ربط الضمير بمرجعه، فموارد المخ البشرى أثمن من أن تبدد باحتكارها من قبل واحدة أو أكثر من وظائف المخ اللغوية. إن عمل المخ يقوم على فكرة بسيطة وأساسية، مفادها: أن الوظائف المتخصصة يتم «تفتيتها» فى صورة آليات فسيولوجية أولية شديدة العمومية. بفضل طابعها الأولى اللاتخصصى هذا، يصبح بالإمكان أن تتقاسم هذه الآليات وظائف ذهنية متعددة، كوظائف اللغة والإبصار والتوافق الحركى وتذوق الجماليات وخلافه. وعليه، فالوظائف اللغوية، كغيرها من الوظائف الذهنية، لا تدين لنظام معالجة المعلومات داخل المخ إلا بعد تجريدها فى صورة عدد قليل من الآليات الأولية كالمطابقة والمقارنة، والدمج والفصل، والتفريع والتجميع، وهلم جرا.

تتفق الآراء على أن فهمنا لعمل منظومة اللغة واكتسابها لا يمكن أن يقوم على دراسة جين معين، أو حتى عدة جينات. إن عملية الفهم هذه أعقد من ذلك بكثير، ولن تتأتى لنا دون إماطة اللثام عن شبكة العلاقات الكثيفة التى تربط بين جينات «العضو اللغوى» سالف الذكر، وهنا يأتى دور نظم الذكاء الاصطناعى التى تسعى إلى محاكاة وظائف المخ البشرية كوسيلة للسيطرة على هذه العملية البيولوجية البالغة التعقيد. لا يمكن القيام بهذا الدور التكنولوجى والكشف عن النسق المعرفى اللغوى داخل المخ دون إسهام فعال من البيولوجيا الجزيئية فى مجال فسيولوجيا المخ عموما، ومجال اللغويات الأعصابية neuro-linguistics بصفة خاصة.

لغـــة الـوراثـة

مسار التطور البيولوجى أبعد ما يكون عن كونه سلما للصعود صوب الأعقد والأرقى، ومن الخطأ أن ينظر إلى هذا المسار على أنه تدرج سلس تتطور من خلاله الكائنات بصورة منتظمة، فى خطية زمنية يسهل معها استشراف غاياتها وتوقع ما يسفر عنه تعاقبها. ومن أين لنا بهذا الانتظام، وتلك الخطية. والتطور البيولوجى هو - فى جوهره - وليد الطفرات المفاجئة: فبانتقال التعليمات الوراثية من جيل إلى جيل، تحدث أخطاء يؤدى تراكمها إلى ظهور أشكال جديدة من الحياة. والسؤال الذى يطرح نفسه هنا: كيف لهذه الطفرات العشوائية أن تنتظم لتؤلف هذه السيمفونية الرائعة لتنوع الكائنات الحية؟ وكيف ظلت تتراكم وترقى بمسار التطور حتى أفرزت هذا الكائن البشرى الفريد؟!!.

فى نظر الكثيرين، لم يعد كافيا، ولا مقنعا، تفسير هذا التطور البيولوجى بالاستناد فقط إلى قانون الانتخاب الطبيعى، وهو القانون القائم على مبدأ البقاء للأصلح. و«الأصلح» هنا هو ذلك الكائن المحظوظ الذى تهبه صدفة الطفور ميزة تنافسية تزيد

سنركز هنا على الضلع الواصل بين البيولوجي واللغة، وسنبدأ بتقديم طرفيه في إطار العلاقة الانعكاسية لـ «وراثة اللغة ولغة الوراثة»، ثم نحدد على ضوئها أين يلتقي الطرفان؟ وأين يفترقان؟ ونختتم بطرح تصورنا عن المغزى المعرفي للقاء اللغوى- البيولوجي بصفته الركيزة الأساسية لمثلثنا الذهبي

من قدرته على التكيف مع البيئة، والتفوق على منافسيه من الكائنات التي تشاركه الحياة في هذه البيئة. إن الانتخاب الطبيعي يفسر التطور من خارجه، باعتباره محض تراكم لصدف الطفرات يتم تهذيب عشوائيتها بفعل أيادي الطبيعة الخفية. ليس من الصعب إدراك ما في هذا التوجه من قصور: فكيف يتاح لنا تفسير آلية تطور الكائنات اكتفاء بعلاقتها بخارجها، دون أن نأخذ في الاعتبار ما يجرى بداخلها، داخل خلاياها وأنسجتها وأعضائها وشبكة أعصابها؟!! وإذا ما اتفقنا على أن التطور هو وليد تراكم الطفرات، أليس من المنطقي أن تكون نقطة البداية هي البحث في مصدر توليد هذه الطفرات؟ دعنا نصغ ما نرمي إليه بلغة نظرية الاتصال لنؤكد أنه قد صار لزاما علينا إعادة النظر في عملية التطور انطلاقا من المرسل الذي يولد الطفرات، بدلا من منظور المستقبل الذي يكيفها لمطالب بيئته. إن الهدف من وراء ذلك هو التعرف بصورة أوضح وأعمق على مصدر الطفرات الوراثية النابض داخل الكائن الحيوي، وأن نضع أيدينا على القيود الكامنة التي تحدد سلوك هذا المصدر من حيث معدل ظهور الطفرات، ومدى الاحتمالات التي تتحرك في نطاقه. وهي القيود التي تتحكم في عملية التواصل الوراثي، والتي تمنع - بالتالي - ظهور كائنات عشوائية كتلك التي نسمع عنها في عالم الكائنات الخرافية من ذوات الرأسين والأرجل الست والعين الواحدة.

كما يقر اللغويون بمبدأ العموم اللغوى الذي يقوم - كما سبق وأوضحنا - على أساس وجود نحو عام موحد تخضع له جميع اللغات، تقر كذلك غالبية البيولوجيين بأن جميع الكائنات الحية تؤول إلى أصل واحد مشترك، وهو الأمر الذي أغرى بالبحث عن نظرية بيولوجية عامة تندرج في إطارها جميع الكائنات: من الحيوانات إلى النباتات، ومن أرقى المخلوقات إلى أدنى الفيروسات. عادة ما يكون الطريق إلى مثل هذا التعميم التنظيري من خلال إسقاط التفاصيل والارتقاء إلى مستويات أعلى من التجريد، وهو الأمر الذي يصعب تحقيقه على المستوى البيولوجي ما لم تتجاوز الكيمياء الحيوية بتفاصيل جزيئاتها وذراتها وتفاعلاتها. فكيف يمكن لنا الإحاطة بحقيقة ما يحدث بين هذا الكم الهائل من العناصر البيولوجية دون أن نضحي بدقائق الميكرو الكيميائي حتى يتسنى لنا الإلمام بأطراف الرواية الكبرى للحدث البيولوجي الجلل. لقد كان أرسطو هو أول من قال بأن هنالك وراء العمليات البيولوجية وظاهرها المادي قوانين صورية تتحكم فيها وتوجه مسارها، وبعد ثلاثة وعشرين قرنا تقدم لنا البيولوجيا الجزيئية الدليل القاطع على نفاذ بصيرة المعلم الأول، وتطلق بذلك إشارة البدء لعصر ما يمكن أن نطلق عليه «البيولوجيا الصورية formal biology» خلاصة القول، لا بد من اللجوء إلى التجريد الرمزي، ونعني به ضرورة الارتقاء بالمعالجة التنظيرية من مادية الكيمياء الحيوية إلى رمزية لغة الجينات، وهنيئا لأهل اللغة وأهل البيولوجيا الجزيئية زواجهما الكاثوليكي السعيد.

لتأكيد أوجه الشبه بين اللغة الإنسانية ولغة الجينات، رأينا أن نقيم بينهما تناظرا مباشرا بأسلوب «واحد-إلى-واحد»، وذلك على المستويات اللغوية المختلفة، ونقصد بها مستويات: النص والفصل والفقرة والجملة والكلمة والمعجم والمعنى والنحو. يلخص الشكل هذه المقابلة اللغوية - البيولوجية متدرجة على مدى المستويات المذكورة، من سردية النص إلى سلاسل الحروف، ومن معاني الكلمات المفردة إلى معاني الجمل والفقرات[1]. ويوصي الكاتب بشدة أن تقترن قراءة الفقرات التالية بقراءة الشكل أيضا، وقد رأينا تسهيلا لذلك أن نسلسل السرد وفقا للتتابع الذي صمم به الشكل.

(أ) النص: تواتر استخدام مصطلح «الجينوم» حتى أصبح أكثر مفردات الفلكلور البيولوجي جاذبية وسحرا، ويرمزون به إلى «السفر الوراثي» الكامل الذي تحمله في جوفها نواة كل خلية، من الـ ٦٠ تريليون خلية التي تبني الكائن البشري. يقدر حجم هذا النص البيولوجي بثلاثة بلايين حرف، وهو يتضمن جميع المعلومات اللازمة لكي نكون بشرا. إن السفر الوراثي هو السر المكنون الذي أودعه الخالق في نواة الخلية، وهي - أي النواة - بالنسبة إلى مملكة الخلية في مقام «غرفة العرش» كما شبههما البعض: فهي صاحبة الأمر والنهي، التي تختزن دستور حياتنا المدون فيه جميع التعليمات التي تصنع مادة الحياة (البروتينات) وتبني الأنسجة والعظام وتوجه وظائف الأعضاء، وتشكل غرائزنا وميولنا النفسية، وتتحكم في حياتنا؛ فسيولوجيا وباثولوجيا، من لحظة الميلاد حتى ساعة الممات. والجينوم ليس دستور حاضرنا البيولوجي فقط، بل هو أيضا - وهذا سر آخر من أسرار عظمته - أرشيف وراثي تسجل فيه جميع وقائع التطور البيولوجي على مر العصور. فكل مرحلة من مراحل التطور تترك وراءها بقايا رمزية تحفر في سفرنا الوراثي. وبناء على ذلك، فكل خلية من خلايانا - كما قيل - تمثل أحفورة fossil بيولوجية تحمل من البيانات ما يفوق أحفورات الصخور. الجينوم - إذن - هو الدستور وأرشيف المحفوظات معا؛ لكونه النص الذي يجمع بين الحاضر البيولوجي وبين الأركيولوجي الوراثي. بقول آخر، إن الجينوم لا يتضمن معلومات بناء أجسامنا فقط، بل يحمل أيضا من المعلومات ما يمكن بواسطتها إعادة بناء تاريخنا الوراثي.

(ب) الفصول: كنظيره اللغوى، ينقسم النص الوراثي إلى مجموعة من الفصول، يمثلها ٢٣ زوجا من الكروموزومات الموجودة في نواة الخلية. والكروموزوم هو «خيط» ملتف من البروتين يغلف الحلزون المزدوج، جزئ الدنا، أو معبود القرن العشرين كما يهوى للبعض أن يدلله. وهو - أي الحلزون المزدوج - سلسلة متصلة من الجينات تختلف أعدادها ومهامها البيولوجية من كروموزوم إلى آخر، ولكل من هذه الجينات موقعه المحدد في النص الكروموزومي. تتخلل سلسلة الجينات داخل هذا النص مسافات من سقط الدنا، أو الفائض، وهو ما يمكن اعتباره لغوا بيولوجيا - إن جاز التعبير - لم تتضح وظيفته بعد.

(ج) الجمل: يمثل الجين الأساس الرمزي للكائنات الحية الذي يتحكم في نمونا وكيمياء أجسادنا ولون أعيننا وبشرتنا ووظائف أعضائنا. وكما أن الجملة في النص اللغوى هي أصغر وحدة لغوية تفيد المعنى، فالجين بالنسبة إلى الجينوم هو بمثابة «الجملة البيولوجية» التي تفيد القيام بمهمة بيولوجية محددة وفقاً للتعليمات المسطورة بسلسلة حروف الجين. تصدر هذه التعليمات في هيئة رسالة توجهها نواة الخلية إلى مصنع إنتاج مواد بناء الجسم و«مستلزمات تشغيله». تتم عملية التصنيع بواسطة آليات متخصصة خارج نواة الخلية تقوم بتنفيذ المهمة البيولوجية الموكلة إليها، وذلك بترجمة مضمون رسالة الجين إلى مقابله المادي من بروتينات وإنزيمات وخلافه.

ومرة أخرى، وكما تمثل الفقرة، أو مجموعة الجمل، وحدة مفهومية قائمة بذاتها داخل النص، تمثل مجموعة الجينات، أو الجمل البيولوجية، فقرة كروموزومية تؤدي وظيفة بيولوجية متكاملة، فهناك - على سبيل المثال - فقرة كروموزومية لا يزيد طولها على عشرة جينات هي المسئولة عن لون بشرتنا، وفقرة أخرى أطول منها مسئولة عن إكساب العين القدرة على تمييز الألوان.

(د) الأبجدية: يصاغ النص الوراثي باستخدام أبجدية بسيطة مكونة من أربعة أحرف لا غير، وهي (A,C,T,G)، يناظر كل حرف منها قاعدة كيميائية (جزئ قاعدي) معينة. يناظر حرف (A) الجزيء القاعدي «أدنين»، وحرف (C) الجزيء القاعدي «ستوزين» وحرف (T) الجزيء القاعدي «ثيمين»، وحرف (G) الجزيء القاعدي «جوانين». (لقد اكتشف العلماء أن درجات سلم الحلزون المزدوج تتكون كل واحدة منها من اثنتين من القواعد الأربعة، وأن جزئيات هذه القواعد ترتبط بعضها مع بعض بنظام ثابت، فإذا كانت إحداهما «جوانين» فلا بد أن تكون الثانية «ستوزين» وإذا كانت إحداهما «أدنين» فلا بد أن تكون الثانية «ثيمين»، وهكذا)[2]. ترتبط سلاسل الحروف بشريط الحلزون المزدوج برباط كيميائي متين يضمن الحفاظ على مضمون النص الوراثي، في حين يرتبط كل حرف على شريط الحلزون المزدوج بنظيره على الشريط الآخر برباط كيميائي ضعيف يسمح بسهولة انشطار شطري الحلزون المصاحبة لعملية الانقسام الخلوى.

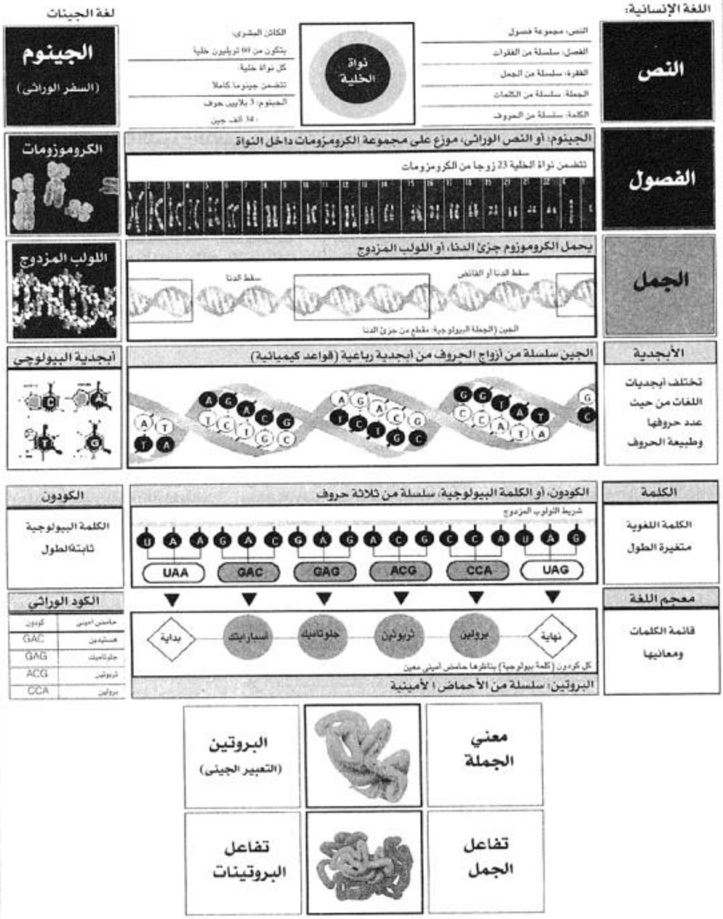
(هـ) الكلمة: ومن الحروف إلى الكلمات، حيث تمثل كل ثلاثة أحرف من سلسلة حروف الجين، كلمة بيولوجية، أو «كودون» وفقا للمصطلح الفني.

هذا يكفي عن البنية الرمزية للجينوم؛ من نصه الكامل حتى سلاسل حروفه، لننتقل بحديثنا إلى معنى الكلمات والجمل والفقرات البيولوجية.

(و) معجم اللغة: يمثل الكود الوراثي معجم لغة الجينات، وهو معجم ذو عدد ثابت من الكلمات، أو الكودونات (٦٤ كلمة). يقابل كل كودون منها حامض أميني معين، وهو في مقام المعنى بالنسبة إلى الكلمة البيولوجية. لا تنتج آلية التصنيع البيولوجي إلا ٢٠ نوعا من الأحماض الأمينية فقط، وهو ما يقل بكثير عن العدد السابق ذكره لكلمات المعجم الوراثي. يعني ذلك أن هناك أكثر من كلمة بيولوجية (كودون) يتم «تشفيرها» إلى نفس الحامض الأميني، وهو ما يشبه ظاهرة الترادف في اللغة الإنسانية الذي يسمح بوجود أكثر من كلمة للدلالة على نفس المعنى.

(ز) معنى الجملة: يناظر البروتين معنى الجملة، فهو المقابل المادي المعبر عن المضمون الرمزي للجين، وكما يتكون الجين، أو الجملة البيولوجية، من الكودونات (الكلمات البيولوجية)، يتألف البروتين من سلسلة الأحماض الأمينية التي تشفر إليها هذه الكودونات. مثله مثل الجملة اللغوية، يشتمل الجين على علامات ترقيم في هيئة كودونات معينة تحدد بدايته ونهايته، وهما تحددان بدورهما بدء عملية تصنيع البروتين وإنهاءها. البروتين - إذن - هو التعبير الجيني المحسوس الذي تترجم إليه سلسلة حروف الجين. إنها عملية الترجمة البيولوجية التي تتوقف عليها حياتنا. لقد هلل البيولوجيون كثيرا ما إن اكتشفوا أن الجين، وليس البروتين، هو الحامل للمادة الوراثية؛ وذلك نظرا إلى صعوبة عزل البروتين النقي، والتعامل معه معمليا. ولكن وراء هذه النقلة النوعية في الفكر البيولوجي ما هو أهم بكثير من تلك الدوافع العملية. فهي تعني التحرر من قيود التعامل مع العناصر المادية، والانتقال إلى رحابة التعامل مع الرمز. إن الرمزية هي التي مكنت عملية تطور الكائنات من تجاوز القيود المادية؛ فالتعامل مع الرمزي - بحكم طبيعته - أقل مسئولية من التعامل مع المادي؛ مما يسمح لآليات التطور بأن تلهو وتمرح وتمارس حقها في التعلم بالاكتشاف، ومن خلال التجربة والخطأ.

(ح) تفاعل معاني الجمل: تتفاعل الجمل داخل النص اللغوى وتتماسك بداخله لفظيا



شـكل (ب)

وتركيبيا ومنطقيا، كذلك تتفاعل الجينات داخل النص الكروموزومي، وتتفاعل فيما بينها البروتينات التى تترجم إليها. وقد ثبت أن البروتينات الأساسية تمتزج مع بعضها فى صورة بروتينات مركبة، بصورة تشبه تكوين الجمل اللغوية المركبة من الجمل البسيطة.

(ط) النحو: للغة الجينات، شأنها فى ذلك شأن اللغات الإنسانية، نحوها الخاص بها. إن هذا النحو البيولوجي هو الذى يحدد بنية البروتين ووظيفته، ويصوغ العلاقات بين الكودونات والجينات وخلافه. من المهم هنا أن نؤكد حقيقة أننا مازلنا نجهل الكثير عن طبيعة هذا النحو، وما نجحنا فيه حتى الآن هو قراءة نص الجينوم البشرى، لكننا أبعد ما نكون عن فهم بنية هذا النص، وتحليلها وإعرابها، وتحديد نوعية العلاقات التى تشغى بداخله، وكيف تتغير وظيفة الجين وفقا لموقعه داخل النص الوراثى؟ وكيف تمتزج البروتينات وتتضافر فى عملية بناء الأنسجة والقيام بالوظائف الفسيولوجية؟. هنا تبرز أهمية اللغة الإنسانية كنسق رمزى عام يمكن الاهتداء به من أجل فهم النسق الداخلى للغة الجينات. إن اللغة الإنسانية بمعجمها ونظمها وقيودها وبلاغتها ولبسها، بالإضافة إلى مشوار تنظيرها الطويل، تمثل نبعا معرفيا لا غنى عنه؛ من أجل اتخاذ أقصر السبل وصولا إلى تحديد البنية النحوية للغة الجينات.

خلاصة: لقد ولى عصر سيادة الكيمياء الحيوية على البيولوجى، فمرحبا بالرمزية ونظم المحاكاة والترجمة ونظم التكويد والتشفير والاختزال والاستخلاص والاشتقاق والإعراب الآلى والتحليل الدلالى. إن الصورية الرمزية تعطى شكلا لما لا شكل له، وتعيد تشكيل ما سبق أن تشكل فى أذهاننا. لذا سيؤدى التوجه الرمزى اللغوى حتما إلى إعادة طرح كثير من الظواهر البيولوجية طرحا مغايرا تماما لما عهدناه فى الماضى. ففى ظل هذا التوجه، ربما ينظر إلى الشيخوخة - على سبيل المثال - على أنها نتيجة زيادة الأخطاء المطبعية فى الرسائل البيولوجية المتبادلة داخل الجسم، وإلى صعوبة اكتشاف مصل مضاد لمرض الإيدز على أنها نتيجة للعبث فى قراءة جينوم الفيروس المسبب للمرض. فقد ورد فى إحدى الأدبيات (٣) أخيرا إن قراءة الجينوم تتم بصورة عشوائية، حيث تقفز آلية القراءة البيولوجية من موضع إلى موضع آخر فيه بلا ضابط ودون تدقيق هجائى أو نحوى. إنه ضرب من تعدد القراءات إن جاز التعبير، مما يبدو معه الجينوم كنص دائم التغيير، وهو ما يؤدى بدوره إلى إنتاج بروتينات غريبة غير متوقعة يصعب تحديد المواد المضادة لها. يصل التطرف فى

لقد افترض هذا النموذج الذهنى وجود «عضو لغوى» فى بنية المخ البشرى يتولى القيام بالوظائف الذهنية المتعلقة باللغة. كغيره من مكونات المخ، يمكن النظر إلى هذا العضو بصفته نظاما فعالا لمعالجة المعلومات. يعمل هذا النظام البيولوجى المعلوماتى فى ظل مجموعة من القيود العامة التى توجه سلوك اللغة وعملية اكتسابها. تمثل مجموعة القيود هذه ما يعرف بمصطلح «النحو العام Universal Grammar»

نزعة الرمزية البيولوجية من قبل البعض إلى حد اعتبار الفروق بين الإنسان وسلالة القرود مجرد اختلاف فى المعلومات لا أكثر. حقا، لقد تهيا العقل البشرى لحوار مثير بين البيولوجى واللغة. وهو ما يفرض علينا أن نحدد أين يلتقى طرفا هذا الثنائى المعرفى المحورى، وأين يفترقان؟.

مواضع الالتقاء والافتراق

ستتناول فيما يلى بإيجاز أوجه الالتقاء والافتراق بين اللغة الإنسانية ولغة الجينات، وسينحصر حديثنا على بعض الجوانب الرئيسية لمنظومة اللغة. وهى: العمومية اللغوية - الخاصة التوليدية - ثنائية البنية - نمط التطور - الحساسية السياقية - آلية الاشتقاق - خاصية التضاد - الفائض اللغوى - الحتمية - المنهجية العلمية.

(أ) العمومية اللغوية: كما أوضحنا سابقا، تتسم اللغات الإنسانية ولغة الجينات بما يطلق عليه خاصية العمومية اللغوية. فقد ثبت نظريا، ومن خلال البحوث الميدانية للأنثربولوجيا اللغوية، أن جميع اللغات الإنسانية تشترك فى خصائص عديدة سواء على مستوى الصوتيات أو بنية الكلمات أو تراكيب الجمل وأنماطها. أما لغة الجينات، فهى لغة عامة مشتركة بين جميع الكائنات، وهى تتسم بدرجة عالية من العمومية. حيث تستخدم نفس الأبجدية الرباعية، ونفس الكود الوراثى، أو معجم الكلمات (الكودونات)، التى تشفر لنفس مجموعة الأحماض الأمينية. بناء على ذلك يمكن القول أن عمومية لغة الجينات، نظرا إلى وحدة أبجديتها ومعجمها، تفوق بكثير عمومية اللغات الإنسانية التى تختلف أبجدياتها ومعاجمها بصورة كبيرة.

(ب) الخاصية التوليدية: يواجه علماء البيولوجيا الجزيئية هذه الأيام سؤالا محيرا بعد أن أظهر مشروع الجينوم خطأ التقديرات السابقة لعدد جينات النص الوراثى البشرى، والتى تقدر حاليا بما لا يزيد على ٣٥ ألف جين. والسؤال هو: كيف لهذا العدد المحدود من الجينات أن يولد كل هذه البروتينات والإنزيمات والوظائف الفسيولوجية، والخصائص البيولوجية والغرائز النفسية؟. لقد واجه اللغويون من قبلهم ذات السؤال فى صياغة أخرى هى: كيف للغة الإنسانية المحدودة من حيث عدد الحروف والكلمات والأساليب النحوية أن تولد هذه الأعداد اللانهائية من التعابير اللغوية؟. وجاءت إجابة هذا السؤال من قبل نظرية النحو التوليدى التى تتناول كيفية توليد الصيغ اللغوية المتعددة من الكلمات وأشباه الجمل، والتى تلخصها مقولة تشومسكى الشهيرة: اللغة هى الاستخدام اللامحدود لموارد محدودة. لا يبدو مستغرباً فى ظل ما طرحناه من أن يكون عنوان المحاضرة التى ألقاها أحد علماء البيولوجى فى حفل منحه جائزة نوبل هو: «النحو التوليدى للحياة».

(ج) ثنائية البنية اللغوية: أقام تشومسكى نظريته اللغوية على أساس أن منظومة اللغة ذات بنية ثنائية، ويقصد بذلك أن الجملة اللغوية لها بنية سطحية ظاهرة هى تلك التى تنطق بها، وبنية منطقية عميقة، وهى البنية التى تتشكل فى مخ صاحب الجملة قبل النطق بها. خلال عملية الإخراج الصوتى، يتم تحويل هذه البنية العميقة إلى البنية السطحية، وقد تجسدت ألفاظا وأصواتا، ونبرا وتنغيما، وتقديما وتأخيرا، وإسفارا وحذفا وإضمارا وهلم جرا.

تتسم لغة الجينات بعدة مظاهر تؤكد خاصية الثنائية بنيتها. من أبرز هذه المظاهر ما يطلق عليه ثنائية النمط الجينى genotype والنمط الظاهرى henotype يقصد بالنمط الجينى سلسلة حروف الجين كما هى مسجلة فى نص الجينوم، وبالتالى فهو بمثابة البنية العميقة الكامنة فى نواة الخلية، حاملة هذا النص. يمثل النمط الظاهرى البنية السطحية التى يتحول فيها النمط الجينى إلى سمات ظاهرة محسوسة، كلون البشرة، ودرجة خشونة الشعر، ونوع فصيلة الدم.

(د) نمط التطور: بصفة عامة: يمكن القول إن الكائنات واللغات فى عملية تطور مستمر، وكما تنقرض الكائنات تنقرض اللغات أيضا، وكما أمكن فى الماضى إعادة إحياء اللغات المندثرة (كاللغة العبرية مثلا) يتنامى الاعتقاد حاليا بإمكان إعادة إحياء بعض ما انقرض من الكائنات.

تتطور الكائنات الحية من خلال تراكم الطفرات، وبالمثل تتطور اللغات الحية من خلال تراكم طفرات الإبداع اللغوى، الذى يضيف كل يوم جديدا إلى معجم اللغة وأنماط استخدامها، فى هيئة ألفاظ ومعان جديدة، وتراكيب نحوية مستحدثة، وصور مجازية مبتكرة.

من أبرز أوجه الافتراق، بين تطور الكائنات وتطور اللغات، هو التباين الشديد فى القاعدة الزمنية لكليهما. فعقارب ساعة التطور البيولوجى تتحرك بوحدة البلايين والملايين ومئات الآلاف من السنين، فى حين تتسم ساعة التطور اللغوى بإيقاعها السريع (نسبيا بالطبع)، فجميع اللغات الإنسانية قد نشأت فى الثلاثين ألف سنة الأخيرة، وعادة ما يطمس أصل اللغات ما إن يمضى على تغيرها ألف سنة على الأكثر. حيث يصعب بعدها معرفة أصل الألفاظ، أو العوامل التى أدت إلى تغير الظواهر اللغوية الأخرى.

ننهى حديثنا عن تطور الكائنات وتطور اللغات بما خلص إليه البحض من أن التنوع اللغوى كان عاملا أساسيا فى الحفاظ على تنوع الأجناس؛ حيث حدت الحواجز اللغوية من تداخل الجماعات ومن امتزاج الأجناس بالتالى، وربما يفسر ذلك جزئيا ما لوحظ من أن الأجناس القريبة فى شجرة تطور الكائنات عادة ما تتكلم لغات من نفس الأسرة اللغوية، وهو ما يؤكد الارتباط الوثيق بين تطور الكائنات وتطور اللغات.

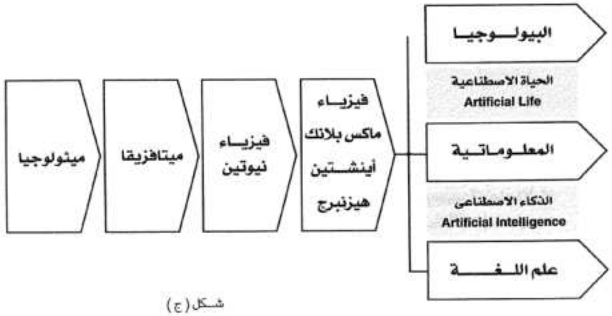
كما يقر اللغويون بمبدأ العموم اللغوى الذى يقوم - كما سبق وأوضحنا - على أساس وجود نحو عام موحد تخضع له جميع اللغات، تقر كذلك غالبية البيولوجيين بأن جميع الكائنات الحية تؤول إلى أصل واحد مشترك، وهو الأمر الذى أغرى بالبحث عن نظرية بيولوجية عامة تندرج فى إطارها جميع الكائنات

(هـ) الخاصية الاشتقاقية: تشتق الألفاظ اللغوية من بعضها البعض فى مسار اشتقاقى متصل، فمن الفعل «عمل» - على سبيل المثال - يشتق اسم فاعله «عامل»، ومن «عامل» تشتق صيغة الجمع «عمال» ومنها تشتق صيغة صفة النسب «عمالى». لهذا الاشتقاق ذى المستويات المتعددة ما يقابله فى عالم البيولوجى، حيث يمكن أن يؤدى أحد الجينات إلى توليد إنزيم معين، والذى يؤدى بدوره إلى توليد إنزيم آخر، وهكذا فى تسلسل متعاقب يصل أحيانا إلى أربعة مستويات من «الاشتقاق الإنزيمى».

(و) الحساسية السياقية: تتأثر الكلمات بالسياق الذى ترد به داخل الجملة، أى ما يحيط بها من كلمات، وكذلك تتأثر أصوات الحروف داخل الكلمات بما حولها من حروف. وهى الخاصية اللغوية المعروفة بمصطلح «الحساسية السياقية»، كمثال لها على مستوى التركيب، أو النحو، تظهر الكلمات حساسية نحو الكلمات التى تسبقها أو تلحقها، فيتطابق الفعل مع فاعله (جاء فلان، جاءت فلانة) وتتطابق الصفة مع موصوفها (رجلان كريمان، من امرأتين كريمتين). وكمثال على مستوى الدلالة، أو المعنى، تختلف معانى الكلمات وفقا لسياقها، فمعنى كلمة «قانون» - على سبيل المثال - يختلف فى سياق «ألحان القانون» بمعنى الآلة الموسيقية عن معناه فى «بنود القانون» بمعنى التشريع. للغة الجينات نصيبها من الحساسية السياقية أيضا: من بعض شواهدها اختلاف المهمة الموكلة إلى جين معين وفقا لسياقه داخل فقرة جزئ الدنا، وكذلك تتباين وظيفة الحامض الأمينى وفقا لموقعه داخل سلسلة الأحماض الأمينية المكونة للبروتين.

(ز) خاصية التضاد: يمثل التضاد خاصية أصيلة فى منظومتى اللغة والبيولوجى؛ حيث تزخر اللغة بمظاهر التضاد، كتلك بين الاسمية والفعلية، والمعلوم والمجهول، والظاهر والمستتر، والمهموس والمجهور، والإثبات والنفى، وهلم جرا. ومنظومة البيولوجى هى الأخرى زاخرة بالتضاد، تضاد الحمضى والقلوى، والكودون والكودون المضاد anti-codon، والأجسام والأجسام المضادة anti-bodies، ناهيك عن أن الأبجدية البيولوجية الرباعية هى فى حقيقة أمرها زوج من ثنائيات الحروف المتضادة؛ حيث يمثل زوج الحرفين (G, A) - كما أوضحنا سابقا - نوعا من التضاد الكيميائى مع زوج الحرفين (T , C)، وهذا التضاد هو ركيزة الترابط العضوى بين كل حرف ونظيره.

(ح) خاصية الفائض: يقصد بالفائض اللغوى أن اللغة توفر موارد معجمية ونحوية ودلالية تزيد على تلك المطلوبة لإنجاز عملية التواصل ونقل المعنى. فعلى المستوى المعجمى،



شكل (ج)

يعد الترادف نوعا من الفائض: فهو يوفر أكثر من لفظ للدلالة على نفس المعنى (مثال رقم واحد: أسد، ليث، مثال رقم ٢: يأتي إلينا - يقدم علينا - يحضر إلينا - ينزل لدينا). وعلى مستوى النحو، هناك أكثر من تركيب نحوى لصياغة نفس التعبير اللغوى (مثال: هل قرر الذهاب؟ - أقرر أن يذهب؟). وعلى مستوى الدلالة، فمعظم النصوص تضمن لغوا زائدا يمكن إسقاطه دون أن نخل بالمعنى الكلى للنص.

يشبه الفائض البيولوجي نظيره اللغوى في كثير من الأمور؛ فكما أن هناك ترادفا لغويا، هناك أيضا - كما أوضحنا سلفا - ترادف بيولوجي، ولكن أقوى شاهد على حدة الفائض البيولوجي هو - بلا منازع - كون الجينوم البشرى في أغلبه يمكن اعتباره فائضا، حيث لا يشفر منه إلى بروتينيات إلا ما يوازى ٣٪ تقريبا من إجمالي النص، أما الباقي، أو سقط الدنا، فهو بمثابة لغو بيولوجي إن جاز التعبير، لم يكتشف سره حتى الآن، ولا شك أن له دورا ستكشف عنه البيولوجيا الرمزية يوما ما، وربما تكون قد شرعت في ذلك بالفعل.

(ط) الحتمية: تقابل آخر بين اللغة والبيولوجي على مستوى الأيديولوجي هذه المرة، ونقصد بذلك الحتمية اللغوية ونظيرتها الحتمية البيولوجية، وكلتاهما ذات صلة وثيقة بالأخرى. تلخص المقولة الآخاذة «لغتي هي عالمي وحدود لغتي هي حدود عالمي» موقف دعاة الحتمية اللغوية، وذلك فيما يرونه من أن الجماعات الإنسانية تعى العالم وفقا لمسارات ترسمها لها لغتها، وفكر البشر تحدده المقولات اللغوية التي تتيحها لهم لغتهم الأم. وعليه، فالاختلافات اللغوية لا بد أن تؤدى بالتالي إلى اختلافات في الفكر. تشابه الحتمية البيولوجية في كثير من أوجهها نظيرتها اللغوية: حيث يزعم دعاتها أن هناك بعض سلالات بشرية قد حكم عليها بالتخلف الأبدى، وأن الجنس الذى ينتمي إليه الإنسان هو الذى يحدد مصيره الاجتماعي والاقتصادى والثقافي.

وجد دعاة الحتمية البيولوجية في نظرية داروين، ومبدأ البقاء للأصلح، سندا علميا زائفا يبررون به نزعاتهم العنصرية المتطرفة، وتصرفاتهم الشائنة من تعقيم وتعذيب واستبعاد اجتماعي. ومع أن المجتمع الغربي قد أعلن رفضه الرسمي لمفهوم الحتمية البيولوجية، إلا أن الكثيرين مازالوا متمسكين بالرأى القائل بأنْ هناك فروقا بيولوجية بين أجناس الشعوب. وها هى ذات النغمة العنصرية تتردد من جديد، متخذة هذه المرة من البيولوجيا الجزيئية سندا لا يقل في زيفه العلمي عن سابقه. يرى دعاة الحتمية البيولوجية الجدد أنها - أى البيولوجيا الجزيئية - قد وفرت الدليل العلمي القاطع على صحة نظرتهم العنصرية. حيث يمكن بواسطتها إرجاع الفروق بين الأجناس إلى تباين في جيناتها. لقد نسى هؤلاء، أو تناسوا، أن البيولوجيا الجزيئية قد جاءت بما هو عكس ذلك، بعد إثباتها أن فئات البشر جميعا تشترك في ٩٩,٩٥ من جيناتها.

(ى) المنهجية العلمية: من حيث المنطلق الأساسي، يقوم البحث العلمي في مجال علم اللغة - كما أسس له دى سوسير - على دراسة علاقة الرمز بالمعنى، والمعنى بدوره ليس كامنا في اللفظ، أى ليس جوهرا يحمله اللفظ في جوفه، بل المعنى - في حقيقة الأمر - قائم على التباين أصلا. ونقصد بذلك أنه - أى المعنى - هو محصلة علاقات الاختلاف التي تميز دلالة اللفظ عن غيره: فمعنى كلمة «حصان» - على سبيل المثال - هو محصلة الاختلافات بين «الحصان» وبين أقرانه من فصيلة الدواب الأخرى، وبين فصيلة الدواب تلك وفصائل الحيوانات الأخرى، وهكذا صعودا إلى اختلافات الثدييات عن غير الثدييات، وانتهاء بالاختلافات بين الكائنات الحية وغير الحية مرورا بتلك بين الحيوان والنبات. هذا النهج القائم على مفهوم التباين نجده أيضا في مجال البيولوجي، فقد خلص البعض إلى أن علم الوراثة ما هو، في جوهره، إلا بحث في التباين، التباين بين الجينات، وما يترتب عليه من تباين في السمات الوراثية.

وفيما يخص التعامل مع الظاهرة الزمنية، فقد فصل دى سوسير فصلا واضحا بين دراسة للغة الراهنة كما هي قائمة بالفعل، وبين دراسة ظاهرة التغير اللغوى ما بين فترة زمنية وأخرى، كتغير الإنجليزية القديمة إلى إنجليزية العصور الوسطى، ومنها إلى الإنجليزية الحديثة. هذا الفصل الزمني له ما يقابله أيضا في مجال البيولوجيا الجزيئية؛ فبينما يتصدى مشروع الجينوم لقراءة النص الوراثي كما هو قائم بالفعل، يسعى مشروع مواز آخر، مشروع تنوع الجينوم البشرى، إلى دراسة ظاهرة التطور البشرى، وتوثيق التباين بين أجناس البشر والتغيرات التي طرأت عليه بفعل الزمن نتيجة للتبادل الثقافي والاتصال الجغرافي وما أدى إليه من امتزاج الأجناس والأعراق.

على صعيد آخر، ومن منظور الوحدة اللغوية التي يجرى التعامل معها، يمكن القول أن اللغويات الحديثة بصورة عامة مازالت تتناول اللغة على مستوى لا يتجاوز وحدة الجملة، ومازال في بداياته الأولى علم النص الذى يتصدى لدراسة اللغة على مستوى ما فوق الجملة. تواجه البيولوجيا الجزيئية وضعا مشابها، حيث لم تتجاوز هي الأخرى وحدة الجين (الجملة البيولوجية)، ومازال أمام البيولوجيين شوط طويل قبل أن ينفذوا ببصيرتهم إلى ما فوق الجين، ونقصد بذلك دراسة محصلة التفاعل بين الجينات والبروتينات، وكيف تتضافر مع بعضها لبناء عضو بيولوجي معين، أو القيام بوظيفة فسيولوجية متكاملة، أو إكساب الفرد سمة وراثية محددة.

وأخيرًا، وليس آخرا، فإن النظرية اللغوية الحديثة قد قامت على أساس اللغة المفترضة، أى نظام اللغة المثالي كما يجب أن يكون من منظور النحاة، وليس على أساس اللغة الواقعية المستخدمة في الواقع العملي وهو ما يعرف في نظرية دى سوسير بثنائية: La langue - La parole. مازال علم اللغة في انتظار حدوث هذه النقلة النوعية في التعامل مع إشكالية اللغة وقد لاحت في الأفق بوادر هذا الحل فيما يعرف حاليا باللغويات النصية. يشابه هذا الموقف في أمور عدة ما يجرى حاليا على جبهة البيولوجي، فما إن أوشك العلماء على الانتهاء من مشروع الجينوم البشرى القائم أصلا على لغة الجينات، أو لغة البيولوجي المفترضة كما ينص عليها دستور حياتنا، حتى شرع البعض في التخطيط لمشروع عملاق آخر، مشروع البروتينوم Protenome: من أجل دراسة الواقع الفعلى للغة الجينات، وقد ترجمت إلى مقابل مادى محسوس من البروتينات والإنزيمات.

المغزى المعرفي للمثلث الذهبي

والآن عودة بحديثنا إلى الثلاثي المعرفي الذى يربط بين البيولوجي واللغة والمعلوماتية كي نتمعن في مغزاه من منظور فلسفة العلم وتاريخه. مدخلنا إلى ذلك هو تحديد موضعه على المسار التاريخي لتطور المعرفة الإنسانية الذى نستعرضه فيما يلى بإيجاز شديد وتبسيط أشد.

في طفولة عقله الأول، لم يكن أمام الإنسان إلا خرافة الأسطورة أداة لتفسير الظواهر من حوله، وما إن تنأى المعرفة الإنسانية عن لاعقلانية الميثولوجيا حتى تجد نفسها تائهة في تأملات الميتافيزيقا. وتستمر الحال إلى أن يأتي فرنسيس بيكون مطالبا بأورجانون جديد يخلص العقل الإنساني من جنوح الميتافيزيقا، على حد تعبير يمنى الخولي [٤]، ويعتمد بصورة أساسية على الملاحظة والتجريب، وعلى النظر إلى الطبيعة ككتاب مفتوح يمكن لنا اكتشاف القوانين التي يحكمها. وجاءت الاستجابة الرائعة متمثلة في فيزياء نيوتن وقوانينها القاطعة. لقد افترض العقل النيوتوني كونا وديعا مسالما خاضعا لصرامة القوانين الميكانيكية وحتمية المعادلات الرياضية. وهكذا، اختزلت الظواهر إلى مجموعة من الآليات، فحركة كل ما في الكون المادى، من أضخم الأجرام السماوية إلى أصغر الأجسام الأرضية، آلية يتحكم فيها قانون الجاذبية وثنائية الفعل ورد الفعل، والمجتمع آلية بيولوجية تعمل في ظل مبدأ البقاء للأصلح، وتطور الكائنات الحية آلية يسيرها قانون الانتخاب الطبيعي، والسوق آلية يسيطر عليها قانون العرض والطلب، والتاريخ - هو الآخر - آلية توجه أحداثه في خطية مطردة صوب غايات معينة بفعل قانون المادية الجدلية. حقا، لقد امتهن الزمن إلى الحد الذى أفقد التاريخ زمنيته؛ فالصيرورة، في ظل هذه الغائية المفرطة، وليدة الكينونة، والزمن، في هذا الكون الآلى المنضبط، يبدو وكأنه لعبة نلهو بها، يمكن أن نعكس اتجاه مساره لاسترجاع أحداث ماضيه استنادا إلى وقائع حاضرة.

وكان لا بد أن يؤدى الإسراف في الآلية إلى ظهور الحتمية، وقد شهد التاريخ الحديث سلسلة من الحتميات: حتمية بيولوجية وحتمية اجتماعية وحتمية تاريخية وحتمية لغوية. ويفيق العالم في بداية القرن العشرين من غيبوبة الحتم والإجابات النهائية الحاسمة؛ ليكتشف أن الكون ليس بهذه الوداعة، ولا يمكن إخضاع الظواهر إلى هذه الصرامة الميكانيكية القاطعة. وهكذا تأخذ الفيزياء الكلاسيكية في الأفول بخطى متسارعة، فكانت لاحتمية «كوانتم» ماكس بلانك ونسبية أينشتين وعدم يقين هيزنبرج. لقد تكشف للكثيرين مغزى مما خلص إليه نوربرت وينر، مؤسس علم السيبرناطيقا، من إنه لا يمكن توليد الجديد من القديم في عالم كل ما فيه ضرورى وحتمي، ولا مجال فيه لعبث المصادفة وزيغ الاحتمال. وهكذا تغيرت نظرة العلم إلى العالم، من عالم يقيني، محكوم بقوانين الانتظام والخطية والاطراد والتدرج والتراكم، إلى عالم لايقيني لاخطي غير مطرد ملئ بالشكوك والاحتمالات والمفاجآت. أمام كل هذه المتغيرات، كان لا بد للعلم أن يقر بديمومة عجزه، فهو يحمل في جوفه جرثومة خطئه وشرط تخطئته، محكوم عليه بعدم الاكتمال الأبدى، وستظل هناك - دوما - فجوة تفصل بين تعقد الواقع، وبين قدرة العقل على إدراك هذا التعقد وتفكيكه وسبر أغواره.

وها هى المعرفة الإنسانية قد راحت تبحث - ثانية - عن أورجانون جديد، لا يخلصها هذه المرة من جنوح الميتافيزيقا بل من جنوح الفيزيقا (الفيزياء) نفسها. لقد تمحورت فلسفة العلم حتى الآن حول الفيزياء، وحان لها أن تبحث عن

أرسطو هو أول من قال بأن هنالك وراء العمليات البيولوجية وظاهرها المادى قوانين صورية تتحكم فيها وتوجه مسارها، وبعد ثلاثة وعشرين قرنا تقدم لنا البيولوجيا الجزيئية الدليل القاطع على نفاذ بصيرة المعلم الأول، وتطلق بذلك إشارة البدء لعصر ما يمكن أن نطلق عليه «البيولوجيا الصورية» formal biology.

محور جديد أو محاور جديدة: فكل مجالات العلوم، طبيعية كانت أم إنسانية، تواجه أزمة منهجية من نوع ما، وقد باتت في أمس الحاجة إلى منطلقات جديدة يمكن من خلالها تناول الإشكاليات المستجدة التي أظهرتها بصورة غير مسبوقة متغيرات عصر المعلومات. لقد حان الوقت لكي يتخلص العقل الإنساني من النزعة الاختزالية ليواجه تعقد الواقع وجها لوجه، يواجه زيغه وشواشه وديناميات، دون ما حاجة إلى تقليص هذا الواقع حتى يدين لأدواتنا الذهنية ومواردنا المعرفية.

من الصعوبة بمكان التكهن بمسار تطور المعرفة الإنسانية، إلا أن هناك عدة مبررات وشواهد تشير إلى أن هناك ثلاثة مجالات معرفية تحتل مواقع الصدارة على خريطة المعرفة الإنسانية، وهي كما أشرنا في أكثر من موضع سابق: البيولوجيا الجزيئية، وعلم اللغة، والمعلوماتية. سنتناول فيما يلي باختصار مصادر الأهمية العلمية لكل من هذه المجالات الثلاثة.

(أ) البيولوجيا الجزيئية: اتخذ علم الماضي من الفيزياء التي تتعامل مع المادى غير الحيوى مدخلا لفهم البيولوجي الحيوى الزائغ الدائم التطور. من السهل علينا أن ندرك ما ينطوي عليه هذا التوجه العلمي من منطق عكسي لاستيعاب الأعقد في إطار الأبسط. لعبت الكيمياء الحيوية دور الوسيط المعرفي بين الفيزياء والبيولوجي، إلا أنها عجزت عن سبر أغوار اللغز البيولوجي. وجاءت لحظة الانفراج عام ١٩٥٣ باكتشاف جزئ الدنا، أو الحلزون المزدوج؛ ليتحرر بذلك البيولوجي من قبضة الفيزياء والكيمياء الحيوية. مع التقدم السريع في بحوث البيولوجيا الجزيئية، انقلب الوضع رأسا على عقب؛ حيث يسعى البيولوجيون حاليا إلى احتواء الفيزياء بصفتها حالة خاصة من البيولوجي؛ حالة «الصفر الحيوى» أو «بيولوجيا اللاحياة lifeless biology».

وكعهدنا بهم، يغالي المتخصصون في قدرة مجالهم المعرفي، فما من ظاهرة، طبيعية كانت أم إنسانية، إلا ولها ـ في رأيهم ـ شقها البيولوجي الذي يتناول جوانبها الدينامية وتطورها التاريخي بما فيه من طفرات النقلات النوعية المفاجئة. وتنشط آلة المجاز اللغوى لتفرز قائمة طويلة من المصطلحات ذات الطابع البيولوجي، التي إن دلت على شيء فإنما تدل على تغلغل النهج البيولوجي في منظومة الفكر الإنساني. من أمثلة هذه المصطلحات: أركيولوجيا المعرفة ـ الاستنساخ الثقافي ـ الذاكرة الجمعية ـ الداروينية الاجتماعية ـ الانقراض اللغوى ـ الميمات الذهنية كنظير معرفي للجينات البيولوجية. وربما نسمع عما قريب عن الدنا النفسي والجينوم الاجتماعي، والميموم الثقافي وما شابه. إنها نزعة «البلجنة» وقد تفشت في كل المجالات، فالبيولوجيا الجزيئية ـ في نظر أهلها ـ هي علم العلوم، وهي مفتاح فهم الماضي، والمدخل لحل إشكاليات المستقبل ووسيلة التخلص من الآثار السلبية التي خلفتها «حضارة الفيزياء». ويبدو الوضع وكأننا نواجه حتمية بيولوجية من نوع جديد، فالكائنات الحية ما هي إلا آليات تحركها الجينات، وكل شيء من السمات الجسدية إلى الميول النفسية والقدرات العقلية، بل وبعض أنماط السلوك الاجتماعي غير السوى، كالإجرام والخيانة الزوجية على سبيل المثال، يمكن إرجاعها إلى علل جينية. وكان لا بد أن تستفز نزعة التفسير الجيني المسرفة هذه سخرية البعض، فراح يتهكم: لقد اكتشفوا الجين الذي يؤدى إلى إرجاع كل شيء إلى الجينات..!!.

(ب) علم اللغة: ومن «بلجنة» العالم إلى «لغونته»: حيث سعى أهل الوضعية المنطقية وفلسفة اللغة إلى جعلها ـ أي اللغة ـ المحور الرئيسي الذي تدور حوله المعرفة الإنسانية الشاملة، في ظل هذه النزعة اللغوية يختزل أداء المجتمع إلى ناتج لتفاعل ألعاب اللغة، أو أنواع الخطاب اللغوى التي تسرى داخل كيانه. وكل مدارس الفكر المعاصر، من الحداثة وما بعدها، والبنيوية وما بعدها، والتأويلية والتفكيكية، قد اتخذت من اللغة ركيزة لها. وفي نظر أهل اللغة، ما من ظاهرة، طبيعية كانت أم إنسانية، إلا ولها شقها اللغوى السردى. ولم ترتق الفيزياء إلا بعد أن أجادت الحديث بلغة الرياضيات، وكذلك الكيمياء بعد أن لجأت إلى لغة الشكل وأبجدية رموز الجزيئات، والتقدم في علم الديناميكا الحرارية قد حدث بعد اكتشافها لغة الإحصاء. وأخيرا وليس آخرا، لم يكن للبيولوجيا الجزيئية أن تقوم لها قائمة ما لم تكتشف لغة الجينات. لقد أصبح الشاغل الرئيسي للفكر العلمي في ظل هذا التوجه اللغوى هو البحث في معنى الظواهر والأحداث، وكيف ينشأ هذا المعنى، لا البحث في الظواهر ذاتها، وكيف تنشأ هذه الظواهر والأحداث. لقد وصل الأمر إلى حد اعتبار الفكر العلمي ذاته ضربا من المهارات الذهنية لفك ألغاز اللغة، على حد تعبير كارل بوبر، في مقام هجومه على إسراف الوضعية المنطقية في تمركزها اللغوى.

(ج) المعلوماتية: وأخيرا، يخرج إلينا أهل المعلوماتية بقضهم وقضيضهم، يزعمون أن المعلوماتية هي الحل، فكل الظواهر في تصورهم يمكن صياغتها في صورة أنساق رمزية تدين للمعالجة الآلية بواسطة الكمبيوتر، وتخضع للنموذج الاتصالي الثلاثي المكون من المرسل والمستقبل وقناة الاتصال التي تربط بينهما. وفقا لهذا النموذج، البيولوجي نظام اتصال ترسل فيه نواة الخلية رسائلها إلى آليات إنتاج البروتين خارج النواة، واللغة نظام اتصال يربط بين المتكلم والمستمع من جانب، وبين المخ وجهازى النطق والسمع من جانب آخر. يمكن تطبيق نفس هذا النموذج الاتصالي على مجالات عدة من قنوات الإعلام الفضائية والمنظومات الاقتصادية إلى تلم الأفلاك السماوية والظواهر البيئية. ولا جدال في أن المعلوماتية هي الأداة المثلى لمواجهة التعقد، ووسيلة التحرر من الخطية والارتقاء صوب التفكير الشبكي المنظومي. لقد ساد فكر الماضي تناول العناصر منفردة مقطوعة الصلة بغيرها. ستتيح المعلوماتية النظر إلى هذه العناصر في هيئة منظومة شاملة تتفاعل بداخلها العناصر من خلال شبكة كثيفة من العلاقات، تتداخل فيها المؤثرات والنتائج بصورة تتجاوز ميكانيكية قانون العلة والأثر. علاوة على ما سبق، تعمل المعلوماتية كمعول هدم لكسر الحواجز المعرفية بين مجالات التخصص المختلفة. فبحكم طبيعة تعاملها مع الرمز، تنحو المعلوماتية إلى طمس التفاصيل وتناول الإشكاليات على مستوى المفاهيم المجردة؛ وهو ما يعمل على التقريب ما بين المجالات المعرفية المتباينة. وخير شاهد على ذلك هو ما نلاحظه حاليا من قيام المعلوماتية بدور الجسر الواصل بين علوم الطبيعيات وعلوم الإنسانيات، وعسى أن يكون في ذلك شفاء الفكر الإنساني من داء الثنائية الثقافية الخبيث.

ومرة أخرى، فلكل ظاهرة شقها المعلوماتي، وكل معرفة علمية لا تدين للمعالجة الآلية بواسطة الكمبيوتر ـ كما يزعم فرنسوا ليوتار ـ مآلها إلى الزوال. ولكن يقينا ستظل هناك ـ في رأينا ورأى كثيرين غيرنا ـ أمور عديدة يصعب أن تصل إليها اليد الطولى لتكنولوجيا المعلومات، فليس بالمعلومات وحدها يحيا الإنسان.

لعل ما أوردناه أعلاه يرقى دليلا على أن لكل من المجالات المعرفية الثلاثة حيثياته التي تؤهله لكي يصبح محورا تدور في فلكه الفصائل المعرفية الأخرى. أمام ظاهرة التنافس المعرفي هذه، يزعم الكاتب أن طبيعة المعرفة الإنسانية توشك أن تنتقل من معرفة أحادية المحور إلى معرفة متعددة المحاور، وكما قيل لا يمكن للمعرفة أن ترسخ وتكتمل إلا إذا نظرنا إليها من خلال عدة زوايا، وهنا يطرح المثلث البيولوجي ـ اللغوى ـ المعلوماتي نفسه كنقطة بداية قوية لفلسفة علم جديدة تقوم على تعدد مجالات المعرفة، وعبور حواجز التخصص التي تفصل بينها.

خلاصة القول

تكمن قوة التهجين لمثلثنا المعرفي في أمور عدة من أبرزها في رأى الكاتب:

- التمفصل المعرفي

ما إن أوشك العلماء على الانتهاء من مشروع الجينوم البشرى القائم أصلا على لغة الجينات، أو لغة البيولوجى المفترضة كما ينص عليها دستور حياتنا، حتى شرع البعض في التخطيط لمشروع عملاق آخر، مشروع البروتينوم Protenome؛ من أجل دراسة الواقع الفعلى للغة الجينات، وقد ترجمت إلى مقابل مادى محسوس من البروتينات والإنزيمات

ولا جدال فى أن المعلوماتية هى الأداة المثلى لمواجهة التعقد، ووسيلة التحرر من الخطية والارتقاء صوب التفكير الشبكى المنظومى. لقد ساد فكر الماضى تناول العناصر منفردة مقطوعة الصلة بغيرها. ستتيح المعلوماتية النظر إلى هذه العناصر فى هيئة منظومة شاملة تتفاعل بداخلها العناصر من خلال شبكة كثيفة من العلاقات، تتداخل فيها المؤثرات والنتائج بصورة تتجاوز ميكانيكية قانون العلة والأثر

* ندية التلاقح المعرفى
* النضوج الهندسى

(أ) التمفصل المعرفى: يمثل كل عنصر من هذه الثلاثية مفصلا معرفيا أساسيا، فعلى جبهة البيولوجى يلتقى الرمزى مع الكيميائى، ويلتقى الفسيولوجى مع الأركيولوجى، أى الوظيفى الفورى الراهن مع التراثى التاريخى المتراكم. وعلى ذات الجبهة أيضا، تلتقى قوة الداخل، المتمثلة فى قوة الجينات الكامنة فى نواة الخلية، مع قوة الخارج المتمثلة فى العوامل البيئية، كظروف المناخ ونمط الحياة اليومية والسلوك الفردى وما شابه. هذا عن المفصل البيولوجى. أما اللغة، هى المفصل بين البيولوجى والنفسى، وبين الشخصى والاجتماعى، وبين اللاوعى الفردى واللاوعى الجمعى. ويلتقى على جبهة اللغة أيضا الذاتى مع الموضوعى، والظاهرى مع البنيوى. وأخيرا، وعلى جبهة المعلوماتية، يلتقى المادى الفيزيائى، المتمثل فى شق العتاد hardware مع اللامادى الذهنى المتمثل فى شق البرمجيات software وقد أثمر هذا اللقاء المادى ـ الذهنى لقاءات أخرى أكثر إثارة، من أبرزها لقاء الواقعى مع الخيالى، ولقاء الآلى مع الحيوى، أو الاصطناعى مع الطبيعى.

إن هذا التمفصل المنهجى المعرفى لكل من عناصر مثلثنا الذهبى يضاعف من قوة التهجين العلمى، ويلم شتات المعرفة الإنسانية، ويعمل على ردم الهوة التى تفصل بين فروع التخصص المختلفة.

(ب) ندية التلاقح المعرفى: من أهم مصادر قوة هذا المزيج المعرفى الثلاثى أن كل عنصر فيه يمثل مدخلا أساسيا لحل إشكالية العنصرين الآخرين، وهو ما يمثل نموذجا فريدا فى دنيا التلاقح العملى والتكنولوجى لم يشهده تاريخ المعرفة الإنسانية من قبل. نستهل حديثنا عن هذا التلاقح عبر المحور البيولوجى ـ اللغوى، بما خلصت إليه «ليلا جالتين»، عالمة الفيزياء البيولوجية، من أن حل إشكالية البيولوجى يكمن فى اللغة، وأية نظرية بيولوجية لا تأخذ فى اعتبارها العمليات ذات الطابع اللغوى التى تحدث داخل الخلية هى ـ فى رأى جالتين ـ نظرية محكوم عليها بالفشل مسبقا. فى المقابل، يرى نعوم تشومسكى، رائد اللغويات الحديثة، أن حل اللغز اللغوى لن يحسمه المنطق والرياضيات، بل يكمن أساسا فى البيولوجى، ويقصد بذلك إماطة اللثام عن وظائف المخ اللغوية، وعلاقتها بجهازى السمع والنطق.

ويتكرر نفس مشهد الندية العلمية على المحور البيولوجى ـ المعلوماتى: فقد أيقن الكثيرون أنه لا يمكن السيطرة على ظاهرة التعقد البيولوجى دون اللجوء إلى المعلوماتية. لقد تجاوزت الإشكالية البيولوجية مرحلة الاستعانة بالفئران والذباب والأرانب والديدان، ولا بديل لاستخدام نظم المحاكاة الرقمية بواسطة الكمبيوتر، فبدونها يتعذر تصور ما يجرى من تفاعلات بين هذه الأعداد الهائلة من الخلايا والجينات والأنسجة والأعضاء والوظائف الفسيولوجية. من المتوقع أن يتم تقديم الدعم التكنولوجى الذى تعد به المعلوماتية علم البيولوجى من خلال ما يعرف حاليا بتكنولوجيا الحياة الاصطناعية Artificial Life، القائمة على محاكاة الوظائف الحيوية. من جانب آخر، فإن تكنولوجيا المعلومات بصفة عامة، ونظم قواعد البيانات واسترجاع المعلومات بصفة خاصة، تلعب دورا رئيسيا فى السيطرة على البيانات الوراثية ذات الكم الهائل ودرجة التعقد العالية. إن البحث فى محيطات المعلومات الشاسعة هذه يحتاج إلى أدوات برمجية متقدمة؛ من أجل تحديد مواضع سلاسل الجينات، وتمييز أنماطها آليا. تشهد على ذلك الأهداف الموضوعة لمشروع الجينوم، والتى شملت عدة أهداف ذات صلة وثيقة بتكنولوجيا المعلومات.

فى المقابل، فإن فضل البيولوجى على المعلوماتية، عتادا وبرمجيات، لا يقل ـ بل ربما يزيد ـ عن فضلها عليه. فعلى جبهة العتاد، قد بات واضحا أن التكنولوجيا القائمة على الفيزياء وشرائح السيلكون الإلكترونية اقتربت من حدودها القصوى، ولا أمل فى زيادة سرعة الكمبيوتر فى إنجاز العمليات الحسابية والمنطقية، إلا بتخلصه من قبضة الفيزياء واللجوء إلى البيولوجى. يجرى حاليا تطوير شرائح بيوسيلكونية bisilicon تجمع بين السيلكون والعناصر البيولوجية. علاوة على ذلك، يجرى حاليا دراسة استخدام هذه العناصر فى تطوير وسائط لتسجيل البيانات ذات سعة تخزين هائلة تفوق بكثير تلك الوسائط المغناطيسية والضوئية. وكما يسهم البيولوجى فى حل أزمة العتاد، يسهم كذلك بدور فعال فى تطوير البرمجيات؛ حيث تعد الخوارزميات الجينية genetic algorithms، والشبكات الأعصابية neural networks، بمثابة نقلة نوعية فى تكنولوجيا البرمجيات؛ من أجل تطوير نظم برمجية تحاكى النظم الحيوية فى مرونتها، وقدرتها على التعلم ذاتيا، والتكيف تلقائيا مع الظروف المحيطة.

وأخيرا، وعلى محور اللغة ـ المعلوماتية هناك تلاقح معرفى لا يقل إثارة عما سبق، فالمعلوماتية متمثلة فى هندسة اللغة، تمد اللغة بنظم آلية لمعالجة الصرف والنحو والدلالة، وتتيح لها أدوات برمجية لتنظيم المعاجم وإزاحة النقاب عن دقائق البنية الداخلية المعجمية. علاوة على ذلك، توفر المعلوماتية ـ ولأول مرة ـ وسائل عملية لتخزين الكم الهائل من النصوص الواقعية التى تمثل الاستخدام الفعلى للغة، اللغة وهى تعمل، وهى تؤدى وظائفها المختلفة فى الحياة اليومية، كوسيلة للإقناع والخداع، والمحاجاة والمناجاة، والتلقين والإيضاح، والقبول والاعتراض، وهلم جرا. وهو ما سيؤدى ـ كما يتوقع البعض ـ إلى تنظير لغوى ومعجمى جديد يتعامل مع واقع اللغة، لا كما يتصورها النحاة والمعجميون. وفضل اللغة على المعلوماتية لا يقل عن فضل الأخيرة عليها، فقد اقترضت لغات البرمجة (اللغات الاصطناعية كلغة بيسك وكوبول وباسكال) الكثير من خصائص اللغات الإنسانية، ويمثل الذكاء الاصطناعى همزة الوصل بين اللغة والمعلوماتية؛ حيث يرتكز ذكاء الآلة، بصفة أساسية، على محاكاة وظائف المخ اللغوية، فى ذات الوقت الذى ستستخدم فيه نظم الذكاء الاصطناعى (كنظم الترجمة الآلية على سبيل المثال) كمعمل تجريب لفهم الظواهر اللغوية المختلفة، واختبار صحة الفروض التى تقوم عليها النظريات المختلفة للغة، علاوة على تأصيل البحث فى مجال الدراسات اللغوية المقارنة والتقابلية.

(د) النضوج الهندسى: كل من عناصر مثلثنا المعرفى له شقه الهندسى، فللبيولوجيا هندستها الوراثية، وللغة هندسة اللغة ونظم الذكاء الاصطناعى، وللمعلومات هندسة النظم والبرمجيات والاتصالات. إن هذا النضوج الهندسى يؤهل هذه المجالات العلمية للدخول فى مجالات التطبيق التقنى سواء منفردة أو مجتمعة. وكما تتلاقح الفروع النظرية للمجالات المعرفية الثلاثة، كذلك تتلاقح فروعها الهندسية فى مزيج هندسى فريد من نوعه هو الآخر، وقد لاحت فى الأفق بالفعل بوادر هذا اللقاء الهندسى الثلاثى؛ فها نحن نسمع عن الروبوت الفيروسى، والبرمجيات الوراثية والبيومعلوماتية، وربما يتفتق ذهن البعض عن نظم برمجية تجمع بين الترجمة الآلية للغات، وآلية الترجمة البيولوجية التى تعمل داخل الخلية.

نتهى حديثنا عن المثلث المعرفى لتضافر البيولوجى واللغة والمعلوماتية، بتلخيص ما يمكن أن يؤدى إليه من نتائج فى دفع مسار المعرفة الإنسانية:

* عدم الفصل بين الماكرو والميكرو، على خلاف ما كان يحدث عادة فى الماضى؛ حيث كان الخوض فى التفاصيل الميكروية الدقيقة يتم عادة على حساب فقدان الرؤية الشاملة على مستوى الماكرو. إن التصدى للتعقد يتطلب التنقل الدائم بين الجزئى والكلى، وبين القدرة على تصور طوبوغرافية الماكرو انطلاقا من الميكرو، وعلى النفاذ إلى دقائق الميكرو انطلاقا من الماكرو.
* عدم الفصل بين الداخلى الحيوى والخارجى البيئى، وكذلك بين المعرفة الظاهرة الواعية، التى يتم اكتسابها بكامل إرادتنا من خلال قدراتنا ومهاراتنا، والمعرفة اللاوعية، فردية كانت أم جماعية، التى يتم اكتسابها وتوظيفها وفقدها دون إرادة منا.
* عدم الفصل بين العلوم الصورية formal المنطق والرياضيات، والعلوم الإخبارية informal الفيزياء والكيمياء والأحياء وما شابه.
* انتقال مركز الثقل فى مجالات علمية عديدة من دراسة أوجه الاختلاف والتباين، إلى دراسة أوجه التشابه والقواسم المشتركة. وتشمل هذه المجالات على سبيل المثال لا الحصر: البيولوجى، اللغويات، علم الثقافة، نظرية الأدب والأنثروبولوجيا. ونكتفى هنا بملاحظة عابرة فيما يخص تلك الأخيرة، فما أكثر ما تناول الخطاب الأنثروبولوجى الفوارق بين أجناس البشر، وما أقل ما قيل عن الإنسان العام universal human والقواسم المشتركة العديدة بين بنى البشر. وهل لنا أن نصغى إلى ما يعنيه الرأى القائل من أن القرن الماضى قد شهد مئة عام من الفكر الأنثروبولوجى الخاطئ، فقد أدخلنا هذا الفكر فى كرنفال من عوالم الدهشة بتركيزه على المثير فى حياة الجماعات والشعوب من غريب العادات والطقوس وعلاقات القرابة والأزياء الشعبية وما شابه؛ ليلهينا بغريبه المثير هذا عن رؤية السائد والمشترك بين فئات البشر.
* تضافر البيولوجى واللغوى والمعلوماتى فى سبر أغوار المخ البشرى، وما سيؤدى إليه ذلك من نتائج عديدة على أصعدة التربية والمعلوماتية وعلم النفس. ■

الهوامش

(١) استعان الكاتب فى تصميم هذا الشكل بما ورد فى المقال الرائع بقلم الدكتور أحمد مستجير بعنوان الجينوم. قراءة فى سفر الإنسان. وجهات نظر. يوليو، ٢٠٠٠

(٢) الفقرة ما بين القوسين نصًا من كتاب د. سمير حنا صادق «العلم ومستقبل العالم». ص ٤٣

(٣) Biology of human immunodeficienc Viruses M, Show P. 1845 in: Cecil Text Book of Medicine. ed. J. Claude Bennett and Fred Plum

(٤) يمنى الخولى: فلسفة العلم فى القرن العشرين، سلسلة عالم المعرفة. العدد ٢٦٤، ص ٦٣-٦٨

■■ نولد جميعاً سعداء، نولد وفى داخلنا «توق طبيعى» إلى السعادة يظل معنا طول العمر. كل شخص على وجه البسيطة يمكن أن يكون سعيداً. السعادة هى إحساس بالغبطة الحقيقية الطويلة الأمد، هى درجة رضا الفرد عن حياته. ليست السعادةُ ضحكةً طيبة، أو لهواً قصيراً، أو سروراً زائلاً. ليست بضع لحظات هانئة نقضيها قبل أن نعود إلى الحياة القاسية. نخلط كثيراً بين السرور والبهجة والضحك والانبساط والسعادة. نستخدم أيا من هذه الكلمات لنخلق صورة عامة لأناس يتمتعون بالحياة. لكن السعادة شيء مختلف. هى لا تروح وتجيء. السعادة باقية معنا بغض النظر عن الانفعالات اللحظية. يمكنك أن تضحك من قلبك وأنت سعيد. يمكنك أن تندب ضياع حبيب وأنت سعيد. السعادة حالة من حالات الشخصية، تبقى مع الفرد وهو يمور بشتى الانفعالات. أُمُّنا الطبيعة تقول إن السعادة فى راحة البال. راحة البال هى أفضل هدية تهديها لنفسك. أنت السعيد إذا كنت تقدر ذاتك، إذاكنت تعترف بقصورك، إذا قبلت الأحق لك فى أن تحكم على الآخرين، إذا كنت واثقاً بقدرتك على التعامل مع الحياة، إذا تقبلت كل إهانات الحياة بصدر رحب، إذا أدركت أن النجاح والثروة لا علاقة لهما بالسعادة!

كلنا ينشد السعادة. السعادة هدف نسعى إليه جميعاً. كل إنسان - أيًا كانت ثقافته أو عمره أو درجة تعليمه - يريد أن يصبح سعيداً. رغبتنا فى السعادة لا حَدَّ لها. توقُنا العاطفى إلى أن نحب وأن نُحَب، دافعنا الجسدى إلى الجنس والطعام والشراب، نزعتنا إلى التعبير الفنى أو العلمى، جوعنا الروحى للمغزى والراحة فى عالم مشوَّش محيِّر، كل هذه تختلط وتمتزج لتُنتج عنها رغبة عارمة لا تقاوم فيما نسميه السعادة.

ماذا يعنى إذن ألأ تكون السعادة - هدفنا الأسمى - هى نتيجة سعينا وإنما نتيجة بنية المخ؟ نتيجة الجزر والمد فى الناقلات العصبية، ونتيجة الكوكبة المتفردة من جيناتنا؟ أم تأتى السعادة عن مساعينا وخياراتنا وخبراتنا الحياتية؟ أم أن هذه مجرد روافد تُسهم فى السعادة؟ وإذا كانت تسهم فيمانا؟ إذا كانت السعادة مرتبطة ولو جزئياً بعلم الأعصاب، فهل يمكننا بالتحكم فى أمخاخنا وضبط الناقلات العصبية أن تصلح شبكة منظومة التوصيلات الكهربائية بالمخ لنصبح أكثر سعادة؟ يحاول الكتاب الذى نعرضه هنا أن يجيب عن هذه الأسئلة.

منذ أكثر من قرن كتب الفيلسوف والسيكولوجى الكبير ويليام جيمس عن كيفية اكتساب السعادة والاحتفاظ بها واسترجاعها:

The Science of Happiness

(علم اسمه السعادة)

Stephen Braun

John Wiley & Sons, Inc, 2000, 192 pp., $ 24.95

السعادة هى فى الحق سر الحافز الغامض وراء ما يفعله كل الناس فى كل زمان. كانت السعادة فى أيامه تعتبر ثمرة تجاريب الحياة التى عاشها الفرد. كانت هى النتيجة المباشرة للعمل الشاق، للقرارات الحياتية الصائبة، للتعليم الطيب، للحياة الهانئة، ولمجموعة أخرى من الأنشطة التى يتحكم فيها الفرد. الشخص يبذل ليجنى سعادته. أما الحزانى والمكتئبون فإنهم هم من جلبوا التعاسة على أنفسهم. لو أنك اقترحت فى تلك الأيام أن السعادة هى ثمرة عوامل وراثية أو بيولوجية، أو أن للعقاقير القدرة على إسعاد الناس، لوُصِفْتَ قطعاً بأنك أبله أو بأنك وغد!

عالم جديد شجاع

فى عام ١٩٣١ نشر ألدوس هكسلى روايته الشهيرة «عالم جديد شجاع»، تخيلَ فيها العالم بعد ستمائة عام، وتنبأ بالكثير من المشاكل، من بينها عقار بلا آثار جانبية أسماه «صوما» يخلِّص الإنسان من الكرب والألم وفراغ الحياة فى مجتمع طبقى مفرط فى تكنولوجيته مفلس فى روحانيته. هو دواء منشط مخدر يصيبك بالهلوسة اللذيذة، يأخذك فى إجازة من الواقع عندما ترغب، ثم يعيدك دون صداع أو قرف. كان هكسلى يرى فى الصوما شيئاً منكراً شريراً، فحماية الناس من الواقع الأليم، وتخديرهم فلا يحسون، واستبدالهم النشاط الصُّنْعى بالسعادة الحقيقية، إنما يشجع القبول السلبى للحكم القمعى. كان هكسلى لا يرى خيراً فى حبة الصوما، «حبة السعادة» المنشودة.

وبعد سنين من نشر كتابه، انتاب هكسلى القلق إذ رأى أن ما توقع حدوثه بعد ستمائة عام قد غدا على وشك أن يتحقق فى حياته. فى طبعة ١٩٤٦ من هذا الكتاب كتب يقول: «إن تحرير الطاقة الذرية يسجل ثورة هائلة فى تاريخ البشرية، لكنه ليس بالثورة الأخيرة، ولا بالثورة الكبرى. الثورة الثورية لن نبلغها فى العالم الخارجى، وإنما فى روح الإنسان ولحمه». كان هكسلى يشير إلى النشاط المتزايد فى علمين جديدين: علم الوراثة وعلم العقاقير. فقبل أن يكشف واطسون وكريك تركيب الدنا (DNA مادة الوراثة) أدرك هكسلى أن التوسع فى تفهم الوراثة سيمكِّن الإنسان من تحوير طبيعته قبل أن يولد. وبنفس البصيرة رأى أن انفجاراً معرفياً مشابهاً فى مجال عمل المخ سيمكِّننا فى نهاية الأمر من تغيير الطبيعة البشرية بعد الولادة، بتخليق عقاقير تناغش آلية المخ الرهيبة المراوغة.

وفى أواخر خمسينيات القرن الماضى وصلت إلى هكسلى أخبار عن عقار إيبرونيازيد Iproniazid، وكيف أن بعض مرضى الاكتئاب قد استجابوا له استجابة رائعة. فَهِم الرجل على الفور ما سيكون لمثل هذا العقار من شأن، فكتب فى عام ١٩٥٨ كتاباً آخر عنوانه «عودة إلى العالم الجديد الشجاع»، قال فيه إنه قد أخطأ إذ ظن أن الصوما لن تظهر إلا بعد ستمائة عام، «فلقد أصبحنا بالفعل على مرمى حجر منها ... لن يحتاج من يتعاطى هذه الحبة إلى نوم طويل، سيشعر بأنه يقظ ومبتهج، وسيفكر بشكل أسرع وأفضل دون أية أضرار جسدية - على الأقل فى المدى القريب».

لكن، كانت للايبرونيازيد آثار جانبية عديدة، ولا يزال الكثيرون يرون الآن مثل هذه الآثار بالنسبة للبروزاك Prozac والزولوفت Zoloft والريميرون Remeron والسيرزون Serzone، فهذه العقاقير تنتشل بعض المرضى من البؤس وتجعلهم أكثر انشراحاً ونشاطاً وأسرع تفكيراً. تباع من مضادات الاكتئاب هذه كميات مهولة، فلقد وُصف البروزاك مثلاً فى عام ١٩٩٧ لأكثر من ٣٤ مليون أمريكى، وهناك عشرات الملايين غير هؤلاء يستخدمون واحداً أو آخر من مضادات الاكتئاب.

يَسْتخدم مضادات الاكتئاب الآن البعضُ ممّن لم يكن يُشَخَّص مريضاً، فلقد غدا الخط الفاصل بين الشخص الطبيعى والشخص المريض غير واضح، أصبحت الحدود بين التعاسة «الإكلينيكية» وبين التعاسة «العادية» ضبابية، حتى غدا استخدام العقاقير لجلب «السعادة» أمراً جائزاً ومنطقياً وأخلاقياً. وهذا التحول الثقافى، ومعه التقدم المذهل فى مجالى بحوث المخ والعقاقير إنما يعنى أنّا على مشارف «الثورة الثورية حقاً». لكن، أثمة ما هو خطأ فى هذا؟ لو توصلنا إلى عقاقير «مُحَسَّنة» بلا آثار جانبية أو شبهة إدمان، فهل ستكون النتيجة - كما يقول هكسلى - مظهراً كاذباً للسعادة: «بسمةٌ بلا روح، سماءٌ بلا سحب، كعكةٌ بلا حشو؟». هذه السعادة الكاذبة ألن تقطع الأواصر ما بين الفرد والمجتمع؟ ألن تخلق هوة واسعة بين الذات وبين الواقع؟ أثمة مخاطر تكمن فى اللعب بآلية عقولنا؟ ما هو العقار المثالى الذى نبحث عنه، نحن وشركات الدواء؟

بروزاك ... بروزاك ...

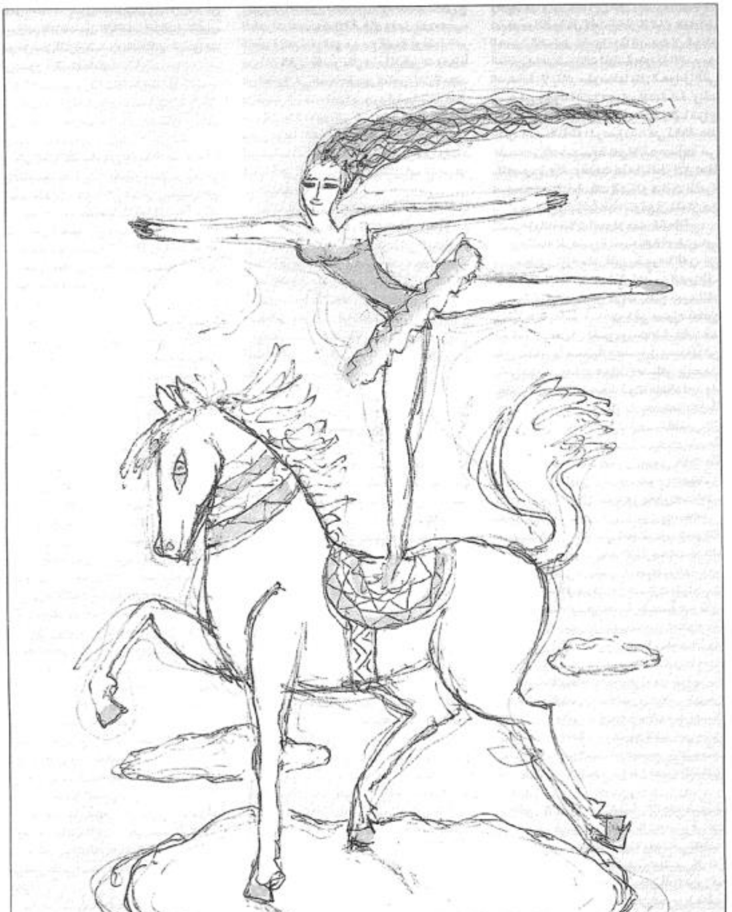
سمعنا خلال العشرين عاماً الماضية أن عقاراً كالبروزاك يمكن أن يوفر لبعض الناس سعادة حقيقية بعض الوقت. إنْ تعاطى عقاقير مضادة للاكتئاب كالبروزاك قد مكّن البعض لأول مرة فى حياتهم من الولوج إلى مجال العواطف البشرية فأصبحوا يقدِّرون شذا الوردة، يقعون فى الحب، ينهمكون فى أعمال إبداعية، ينتجون أعمالاً فنية باهرة، يربُّون أطفالهم، ويسخرون من مخاوف هكسلى. إن التحول الذى يسببه البروزاك هو تحول فى الوعى يختلف من شخص لآخر، لكنه يتضمن تحولاً عن الأفكار الكئيبة نحو الاستقرار العاطفى والمرونة وزيادةً عامة فى الشعور بالبهجة والحيوية، ولكنه - على عكس الصوما - لا يقضى على العواطف السلبية كالغضب والحزن والقلق والخوف، لا يقضى على الإحساسات التى توقع فى النفس الكآبة، بل يوفر ما يكفى من العواطف السلبية حتى لا يقع المريض ضحية انفجار من بهجة محمومة مهووسة. لكن لنا أن نتوقع أن يكون الجيل الجديد من مضادات الاكتئاب أفضل كثيراً من الجيل الحالى.

جزئ واحد اسمه البروزاك، ثمن الحبة منه دولاران، كسبت من ورائه شركة إيلى ليلى ٢٥ بليون دولار. عندما اكتُشف هذا الجزئ أطلق عليه اسم «المركَّب ٨٢٨١٦»، ثم أطلق عليه فيما بعد اسمه العلمى فلوكستين Fluoxetine، وأخيراً «بروزاك». بدأ تسويق هذا الجزئ العقار فى يناير ١٩٨٨، وأصبح أكثر العقاقير المضادة للاكتئاب مبيعاً، وفى عام ١٩٩٧ كان هو ثانى أكثر العقاقير كلها مبيعاً بالولايات المتحدة، ومبيعات هذا العقار وحده تشكل ٣٠٪ من مبيعات شركة ليلى فى السنوات الخمس الأخيرة.

غير أن هذه الدجاجة التى تبيض ذهباً قد أوشكت على الموت، فبراءة الجزئ تنتهى فى ٢ ديسمبر ٢٠٠٣، وعندئذ ستغمر السوق مستحضراتٌ أرخص منه كثيراً، كما ستنخفض مبيعات البروزاك ذاته. ومع اقتراب نهاية البراءة تنفق الشركة مئات الملايين من الدولارات بحثاً عن دجاجة جديدة

عقود من البحوث المتأنية فى طبيعة السعادة أثبتت أن السعادة. على عكس ما تقول به طبيعتنا. لا ترتبط كثيراً بالمال أو غيره من العوامل الخارجية، وإنما تعتمد على شىء أكثر غموضاً بكثير: على صفة داخلية تسمح للناس باكتشاف السعادة والتمتع بها بغض النظر عن الظروف الخارجية. مادامت هذه الظروف ليست محبطة تماماً

علمُ اسمه



تبيض لها الذهب: جزئ أكثر كمالاً من البروزاك، أكثر كمالاً في رفع معنويات المكتئبين، في إيقاظ السعادة، في انعدام أية آثار جانبية غير مرغوبة.

والحق أن شركة إيلي ليلي قد بدأت منذ ظهور البروزاك تبحث في المشاكل التي نشأت عند استخدامه: فالعقار يحتاج إلى فترة طويلة حتى يظهر أثره، وكفاءته محدودة، وله آثار جانبية ذات شأن أهمها العصبية واضطراب المعدة والأرق، بجانب المشاكل الجنسية التي يعاني منها مستخدموه. ولقد تسربت مؤخراً أخبار تقول إن الشركة تبحث مع شركة أخرى صغيرة في تطوير صورة «أنقى» من البروزاك. يوجد الكثير من الجزئيات في الطبيعة على صورتين: الواحدة منهما هي صورة المرآة للأخرى - للصورتين نفس التركيب الكيماوي، نعم، لكنهما تختلفان مثلما تختلف يدك اليمنى عن اليسرى. وهذا الاختلاف كثيراً ما يفسّر سلوك الجزئيات داخل الجسم. تأمل شركة إيلي ليلي أن يكون عقار الفلوكستين «الأيمن» أفضل في تقليل القلق مقارنةً بالفلوكستين المختلط الذي يُسوّق الآن تحت اسم بروزاك، وأن تكون آثاره الجانبية أقل.

السباق الآن محموم بين إيلي ليلي ونحو عشر شركات أخرى في البحث عن العقار المنشود. هناك عقبات هائلة تقف أمامها، هم يقولون إن هذه المهمة لا يوازيها إلا حل الشفرة الوراثية للإنسان. فالشركات بادئ ذي بدء لا يمكنها أن تجري تجاربها على البشر، عليها أن تلجأ إلى الحيوان. لكن الحيوانات، حتى لو كانت القِرَدة، هي نموذج سيئ عند دراسة أمراض الإنسان المزاجية. فكيف سنعرف إذا كان القرد مكتئباً؟ وكيف سنعرف ما إذا كان العقار قد خفف من اكتئابه؟ ثم إن الجزئ الهدف هو أعقد جزئ في الوجود، فالعضو الذي يولّد المزاج والشعور والذاكرة وإدراك الذات والوعي، هو آلة بيولوجية تتألف من مائة تريليون اقتران عصبي، تتشابك في دوائر غاية في التعقيد. لكن، ربما كانت أكبر العقبات في سرعة بناء الجزئ المنشود هي أن الاكتئاب ليس شيئاً واحداً، هو كالسرطان، كلمة واحدة تصف مجموعة من الأمراض مختلفة، لها جذور مختلفة تماماً. يأتي المكتئبون في صور عديدة، فمنهم مَنْ يأكل فوق طاقته ولا يستطيع النوم وينهكه القلق، ومنهم مَنْ يفقد الشهية وينام طويلاً طويلاً ويشعر بهدوء مقبض. ولاشك أن الصور المختلفة للاكتئاب تأتي عن أسباب مختلفة، البعض منها بيولوجي الأصل، والبعض منها

أحمد مستجير

السعادة

سيكولوجي الأصل، ومعظمها مزيج من هذا وذاك. الاكتئاب تنّين له رءوس عديدة!

ثم هناك حقيقة ألا أحد يعرف حتى الآن كيف تعمل مضادات الاكتئاب الحالية. معجزة حقاً أن يعمل البروزاك بالروعة التي يعمل بها!

السعادة والمال

كلنا يبحث عن السعادة - مدركين أو غير مدركين - وتتباين أهدافنا لبلوغ السعادة: التعليم الأفضل، الصحة الجيدة، الرفيق الحبيب في الحياة، الوظيفة الممتازة، الوضع الاجتماعي السامي. لكن المال، وإلى حد كبير هو أكثر الأهداف التي نجدُّ في طلبها في بحثنا عن السعادة. ياما قرأنا من قصص تقول إن المال ليس هو السبيل، لكن معظمنا يشعر في داخله أن المال إذا كان منه ما يكفي، سيحل كل المشاكل الأخرى. سُئل الكثيرون عما يعتقدون أنه يحسّن نوعية حياتهم، وكانت الإجابة دائماً «مالاً أكثر»، لم يطلبوا «أصدقاء أكثر» أو «حباً أكثر» أو «وضعاً اجتماعياً أفضل»، وإنما «مالاً أكثر».

لكن عقوداً من البحوث المتأنية في طبيعة السعادة قد أثبتت أن السعادة - على عكس ما تقول به طبيعتنا - لا ترتبط كثيراً بالمال أو غيره من العوامل الخارجية، وإنما تعتمد على شيء أكثر غموضاً بكثير: على صفة داخلية تسمح للناس باكتشاف السعادة والتمتع بها بغض النظر عن الظروف الخارجية - مادامت هذه الظروف ليست محبطة تماماً.

وجد العلماء أن الرابطة ضعيفة بين السعادة وبين ما يعتقد معظم الناس أنه يجلب السعادة، أما الصلة بينها وبين العوامل الداخلية - قل مثلاً وجهة النظر إلى الحياة، أو المزاج، أو الشخصية - فهي صلة وثيقة. لو أن السعادة كانت هي النتيجة الحتمية للمال والحب والتعليم ... إلخ، لأصبحت فكرة استخدام العقاقير في إضفاء السعادة مجرد هراء. إن هناك قدراً هائلاً من البيانات يؤكد أن أثر العوامل الخارجية على السعادة داخل المجتمع أثر محدود للغاية.

خذ المال مثالاً: لو كانت السعادة تشترى بالمال لكان الناس في الدول الغنية أسعد - في المتوسط - من الناس في الدول الفقيرة. ربما كانت أفضل دراسة عن هذه القضية هي تلك التي تمت عبر بضع سنين في أواخر ثمانينيات القرن العشرين عندما أُجري مسح على ١٧٠ ألف شخص في ست عشرة دولة صناعية باستخدام استمارات استبيان قياسية. اتضح أن متوسط مستوى السعادة لا يتأثر إلا قليلاً بدخل الفرد. يبلغ دخل الألماني نحو ضعف دخل الأيرلندي، لكن الأيرلنديين كانوا أسعد. كان البلجيكيون أسعد من جيرانهم الفرنسيين الأغنياء. أما اليابانيون، وهم من بين أثرى شعوب العالم، فكانوا من بين الدول الأقل سعادة.

لكن، هل الأغنياء في أية دولة أسعد من مواطنيهم الفقراء؟ يقول بحث أجري في إلينوي عام ١٩٩٣ إن الأفراد الأثرى يكونون في المتوسط أسعد، إنما بفارق ضئيل جداً. ولقد أثبتت بحوث عديدة أجريت بعد ذلك صحة هذه النتيجة: إذا ما توافرت للفرد متطلباته الأساسية (الملبس والمأكل والمسكن والصحة) فإن أية إضافة للدخل لا تضيف إلى السعادة إلا القليل جداً.

ثمة تعضيد جديد جاء عن مركز بحوث الرأي الوطني الذي يعمل منذ أكثر من ثلاثين عاماً على المظاهر الرئيسية في حياة الأمريكي. كان متوسط الدخل السنوي للأمريكي عام ١٩٥٧ هو ٧٥٠٠ دولار، ووصل الدخل عام ١٩٩٠ إلى نحو ١٥٠٠٠ دولار. تضاعف الدخل فهل تضاعفت السعادة، أو ازدادت ولو قليلاً؟ كلا. لم يتغير مستوى السعادة.

هناك أيضاً من يتحولون من حيث لا يحتسبون إلى مليونيرات، بضربة حظ في «اليانصيب». في أواخر سبعينيات القرن العشرين أجريت دراسة سيكولوجية مفصلة على ٢٢ من هؤلاء، واتضح أنهم ليسوا بأسعد من ٢٢ شخصاً طبيعياً آخرين اختيروا عشوائياً للمقارنة وخضعوا لنفس الدراسة، بل لقد اتضح أن الوقائع اليومية التي كانت تسعدهم من قبل (كمثل لقاء الأصدقاء ومشاهدة التليفزيون وسماع النكات والتسوق) لم تعد تثير فيهم نفس القدر من السعادة - الأمر الذي يعني أن السعادة، لحد ما، نِسْبِيَّة، فالناس يقارنون على الدوام ظروفهم الحياتية بظروف من حولهم. السعادة إذن هدف متحرك. من بين تفسيرات الطبيعة المخادعة للسعادة أن الإنسان عبقري في التكيف. إننا نتكيف بسرعة للأوضاع الجديدة، تتغير رغباتنا لتتوافق مع الظروف الجديدة. وظاهرتا التكيف ونسبية السعادة تفسِّران السبب في ألا يجد مليونيرات الصدفة نفس السعادة فيما كان يسعدهم قبلاً من وقائع حياتية. هم يتكيفون بسرعة للوضع الجديد فيشحب لديهم أثر الوقائع اليومية القديمة وتطغى البهجة العارمة التي تصطحب الجائزة!

المال هو الشيء الوحيد الذي يعادله الناس خطأ بالسعادة: فالشبان ليسوا أسعد من المسنين، والرجال ليسوا أسعد من النساء، والبيض الأمريكيون ليسوا أسعد من السود، وخريجو الجامعة ليسوا أسعد ممن لم يكملوا دراستهم الثانوية. أما ما يرتبط حقاً بالسعادة فهي الروابط الاجتماعية المتينة، علاقات الحب الطويلة، الشعور بالتفاؤل، الاستعداد الصريح للخبرات الجديدة، الانشغال بعمل ذي معنى، العقيدة الدينية، التوحد مع قضية أو فكرة أكبر من ذات الفرد. تفسِّر مثل هذه المتغيرات بعضاً من الفروق في السعادة بين الناس. لكن لا يجب أن ننسى أن هذه كلها مجرد ارتباطات. فهل التفاؤل مثلا يؤدي إلى السعادة، أم أن السعيد يكون دوماً متفائلاً؟ أثمة مستوى جُوّانياً من السعادة يُسَيِّر وقائع الحياة؟ أم أن وقائع الحياة هي التي تقود إلى المستويات الملحوظة من السعادة؟

تنبع السعادة من تفاعل مستمر بين بيئة الفرد (علاقاته، عمله، صحته، نشأته) وبين مزاجه الشخصي، ميله الفطري إلى التفاؤل أو التشاؤم، بشاشته أو صرامته، انطوائيته أو انبساطيته. يمكن للعوامل الجُوّانية للفرد - كمثل درجة نشاطه، استعداده للخبرات اليومية، ومرونته العاطفية - أن تشكل وقائع حياته، بما في ذلك علاقاته بالآخرين، حتى ليمكن القول إن الناس يصنعون واقعهم البيئي - يصنعونه على صورتهم.

النقطة المرصودة

ولقد بدأ بالفعل الاهتمام بهذه العوامل الداخلية الغامضة. اقترحت النتائج التي جُمعت في سنين طويلة أن المزاج يخضع للوراثة، أنه ثابت على المدى الطويل، وأنه يؤثر على السعادة. قد تدفع تصاريفُ الحياة الناسَ مؤقتاً إلى البهجة أو إلى الاكتئاب، لكنهم يعودون دائماً وبسرعة إلى مزاجهم الطبيعي. يبدو أن «المزاج الطبيعي» يأتي من الداخل، لا من الخارج.

أجري فيما بين ١٩٧١ و ١٩٧٥ مسح واسع النطاق شمل ما يقرب من سبعة آلاف من الرجال والنساء. أُعيد المسح ثانية بعد عشر سنوات على نحو خمسة آلاف منهم، واتضح أن الأسعد اليوم هو الأسعد بعد عشر سنوات، على الرغم من التقلبات اليومية. الشخص المتحمس المرح عاشق النكتة في سن الخامسة والأربعين سيكون هو الشخص المرح المتحمس عاشق النكتة في سن الثمانين! دَرَس المسح بوجه خاص بعض مَنْ تعرض لتغيرات حادة في حياته - كالطلاق أو موت عزيز أو تغير الوظيفة أو الإحالة إلى المعاش أو الهجرة. لم يكن لأي من هذه التغيرات أيُّ أثر على سعادة هؤلاء على المدى الطويل.

ركّز الباحثون على ٤٩ شخصاً تعرضوا أثناء فترة البحث لكل التحولات الثلاثة الخطيرة المعروفة في حياة الفرد: هاجروا إلى ولاية أخرى، غيّروا وضعهم الاجتماعي، غيروا وظيفتهم. ومن عجب أنْ كان مستوى السعادة لديهم مماثلاً بشكل لافت للنظر لما كان عليه قبل السنين العشر. يقول هذا البحث إن لمعظم الناس مستويات ثابتة طويلة الأمد من السعادة، لا يتأثر متوسطها بكل العوامل التي رَسَخ في عقولنا أنها مصادر للسعادة. ولقد أُطلق على النقطة التي يتأرجح حولها مزاج الفرد اسم «النقطة المرصودة»، هي نقطة حظ الفرد من السعادة، هي «النصيب»، هي «المقسوم». ولقد وُضعت هذه النقطة الآن هدفاً لدراسات مكثفة، ذلك أنها لو كانت ظاهرة بيولوجية، ولو جزئياً، فإنّا نتوقع أن نتمكن من تغييرها بالتدخلات البيولوجية، كالعقاقير.

والنقطة المرصودة لسعادة أي فرد هي متوسط كل المزاجات التي يخبرها الفرد في فترة معينة من الزمن. تنشأ كلٌ من العواطف والحالات المزاجية عن دارات بالمخ مستقلة، ليختلط ويتداخل نتاجهما في صورة نماذج معقدة لا يمكن أن تشرح ببساطة. فأنت قد تكون مُتَهَيِّجاً جنسياً، وعصبياً، وسعيداً في نفس الوقت. وهناك عامل إضافي يزيد من تعقيد الأمر، هو أن السعادة والتعاسة، لحد ما، حالتان للمزاج مستقلتان عن بعضهما بعضاً، وتنشآن عن منطقتين بالمخ مستقلتين، إن تكونا مرتبطتين، والعادة أن يكْبت نشاطُ الواحدة منهما نشاطَ الأخرى، بمعنى أنّا إذا كنّا سعداء فإنا لا نكون تعساء، غير أن المنطقتين كلتيهما قد تعملان سوياً في بعض الحالات، لتنشأ حالة مختلطة ما بين الحزن والسعادة.

يختلف الناس في نمط تذبذب الحالة المزاجية، فالبعض لا يَخْبِر إلا تارجحات طفيفة، والبعض يقاسي من ذبذبات عنيفة. والعادة أن تكون الأنماطُ المتطرفة من الحالات المزاجية والاستجابات العاطفية ناجمةً عن خلل وظيفي. هناك بين مَنْ يعانون من الانطواء مَنْ لا يُظْهِرون أية ردود فعل عاطفية، حالتهم المزاجية مسطحة تماماً، يصعب عليهم الاستجابة للإيحاءات العاطفية ممّن حولهم من الناس، وهناك من ناحية أخرى مرضى الهوس الاكتئابي الذين تتأرجح حالاتهم المزاجية بعنف ما بين اكتئاب عميق انتحاري وبين فيض طائش من الحمية والحماس والبهجة. ومعظمنا بالطبع يقع ما بين هذين المثالَيْن المتطرفَيْن.

تقول الأبحاث إن الشخص إذا وقع ضحية تغير كبير في حالته المزاجية - كأن يُرَقّى في عمله أو يهجره حبيب - فإنه يعود إلى نقطته المرصودة خلال ثلاثة أشهر، لينتهي كل أثر للتغير بعد ستة شهور - وإن كان فَقْدُ القرين قد يتطلب عاماً. وجد العلماء أن الطرب العظيم الذي يجتاح مليونيرات الصدفة يأفل بعد ثلاثة أو ستة أشهر ليعودوا إلى نقاطهم المرصودة. يبدو أن الفرد يولد ولديه قدرة فطرية على استعادة الإيقاع الطبيعي للحالة المزاجية بعد جسام الأحداث، هكذا شكّلنا الانتخاب الطبيعي. نولد ولدينا قدرة على أن نتحمل

تنبع السعادة من تفاعل مستمر بين بيئة الفرد (علاقاته، عمله، صحته، نشأته) وبين مزاجه الشخصي، ميله الفطري إلى التفاؤل أو التشاؤم، بشاشته أو صرامته، انطوائيته أو انبساطيته ويمكن للعوامل الجُوّانية للفرد - كمثل درجة نشاطه، استعداده للخبرات اليومية، ومرونته العاطفية - أن تشكل وقائع حياته، بما في ذلك علاقاته بالآخرين

علم اسمه السعادة

تارجحات العواطف لا ان ننكرها او نكبتها او نتجنبها. ونحن نتباين في سرعة معالجة الحوادث السعيدة والحزينة، البعض يحتاج إلى زمن قصير والبعض يتطلب زمنا أطول.

لكلٍّ منا إذن نقطته المرصودة للسعادة التى يتذبذب مزاجه حولها، لكن الغريب هو أن متوسط هذه النقط فى المجتمع عادة ما يكون أعلى من المتوسط (المحايد) ما بين الانبساطية والاكتئاب. الناس بطبيعتهم سعداء. هذه ظاهرة عامة على ما يبدو. جُمع فى عام ١٩٩٣ عدد من البحوث من ٤٣ دولة واتضح أن متوسطات ٣٧ منها كانت أعلى من النقطة المحايدة. فعندما وُضِع مقياسٌ يبدأ برقم ١ للأكثر تعاسة وينتهى برقم ١٠ للأكثر سعادة كان متوسط كل هذه الدول هو ٦,٣٣ (والنقطة المحايدة بين ١ و ١٠ هى بالطبع ٥,٥). إن معظم الناس، كما يقول دينر لا يعيشون فى بهجة غامرة معظم الوقت، لكنهم يعيشون سعداء بعض الشىء. إن معظمنا ينظر إلى الحياة بمنظار وردى دون أن يدرى، ويرى بعض كبار العلماء أن هذا قد لعب دوراً رئيسياً فى نجاح جنسنا البشرى.

بدأت فى السنين الأخيرة دراسات عن وراثة النقطة المرصودة للسعادة باستخدام بيانات عن خبرة التوائم المتطابقة، فهذه التوائم تمكّننا من فصل أثر البيئة عن أثر الوراثة، إذ يحمل كل من التوءمين نفس الجينات، فإذا ما قورنت مستويات السعادة لديهما عبر فترة من الزمن بمستويات السعادة عند غيرهم، أمكننا أن نحدد مدى إسهام الوراثة فى تحديد النقطة المرصودة. فى سنة ١٩٩٦ نُشر بحث يقول إن العمق الوراثى لهذه الصفة يبلغ نحو ٨٠٪. صحيح أن هذا الرقم مرتفع جداً ويؤكد أن الجينات ـ لا النشأة، لا التربية، لا التعليم، لا النجاح، لا الدخل ـ هى حجر الأساس فى تشكيل النقطة المرصودة للسعادة. فى بحث حديث (ظهر عام ١٩٩٦) اتضح أن أيا من الفروق بين التوائم المتطابقة فى الوضع الاقتصادى الاجتماعى، أو درجة التعليم، أو دخل الأسرة، أو الحالة الاجتماعية، أو التدين، لا يفسر أكثر من ٣٪ من التباين فى النقطة المرصودة للسعادة، أما نسبة ما تفسره العوامل الوراثية فتبلغ ما بين ٤٤ ٪ و٥٢ ٪.

يهدف مشروع الجينوم البشرى إلى خَرْطَنَة كل الجينات البشرية (وعددها نحو ٨٠ الف جين) لكن الأمر سيتطلب سنين طويلة حتى نتمكن من معرفة ما تفعله كل هذه الجينات، وكيف تتفاعل مع بعضها بعضاً لتظهر صفات فى مثل تعقيد السعادة أو الذكاء أو الشخصية. غير أن المؤكد هو أن السعادة لا تعتمد على جين واحد فقط ـ مثل مرض هنتنجتون أو ليش نيهان ـ وإنما على عشرات أو ربما مئات من الجينات، تعمل ويتداخل عملها لتظهر صفة كهذه عريضة معقدة.

إذا كانت نسبةٌ تبلغ ٥٠٪ أو ٨٠٪ من تباين النقطة المرصودة داخل اى مجتمع تقع تحت تحكم الجينات، أفلا يعنى هذا أن محاولاتنا لتنظيم سعادتنا محكوم عليها بالفشل ؟ قَدَرُنا من السعادة مرصود فى جيناتنا، فكيف لنا أن نغيره ؟ لو استطعت أن تزيد طولك فسيمكنك زيادة سعادتك! هنا يلزم التأكيد على أن قبول الأساس الوراثى للسعادة لا يعنى قبولنا بالحتمية الوراثية. الجينات ليس لها التحكم المطلق. الكثيرون من علماء السعادة يرون أن الجينات تفسح مجالاً واسعاً لممارسة حرية الإرادة لبلوغ السعادة، عبر الطرق التقليدية الراسخة، كإقامة علاقات طويلة المدى والانشغال بعمل مُحَبب والحفاظ على الصحة. السعادة ليست مسالة جينات وناقلات عصبية فحسب، البيئة أيضاً تُهِمّ ـ لاسيما إذا كانت البيئة مؤذية أو مُقَيِّدة أو سلبية بصورة أو بأخرى. لن يكون للنقطة المرصودة المتاصلة فى كياننا أن تسود وتُظْهر أثرها تحت ظروف الظلم والإيذاء الجسدى وسوء التغذية والتعصب والفقر المدقع. الجينات تعبر عن نفسها كأبلغ ما يكون عندما تتوافر الحاجات الأساسية للفرد، ومن ثم لا يصح أن نُقَلِّل من اهمية هذه العوامل.

علماء السعادة يُسَلِّمون بأن أبحاثهم تقترح أن فعْل مثل هذه العوامل البيئية محدود، فالأساس البيولوجى للنقطة المرصودة يقيد هذا الفعل ويكبحه. طبع الفرد، طريقته فى النظر إلى الأشياء، المرونة العاطفية، النشاط، التسامح، القدرة على مواجهة تحديات الحياة، كلّ هذه الخلال تتجذر فى الكيمياء العصبية، فى تدفق الناقلات العصبية، فى سلامة الآلية العصبية للفرد. والعقاقير وسيلة مباشرة موجَّهة لمنابلة هذه الآلية. لقد استخدم الإنسان من قديم الأزل عقاقير بدائية كالكحول والكوكايين لمناغشة هذه الآلية من اجل رفع سعادته أو تخفيف الألم، لكن مثل هذه العقاقير إنما تؤدى إلى سرور عابر لا إلى السعادة، بل وكثيراً ما تتسبب فى الإدمان وفساد المخ. غير أن عقاقير كالبروزاك والزولوفت عقاقير مختلفة، فى مقدورها أن تغير النقطة المرصودة للسعادة بأقل قدر من الآثار الجانبية، يمكنها عندما تعمل جيداً أن تشجع السعادة الحقة كثيراً. أمن الممكن حقاً أن نُعَدِّل النقطة المرصودة ؟ إن الأمر يتوقف على طبيعة الكيمياء العصبية. يقوم الآلاف من العلماء الآن فى معامل شركات الأدوية بمحاولاتهم لسبر هذه الآلية، هم يحاولون أن يعرفوا طريقة عملها حتى يمكنهم أن يصمموا وسائل أفضل وأكثر فعالية لتغييرها. ولقد جاءت عن هذه المحاولات نتائج مدهشة حقا.

الآليــــــــة التـى تتــــــحكم فى المزاج

ماذا يحدث فى مخ الإنسان عندما يتعاطى البروزاك ؟ كيف يمكن لعقار أن يغير نظرة الإنسان إلى الحياة ؟ بل ولماذا يتصور العلماء ـ من أصله ـ أنه من الممكن الوصول إلى عقار يشجع السعادة ؟

يقدم علم الأعصاب (دراسة المخ) الإجابات عن هذه الأسئلة. لقد وُضِعَت الثورةُ فى بحوث ودراسات المخ الأساسَ الراسخ لثورة نظيرة فى تطوير عقاقير أكثر كمالاً لتحوير المزاج، وصلنا بها إلى تفهم أوضح للمخ وكيف يعمل، للمزاج ومن أين يأتى، لعقاقير كالبروزاك وكيف تعمل.

ثمة رسالة ينقلها لنا علم الأعصاب ولا يقبلها الكثيرون بسهولة: إن المخ آلة بيولوجية، إن ماهيتنا، أو ما نعتقد أنه ماهيتُنا، ليست سوى نتاج لهذه الآلة. من السهل أن نتصور عكس ذلك فنقول : إنما «نحن» منفصلون عن أجسادنا. نتصور دائماً أن ذاتنا «الحقيقية» هى مجرد شبح لا مادى «يسكن» جسمنا المادى. يسكن فى المخ. فشخصيتك وذاكرتك لا تتغيران إذا جَرَحْتَ رجلك أو فَقَدْتَ ذراعك. أما إذا أُصيب المخ بالأذى ـ بمرض الزهايمر مثلاً ـ قلنا إن المريض قد «فُقِد» قبل أن يموت جسمه بزمان.

والواقع أن المخ بالفعل آلة، إن تكن قد شُيِّدت بمقياس مختلف تماماً عما هو مألوف لدينا. يزن مخ الإنسان نحو ثلاثة أرطال ويحتوى على نحو مائة بليون خلية عصبية. هذا رقم هائل. لكن، انتظر. تتصل الخلايا العصبية (النيورونات) ببعضها بعضاً عن طريق «زوائد شجرية» و«ألياف عصبية». «تستمع» الخلية العصبية لما يأتيها من إشارات عن طريق الزوائد الشجرية، كما «تتحدث» إلى غيرها من الخلايا العصبية عن طريق إرسال إشارات على طول «ليفتها العصبية». يمكن للخلية العصبية أن تستمع فى نفس الوقت إلى ما قد يصل إلى خمسين ألف خلية عصبية أخرى. وكل من هذه الروابط يسمى «اقتران عصبى». فإذا افترضنا أن عدد الاقترانات لكل خلية هو ١٠٠٠ فقط فسيكون لدينا مائة تريليون اقتران !

تتشكل اقترانات جديدة وتختفى قديمة. تتقاطر المعلومات من أعيننا وآذاننا وكل أعضاء الحس، فتُلْتَقط إذ تتغير الروابط بين الخلايا العصبية فى جزء من الثانية لتتشكل دوائر متفردة جديدة. كذا تتشكل الذاكرة. كذا تُتَابَلُ الأفكار. الشعور ذاته هو تدفق متموج متغير أبداً من النشاط الكهروكيماوى، ينساب عبر مئات الآلاف من الشبكات العصبية المتفردة ـ شبكات يتألف كلٌّ منها من آلاف، أو ملايين الخلايا العصبية المتزامنة الاضطرام. تعقيد المخ لا يتمثل فقط فى ذلك العدد المهول الذى يحمله من الخلايا أو من الاقترانات العصبية، إنما أيضاً فى العدد الكلى الممكن من الروابط ـ عدد الطرق التى بها يمكن لهذه البلايين من الخلايا أن ترتبط فى أنماط متفردة.

يأخذ علماءُ الأعصاب الآن العقلَ على أنه كيانٌ لا مادى بازغٌ ينشأ من عمل مخٍ حى. العقل هو ما يصنعه المخ، وينشأ عن اضطرام متناغم لبلايين الخلايا العصبية المفردة. وهذا يعنى أن تغيير الآلية يمكن أن يُغَيِّرَنا.

الأمر الذى يعود بنا إلى عقاقير كالبروزاك وغيره مما قد يظهر.

يبدو أن البروزاك، والبعض غيره من مضادات الاكتئاب، قادر على تحويل



الشخصية، على الأقل بالنسبة للبعض، فهو يشعل اللذة من جديد، ويجدد القدرة على السرور، ويعيد الحياة إلى الحواس، فيصبح الشخص أسعد. أما ما يقلق البعض فهو أن هذه العقاقير تتوجه إلى لب الآلية العصبية وتناغشها، الآلية التي نعتبر أنها «نحن».

مضادات الاكتئاب على ما يبدو تعمل، عندما تعمل، على الآلية العصبية للسعادة ذاتها، على الآلية التي تنظم النقطة المرصودة للسعادة. لا يستجيب لمضادات الاكتئاب إلاّ ثُلُث من يتعاطونها، وهناك ثلث تكون استجابته جزئية أو محدودة، بينما لا يستجيب لها الثلث. من هنا هذا السعار المحموم الذي يجتاح شركات الأدوية في بحثها لتفهم طبيعة وعمل آلية المزاج.

كانت هناك نظرية تقول إن السبب في الاكتئاب هو انخفاضٌ في النشاط الكهربائي بالمخ ناشئ عن تَدَنِّى مستوى إفراز ناقلات عصبية معينة (السيروتونين Serotonin والنوربينفرين norepinepherine والدوبامين dopamine) والناقلات العصبية كيماويات مسئولة عن نقل الرسائل بين الخلايا العصبية. ولقد اتضح الآن خطأ هذه النظرية، فلقد اكتُشف مؤخراً جزئ مضاد للاكتئاب يعمل بإعاقة مركب بالمخ يسمى العنصر - ب - P element ولا يؤثر على مستوى الناقلات العصبية الثلاثة. كما يرى بعض العلماء أن انخفاض مستويات هذه الناقلات هو نتيجة للاكتئاب وليس سببا له، وإن كانت الأدوية التي ترفع من مستوياتها تخفف بالفعل من أعراض الاكتئاب.

ثم، لماذا يتطلب الأمر فترة تتراوح ما بين أسبوع وستة أسابيع بعد استعمال العقار المضاد للاكتئاب حتى يظهر أثره. عندما يبتلع المريض البروزاك أو غيره من مضادات الاكتئاب فإنه يصل بسرعة إلى الدم ويبدأ مستوى الناقلات العصبية في الارتفاع على الفور. لو أن انخفاض مستوى هذه الناقلات هو السبب في الاكتئاب لظهر الأثر على الفور. تقترح آخر الأبحاث أن من بين أسباب تأخر العمل أن هذه العقاقير تستحث المخ كي يبدأ في النمو. والمخ كما نعرف هو العضو الوحيد في الجسم الذي لا يجدد خلاياه، فخلاياه هي الوحدات الأساسية لتخزين المعلومات، وتغييرها يعني أن يفقد الفردُ ذاكرتَه. لكن المخ ينمو بطريقة أخرى، ينمو ببناء زوائد شجرية جديدة على الأشجار العصبية الموجودة، والاقترانات العصبية التي تنشأ هي وحدات تخزين المعلومات ونقلها في المخ، ولقد اتضح أن مضادات الاكتئاب ترفع مستويات كيماويات خاصة تسمى «عوامل نمو الأعصاب» تحفز الخلايا العصبية على تنمية أفرع جديدة للزوائد الشجرية - وهذا يتطلب زمناً، ويتحكم فيه عدد محدود من الجينات يوجد في نوايا الخلايا العصبية. تلعب عوامل النمو هذه دوراً هاماً خلال حياة الفرد إذ تشجع تبرعم زوائد شجرية جديدة، فإذا ماتت هذه الزوائد لقلة الاستعمال أو للإجهاد أو الإصابة بمرض، شحبت الذاكرة وفشل التنسيق العضلي، وانخفض إنتاج الهرمونات وتغير المزاج والشخصية. توجد الجينات التي تتحكم في عوامل النمو العصبي في الخلايا العصبية التي تتأثر بدورها بالناقلات العصبية الثلاثة. وعلى هذا، فإن عثورنا على عقاقير تستهدف هذه الجينات مباشرة وتنشطها، سيُسرع من عمل مضادات الاكتئاب ويُقلل من الآثار الجانبية.

قشرة المخ

وكان هناك علماء يبحثون في المخ عن المكان الذي يولِّد المزاج والعواطف. هناك منطقة بالمخ تسمى «القشرة الخارجية لمقدم الجبهة» كان من المعتقد أن بها مقرُّ الشعور والقدرات الإدراكية وأن لها دوراً رئيسياً في تنظيم العواطف، وكانت هذه المنطقة من بين كل المناطق هي المرشحة لتكون موقع الشبكات العصبية التي تشفِّر إدراكنا لأنفسنا، فتغيير نشاطها الكهربائي له أثره الكبير على المزاج. تنقسم قشرة مقدم الجبهة - كالمخ نفسه - إلى قسمين، أيمن وأيسر، لكلٍّ وظائف مختلفة، فالجانب الأيسر هو الذي يحثنا على القيام بكل المهام التي تؤدي إلى زيادة قدرتنا على التكاثر - مهام كالسلوك الاجتماعي والعواطف، أما الجانب الأيمن فيتحكم في استجاباتنا للعوامل الخارجية لتحقيق أهداف الجانب الأيسر، وذلك بتوجيه الاستجابات إلى التهديدات والمواقف الخطرة. وقد اكتُشف أن الناس يختلفون كثيراً في قوة وتوازن النشاط الكهربائي في هاتين المنطقتين من المخ، وأن هذا الاختلاف يرتبط بالمزاج ارتباطا قويا: فإذا كان الجانب الأيسر هو الأنشط كان مزاج الفرد أكثر إيجابية، يستيقظ في الصباح متفتحاً على العالم ويتصدى لحل المشاكل ولا يثبطه الفشل، أما مَنْ كان الجانب الأيمن فيه هو الأنشط فنجده ينسحب عادة إلى داخله، خجولاً قلقاً مكتئباً. كل هذا يثير احتمال أن يتسبب رفع نشاط الجانب الأيسر - بالعقاقير - إلى رفع النقطة المرصودة للسعادة، بمعنى أن عقاراً ينبه النشاط الكهربائي في الجانب الأيسر من القشرة الخارجية لمقدم الجبهة - أو يثبط نشاط الجانب الأيمن - سيسبب سلوكاً مليئاً بالبهجة والتفاؤل والانفتاح، أي سيكون مضاداً للاكتئاب. وهناك بالفعل من البحوث ما يقول هذا، فقد قيس النشاط الكهربائي للجانب الأيسر في بعض المرضى قبل تعاطي أحد مضادات الاكتئاب، ثم أعيد القياس بعد ستة أسابيع من بدء استخدامه، وظهرت بوضوح زيادة مستوى النشاط فيمن استجاب للدواء، وقد يرجع ذلك إلى أن هذا العقار قد نشّط جينات معينة بالخلايا العصبية ودفعها إلى إضافة زوائد شجرية أكثر تصنع ارتباطات أكثر بين الخلايا في الجانب الأيسر من قشرة مقدم المخ.

ستحاول شركات الدواء أن تصل إذن إلى الدواء المثالي الذي يسمح للفرد بأن يحول النشاط الكهربائي في مجموعة الدارات العصبية ليصل إلى شعور إيجابي أكبر، إلى قدر من السعادة والسرور أكبر، وقدر أقل من الشعور بالبؤس والقلق والاكتئاب، عقار ليس كحبَّة السعادة القديمة التي يمثلها الهيروين والتي تجلب الحبور بغض النظر عن ظروف الفرد، وإنما حبة ترفع النقطة المرصودة ليصبح الفرد سعيداً أوقاتاً أطول ومكتئباً أوقاتاً أقل. سيغدو السؤال هو: كيف نستخدم هذه التكنولوجيا الجديدة الاستخدام الأكفأ؟ إلى أي مدى يمكن أن نقلل من الشعور السلبي، كالخوف والإحساس بالإثم والحزن والقلق؟ أهناك حقاً حالة مزاجية مثالية؟ أثمة نطاق مثالي للعواطف؟ كل هذه قضايا تهم المجتمع مثلما تهم الفرد.

قصة غريبة

هناك قصة حقيقية عن فتاة من مونتريال لم تشعر بصداع مطلقًا، أسنانها لم تؤلمها يوما، لا ولا أحست مرة بمغص في بطنها أو ألم في أذنها. أبداً لم تحس بحاجتها إلى أن «تهرش» جلدها. لم تعرف معنى كلمة ألم. قد تقول يا لها من حياة خالية من المنغصات الجسدية! لكن، أتحب أن تكون مثلها؟ عندما كان عمرها ٢١ شهراً ظهر بمؤخرة رأسها ورم، في المستشفى أُجريت لها عملية جراحية صغيرة، فلم تصرخ ألماً. وعندما بلغ عمرها ثلاث سنوات أصيبت في كعبها بالتهاب نخاع العظام نتيجة تلوث بكتيري يحدث كثيراً عند كسر العظام. ومثل هذا الالتهاب يسبب آلاماً مبرحة، ومن ثم فالعادة أن يُعالَج الفرد سريعاً قبل أن يستفحل، لكنها لم تشعر بشيء واكتشفته والدتها عندما لاحظت احمراراً وورماً في كعبها فاصطحبتها إلى المستشفى. مرةً كانت في حجرتها وحيدة في الشتاء عندما سمعت أطفالاً يلعبون في الشارع، فاتجهت إلى النافذة وركعت بركبتيها على أنابيب التدفئة لتنظر إلى الخارج. كانت الأنابيب ساخنة جداً لكنها لم تحس ومكثت تنظر بضع دقائق ليكتشف والداها الحروق الخطيرة في ركبتيها ويحملانها سريعاً إلى المستشفى حيث أجريت لها عملية ترقيع للجلد. في عمر التاسعة أُدخلت إلى المستشفى أربع مرات، كانت إحداها بسبب إصابتها باحتباس في البول لم تحس به. بدأت الطفلة تفحص نفسها بنفسها كل يوم بحثاً عن أية جروح جديدة. ورغم ذلك فقد كانت نشأتها طبيعية، وكان ذكاؤها فوق المتوسط، ووصفها الباحثون بأنها «كفء جداً، متعاونة، لها مبادرات رائعة في عملها كمساعدة بقسم السيكولوجيا بمعهد طبي».

أجرى الأطباء بعض التجارب عليها: أن تضع يدها مثلا في ماء مثلج، وهذا أمر لا يتحمله الشخص الطبيعي أكثر من ١٥ ثانية، إذ يحس بارتفاع مفاجئ في ضغط الدم لحظة غمر يده في الماء. لكنها كانت تُبقي يدها في الماء دقائق ودقائق دون أن يرتفع ضغط دمها. وُخِزت بإبرة فلم تحس بها، أُدخلت عصا صغيرة في أنفها ببطء فلم تستجب. لم تكن تشعر أو تستجيب على الإطلاق. فُحصت عينات من أعصابها السطحية، ولم يكن بها شيء غير طبيعي.

كان الشيء الوحيد الذي تحس به هو اللمسات الخفيفة على الجلد.

عندما انتهت من دراستها تفاقمت حالتها، كانت مشكلتها الرئيسية هي التهاب نخاع



العظام. وكان جهاز الإنذار في جسدها معطلاً، لم تكن تحس بالألم لتعاود الطبيب في الوقت الملائم، وعندما أُدخلت المستشفى عام ١٩٥٧ كان الالتهاب حاداً للغاية، ووقف الأطباء عاجزين إزاء التلوث الخطير الذي عم جسدها. ثم أحست بالألم لأول مرة في حياتها. لكن لم يعد ثمة ما يمكن أن ينقذها فماتت بعد شهر في عمر التاسعة والعشرين.

فائدة الألم والاكتئاب

نُذَكِّرنا هذه القصة بأن الألم، رغم فظاعته، ليس شيئاً سيئاً، بل هو في الحق ثمين يقدم لنا الإشارات الفورية اللازمة لضمان بقائنا. إن عدم القدرة على الشعور بالألم أمر خطير وقاتل. لا يجب أن ننظر إلى الألم على أنه عدوٌ يلزم قتله بأسرع ما يمكن.

والعواطف والمزاج، مثلها مثل الألم، هي نظم للاستجابة وظيفتها حمايتنا وتوجيه سلوكنا. الخوف والذعر مثلاً هي استجابات لتهديد مباشر لحياتنا الجسدية أو الذهنية أو الاجتماعية. العواطف تُنسِّق استجاباتنا وتوفر شيئاً كالرادار يفتش عن كل ما هو مهم فيما يحيط بنا. السعادة إذن خصيصة تكيفية، فالسعداء أناس نشيطون اجتماعيون متفتحون مفعمون بالحيوية الجنسية يستثمرون وقتهم وطاقتهم من أجل المستقبل. تستثير السعادةُ المعلوماتُ المرتبطة بالنجاح التكاثري: أن يُحِب الفرد، أن يعشق، أن يجامع المحبوب، أن يرى أبناءه ينجحون، أن يرى أحفاده. ثم إن السعادة قد تأتي أيضاً عن أوضاع لا ترتبط ارتباطاً مباشراً بالتكاثر: مثلاً في حل مشكلة ذهنية أو في إبداع عمل فني أو أدبي أو علمي مثير.

لكن ماذا عن الاكتئاب ؟ إن الهدف من هذه العاطفة السلبية ليس واضحاً مثلما الأمر مع السعادة. فالمكتئب كثيراً ما ينسحب من النشاط الاجتماعي، ويميزه فقد الشهية والنوم القلق وعدم الاهتمام بالجنس. ماذا في هذا يكيِّف للحياة؟ لماذا لم يُجتث الاستعداد للاكتئاب من الجينوم البشري من ملايين السنين؟ فيم يفيد ؟ لقد سيطرت علينا بالفعل فكرة أن عاطفة الاكتئاب - بل والحزن - ليست سوى خلل في طبيعة الإنسان، ولم نعد نتصور أن هذه الخصيصة قد تكون مفيدة، مثل الشعور بالألم. لكن آلام الاكتئاب قد تكون حقاً في مثل أهمية الشعور بالألم.

يقول العلماء إن العواطف الاكتئابية بالنسبة لحياتنا الذهنية هي المعادل للألم بالنسبة لحياتنا الجسدية: هي إشارات ذات معنى تقول إن شيئاً ما يقلل من فرص الحياة والتكاثر والرفاهة. ينقل الاكتئاب إلينا رسالة تقول إن شيئاً ما خاطئ في علاقاتنا الحميمة أو في وضعنا الحياتي أو في سعينا لبلوغ هدف نسعى إليه.

ينبهنا الاكتئاب على الأغلب إلى أننا نعاني من أزمة في اللاوعي، إحباط أو خيبة أو مشكلة تستوجب الاهتمام، لكنها لا شعورية، وإدراك الخسارة أو الأزمة بغير الإحساس. الحسرة مثلاً عاطفة سلبية تشبه الاكتئاب لكنها ترتبط بفقدان صحبة شخص ما، قد يكون الزوج أو الصديق أو قد يكون حتى كلباً أو قطة. أما الحزن فقد يأتي عن فقدان مال أو هيبة أو مركز اجتماعي أو صحة. لكن الاكتئاب له شعور خاص به - شعور يشوبه الإحباط والارتباك والخوف يأتي عن عاطفة قوية تمور داخل الفرد وتغلي دون أن يدري لها سبباً محدداً.

المخ لا يعمل ككيان واحد، وإنما كمجموعة من وحدات مستقلة أو متوافقة. البعض يتحكم في عمليات أوتوماتيكية كضربات القلب أو التنفس، والبعض يعالج ما يَرِدُ من معلومات حسية، والبعض يولِّد إشارات عاطفية، والبعض يخزِّن ذكريات. البعض يولِّد عواطف إيجابية والبعض يولد عواطف سلبية. وكثيراً ما تتعارض أنشطة وحدتين أو أكثر من وحدات المخ. فأنت مستعد مثلاً أن تعشق الكثيرات لتنشر جيناتك على أوسع نطاق، لكنك في نفس الوقت تريد أن تظل مخلصاً لزوجتك. ومثل هذا الصراع بين وحدات المخ لا يكون بالضرورة صريحاً واضحاً، بل إنَّا نجاهد في الواقع كي نتجنبه أو نكبته أو نتجاهله. يعمل الاكتئاب كإشارة تحذير، وقد يكون هو المؤشر الوحيد لوجود هذا الصراع العقلي الداخلي. ولما كان العنصر المعجِّل للاكتئاب في العادة مجهولاً، فإن المريض يحار في تفسير أعراضه وبذا يبدو الاكتئاب وكأنْ لا علاقة له بوقائع الحياة ومن ثم فقد يُفَسَّر على أنه خلل بيولوجي لا ألم سيكولوجي.

تبين الدراسات على الحالات الواقعية أن الاكتئاب ينقل للمكتئب في العادة شيئاً - أما ماهية هذا الشيء بالتحديد فيندر أن تكون واضحة، على الأقل في البداية. قد يقول الاكتئاب شيئاً مهمّا بالنسبة لحياة الفرد أو عائلته أو كيميائه العصبية أو لمزيج من هذا كله. قد يكون الاكتئاب استجابة طبيعية للنفس تجاه صراعات سيكولوجية أو مشاكل مع الآخرين لم تُحَلّ. وقد يكون إشارة بأن المخ قد غدا عاجزًا عن العمل كما يجب. والمخ العاجز عن العمل الصواب قد يؤدي إلى حياة مختلة، والعكس بالعكس.

يخلع المكتئب النظَّارة الوردية التي يرتديها «العاديّون» من الناس، تصبح نظرته واقعية، تصبح له قدرةٌ أفضل على تقييم أدائه مقارنة بالآخرين، يصبح أكثر فهما لحدوده، وأدقَّ في مراقبة سلوكه الاجتماعي، يصبح أكثر إدراكاً لمسئوليته عن نجاحاته وعن أخطائه، لا عن نجاحاته فقط. وهذه الوقفة المتأنية لتأمل الحقائق العارية تسمح للفرد بأن يصل إلى تقدير أدق لوضعه مما قد يؤدي به إلى النجاح: للفرد إذن أن ينسحب إلى داخل ذاته، أن يضطجع يقظاً، أن يحلم أحلاماً مقلقة، أن يتباطأ، حتى تحل المشكلة العاطفية. له أن يكتئب. الاكتئاب ليس بالضرورة مرضاً يلزم أن «يُعَالج» بأي ثمن. بل الحق أن التخلص تماماً من قدرة الفرد على الاكتئاب - باستخدام العقاقير - قد يكون في النهاية أمراً ضاراً، تماماً كاستئصال قدرة الفرد على الألم. يحتاج كل فرد سليم إلى القدرة على أن يكتئب.

نعرف أن إشارات الألم كثيراً ما تكون أكثر حدة مما يلزم، كما أنها تستمر لفترة أطول مما يجب. إذا جُرحت استمر الألم طويلاً بعد أن تُحس بالجرح، وتُوقف سببَه، وتُعالجه. من الممكن بالأدوية أن تخفف «فيض» الألم غير الضروري بأمان. وبالمثل سنجد أن الاستجابات العاطفية عادة ما تفيض كثيراً وبسهولة وبصورة أكثر حدة مما يتطلبه الوضع، الأمر الذي يعني أنه من الممكن بالأدوية أن نخفف غير الضروري منها بأمان.

الجينات والسلوك

ذكرنا أن كل مناحي سلوك الإنسان - الطبيعي منها والمنحرف - يعكس الخبرات الشخصية والنزعات الوراثية. كنا إلى عهد قريب نولي جلَّ اهتمامنا إلى نواحي الخبرة الشخصية لأن آثارها تبدو أوضح بكثير. لكن الأمر قد تغير الآن بعد أن بدأ العلماء يمضون إلى أبعد من «النزعات الموروثة» التي يصعب تحديدها بوضوح: إلى أصلها الدقيق - إلى الجينات ذاتها. فمنذ اكتشف تركيب الدنا DNA، مادة الوراثة، عام ١٩٥٣، طُوِّرت تقنيات غاية في القوة لتفحُّص الفروق المضبوطة في جينات الأفراد وربطها بالكثير من الصفات، مثل القابلية للإصابة بأمراض معينة. يُستخدم هذا المدخل الآن في تعقب التباينات في الدنا التي تلعب دوراً في أمراض المزاج التي بدا يوماً أنها تتأثر فقط بخبرات الحياة بحيث تبدو الدراسات الوراثية وكأنْ لا أهمية لها.

منذ زمن ليس بالبعيد كان المفهوم هو أن القابلية الوراثية للإصابة بالمرض السلوكي إنما تعني أنه لا يمكن تغييرها. لكنا نعرف الآن أن العثور على الجينات التي تؤثر في تباينات سلوكية معينة لن تفيد فقط في التنبؤ بمصيرنا والاستعداد له، وإنما في اتخاذ إجراءات لإحباط عملها أو الحيلولة دون وقوعه.

من بين الأمراض السلوكية هناك مرض مثير للانتباه هو مرض الهَوَس الاكتئابي الذي يتميز بتأرجحات في المزاج عارضة حادة ومُمَزِّقة. يصاب نحو ١٪ من الناس بالصورة الصريحة من هذا المرض، وربما كانت هناك بضعة أضعاف هذه النسبة ممن يصابون بالصورة الأخف وطأة. وعدم علاج هذا المرض يؤدي إلى نسبة انتحار تبلغ نحو ٢٠٪. من بين من أصيبوا بالهوس الاكتئابي هناك تشارلس ديكنز، ووالده جون ديكنز، وفان جوخ، ونيوتن. ولقد أثار المعدل المرتفع لظهور الهوس الاكتئابي بين الأقارب والتوائم والآباء، أثار فكرة وجود دور للوراثة. فإذا ما ظهر المرض مثلاً في واحد من توءمين متطابقين كان احتمال ظهوره في الآخر هو ٦٠٪ - الأمر الذي يعني بدوره أن ثمة عوامل بيئية تشترك فعلاً في حلول المرض، وإلا لكان الاحتمال هو ١٠٠٪، تعني أن الجينات المرضية تحتاج إلى ظروف بيئية خاصة حتى يَحِلَّ المرض. ولقد استعملت الوراثة الجزيئية لمحاولة تحديد مواقع الجينات المسببة للهوس الاكتئابي، وتشير النتائج المتجمعة إلى احتمال وجودها على منطقة محددة بالذراع القصيرة قرب سنتروميرالكروموزوم ١٨، وعلى منطقة معينة بالذراع الطويلة للكروموزوم ٢١، وأخرى بالذراع الطويلة للكروموزوم ١٣، وهناك شواهد أقل وضوحاً لمناطق بالذراع الطويلة لكروموزوم الجنس X، وبطرف الذراع القصيرة للكروموزوم ١١، وربما أيضاً بالذراع الطويلة للكروموزوم ١٢. ويرى بعض العلماء أن حلول المرض يتطلب ثلاثة جينات مختلفة.

الديموقراطية وسعادة الشعوب

الشواهد على أهمية الوراثة في تحديد النقطة المرصودة للسعادة شواهد مقنعة. لكن هناك من يرى أن العوامل الثقافية والتاريخية تلعب هي الأخرى دوراً محسوساً. لم تلق هذه العوامل إلا أقل اهتمام لأن التباين الثقافي ثابت نسبياً داخل أي مجتمع معين، ويكون كبيراً نسبياً بين المجتمعات المختلفة. والواقع أن الغالبية العظمى للبحوث في أثر الوراثة في السعادة قد أُجريت داخل مجتمعات مفردة، حيث تتباين السعادة الشخصية داخل مجال محدود، ويمكن للعوامل الوراثية في هذه الحالة أن تفسِّر بالفعل معظم التباين. أما إذا تحدثنا عن التباين بين الدول، فإن الفروق الثقافية على ما يبدو قد تفسِّر قدراً من التباين معادلاً لما تفسره الوراثة.

تقول الدراسات إن أفضل مقياس للسعادة هو إجابة السؤال التالي: « ما مدى رضائك عن الحياة في مجملها ؟ أتقول إنك راض جداً، أم راض إلى حد معقول، أم لست راضياً الرضاء الكامل، أم غير راض على الإطلاق ؟». يقول مسح أجري عام ١٩٩٨ مثلاً إن ٦٥٪ من

السعادة والتعاسة، لحد ما،
حالتان للمزاج مستقلتان عن بعضهما البعض،
وتنشآن عن منطقتين بالمخ مستقلتين، وإن تكونا مرتبطتين،
والعادة أن يكبت نشاطُ الواحدة منهما نشاطَ الأخرى، بمعنى أننا إذا كنا
سعداء فإننا لا نكون تعساء، غير أن المنطقتين كلتيهما قد
تعملان سوياً في بعض الحالات، لتنشأ حالة
مختلطة ما بين الحزن والسعادة



الدانيمركيين وصفوا انفسهم بانهم راضون جداً، بينما لم تتعدَّ نسبة من وصفوا انفسهم هكذا ٥ ٪ فى البرتغال. يبدو أن مثل هذه الأرقام تعكس التجارب التاريخية للمجتمعات، أى انها خصائص ثابتة نسبياً للمجتمعات، كما تؤكد دراسة استمرت ٢٥ عاماً على ٦٤ دولة تمثل كل القارات (ليس بينها بلد عربى واحد). ويبدو أيضاً أن للثقافات - كالأفراد - مستوى قاعدياً للسعادة لا يتغاير إلا قليلاً استجابة للوقائع الحياتية. فهل الاختلافات بين الدول تعكس اختلافات وراثية ؟ هذا أمر بعيد الاحتمال، وإنما يبدو أن لمستوى التنمية الاقتصادية فى الدولة أثراً مهمًا على سعادة الناس. والتفسير الوراثى يعنى أن شعوب الدول الثرية تختلف وراثياً عن الشعوب الفقيرة ! لقد ارتفع مؤشر السعادة فى الدول حديثة الثراء كاليابان وكوريا الجنوبية وتايوان، ولا يُعقل أن نقول إنها قد خَبِرت بغتةً تغيرات وراثية ! ربما قلنا إن السعادة تدفع المجتمع إلى أن يصبح أثرى، لكن ليس مَنْ يأخذ هذا مأخذ الجد، إنما الأكثر معقولية أن نقول إن لتحرك المجتمع من اقتصاديات الكفاف إلى اقتصاد آمن بعض الشىء أثراً كبيراً على السعادة والرضا بالحياة (يقل الأثر كثيراً عندما تكون المقارنة بين الدول الصناعية الآمنة اقتصادياً) .

ليست التنمية الاقتصادية بالعامل الوحيد الذى عليه يُبنى المستوى القاعدى لسعادة الشعوب. فالنقطة المرصودة لسعادة شعب ما قد تعكس ماضيه التاريخى. تقول الدراسات إن مستويات السعادة فى كل المجتمعات التى خضعت للحكم الشيوعى كانت منخفضة حتى عند مقارنتها بمجتمعات أقل منها فى المستوى الاقتصادى كالهند وبنجلاديش ونيجيريا. بل إن المجتمعات التى خضعت للحكم الشيوعى لفترة أطول نسبياً كانت مستويات السعادة فيها أقل من الأخرى التى لم تخضع للحكم الشيوعى إلا بعد الحرب العالمية الثانية. هناك شواهد جديدة تعضد نظرية تقول إن مستوى سعادة المجتمع يرتبط ارتباطاً وثيقاً بازدهار الديموقراطية وارتفاع مستوى الحقوق السياسية والحريات المدنية. لكن الأمر ليس بهذه البساطة. فلم ترتفع سعادة الشعب الروسى مع الانتخابات الحرة عام ١٩٩١، بل إنها انخفضت: يبدو أن التدهور الاقتصادى والخيبة الايديولوجية والمعدل المرتفع للجريمة كان لها أثر على سعادة هذا الشعب اكبر من أثر التحرك نحو الديموقراطية. من ناحية أخرى سنجد أن الصين قد تحركت نحو اقتصاديات السوق دون أن تغير نظامها السياسى، ورغم ذلك فإن مستويات السعادة فيها تفضُل مستوياتها فى بعض الديموقراطيات. لو كانت سعادة الشعوب تحددها الديموقراطية لكان الشعب الصينى هو أتعس الشعوب !

أزهار الكآبة

ثمة رابطة تربط الاكتئاب بالإبداع؟ لماذا نجد بين ضحايا الاكتئاب والهوس الاكتئابى كلَّ هذا العدد من كبار الشعراء والكتَّاب. أصابنى الفزع لَمَّا وقعتُ على قائمة (من الإنترنت) بأسماء المكتئبين من الكبار. وجدت بينهم من الشعراء : إدجار آلان بو، الفريد تنيسون، بوريس باسترناك، بيرسى شيلى، ت.س. إليوت، جون كيتس، صمويل تايلور كولريدج، عزرا باوند، فيكتور هوجو، وليام بليك، وكان من بينهم من كتاب الرواية والقصة: أجاثا كريستى، إيرنست همنجواى، تنِّيسى ويليامز، جراهام جرين، روبرت لويس ستيفنسون، سكوت فيتزجيرالد، فيرجينيا وولف، مارك توين، مارى شيلى، هانس كريستيان أندرسون، هنريك إبسن، وليام فوكنر. ماذا إذن عن شعرائنا وكتابنا ؟ أكان شاعرنا الرومانسى الكبير أبوالقاسم الشابى ضحيةً من ضحايا الاكتئاب ؟ له قصيدة عنوانها «السعادة»، يقول فيها :

ترجو السعادةَ يا قلبى ولو وُجِدت
فى الكون لم يشتملْ حزنٌ ولا ألمُ
فما السعادة فى الدنيا سوى حُلُم
ناءٍ تُضَحِّى له أيامُها الأمَمُ

السعادةُ عنده حلم لا يثق فى إمكانية تحقيقه، هو يرى ماراه فولتير من أن «السعادة وهم والشقاء حقيقة»، وهو يضرب على وتر الكآبة كثيراً كثيراً :

أنا كئيب ...
أنا غريب ...
كآبتى خالفت نظائرها
غريبة فى عوالم الحَزَنِ
كآبتى فكرة مفردةٌ
مجهولةٌ من مسامع الزمنِ

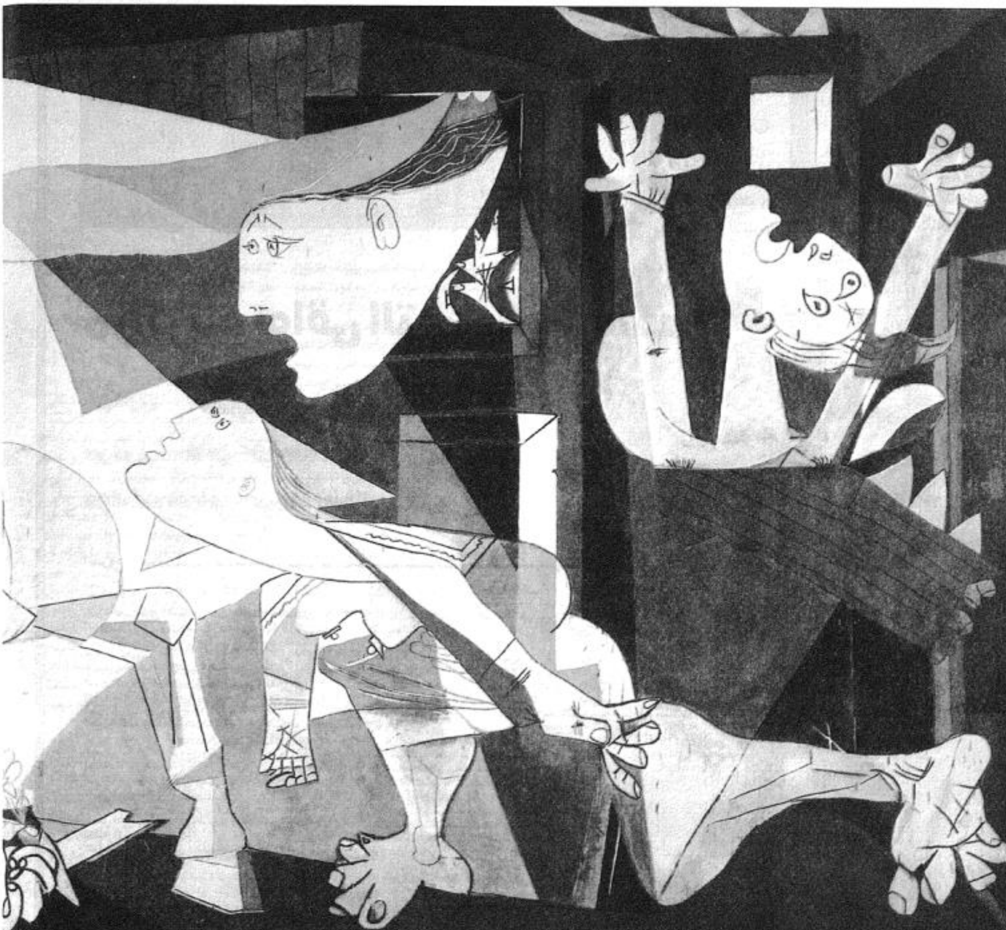
ليختتم قصيدته (الكآبة المجهولة) بما يؤكد أن كآبته باقيةٌ إلى الأبد :

كآبةُ الناس شعلةٌ، ومتى
مرتْ ليالٍ خَبَت مع الأمد
أما اكتئابى فلوعةٌ، سكنَتْ
روحى، وتبقى بها إلى الأبدِ

ومثله، أكان أيضاً صلاح عبدالصبور الذى قال :

شجرُ الليل على مفرقنا مالَ، وأرخى
شَعرَه المحلولَ فى أكتافنا
ثم ألقى ثمر الوجد، وأزهار الكآبة
فى مآقينا وفى أكمامنا

لماذا تتفتح فى أشعار الكثيرين من كبار الشعراء أزهارُ الكآبة ؟ ولماذا نستعذب دائماً مذاق أزهارهم المكتئبة؟ هل نقاطهم المرصودة للسعادة أدنى من بقية الناس ؟ هل هم مختلفون ؟ وإذا كانوا كذلك، فهل صحيح قول شوقى « أنتم الناسُ أيها الشعراء» ؟



بيكاسو بريشته .. من المرحلة الزرقاء



"أنا لا أرسم ما أرى بل أرسم ما أعرف"

بيكاســـو

فرشاة ومحبرة غيرتا معنى الفن!!

رولانـــــد بنـــروز



١ مايو إلى ٤ يونيه ١٩٣٧ ـ «الجورنيكا»... من أعظم الأعمال الفنية فى تاريخ البشرية (زيت على قماش ٣٥١ × ٧٨١سم)

يعد بيكاسو واحدًا من أشهر الأسماء فى عالمنا المعاصر ورغم هذا، فإن قلة قليلة فقط من الناس هم الذين يعرفون كل جزء فى إنتاجه الضخم الشديد المتنوع بصورة لا تصدق، وحتى هؤلاء الذين يعرفونه جيدا هم أول من يعترف بأنهم غير قادرين على القول بصدق أنهم كانوا يفهمونه كإنسان أو كانوا يملكون قدرة على التكهن بالموضوع الذى سوف يستولى على اهتمامه فيما بعد، ولذلك نشرت عنه كتب كثيرة، واذيعت كثير من الأساطير حتى نظن أحيانًا أن مصدر هذه الأمور ليس شخصا واحدا، بل جيشا من الرجال يحملون اسم بيكاسو.

ومن المعروف على مستوى العالم كله أنه كان عبقرية ثورية عظيمة قدم فى حياته الطويلة التى امتدت زهاء اثنتين وتسعين عامًا كثيرًا من الأعمال التى ساهمت فى تغيير معنى الفن ومظهره أكثر من أى فنان آخر فى القرن العشرين.

ولد بابلو ريزى بيكاسو Pablo Ruizy Picasso فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٨١ فى مالقة Malaga على ساحل أسبانيا الجنوبى المطل على البحر المتوسط، وأخذ معارفه الأولى فى الفن عن والده، جوزيه ريزى بلاسكو José Ruizy Blasco. وهو فنان أكاديمى متوسط الموهبة. وقد أظهر بيكاسو وهو ما يزال طفلا مقدرة ملحوظة فى الرسم، إذ كان يسلى أصدقاءه برسم اسكتشات سريعة تتجاوز فعلا خيال الطفولة البرئ.

انتقلت الأسرة إلى لاكورينا La Coruna فى ١٨٩١، ثم إلى بارشلونة سنة ١٨٩٥. وهناك شرع بيكاسو الشاب فى تأكيد استقلاله، إذ وجد له أصدقاء بين طليعة الشعراء والرسامين والفلاسفة الذين كانوا يترددون على حانة البوابات الأربعة Els Quatre Gats وكانوا يحثون بعضهم بعضا على السير فى الاتجاهات الفوضوية والاشتراكية، وفى جو نفسى تسيطر عليه سوداوية نهاية القرن، كانت تيارات الفكر محكومة بالرغبة فى الهروب من القيود الضيقة للمجتمع الأسبانى وهكذا بدأ بيكاسو رحلته إلى الشمال فى ١٩٠٠.

كان اتصاله الأول بباريس ذا أهمية عظيمة، لكنه لم يستمر إلا وقتا قصيرًا نظرًا لإمكانياته المحدودة، وقد أخذ يقسم وقته على مدى السنوات الأربع التالية بين بارشلونة ومدريد ثم باريس. فى بارشلونة كانت عائلته ما تزال تقدم له معونه متواضعة، وهناك رسم عددًا من الصور تصنف الآن على أنها مرحلة حياته الزرقاء Blue Peried، وفى تلك الفترة بدأ يوقع لوحاته باسم أمه، بيكاسو.

وبدءًا من ١٩٠٤، جعل بيكاسو من باريس وطنا له، وفى مونتمارتر Montmartre وجد بيكاسو ستديو معروفًا باسم باتو لافوار Bateau - Lavoir، حيث كان يحيط به فنانون وشعراء آخرون وكانت عشيقته المخلصة أوليفييه Olivier تشاركه الحياة البوهيمية فى ذلك الحى، وكان من بين أصدقائه هناك ماكس جاكوب والفريد جارى Jarry وأندريه سالمون وجيوم أبوليناز Apollinaire. وكان بيكاسو محظوظًا إذ وجد تجار اللوحات وجامعيها من أمثال أمبروزو فولارد وليوشتين Leo Stein والتاجر الروسى، شوكين ودانيال هنرى كاهنفلر Kahnaviler الذين استطاعوا تقدير لوحاته وما تتميز به من حيوية فذة، ثم ساندوه بشراء رسوماته، لكن السرعة المربكة التى كان يتابع بها بيكاسو اكتشافاته دون اهتمام بالحصول على ضمان مادى، كانت تسبب لهم هلعًا كبيرًا.

بيكاســـــو

وبين الفنانين الذين عرفوا بيكاسو جيدًا في ذلك الوقت الفنان ماتيس وديران Derain وفلامينك Vlamink وكان الفنان براك فقط هو الذى تفهم بسرعة تلميحات بيكاسو فى لوحة بنات أفينون Les Demoiselles d'Avignon ذلك الرسم المدهش الذى أنتجه بيكاسو عام ١٩٠٧.

ولولا تفهم بيكاسو المفاجئ لفن النحت الأفريقى ما كان قد قدر للحركة التكعيبية الظهور، إذ ساهم النحت الأفريقى بقوته البدائية فى ابتكار وتطوير أسلوبه الثورى بسرعة فائقة مما جعله شائعًا معروفا فى خمس سنوات.

وسع بيكاسو من نشاطه فى سنة ١٩١٧ بتصميم مشاهد وملابس لفرقة سرجى ديجيليف Serge Diaghilev الروسية للباليه وتزوج بعد ذلك بوقت قصير من إحدى الراقصات أوجلا كوكلوفا Ogla Koklova التى أنجبت له ابنا أسماه باولو، فى ١٩٢١، وبدا له أن زواجه ينجو به بعيدا عن الحياة البوهيمية فى مونتمارتر ويتجه به نحو الدائرة العالمية الثرية التى احتضنت الفنون بعد الحرب وأضفت على أعماله قيمة عالية.

وعلى الرغم من ذلك، فقد أكد للمرة الثانية فى ١٩٢٥ استقلاله وكشف عن ازدرائه للذوق الاجتماعى العام بأن رسم صورًا تحمل فى طياتها سخرية وتحريفات عنيفة مناقضة لذوق أولئك الذين كانوا يتوقعون من الفن أن يمنحهم السعادة والتسلية وأن يدغدغ مشاعرهم بالنفاق، واستمر عنف التعبير فى الازدياد وترجم ذلك إلى أعمال نحت ورسم وحفر نالت إعجاب السرياليين لأسباب كثيرة، وعلى الرغم من أنه ظل بعيدًا إلى حد ما عن جماعتهم فإن صداقته الوثيقة لأندريه بريتون Breton وبول أيلوار Eluard وفرت حافز الصداقة المتبادلة بينهم والتى استمرت فى حالة إيلوار حتى وفاة هذا الشاعر فى ١٩٥٢.

وظل بيكاسو طيلة هذه العقود يقضى معظم حياته فى باريس يتخللها زيارات متكررة لجنوب فرنسا. وكان يصحبه فى كثير من هذه الزيارات دورا مار Dora Maar التى استطاعت بذكائها وعمق إدراكها أن تكون صديقته الحميمة لسنوات طويلة بعد انفصاله عن زوجته أولجا Olga.

وبحثا عن مجال أوسع لنشاطه، اشترى بيكاسو قلعة دى بوازيلوب Chateau de Boisegeloup فى نورماندى، حيث أنتج سلسلة رائعة من أعمال النحت التى استوحاها من جمال مارى تيريز فلتر Marie -Thérése Walter وفى باريس، وبالإضافة إلى شقته القائمة فى شارع لابواتيه La Boetie، حيث كان يعيش مع زوجته، حصل بيكاسو على قاعات واسعة فى شارع Des Grands Augustins دى جراند أوغسطين، حيث استخدمها كاستديو لمدة عشر سنوات.

وكان المناخ السياسى قد أخذ يزداد قتامة فى الثلاثينيات، وبلغ ذروته بالنسبة لبيكاسو باندلاع الحرب الأهلية فى أسبانيا وتدمير قرية جرنيكا سنة ١٩٣٧، هذه الحادثة أشعلت نار الغضب فى نفس بيكاسو، هذا الغضب الذى وجد تعبيره فى الرسم الجدارى الذى قدمه بيكاسو فى جناح المعرض الجمهورى الأسبانى فى المعرض العالمى بباريس فى تلك السنة، واستمر هذا المزاج الغاضب يتحكم فى أعماله طيلة السنوات الأشد ظلاما التى أعقبت هذه الحادثة، وقد اتسع نشاطه خلال تلك الفترة وامتدت إلى أعمال نحتية تصور الإنسان بصورة أكبر من الحقيقة فى واقع الحياة.

فى ١٩٤٦ أصبح بمقدور بيكاسو ثانية أن يسافر إلى البحر المتوسط وسرعان ما استقر فى فالوريس Vallauris مع فرنسوا جيلو Francois Jilat وطفليهما كلود وبالوما واستطاع فى هذه المدينة الصغيرة أن يضيف السيراميك والنقش على الحجر إلى مجال نشاطه الواسع ثم شعر بحافز فى أن يستخدم نفوذه فى الأحداث الجارية، فانضم إلى الحزب الشيوعى الفرنسى كعلامة على تضامنه مع مبادئ الحزب، ثم قام برحلات خاصة لمؤتمرات السلام فى روما ووارسو ولندن.

وقد تسبب انفصاله عن فرنسوا جيلو

١٩٢٣. آرليكان جالسًا ١٣٠ × ٩٧



١٩٣٧. بورتريه دورامار ٩٢ × ٦٥سم





مايو - يونيه ١٩٠٧ ليه دموازيل دافينيون ٢٤٤ × ٢٣٤سم

سنة ١٩٥٣ في تفجر عاطفي يتجلى في سلسلة فذة من النقوش الحجرية التي تصوره بصورة رمزية في دور الرسام المخلص الكهل الذي وقع في أزمة التمزق بين إخلاصه لنموذجه الحي وبين إخلاصه لعمله. وموقف النقد الذاتي الذي يمكن تتبعه خلال حياته كلها، خدم بيكاسو كدرع واق ضد ما كان يستشعره من أخطار الثروة الكبيرة والشهرة العالمية.

وبعد أن ترك مدينة ڤالوريس، استقر سنة ١٩٥٥ في ڤيلا كبيرة بمدينة كان Cannes. وفي ١٩٥٨ تزوج محبوبته الجديدة جاكلين روك واشترى قلعة ڤوڤنارج القديمة Chateau de Vauvenargues في جبال سانت ڤيكتوريا بالقرب من آيكس Aix. وبعد ذلك حصل عام ١٩٦١ على بيت جديد Notre Dame de vie بالقرب من موجانز Mougins في موقع جميل معزول جدًا تحيط به مناظر البحر والجبال، وهناك وجد هو وزوجته الشابة الجميلة مهربًا من الفضوليين واستمر بيكاسو في عمله دون كلل أو ضعف ومات في نوتردام دى ڤي في ٨ أبريل ١٩٧٣، عن عمر يناهز اثنين وتسعين عامًا، وهو ما يزال ينبض بمشاعر الإبداع وبالأفكار الجديدة.

إن أكثر الآراء شيوعًا عن بيكاسو هي التي جاءت نتيجة معرفة الناس به كفنان متمرد، لكن إذا أمعنا النظر بشدة فإننا نكتشف في أعماله أيضا دلائل مدهشة متكررة (حيث نتوقع تضاؤلها إلى أدنى درجة) ذات قدرة على الاستمرار تربطها أساسًا بالوان التعبير الفني على مدى العصور، هذه الروابط التي تصله بالماضي ترجع جزئيا إلى اهتمام بيكاسو الواسع المدى بكل الأشكال الحية للتعبير الإنساني، حتى تلك الأشكال التي لا يعرفها إلا القلة، كما ترجع جزئيا إلى خبرته التي كانت تسكن خياله من أيام الشباب، وهي خبرة تحتوي على مفاتيح هامة توصلنا إلى الأشياء التي كان يحبها والأفكار التي تشغل عقله كما ترجع إلى ذاكرة تصويرية فذة.

هذه المفارقة أو هذا الزواج غير المتوقع بين الابتكار المدهش بدرجة نعجز معها عن اكتشاف أي أثر يقودنا إلى مصادرها وبين التقليد الراسخ، إنما هو ملمح دائم لعبقرية بيكاسو، ولولا قوة إبداعه التي كانت تندفع بقوة دافعة هي سخطه الطبيعي على التقاليد الموجودة، كان يمكن لموهبته النادرة المبكرة النضوج واجتهاده في تعلم الفن أكاديميًا بمعاونة أبيه، أن ينتهي به هذا كله إلى عمل شريف كرسام جيد، لكن شيئين جعلا من بيكاسو فنانًا فريدًا منذ شبابه الباكر - مقدرته الفذة على التعبير عن نفسه كفنان ثم بحثه الدائب من أجل الوصول إلى فهم جديد ونافذ للحياة.

حين بلغ بيكاسو الرابعة من عمره، سلمه أبوه، الذي كان ينحدر من عائلة برجوازية في مالقة Malaga، فرشاة ومحبرة لخلط الألوان اعترافًا بأن ابنه قد تفوق عليه، ثم جاء الانتصار الثاني، حين انتقلت الأسرة إلى برشلونه واجتاز الفنان الشاب اختبارات القبول التقليدي ونجح في دخول مدرسة الفنون التابعة للبلدية، وبدلا من استخدام موهبته بالطريقة التي رسمت له، نجده يقيم صداقاته الأولى مع شباب الشعراء والرسامين الذين كانوا يترددون على بعض المقاهي الشعبية، وكانت جاذبيتهم نابعة من أنهم يشكلون من رومانتيكية آخر القرن السوداوية نبضا ثوريا صاخبا.

وبدلا من رسم صور زيتية يمكن عرضها ببساطة للمواطنين الأغنياء، اختار لموضوعاته صور المنبوذين، والمتسولين العميان وبنات الشوارع ومشاهد المقاهي ومشاهد مصارعة الثيران.

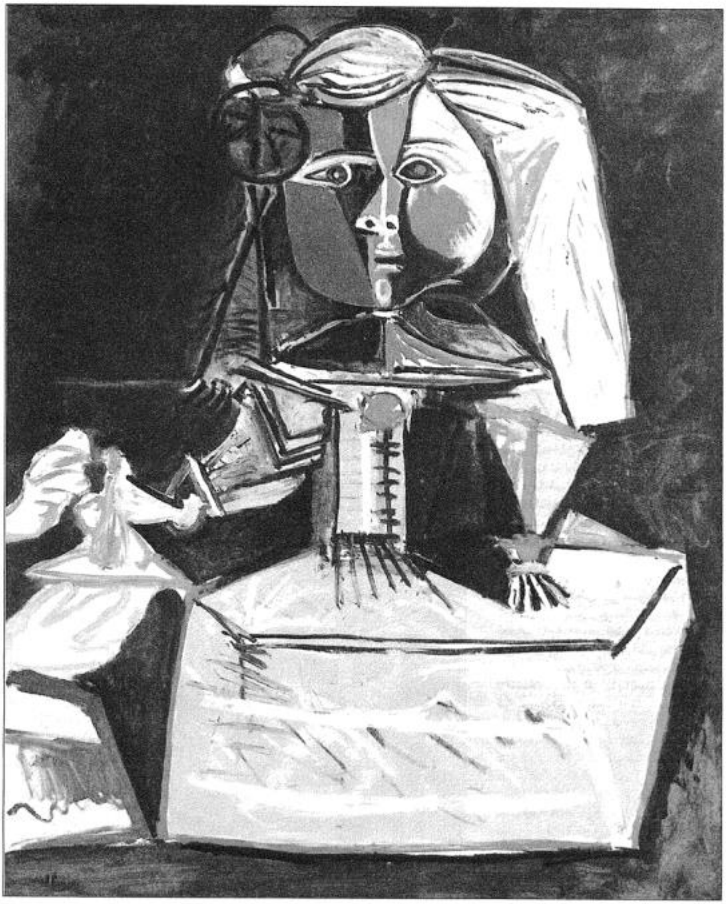
وعلى الرغم من التقاليد العظيمة التي يحفل بها الفن الأسباني، والتي لم تضعف حساسيته له أبدًا، فسرعان ما ضاقت به حدود بارشلونة ضيقًا شديدًا وبدافع الشغف الشديد لاستكشاف آفاق أخرى أكثر رحابة قرر أن يخاطر بكل ما يملك من مال قليل، واتجه إلى الرحيل، ولم يقصد باريس طبعًا ولكنه اتجه إلى الشمال البعيد، حيث توجد مدينة لندن، إذ توقع أن يجد في هذه المدينة نساء جميلات وذكيات حصلن على حريتهن وأن يرى شحاذين يمشون في الشوارع وهم يرتدون قبعات عالية، لكن في الطريق كانت باريس قد خلبته، إذ وجد هناك المناخ الذي يلائم خياله، والأصدقاء الذين يمكن أن يلهموه والمتاحف الغنية بالكنوز، لكل هذه الأسباب لم يترك بيكاسو الأرض الفرنسية إلا نادرًا.

كان بيكاسو يجد دائما أقرب أصدقائه بين الشعراء، وكان ماكس جاكوب هو الذي عرفه بألوان المتعة وألوان التعاسة في حياة البوهيميين في مونتمارتر، وقادته سخرية ألفريد جاري اللاذعة وانتقادات أبو ليناير البصيرة إلى تفكير جديد كان لا بد أن يصل به ليس فقط إلى أسلوب جديد في الرسم، بل وأيضًا إلى مفهوم جديد لمعنى الفن. وتعرف بيكاسو على الباليه لأول مرة عن طريق جان كوكتو الشاب الذي التقى به في لحظة مواتية أثناء الحرب ١٩١٤ - ١٩١٨، وأخذ في الثلاثينيات يتابع كتابات الداديين والسيرياليين باهتمام عميق وأقام صداقة مستمرة مع الشعراء من أمثال تريستان تزارا Trislan Tzara، وبول إيلوار Poul Eluard وبيير ريڤردي Pierre Revrerdey وجاك بريڤير Jacques Prévert وميشيل ليريس Michel Lei-ris، ولا يجب أن يفهم من هذا أن بيكاسو كان يتجاهل الرسامين، ففي بكورة شبابه أقام صداقة مع دوانيير روسو Dauanier Rousseau وهو في شيخوخته، وكان يلتقي كثيرًا بماتيس وديران وبراك، في تلك الأيام التي كانوا ينشغلون فيها بتجاربهم الجريئة مع الألوان التي أكسبتهم اسم الوحوش البرية Les Fauves.

مع ذلك فإن اهتمامات بيكاسو ومشاغله كانت تختلف اختلافا واضحا، ففي فترته الزرقاء Blue Periad رسم بيكاسو صورًا للأمومة والطفولة والشحاذين العميان كما رسم بعض التكوينات الكبيرة التي تعبر من خلال رؤى شاعرية عن الشفقة والرثاء، كما تعبر عن بعض الأفكار المتجاوزة أو المتعالية transcendental وكانت هذه الصور مستوحاة من بقايا تنشئته الأكاديمية.

وفي ١٩٠٦ خرج من هذه

الطفلة مارجريتا ماري نقلا عن لوحة وصيفات الشرف للفنان ڤيلاسكويز، ١٩٥٧، زيت على قماش ١٠٠ × ٨١ سم



بيكاسو

المرحلة باعتقاد قوى بأنه يجب على الفن أن يتحرر من أثر الحدوته أو الحكاية وأن يكتشف فى الوقت نفسه دافعًا أعمق وأكبر من الرغبة المسيطرة على التأثريين فى عرض تأثيرات الضوء واللون العابرة فى رسوماتهم، كان بيكاسو يطمح فى إحياء الإحساس بالواقع الذى وجدوه فى رسوم الفريسك Frescoes لأهل كاتالان Catalan البدائيين، كما وجدوه فى النحت المصرى القديم الإغريقى قبل المرحلة الهلينية، وكذلك البيزنطى والقوطى، إذ تبدو هذه الأساليب حية بفعل ديناميكية غامضة تجعلها جميلة أحيانًا وأحيانًا أخرى مخيفة مفزعة.

لم تكن هذه الاكتشافات فقط هى سبب الأزمة الكبيرة فى ربيع عام ١٩٠٧، فقد كان بيكاسو يعرف دائمًا أنه لا يمكنه تحقيق أى تقدم دون دراسة مستمرة لما يقدمه الآخرون من حلول ونقد أعمالهم نقدًا لا يعرف اللين، وربما كان ماكس جاكوب يقصد موقف بيكاسو حين قال «إن الفن هو الشك» "Le doute Ce l'art" وقد كان بيكاسو طوال أيام حياته، ورغم نجاحه العظيم، يحتفظ بقدر كبير من التواضع والشك مما يمكن اعتباره أحد الأسباب الرئيسية لقدرته على إنتاج أعمال أصيلة حتى فى شيخوخته.

فى خريف ١٩٠٦ بعد إتمامه لعدد من أعمال الرسم أخذ فى رسم تكوين كبير يحوى عددًا من الأشكال النسائية يمزج بين العمدية والشك فيما يمكن أن تقود إليه هذه الأعمال، هذا الرسم الذى سمى فيما بعد «بنات أفنيون» "Les Demoiselles d'Avignon" وفر له ميدان معركة وأرض اختبار لمفاهيم جديدة، كان من بينها اكتشاف بيكاسو، أثناء قيامه بهذا النحت لأهمية النحت الأفريقى، وفى نوبة انفجار للعنف الثورى أدخل رأسين على يمين لوحة الكانفاس Canvas مما بدا نشازًا غريبًا بالنسبة للأشكال الكلاسيكية وإهانة قاسية لكل التقاليد الجمالية، وعلى حد قول هيرمان ملفيل «فإن هذه الوجوه التى تحمل فى تركيبها هكذا الجحيم والنعيم، تلقى فى روعنا كل غوايات الماضى، وتجعل منا للمرة الثانية أطفالاً مندهشين فى هذا العالم».

فى هذا الوقت كان بيكاسو قد اكتسب فعلا شهرة عالمية عظيمة وودع أيام الفقر والحرمان فى باريس، ولكن الامتعاض الذى سببه هذا الرسم لأولئك الذين كانوا معجبين بأعماله الأولى فى مرحلتيه الزرقاء والقرمزية كان مخيفا، وقد عبر ديران عن اهتمام أصدقائه وعدم استحسانهم بقوله: «يومًا ما سنجد بيكاسو قد شنق نفسه خلف قماشة كبيرة» أما أبولينار فقد لخص هذه الحادثة الشاذة فيما بعد بقوله «لم يكن هناك شىء أروع من مشهد التحولات التى كان يجتازها». ازدادت درجة الفهم مع مضى الأيام، إذ أخذ بعض الفنانين الآخرين وأولهم براك يرون أهمية هذا الرسم وقوته.

مع ذلك، فإن بعض الفنانين قد أخذوا يشككون فى الاعتقاد السائد بأن الجمال والكمال هما الغاية الوحيدة للفن، إلا أن لوحة «بنات أفينون» أثبتت بقوة مقنعة ولأول مرة وجود قوة سحرية فى الفن البدائى، وأن حيوية الفن يمكن أن تستعيد مكانتها فى الرسم الغربى المعاصر، وأن الجمال والقبح ما هما إلا جوانب فرعية فى أى شكل تعبيرى ينطوى على هذه القوة العاطفية الديناميكية، فالوسائل التى استخدمها بيكاسو كتحريف الصور بطريقة متعمدة وإزاحة الأطراف والتبسيط الشديد هى خطوات ثورية نحو تحليل وتركيب جديد للشكل كما نراه ثم تشكيله حسب معرفتنا، إن مقولة بيكاسو نحو تحليل وتركيب جديد للشكل كما نراه ثم تشكيله حسب معرفتنا، إن مقولة بيكاسو «أنا لا أرسم ما أرى وإنما أرسم ما أعرف» لم تكن ترمى فقط إلى الهجوم على الانطباعيين وإنما كانت أيضا إعلانا عن موقف جديد إزاء الفن الذى كان يتحتم عليه أن يجد تعبيره فى الأسلوب الذى سمى بالتكعيبية، وهذا الأسلوب ذاته هو نتاج فكر هذا القرن واكتشافه وهو تأسيس لتصورات جديدة لمعنى الفن.

وخلال السنوات الست السابقة على الحرب العالمية الأولى ١٩١٤، اشترك براك وبيكاسو فى محاولة اكتشاف شديدة الأهمية والأثر وعلى حد وصف براك إذ يقول «كنا مربوطين بحبل مثل متسلقى الجبال» وراحا يكتشفان كنوز أرضهم الجديدة، وكانت السنوات الأولى التى تعرف بمرحلة التكعيبية قد انتهت فى سنة ١٩١١ إلى أزمة حين وصل الأسلوب الجديد عمدًا إلى ضياع الخصوصية وأوغل فى التجريد إلى درجة الكمال مما جعله شديد البعد، شديد العزلة. وللإفلات من أسر هذه المخاطر جاء الرجلان بأشياء حقيقية ثبتاها على سطوح الرسومات وأعادا إلى اللون مكانته التى كانت قد تضاءلت لرغبتهما فى تأكيد أهمية الشكل، حدث هذا التغير بغرض إنشاء علاقة جديدة مع الواقع ومن هنا جاء التكنيك المعروف الآن بفن اللصق (أو الكولاج Collage) - وهى طريقة إدماج قصاصات من الورق والصور والصحف داخل صورة عن طريق لصقها على السطح.

وقد حدث تطور هام مماثل برسم صورة «سيدة فى كرسى ذى مساند Woman in an Armchair» سنة ١٩٦٣، حيث أدخل بيكاسو فى الرسم مفاهيم وتداعيات شاعرية ذات نظام جديد، فالصورة موجودة الآن فيما يحق لها، إذ صار الشكل منحوتًا وموضوعيًا، وأن ما تحركه



صورة نصفية لامرأة جالسة. نقلا عن الفنان جراناش. صورة مطبوعة من حفر على اللينوليوم ٧٦ × ٥٧ سم

بيكاسو

فى الذهن من تتابع للصور لا ينبع من محاكاة أشياء خارجية ولكن من خلق كيان واقعى قائم بذاته.

بيد أن بيكاسو قد اختار أن يعبر عن نفسه بطرق شديدة التنوع، وكأنه قد وجد أن الضرورة تملى عليه أن يثبت أنه لا يرغب فى تأسيس أسلوب جامد أو مدرسة ذات طابع محدد، بل يريد أن يواصل الاكتشاف إلى ما لا نهاية، فأنتج رسوما واقعية ذات صفاء كلاسيكى حتى فى أوج فترة التكعيبية ونظامها الصارم، وفى سنة ١٩١٨ بعد زواجه الأول عاد إلى موضوع الأمومة والطفولة برؤية جديدة، فالعمالقة الذين كانوا يلعبون مع أطفالهم أو يحتضنونهم على شاطئ البحر فى رسومات العشرينيات، قد أضفى عليهم قوة جمالية وتناسبًا مهيبًا بدل أوضاعهم من عالمهم الواقعى العادى إلى عالم أساطير هوميروس.

وبالمقابل: أنتج من تلك السنوات ذاتها، صورًا مثل «العازفون الثلاثة» «متحف الفن الحديث ـ نيويورك» ورسومًا أخرى كثيرة من واقع الحياة تتكون من أشكال هندسية مسطحة فى إطار منهجى محكم، وعلى درجة كبيرة من السمو الأثرى مثل صورة «العمالقة العراة» لكنها تختلف اختلافًا كاملاً فى أسلوب تناولها.

ورغم ذلك وقعت الأزمة فى سنة ١٩٢٥، وهى أزمة عنيفة وبعيدة المدى فى آثارها تذكرنا بما حدث معه حين رسم «بنات أفنيون» إذ أنتج بيكاسو رسمًا ثوريًا آخر على الخيش Canvas، فى وقت كان يضطرم فيه حزنًا على وفاة أحد أصدقائه القدامى وهذا الكانفاس لا يعتمد على التوازن المعمارى الاستاتيكى للبناء التكعيبى، «فالراقصات الثلاثة»، تبرز ملامح العذاب والتشوهات بصورة لم نرها فى أعماله من قبل، إذ تظهر أمامنا تكشيرة جديدة مفزعة كجزء متمم للصورة داخل فيضان من العربدة والمجون، إننا ندرك فجأة أن بيكاسو لم يكن يبحث عن حل يحقق التناغم الهارمونى، بل كان يسعى إلى التعبير عن الصراع الشرس الذى يدور بين القوى التى تخلق الحياة وبين القوى التى تمزقها.

هذه الحالة المزاجية المتشنجة الضيقة، تعاود الظهور فى أعمال بيكاسو خلال العقدين التاليين، فالشكل الإنسانى يتمزق ثم يعاد تركيبه، فالعيون، والآذان، والأنف، والفم، تتحرك إلى مواقع جديدة تزين رأس الإنسان بإمارات العذاب أو الفرح، ونحن نتحرك معها، فنرى الوجه من الخلف مثل بروفيل أو كشكل كامل فى لمحة واحدة.

هذه الحيل التى تم اكتشافها من خلال الدهشة والتأمل على مدى عشر سنوات ماضية، صارت هى القاعدة المرنة للغة تتأهب للانفجار فى رسم جدارى بالغ الأهمية والخطورة هو لوحة الجيرنيكا Geumica التى رسمها أثناء الحرب الأهلية فى أسبانيا، وكان من المحتم أن يستمر هذا التفجر فى صور زيتية عديدة رسمها خلال سنوات الاحتلال النازى لباريس، وهى سنوات شديدة الظلام.

لكن بيكاسو اعتاد ألا يسمح لأى أسلوب حتى لو كان من ابتكاره أن يقيد حريته كما اعتاد كذلك أن ينفعل ضد حالاته المزاجية مهما بلغت حدتها، فالغضب، والقلق، وضياع الوهم قد أخلى مكانا لنوع من المزاج الوحشى أو المتعة الخفيفة، والنساء اللواتى يرسمهن يمكن أن يكن حيوانات خرافية أو مخلوقات جشعة، لكنهن فى أغلب الأحوال قد خلقن بالحب، والملاحظة الحادة لجمالهن تتكشف فى الذكاء المتألق فى عيونهن وفى أحضانهن القادرة على الاحتواء.

لقد لاحظ بيكاسو ذات مرة أنه رغم كل شىء، فنان واقعى مثل كل الرسامين الأسبان. والحقيقة، أننا عند الفحص الدقيق نجد أن تشويه الأشياء، وتحريف شكل الإنسان بطريقة عنيفة، خصوصًا فى أعماله التى رسمت بعد ١٩٢٥، إن دل على شىء فإنما يدل على ضيق بيكاسو بالحلول التى تتجه نحو تحقيق توازن هارمونى، لأنه كان مهتما فى الأساس بالتصدعات العظيمة التى باتت ظاهرة فى كل مكان بقدر اهتمامه بما تثيره تناقضات الواقع من توتر.

ولكى يجعلنا نرى بوضوح أكبر، فإنه يرغمنا على أن ننفذ إلى الواقع بكل حواسنا وأن نتساءل عن قيمة المستويات المقبولة التى فقدت معناها. وقد قال بيكاسو ذات مرة «أن الرجل لا يحب فينوس، إنه يحب امرأة».

لقد لوحظ أنه يجب النظر إلى بيكاسو باعتباره شاعرًا يعبر عن نفسه بالصور المرئية، ورسامًا يخلع على الشعر ثوبًا جماليًا. إن لقاءه بشعراء مثل بول إيلوار وأندريه بريتون فى أوائل العشرينيات ـ عندما كانوا يحاولون فى قصائدهم السيريالية وبياناتهم أن يبحثوا عن منابع الإلهام فى الأحلام الغامضة وفى عمليات اللاشعور غير المنطقية ـ هذا اللقاء قد توافق بالصدفة مع رغبته الخاصة إلى الوصول إلى فهم للواقع ونحن قد يسهل علينا أن نتتبع تأثير هؤلاء الشعراء لكننا إذا نظرنا إلى أعمال بيكاسو فى مجموعها، فسوف يتكشف لنا أيضا أن التغيرات الثورية فى أسلوبه تتضافر معها بعض التيمات والهواجس الشخصية التى يمكن أن تغزوها إلى خبرته الواعية، التى ترجع إلى ذكريات طفولته غالبا، ومن الأمثلة الواضحة جدا على هذا نجد ارتباطه بموضوع الأم والطفل، وبالجسم العارى، وبعض الحيوانات الأليفة، وبالدهشة أو الفزع الموجود فى رأس الإنسان، ثم خوفه من العماء، ومن الموت الذى يلازمه كظله.

هناك موضوعات أخرى كان يعود إليها مرارًا وتكرارًا، مثل مناظر الطبيعة والحياة الجامدة بما فيها من أشياء، ومناظر أخرى مألوفة بالإضافة إلى هذا الثالوث الخالد المفعم بالتوتر النفسى ـ الرسام، والموديل، والعمل

الفني - وقد منحه هذا المدى مجالاً فسيحًا للاكتشافات الجديدة حتى في أخريات أيامه.

ودراسة هذه التيمات المتوترة تستلزم منا أن نفحص أعمال بيكاسو على احتمال أن نجد فيها مفاتيح توصلنا إلى غرامياته وآماله وكذلك إلى معرفة مخاوفه والأشياء التي كانت تثير نفوره واشمئزازه. ومن هنا سوف نتبين أن النحت قد استوعب أفكاره بنفس درجة الرسم حتى أن هذين النوعين من الفنون كانا يتوافقان في أغلب الأحيان. ففي سنة ١٩٠٦ مباشرة بعد أن فرغ من تلك الصور العارية في مرحلته القرمزية التي كانت تستوحي بتناسبها الكلاسيكي ورشاقتها آلهة اليونان القديمة، أن ظهرت أول الرسوم المنحوتة، وظهرت أشكال قصيرة القامة مربوعة، ومقنعة بوجودها الصلب. حدث هذا بعد أن رسم بيكاسو عددًا من الأشكال البرونزية في استديو صديقه النحات الأسباني جونزاليز.

بعد ذلك، جاء اكتشاف بيكاسو للنحت الأفريقي. وهذا الاكتشاف هو الذي أوصله إلى مفاهيم جديدة في الرسم التكعيبي. هذه البدايات الأولى، أعقبها عدد كبير من الأشكال المنحوتة الصلبة، والكثير من الصور المرسومة بالنحت خلال حياته العملية، إنما تعطي برهانا على رغبة بيكاسو في أن يوحد بين هذين الفنين، وأن يزود كل فن ببعض الصفات التي تنتمي تقليديًا إلى الفن الآخر.

لقد أشرت من قبل إلى الظهور المتكرر لبعض التيمات في أعمال بيكاسو وارتبط هذا ارتباطا وثيقا بقدرته على الدخول إلى حياة موضوعه أو إلى وجوده. سواء كان هذا الموضوع جبّارًا أو قردًا أو شخصيات أسطورية مثل هارلكان Harle-guin والمينوتاور. كل منها يبدو متوافقًا بطريقة غامضة مع فكرة سبق له أن كونها عن نفسه، وهناك أسباب عديدة جعلت هارليكان بشخصيته ومظهره، يستهوي بيكاسو. فهذه الشخصية الأنيقة الجذابة، هي بطبيعتها شخصية تتسم بالمراوغة. فهو محب عاشق، وممثل بطيء الحركة، وصديق روحي للمنبوذين والسكارى والمومسات. إنه المهرج البارع الذي يكذب لكي يقول الحقيقة.

هذه الصفات يمكن أن يقال أنها صفات بيكاسو نفسه. وفضلا عن هذا، فهناك جاذبية مؤكدة للبدلة الماسية ذات الألوان العديدة التي وجدت في سنواته الأخيرة مكانا مناسبا لها في التكوينات التكعيبية. كذلك فإن هناك لوحات مبكرة لبيكاسو نفسه في ملابس الهارليكان تثبت بغير شك أنه كان يريد أن يتوحد مع هذه الشخصية الزئبقية ذات المزاج السوداوي وأن يتقبلها كرمز لشخصيته التي تشبه اللغز.

أما انتحال الشخصية الثانية فقد حدث بنفس الطريقة في السنوات التي تلت ذلك. وكان السيرياليون قد نجحوا من قبل في جذب الاهتمام إلى ما تتضمنه قصة المينوتاور من دلالات سيكولوجية عندما قدم بيكاسو في سنة ١٩٣٣ وجوده المزعج في سلسلة من الرسومات المحفورة على المعادن والتي تعرف باسم «استديو النحات». وقد حدث أن ذكر أبولينار في وقت مبكر من سنة ١٩١٣ وحوش بيكاسو «المهجنة التي تحمل وعيًا مثل أشباه الآلهة في مصر القديمة». وكان لا بد أن تمر عشرون عامًا على هذا الأمر حتى يجعل بيكاسو النحت شاغله الأساسي ولمدة قصيرة، إذ نجد تقديمه المتعمد لصورة لأحد أشباه الآلهة ذي قرون horned demi- god.

ويظهر لنا في ظروف توحي بأنه إذا كان هارلكان هو الرمز الذي اختاره الرسام الشاب لنفسه، فالمينوتاور يتطابق بدقة شديدة مع مفهومه عن نفسه كنحات في ربيع العمر - إنه قريب جدًا من أرض الواقع، أقل تشردًا، لكنه هوائي، وإن كان لايزال هو الطريد المنبوذ من المجتمعات لأنه مستعبد لشهواته وضعفه الجسدي بصورة وحشية، يزيد من قوة هذا الانطباع إشارته إلى عاهة فقد البصر التي نكب بها المينوتاور في بعض رسوم بيكاسو المنحوتة الأخيرة. إن فقدان البصر، وإن يكن كارثة، إلا أنه يتيح للنحات أن يستمتع بحاسة اللمس وأن يرقى بها.

ورغم أن الأسطورة تعد وسيلة قديمة وأساسية في فهم الواقع، فإن بيكاسو لا يقبلها كرمز جاهز. فهو يخترع أساطير جديدة كتعبير مجازي عن نفسه وحياته. ومع أن هذه الشخصيات تمثل مشاكله ومشاعره الخاصة، فإنها تظل مع ذلك شخصيات عامة غير محدودة بزمان أومكان. وأهم مثال على تبديل وضع الأساطير نجده في لوحة «جيرنيكا Gurenica». ففي هذه الصورة الرائعة التي رسمت سنة ١٩٣٧ بروح الغضب والحزن (إبان الحرب الأهلية الأسبانية) والذي ساعد على وضعها في بؤرة الضوء حادث تدمير عاصمة الباسك القديمة بقاذفات القنابل التابعة لفرانكو، لقد أجرى بيكاسو عملية الاستبدال بإحساس غريزي واستخدم مفاهيم بدائية مأخوذة من خبرة الحياة العادية مما أضفى على مشهد الكارثة جوًا من الواقعية فاق هول المأساة ذاتها. فالحيوانات، وصورة البيت الذي تشتعل فيه النيران، ثم صورة الشمس المشوهة، قد أخذت نصيبها من الأهمية الدرامية مثل صورة النسوة اللاتي أصابهن الذهول أمام مصرع أطفالهن، فالحيوانات تمحو الصفات الشخصية، وتحدث التطهير، وتشدد على أهمية الممتلكات البشرية التي تمثلها هذه الحيوانات.

كانت الحرب الأسبانية التي وجد بيكاسو نفسه مشتركا فيها عاطفيا بدرجة لم يجربها في الحرب العالمية الأولى، مقدمة لسنوات من البؤس والحرمان التي قضاها في باريس المحتلة، وأيقظت وحشية الحرب في نفسه من جديد وعيا اجتماعيا يمكن تتبع آثاره في صورة المنبوذين والشحاذين العميان التي رسمها في مرحلته الزرقاء، صور كثيرة تعطي دليلاً على ما كان يعانيه من كرب عن طريق العنف الذي يمزق به الشكل الإنساني ويعيد تجميعه بما يعطي في أغلب الأحوال معنى الشؤم، وعند نهاية الحرب وجد أن بإمكانه السفر، فعاد إلى جنوب فرنسا، حيث استأنف عمله بجهد لا يعرف الكلل كرسام، ونحات، وخزاف، ونقاش، وشاعر.

وصلت شهرة بيكاسو في سنواته الأخيرة حدًا جعل من الصعب عليه أن يظهر علنا وسط الجماهير، وظل في عزلته في نوتردام دي في Notre Dame-de-Vie يواصل عمله الدائم التغير، الدائم النمو مع استطلاعه للاكتشافات الجديدة من خلال شبكة الإعلام الواسعة المدى والموجودة تحت إمرته. كذلك ظلت قواه الإبداعية كما هي دون أن يعتريها ضعف حتى آخر لحظة في حياته.

وسوف تمضي سنوات طويلة قبل أن نتمكن من تقييم عظمة بيكاسو وأهميته تقييما حقيقيا، إن فهمنا له يتطلب فهما لأسرار الحياة ذاتها، لكن من الممكن لنا أن نرى بوضوح التأثير الهائل الذي تركه على مجريات الفن في هذا القرن. ■

ترجمة: نسيم مجلي

عن: The Great Artists Series;
Book Six: Picasso (1881-1973)
Roland Penrose
New York: Funk & Wagnans Inc.



يوم مات الفرعون

أحمد عثمان

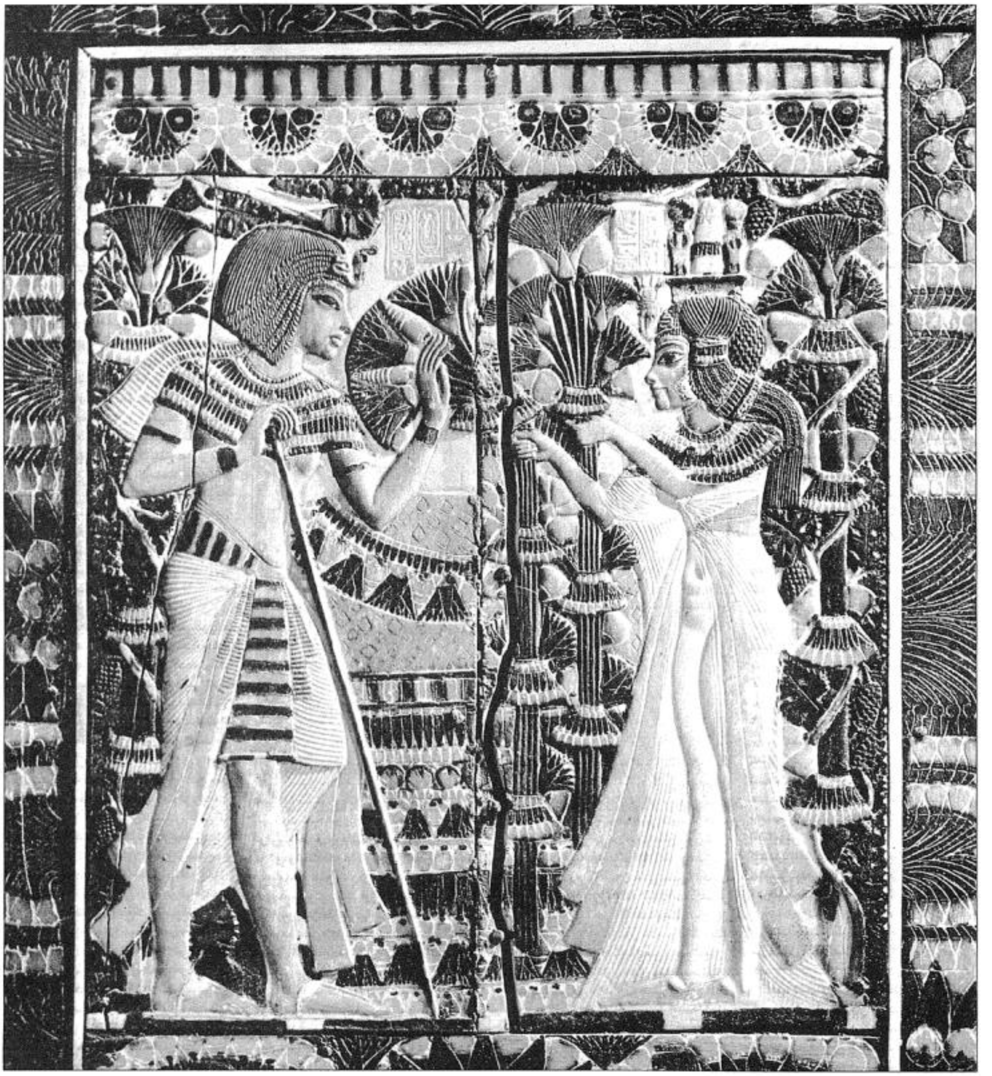
يقول الباحث الأمريكى بوب برايـر إن الملك الشاب أصيب بضربة عنيفة على رأسه بآلة حادة تسببت فى هذا الكسر الذى لم يؤد إلى الوفاة مباشرة، وإنما ظل الملك فى حالة غيبوبة «كوما» فترة طويلة - عدة أسابيع - من الوقت قبل وفاته

صدرت الطبعة الأولى لكتاب «مقتل توت عنخ آمون» سنة ١٩٩٨ عن دار ويدنفيلد آند نيكولسون، ثم جاءت الطبعة الشعبية فى العام التالى ١٩٩٩ عن فينكس. ورغم أن الكتاب يعتبر بمثابة دراسة تاريخية حول الطريقة التى مات بها الملك المصرى توت عنخ آمون، فإن بوب براير بدأ

The Murder of Tutankhamen
(مقتل توت عنخ آمون)
bob Prier
London, Wiendfield & Nicolson: 1998.

كتابه بطريقة قصصية روائية. إذ قدم الكاتب وصفا خياليا للكيفية التى يعتقد أن الملك لقى حتفه بها أثناء نومه:

«فى أحد أيام الخريف المتأخر خلال السنة الثامنة عشرة من عمره، ذهب توت عنخ آمون وحده إلى الفراش. فرغم أن أزواج الفلاحين ينامون مع زوجاتهم فى نفس الغرفة، إلا أن الفراعنة المصريين كانوا يقيمون فى قصور منفصلة عن تلك التى تسكنها ملكتهم وسيدات الحريم. فالزيارات الزوجية شىء، والنوم شىء آخر. اضطجع توت عنخ آمون فى غرفة كبيرة، وضعت مفروشاتها متباعدة - قليل من المقاعد والموائد وفراش واحد من الخشب له أقدام على شكل مخالب الأسد. وعلى حوائط الغرفة لمعت رسومات للأسماك والبط والحشائش بشكل خاص على سطح من الجبس، فى الضوء المعتم. وفتح الباب ببطء بدون صوت فى أعماق تلك الليلة، فتحة صغيرة تسمح لشخص واحد أن يتسلل إلى الداخل ثم يقفله من خلفه، بعد أن كان (هذا الشخص) قد أفلت بطريقة ما عبر الحراس، واختلس مقتحم الليل طريقه إلى فراش الفرعون، وربما حجب صوت الساعة المائية التى تنقط - نقطة نقطة - صوت خطواته. وجد الملك نائما على جانبه، ورأسه يرتكز فوق مسند للرأس من الرخام. أخرج الرجل شيئا ثقيلا من تحت ملابسه، ربما يكون صولجانًا مصريًا ملتصقًا به حجر صلب (طوله) ثلاث بوصات، عند مؤخرة عصا متين طوله قدمان. وبعد أن أخذ نفسا عميقا، طوح الشىء الثقيل (فى الهواء ثم أنزله) على جمجمة توت عنخ آمون. وبعد لحظة



توت عنخ آمون مع زوجته عنخ سبا آمون

انتظار ليضيع الصوت المفاجئ في وسط الليل، تراجع المقتحم بخطواته في غرفة النوم الملكية إلى خارج الباب، وانصرف إلى داخل القصر في أمان الليل».

كسر الجمجمة

وروبرت براير أحد علماء المصريات بجامعة لونج آيلاند الأمريكية بنيويورك، ذهب إلى جامعة ليفربول البريطانية وطلب الاطلاع على صور الأشعة التي سبق لبعثة الجامعة أن أخذتها لمومياء توت عنخ آمون منذ ٣٣ سنة. وبعد أن حصل براير على نسخة من صور الأشعة - التي لا توجد نسخة منها لدى رجال الآثار في مصر حتى الآن - عرضها على بعض الخبراء في علم التشريح، فأكدوا له وجود عدة كسور في عظام الجمجمة هي التي تسببت في وفاة الملك. ورغم وجود عدة كسور بالجمجمة، إلا أن الباحث الأمريكي ركز اهتمامه على جرح دائري في الحفرة التحت صدغية في الخد الأيسر بجوار حلمة الأذن اليسرى، أدى إلى حدوث بقعة من الدم وجدت متجلطة أسفل الأذن. وفضل براير الاعتماد على هذا الجرح تحت الأذن للقول بأنه هو الذي سبب الوفاة، لأن هذا التفسير يساعده - كما سنرى - في تحديد القاتل، وهو ما يفسر البداية الروائية التي فتح بها التحقيق في كتابه. ويقول الباحث الأمريكي بوب براير إن الملك الشاب أصيب بضربة عنيفة على رأسه بآلة حادة تسببت في هذا الكسر الذي لم يؤد إلى الوفاة مباشرة، وإنما ظل الملك في حالة غيبوبة «كوما» فترة طويلة - عدة أسابيع - من الوقت قبل وفاته.

ومنذ العثور على المومياء داخل مقبرته في وادي الملوك في نوفمبر ١٩٢٢ حاول الباحثون التعرف على سبب وفاة توت عنخ آمون بسبب موته المبكر وهو لم يتجاوز التاسعة عشرة من العمر. وذهب البعض إلى أنه مات على أثر إصابته بأحد الأمراض الخطيرة التي يصعب علاجها مثل السل. كما أعلن بعض علماء المصريات من البريطانيين والهولنديين في أمستردام في يوليو سنة ٢٠٠٠ أن توت عنخ

آمون كان مصابا بمرض وراثي تناسلي، يؤدي إلى تراكم الدهون عند الأرداف. وعلى حسب قولهم، تبين بعد فحص مقاسات عدد من الأردية التي وجدت في مقبرة توت عنخ آمون، أن أرداف الملك كانت متضخمة بشكل غير طبيعي، وهم يزعمون بناء على ذلك أنه ورث مرضا اسمه «مارفان» عن أبيه إخناتون. ولا تتفق نتائج فحص مومياء توت عنخ آمون مع تكهنات جماعة أمستردام الأخيرة، بل هي تتعارض معها كلية. فمن المعروف أن المصابين بمرض «مارفان» عادة ما يكونون نحافًا طوال القامة، ولهم أصابع طويلة وأرداف متضخمة. كما أن هذا المرض يسبب اختلالا في التوازن يؤثر على العينين والرئتين والعضلات والعظام. وقد أوضح التقرير الطبي لجسد توت عنخ آمون عدم وجود تضخم في حجم الأرداف، وبين خلو عظامه من أية علامات للمرض أو التشويه، كما أنه ليس طويلا بشكل غير طبيعي حيث لا يتجاوز طوله ١٦١ سنتيمترا.



جمجمة توت عنخ آمون، انفصلت عن جسده

مقبرة توت عنخ آمون

كان اللورد كارنارفون البريطاني مريضا ونصحه الأطباء بأن يقيم في منطقة جافة خالية من الرطوبة، فقرر قضاء معظم وقته في مدينة الأقصر بصعيد مصر، التي كانت بمثابة مشتى للأغنياء في بداية القرن العشرين. وحتى يسلي نفسه ويملأ فراغ حياته، حصل كارنارفون على تصريح بالتنقيب في وادي الملوك عام ١٩١٤، واختار هوارد كارتر للإشراف على البعثة الأثرية في الموقع. وبعد مرور ثمانية أعوام وإنفاق الآلاف من الجنيهات دون العثور على أية مقابر مهمة، قرر اللورد البريطاني عدم الاستمرار في المشروع. إلا أن كارتر تمكن من إقناعه بمنحه مهلة أخيرة قبل إيقاف العمل. وبمجرد عودة كارتر إلى الأقصر في أكتوبر ١٩٢٢ بعد لقائه مع كارنارفون في بريطانيا، قرر تغيير الموقع الذي كان يعمل فيه من قبل، ونقل المنقبين إلى المنطقة المحيطة بمقبرة رمسيس السادس. وكانت المفاجأة عندما وصل الأثري البريطاني إلى موقع الحفريات في صباح يوم ٤ نوفمبر ١٩٢٢ وأخبره رئيس العمال أحمد الجرجار بالعثور على بداية سلم من الدرجات الحجرية، وفي اليوم التالي تم الكشف عن ١٦ درجة تقود إلى باب خشبي مختوم بختم كهنة الجبانة الملكية.

وعند افتتاح المقبرة تبين أنها لملك صغير السن هو توت عنخ آمون، الذي خلف إخناتون في حكم مصر عند منتصف القرن ١٤ قبل الميلاد. وكانت هذه هي المقبرة الوحيدة التي وجدها الأثاريون مغلقة، وبها كامل محتوياتها التي وضعت مع الملك منذ أكثر من ٣٣ قرنًا.

ولد توت عنخ آمون في القصر الملكي بمدينة العمارنة في العام السابع من حكم إخناتون، وقد عثر في مقبرته على قميص من الكتان مسجل عليه تاريخ مولده هذا. وسمي عند ميلاده توت عنخ آتون، ولم يغير اسمه إلى توت عنخ آمون إلا في العام الخامس من توليه الحكم. ووجدت مومياء الملك داخل ثلاثة توابيت ذهبية، وفوق رأسه قناع يمثل وجه توت عنخ آمون الذي مات في ظروف غامضة ولم يتجاوز ١٩ سنة. واستطاع الأثاريون عن طريق دراسة محتويات المقبرة التعرف على الكثير من المعلومات التاريخية المهمة، إلى جانب أشكال اللباس والمفروشات والحلي في مصر القديمة.

وثار الخلاف بين الباحثين عن علاقة توت عنخ آمون - الذي حكم مصر لمدة تسع سنوات عند منتصف القرن ١٤ ق. م - بالأسرة المالكة الثامنة عشرة. وساد الاعتقاد في النصف الأول من هذا القرن لدى علماء المصريات بأنه كان واحدا من النبلاء، ليست له علاقة قرابة بالعائلة المالكة إلا عن طريق الزواج. فقد تزوج توت عنخ آمون من «عنخ سنبا آتون» الابنة الثالثة لإخناتون، ليصبح له الحق في الجلوس على العرش. إلا أن الأمر تغير بعد الحرب العالمية الثانية بعد أن أتيحت الفرصة لفحص ودراسة البقايا الأثرية التي تم العثور عليها في مقبرته، إلى جانب ظهور العديد من البقايا في مناطق أخرى من البلاد، مما أدى إلى اقتناع الباحثين بانتمائه إلى العائلة الملكية. وكان هوارد كارتر الذي عثر على المقبرة في ١٩٢٢ - وهو فنان تشكيلي - قد لاحظ التشابه الشديد بين قناع توت عنخ آمون وبين وجهي إخناتون وأمه الملكة طاي، كما يظهران في الأعمال الفنية. كما تم العثور على تمثال من الجرانيت الأحمر على شكل أسد - موجود بالمتحف البريطاني - كتب عليه نص يشير إلى أن توت عنخ آمون كان من سلالة «أبيه أمنحتب الثالث». وعثر في مقبرة توت عنخ آمون على بقايا تحمل أسماء معظم أفراد العائلة المالكة، منذ عصر جدهم الأكبر تحتمس الثالث. وعلى هذا فإن انتماء توت عنخ آمون للأسرة الثامنة عشرة بات مؤكدا، إلا أنه - بسبب عدم العثور على مومياء إخناتون حتى يتم فحصها - ظهر خلاف جديد في من يكون والد الملك الصغير، أهو أمنحتب الثالث أم إخناتون؟

فحص المومياء

كان أول فحص طبي لمومياء توت عنخ آمون هو الذي جرى عام ١٩٢٥ بعد ثلاث سنوات من العثور على مقبرته، قام به الدكتور دوجلاس درى أستاذ التشريح بجامعة فؤاد الأول - جامعة القاهرة فيما بعد - الذي أخرج المومياء التي لا تزال محفوظة بمقبرته بوادي الملوك حتى الآن، إلى مقبرة مجاورة لفحصها. إلا أن «درى» اعتمد في فحصه على مجرد ملاحظة المظاهر الخارجية التي يمكن رؤيتها بالعين المجردة، فلم يتمكن من تحديد سبب الوفاة. وجاء في التقرير الذي سجل به نتيجة فحصه إن هناك: «علامات قليلة ظاهرة على الأجزاء الخارجية من الجسد (للدلالة على) أسباب الوفاة».

وبعد مرور ٤٣ سنة من هذا الفحص تم إجراء الفحص الثاني للمومياء عام ١٩٦٨ قام به وفد طبي من جامعة ليفربول البريطانية، برئاسة الدكتور رونالد هاريسون الذي تمكن من عمل عدة صور للمومياء عن طريق أشعة إكس. وبعد أن نفى الطبيب وجود أية أمراض بالجسد وقت الوفاة، أورد هاريسون تفاصيل جديدة عن حالة المومياء في تقريره الطبي:

«عندما تمت إزاحة الأربطة المحيطة بالجسد تبين مباشرة أن المومياء لم تكن في كيان واحد، فقد تم فصل الرأس والعنق عن باقي الجسد، كما انفصلت الأعضاء عن جذع البدن ... وأظهرت الفحوصات التالية أن الأعضاء انكسرت في عدة أماكن كما انفصلت عن الجسد، وانكسرت الذراع اليمنى عند المرفق ... والذراع اليسرى مكسورة عند المرفق وكذلك عند المعصم ... وأبعد الرأس والرقبة عن الجسد عند نقطة الالتقاء (في العمود الفقري) بين الفقرة العنقية السابعة عشرة وأولى الفقرات الصدرية».

واستنادا إلى هذا التقرير الذي ظل مجهولا في الملفات مدة أربعة وعشرين عاما، كنت أنا أول من أشار إلى مقتل توت عنخ آمون في كتابي «بيت المسيح» الذي صدر في لندن بالإنجليزية عام ١٩٩٢ عن دار هاربر كولينز. فعندما عرضت تقرير هاريسون على بعض الخبراء الطبيين أكدوا لي أن الملك تعرض إلى العديد من الضربات القوية التي أحدثت عدة كسور في عظامه، وإن كانت هناك بعض الكسور التي لم تحدث إلا في العصر الحديث عند إخراج المومياء من التابوت. إلا أن الوفاة تمت نتيجة لفصل العمود الفقري عن الرأس عند أولى الفقرات التي تربطه بالجسد، مما يدل على أن الملك تعرض لعملية تشبه الشنق.

من قتل توت عنخ آمون؟

عند محاولته تحديد الفاعل لجريمة القتل، استعرض الباحث الأمريكي الشخصيات التي كانت تحيط بالملك الشاب في تلك الحقبة من الزمان - منذ أكثر من ٣٣ قرنًا وحاول التعرف على من منهم كانت له مصلحة شخصية في قتله، إذ رأى أن المصلحة من أهم الدوافع في هذه الجريمة. ولما كان «آي» - الذي هو خال إخناتون - رئيس وزراء الملك والمسئول عن سلاح الخيالة والعجلات وعن الحرس الملكي وهو الذي خلف توت على العرش، أصبح هو المتهم الأول لدى برابر. ومما زاد في شكوك برابر في دور «آي» في جريمة القتل، أنه أجبر الملكة عنخ سنبا آمون على الزواج منه، حتى يحصل على الحق الشرعي في الجلوس على العرش. وهناك خاتم موجود في أحد المتاحف الألمانية يشير إلى أن «آي» تزوج من أرملة توت عنخ آمون صوريا، ليكتسب الحق في الملك. واستند برابر على خطاب عثر

عليه الآثاريون فى بلاد الحيثيين بآسيا الصغرى موجه من أرملة توت عنخ آمون ـ عنخ سنبا آمون ـ إلى ملك الحيثيين، تطلب منه إرسال أحد أبنائه إلى مصر حتى تتزوجه ويصير ملكا على مصر لأنها لا ترغب فى الزواج من أحد التابعين لها بعد وفاة زوجها. وبالطبع فإن الأمير الحيثى الذى خرج من بلاده قاصدا مصر لم يصلها، ولابد أنه لقى مصرعه فى الطريق على يد رجال رئيس الوزراء المصرى. والرسالة التى بعثت بها أرملة توت عنخ آمون إلى سوبيلو ليوما ملك الحيثيين بآسيا الصغرى، جاء ذكره فى ألواح الأرشيف الملكى للحيثيين، فى بقايا عاصمتهم القديمة فى بوغاز كوى بتركيا. وظهر اسم الملك المصرى مكتوبا بلغة الحيثيين «نب حو ريا» الذى يتفق مع أحد أسماء توت عنخ آمون الملكية وهو «نب خبرو رع». ولم يرد اسم الملكة فى المصادر الحيثية، التى ذكرت لقبها فقط «دها مونزو» الذى يشبه لقب الملكة فى مصر «طا حمت نيسو». ورغم أن الخطاب لم يحدد اسم الملكة التى أرسلته، فإن براير يعتقد ـ ومعه عدد كبير من علماء المصريات ـ أنها كانت أرملة توت عنخ آمون. يقول الخطاب:

«مات زوجى وليس لى أولاد، إلا أنهم يقولون أن لديك أولادًا كثيرين. إذا أنت أعطيتنى واحدا منهم فسوف يصبح زوجى. فأنا لن أختار خادما عندى لأجعله زوجى».

ولما كانت صورة الوزير آى قد ظهرت مرسومة على جدار مقبرة توت عنخ آمون وهو يشترك فى طقوس دفنه، وقد صار ملكا جالسا على العرش فى هذا الوقت المبكر، فإن تفسير روبرت برابر هذا يتطلب مرور فترة من الزمان بين إصابة الملك وموته، تسمح لأرملته بإرسال خطابين إلى ملك الحيثيين، ومقتل الأمير الحيثى وهو فى طريقه إلى مصر، قبل اعتلاء «آى» للعرش. لهذا فضل أستاذ المصريات الأمريكى الاعتماد على الكسر الموجود تحت الأذن اليسرى كسبب للوفاة، لأنه يسمح بمرور فترة زمنية بين الإصابة والموت.

باتحس

إلا أننى أختلف مع بوب برابر سواء فى تحديد الكسر الذى أدى إلى الوفاة، أو فى اختياره للوزير «آى» ليكون هو المتهم بقتل توت عنخ آمون. فبالرغم من وجود عدة كسور فى عظام الملك، إلا أن الإصابة الوحيدة التى يمكن أن تؤدى إلى الوفاة المباشرة هى فصل الرقبة عن باقى الجسد. ومن المؤكد أن هذا الفصل لم يتم فى الأزمنة الحديثة بعد فتح المقبرة، بل تم قبل الوفاة حيث أظهرت صور الأشعة وجود تكلس ـ فى نفس موضع الكسر ـ عند أسفل الجمجمة من الخلف عند التقائها بالعمود الفقرى. ولم تقل رسائل عنخ سنبا آمون إلى ملك الحيثيين إن الملك المصرى كان مريضا فى غيبوبة، وإنما أخبرته بموت توت عنخ آمون، ولهذا فهى تبحث عن زوج آخر. كما أن أرملة توت فى



أخناتون ونفرتيتى يتعبدان لأتون



آى وزير توت الذى
خلفه على العرش
هل هو القاتل؟

رسالتها إلى ملك الحيثيين، لم تتهم الشخص المعروض عليها الزواج منه فى مصر بقتل زوجها، والسبب الوحيد الذى ذكرته لرفضها هذا الزواج أن الزوج يعمل عندها كخادم. وأنا أستبعد أن يكون آى هو القاتل، فهو شقيق الملكة طاى والدة إخناتون وهو الذى تولى حماية ملوك العمارنة حوالى ربع قرن، ولا يعقل أن يتحول ضدهم فجأة فى نهاية حياته بعد أن تجاوز سن الستين.

ذلك أن توت عنخ آمون جاء إلى العرش خلفا لإخناتون الذى قام بثورة دينية توحيدية، أدت إلى إغلاق جميع المعابد المصرية ومصادرة أوقافها، ولم يعد قائما سوى عبادة آتون الواحد الذى ليست له صورة أو تمثال. ولما كانت هذه الاعتقادات مفاجئة للمصريين الذين اعتادوا لآلاف السنين على تعدد الآلهة التى يرونها دائما متمثلة فى أشكال فنية، فلم يتبع إخناتون سوى القليل من رجال الفكر والثقافة. فجاء توت عنخ آمون ليعيد فتح المعابد القديمة التى أغلقها والده، كما أعاد تنظيم طائفة الكهنة وأغدق عليهم من الأوقاف والعطايا. لهذا رأيت أنه من الطبيعى فى هذه الحالة أن يغضب أتباع إخناتون لتصرفات ابنه ويعتبروه مرتدا يباح إهدار دمه. ولما كان با نحس هو كاهن آتون الأكبر، وقد وردت قصص عنه فى التوراة والتلمود تقول بأنه قتل رجلا مهما ارتد عن ديانة التوحيد، فقد رجحت أن يكون هو المسئول عن قتل توت عنخ آمون.

توت لم يرتد

ورغمًا عن هذا الاتهام الذى يوجهه حتى بعض الباحثين الحديثين للملك الشاب بالارتداد عن الديانة التوحيدية، فليس صحيحا أن توت عنخ آمون ارتد عن دعوة إخناتون عندما أعاد فتح المعابد المصرية التى أغلقها سلفه، وسمح برجوع العبادات القديمة. فكل النصوص التى عثر عليها فى مقبرة هذا الملك تناقض الفكرة الشائعة عن ارتداد توت عنخ آمون، حيث ورد بها اسم آتون على أنه الإله الواحد، كما يتبين بوضوح من الصورة المرسومة على ظهر كرسى العرش، بالرغم من ظهور أسماء المعبودات القديمة مثل آمون ورع إلى جانبه. وتأكد هذا الفهم مؤخرا من المنظر المرسوم على حائط مقبرة مايا مرضعة الملك الشاب، التى عثرت عليها البعثة الفرنسية للآثار بمنطقة سقارة قبل ثلاث سنوات. فهنا نرى توت عنخ آمون يجلس على حجر المرضعة وتعلوه رموز آتون الواحد، رغم أن اسمه المنقوش يؤكد أنه تغير من توت عنخ آتون إلى توت عنخ آمون. فلم يرتد توت عنخ آمون عن الاعتقادات الآتونية، وإنما اعتبر المعبودات القديمة بمثابة وسطاء ـ مثل الملائكة والقديسين ـ بين آتون الواحد وبين جماهير الشعب، التى لم تكن تدرك فى هذه المرحلة المتقدمة الفكرة المجردة لوجود إله ليست له صورة. ■

قصة الوجود

بين صمت دمشق وصخب بيروت وضغوط واشنطن

محمود أحمد

طرأت على قضية «الوجود السورى فى لبنان»، فى الآونة الأخيرة، تطورات لفتت الأنظار مجدداً حتى أن الاهتمام تخطى هذه القضية ليمتد إلى مجمل الوضع اللبنانى عموماً. ذلك أن الذكرى الأليمة للحرب الأهلية التى عصفت بلبنان على مدى خمسة عشر عاما لا تزال ماثلة فى الأذهان، وهى تعود فتجدد المخاوف كلما هبت رياح ساخنة على الساحة اللبنانية.

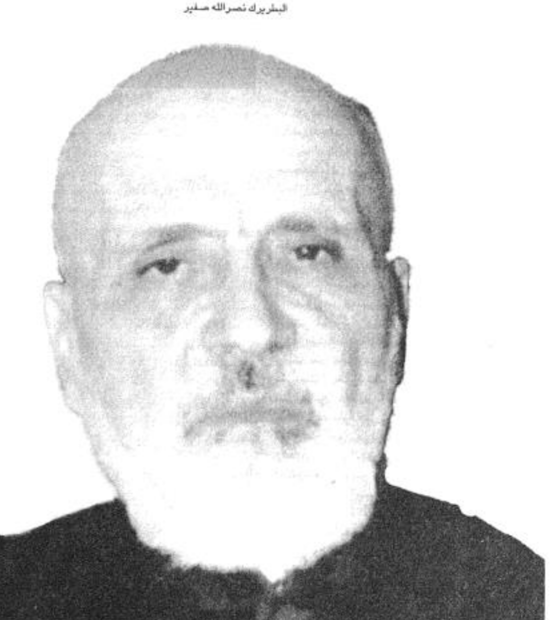
كان آخر ما طرأ على قضية الوجود السورى فى لبنان قد جرى خلال شهر مارس الماضى. ولفت انتباه الكثيرين أن التطورات الأخيرة كانت لها أبعاد محلية وخارجية فى آن. وتمثل البعد المحلى فى المظاهرات الطلابية التى قام بها ما يسمى بـ «التيار الوطنى الحر» فى بعض الجامعات والمعاهد اللبنانية، يوم ١٤ مارس تعبيراً عن «رفض» الوجود السورى والعودة إلى انسحاب القوات السورية من لبنان (وهو تيار يضم أنصار العماد ميشيل عون قائد الجيش الأسبق الذى تولى رئاسة حكومة عسكرية فى لبنان لفترة قصيرة فى عام ١٩٨٨، وخاض فى ١٤ مارس من ذلك العام ما أطلق عليه اسم «حرب التحرير» ضد القوات السورية. وقد اضطر عون فى النهاية إلى مغادرة لبنان والإقامة فى منفى اختيارى فى باريس. وتحالف أنصاره مع تنظيمات محلية أخرى ـ مسيحية غالباً ـ من «القوات اللبنانية» المنحلة و«حزب الوطنيين الأحرار» و«حركة التغيير» و «التجمع من أجل لبنان» وغيرها).

وكادت مظاهرات الطلاب تصطدم مع قوات الجيش اللبنانى التى سارعت إلى اتخاذ إجراءات مشددة بهدف منع وصول المظاهرات إلى أية مواقع للقوات السورية. وكانت الإجراءات التى اتخذت واسعة النطاق ومكثفة إلى الحد الذى دفع صحيفة «الحياة» اللندنية إلى وصفها فى عددها بتاريخ ١٥مارس الماضى بأنها كانت أشبه بـ «حالة طوارئ». إذا كانت هذه الاحتجاجات قد مرت بسلام فى نهاية المطاف، إلا أنها نبهت إلى الانقسام الذى لا يزال قائماً بين اللبنانيين، والذى تجلى عندما عمد فريق آخر تعبر عنه تنظيمات يسارية وإسلامية لبنانية إلى تحرك مضاد للاحتفال بمناسبة أخرى فى اليوم نفسه (١٤ مارس) لإحياء الصمود والمقاومة فى وجه أول اجتياح إسرائيلى للبنان قبل نحو ٢٣ عاماً.

أما البعد الخارجى، فقد كشفت عنه تصريحات لوزير الخارجية الأمريكى كولن باول الذى أشار إلى الوجود السورى فى لبنان، ملمحاً إلى معارضة واشنطن له. وقال باول، الذى أدلى بتصريحاته تلك أمام لجنة الشئون الخارجية بمجلس النواب الأمريكى، خلال شهر مارس أيضاً، إنه أبلغ الرئيس السورى بشار الأسد عندما اجتمع به فى وقت سابق فى دمشق، خلال أولى جولاته بالمنطقة، بأن الولايات المتحدة «تنصح» بخروج القوات السورية من لبنان. وقد بدت أقوال وزير الخارجية الأمريكية مثيرة للدهشة، فى نظر الكثيرين، وخاصة أن باول ـ الذى لم يكد يتعرف بعد على تفاصيل وتعقيدات الوضع فى الشرق الأوسط ـ لم يتورع عن أن يلمس بتصريحاته قضية حساسة بطبيعتها كهذه القضية التى من شأنها أن تلهب الساحة اللبنانية إذا هى لم تعالج بحذر كاف.

على أنه من المثير للانتباه أيضاً، فيما يتعلق بالموقف الأمريكى، أنه بدا أن واشنطن لا تريد الإقدام على خطوة قد تفسد علاقتها مع دمشق فى المستقبل المنظور، وهى علاقة قد تظهر الحاجة إليها إذا ما تجددت جهود السلام فى المنطقة بعد زوال الاحتقان الذى رافق وصول رئيس الوزراء المتطرف أرييل شارون إلى السلطة فى إسرائيل. وهكذا، فإن المسئولين الأمريكيين حرصوا على إظهار امتناعهم عن الترحيب أكثر من اللازم بزيارة قام بها إلى الولايات المتحدة مؤخراً البطريرك المارونى اللبنانى نصر الله صفير الذى تصاعدت انتقاداته العلنية للوجود السورى فى لبنان فى الآونة الأخيرة. فلم يتمكن البطريرك المارونى من إقناع الأمريكيين بتحديد موعد له للقاء الرئيس بوش، أو نائبه ريتشارد تشينى، ولا حتى وزير الخارجية باول.. ويبدو أن ذلك قد أثار حفيظة البطريرك صفير وغضبه، لأنه عندما أبلغ بأنه سيتم تحديد موعد له مع مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأوسط، فإنه وجدها فرصة لكى يعبر عن هذا الغضب، فرد برفضه هذا اللقاء.

البطريرك نصر الله صفير



ميشال عون



واستطرادا للحديث عن البعد الخارجي فيما جرى في لبنان من تطورات بشأن «الوجود السوري» لا يمكن استبعاد عنصر «العبث الإسرائيلي» في هذه التطورات . ذلك أن إسرائيل التي استباحت دائماً ساحة لبنان ، بدءا من نسف الطائرات على أرض مطار بيروت في نهاية الستينيات واغتيال قادة المقاومة الفلسطينية في حادثة «فردان» المشهورة في أوائل السبعينيات ، ومروراً باجتياح الجنوب اللبناني أولاً في عملية «الليطاني» ثم باجتياح الأراضي اللبنانية واحتلال بيروت نفسها في عام ١٩٨٢ ، وانتهاء بتعيين «منسق» إسرائيلي للشئون اللبنانية وهو أوري لوبراني الذي اتخذ مكتباً له في شرقي العاصمة اللبنانية بعد احتلالها .. إسرائيل هذه لا يمكن أن تكون بعيدة عن أية تطورات خاصة إذا كانت تتعلق بالوجود السوري الذي تعتبره رصيداً لحركة «حزب الله» التي تصدرت المقاومة اللبنانية المنظمة التي نجحت في «طرد» القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان في صيف العام الماضي . بل إن مسئولاً حكومياً إسرائيلياً أعلن صراحة ، قبيل زيارة رئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد لواشنطن اخيرا ، أن شارون يعتزم أن يطلب إلى الرئيس الأمريكي بوش عند لقائهما فرض عقوبات على سوريا لدعمها «الإرهاب» . وقال المصدر الإسرائيلي إن شارون «يأخذ على الرئيس السوري بشار الأسد زيادة دعم دمشق لجماعة حزب الله .. مقارنة مع والده الرئيس الراحل حافظ الأسد» على حد ما نقلته وكالات الأنباء .

وكان البطريرك الماروني قد أطلق ضجة كبيرة ، على مدى الشهور الثلاثة الأخيرة من عام ٢٠٠٠ ، حول «الوجود السوري» في لبنان ، وهي ضجة سرعان ما شاركت فيها فعاليات لبنانية (مسيحية في الأغلب) وقوبلت من جانب سوريا باستياء مكتوم . ولكن هذه الضجة ، بكل ما أثارته من صخب ، لم تستطع أن تحجب حقيقة مهمة في الموقف من هذه القضية وهي أنه لا يزال من المتعذر ـ في الوقت الراهن ـ الوصول إلى تصور حول الكيفية أو المدى الزمني لتحقيق ما يطالب به أصحاب الدعوة من إنهاء الوجود السوري ، أو حتى التخفيف منه ، على الأرض اللبنانية .

أيضاً ، وفي المقابل ، فإنه لن يكون مستبعداً أن تتكرر الدعوات في المستقبل وهي دعوات يستند أصحابها إلى أن لبنان لم يعد بحاجة إلى وجود القوات السورية .. خاصة بعد أن اضطرت إسرائيل إلى سحب قواتها من جنوب لبنان في الصيف الماضي . ومع وجود تلك الأطراف في لبنان التي تعتبر أن استمرار القوات السورية (أكثر من ٢٠ ألف جندي) يعني الانتقاص من سيادة لبنان واستقلاله ، فإن الدعوات لإنهاء الوجود السوري ربما تزداد تشددا مع الأيام .

ولكن المطالبة بانسحاب القوات السورية من لبنان ـ أو «إعادة انتشارها» كمرحلة أولى ـ أثارت ، من ناحية أخرى ، مخاوف لدى أوساط لبنانية وعربية عديدة من أن يتحول الجدل الذي أثير حولها بين الفئات اللبنانية إلى «انقسام» لا يستطيع لبنان أن يتحمله في الوقت الذي لم يتعاف فيه بعد من آثار الحرب الأهلية الطاحنة التي عصفت به على مدى خمسة عشر عاما (من ١٩٧٥ إلى ١٩٩٠) . ورأى كثيرون أن الأمر يتطلب إلقاء نظرة جدية ومتفحصة ، على طبيعة العلاقة بين هذين البلدين العربيين اللذين خضعا ـ بسبب ظروف تاريخية وجغرافية طاغية ـ لأحداث وتجارب مريرة استمرت تتتابع عليهما على مدى قرنين من الزمان .

[١]

من الحقائق الثابتة ، جغرافيا وتاريخيا ، أن لبنان هي جزء من سوريا التاريخية . وقد خضعا معا وعلى مدى قرون عديدة ، لحكام وملوك وسلاطين وأباطرة ، وكان يطلق عليهما معا اسم البلاد السورية أو بلاد الشام التي كانت تضم أيضا فلسطين وأجزاء من الأردن وتمتد من العريش في مصر حتى حدود الأناضول شمالا وبلاد النهرين شرقا . وعندما قضى العثمانيون على دولة المماليك في عام ١٥١٧ م ، ضموا الديار السورية إلى إمبراطوريتهم ، «غير أن السلطان سليم العثماني لم يشأ أن يعطل حركات جيشه في حرب جبلية فاكتفى بطاعة أمراء الجبل وقبل قرقماز بن يونس أميراً للدروز على المنطقة فتولى هذا حكم الجبل حتى خلفه عليه ابنه فخر الدين في ١٥٨٤». (١)

غير أنه يمكن القول إن هذه الواقعة التاريخية المتمثلة في إحجام الجيوش العثمانية عن اقتحام جبل لبنان ، كانت في حد ذاتها بداية لتميز هذه المنطقة من الديار السورية عن محيطها وتحولها تدريجيا إلى معقل للطوائف والملل التي احتمى أصحابها بالجبل فرارا بعقائدهم من الاضطهاد ، وكان في مقدمة هؤلاء الدروز والموارنة . وربما يعود إلى هذه الحقبة تكوّن البذور الأولى لـ «الوطنية اللبنانية» والتي أخذت تنضج ببطء حتى أصبحت هناك حاجة إلى أن تسفر هذه الحركة الوطنية عن وجهها وتبدأ في التعبير عن نفسها إثر خروج جيوش محمد علي باشا من البلاد السورية ١٨٤٠ م ، وتزايد ضعف الدولة العثمانية الذي أغرى القوى الأوروبية بأن تسارع لكي ترث هذه المنطقة التي وجدت نفسها ، منذ ذلك الوقت ، تدور في دوامة نفوذ الدول الكبرى .

على أنه يجدر التنبه ، في هذا السياق ، إلى أن «الجبل» لم يكن في يوم من الأيام وحدة واحدة ، سياسيا أو اقتصاديا . فرغم التعايش الذي فرضته ظروف الجوار ، والتعاون التجاري الذي كان

الســـوري فى لبنـــان

اميل لحود



بشار الأسد



يجرى أحيانا بسبب قلة موارد الأرض الجبلية والحاجة إلى التبادل مع أهالى «السهل». ورغم تحول بعض الدروز - بمن في ذلك أمراؤهم - إلى الديانة المسيحية المارونية أحيانا ، فقد ظل التنافس من أجل السيطرة مستمرا طوال الوقت بين الدروز والموارنة . وقد احتدم هذا التنافس علنا ، وبعنف ، في حقب متباعدة ، رغم أن المنطقة كلها كانت تخضع لأحد الولاة العثمانيين (إما والى «صيدا» أو والى «دمشق» في الأغلب) ، كما كانت كثيرا ما تجد نفسها نهبا للصراع بين هؤلاء الولاة . وعموما ، فقد ظل الأمراء الدروز يحكمون الجبل على مدى عدة قرون، حتى تمكن الموارنة من تدعيم مركزهم اقتصاديا بتجارة الحرير التى فتحت لهم طرق الاتصال مع أوروبا ، وخاصة فرنسا ، ومن ثم العثور على حلفاء خارجيين (مسيحيين أيضًا) أصبحوا - منذ بدايات القرن التاسع عشر - يوفرون دعما سياسيا ومعنويا للموارنة .

فعندما قويت شوكة الموارنة إلى الحد الذى دفعهم إلى منازعة الدروز حكم الجبل ، بدا أن الصدام بين «الجارين» الجبليين قد أصبح حتميا وأنه ينتظر فقط الظروف المناسبة التى تتمثل أساسا في ضعف الحاكم الذى يسيطر على البلاد السورية كلها . ولذلك فإنه لم يكد محمد على يسحب جيوشه من سوريا ، حتى انفجرت أول فتنة كبرى عام ١٨٤١ بين الدروز والموارنة ودارت الدائرة فيها على الدروز الذين فقدوا جزءا كبيرا من أراضيهم في منطقة «الشوف» التى تغلغل الموارنة فيها حتى بلدة «دير القمر».

وأزعجت هذه الأحداث الدولة العثمانية ، وأراد الباب العالى أن يفرض نفوذه على الجبل وأن يلغى الامتيازات الطائفية فأرسل واليا هو مصطفى باشا إلى المنطقة بهدف إخضاع سكان جبل لبنان لمبدأ المساواة في المعاملة. وصار الجبل بعد ذلك «إيالة» عثمانية تولاها عمر باشا النمساوى الذى أقام مركز حكومته في بلدة «بيت الدين» الشوفية . ولم يرض الدروز عن هذا فثاروا ، ولكن الثورة زادتهم ضعفا. بينما وجدت الدول الأوروبية أن خضوع لبنان للعثمانيين مباشرة يشكل عقبة في سبيل فرض إرادتها . فضغطت على «استانبول» حتى رضخت (في ٧ ديسمبر ١٨٤٢) لوضع نظام جديد للبنان كان يمثل حلا وسطا بين ما يريده الباب العالى وما يسعى إليه الأوروبيون . وقضى هذا النظام الجديد بأن يظل لبنان تحت الحكم العثمانى ولكن مع انتداب لبنانيين لتنفيذه .. وهو ما عرف بنظام «القائمقامتين» ، إحداهما درزية في الجنوب والأخرى مسيحية (مارونية) في الشمال . وأصبح طريق بيروت - دمشق هو الحد الفاصل بين القائمقامتين ، على أن تكون كلتاهما تحت النفوذ الفعلى لوالى صيدا الذى أصبح يتخذ من بيروت مقرا له .

ويرى الكثير من المؤرخين أن هذا الحدث، أى بدء تنفيذ نظام القائمقامتين في جبل لبنان، هو البداية الأولى لظهور لبنان المستقل عن المنطقة السورية .

[٢]

كان لابد من الانتظار حتى تنهار الدولة العثمانية ، وينتصر الحلفاء الأوروبيون في الحرب العالمية الأولى ، قبل أن تتهيأ الظروف لإنشاء ما سمى بـ (لبنان الكبير) الذى أعلن المندوب السامى الفرنسى «الجنرال جورو» قيامه في عام ١٩٢٠ .

وعلى مدى هذه الحقبة الزمنية المضطربة ، بين إنشاء نظام القائمقامتين وحتى إعلان لبنان الكبير ، توالت على المنطقة وعلى لبنان خصوصا أحداث واضطرابات ومحن من كل نوع . فبعد مرور أقل من عشرين عاما على الفتنة التى وقعت عام ١٨٤٠ ، اندلعت الحرب الأهلية الثانية عام ١٨٦٠ والتى أكدت أن الروح الطائفية قد ترسخت على نحو قضى بشكل ماساوى على التعايش بين الدروز والموارنة في جبل لبنان ، وهو ما يرجع المؤرخون أهم أسبابه إلى نشاط المبشرين الغربيين . كان من نتيجة هذه الفتنة الثانية ، أن سقط نظام القائمقامتين وحل محله نظام المتصرفية الذى اعتمد مايشبه الحكم الذاتى ولكنه فشل بدوره فشلا ذريعا لأسباب كانت في معظمها اقتصادية.

وعندما انتهت الحرب العالمية الأولى ودخلت قوات الحلفاء الشام في أكتوبر ١٩١٨ ، احتفظ البريطانيون لفترة من الوقت بالقيادة العسكرية العليا واعتبروا الشام «أرض أعداء محتلة» إلى أن يتقرر مصيرها في مؤتمر الصلح. وقسمت القيادة البريطانية الشام إلى ثلاث مناطق عسكرية : منطقة تخضع للقوات العربية التى صارت دمشق مقرا لها تحت حكم فيصل بن الشريف حسين ، ومنطقة ساحلية تمتد من الناقورة على طرف الساحل الجنوبى اللبنانى إلى الإسكندرونة شمالا وتخضع للإدارة العسكرية الفرنسية ، أما الثالثة فهى فلسطين أو سورية الجنوبية واحتفظ الإنجليز لأنفسهم بإدارتها .

المطالبة بانسحاب
القوات السورية من لبنان
أثارت مخاوف من أن يتحول الجدل
الذى أثير حولها بين الفئات اللبنانية
إلى «انقسام» لا يستطيع
لبنان أن يتحمله

ومنذ البداية ، حدث تسابق بين القوات التابعة لفيصل وبين الفرنسيين للسيطرة على بعض موانئ لبنان (التى تسكنها غالبية من المسلمين السنة) فرفع علم الدولة العربية لبضعة أيام في بيروت إلى أن تدخل الفرنسيون لإزالة مظاهر الدولة العربية على امتداد الساحل اللبنانى . ويبدو أن الخطة الفرنسية كانت تستهدف في البداية إخضاع سوريا ولبنان كدولة اتحادية تحت الانتداب الفرنسى ، ولكن فرنسا لم تلبث أن تحولت إلى فكرة «لبنان الكبير» في صيف عام ١٩١٩ بعد أن جوبهت بمعارضة شريكيها في احتلال بلاد الشام ، أى فيصل والبريطانيين . ومع تغيير الخطط ، رأى الفرنسيون أن يستعينوا بالموارنة لإقامة دولة لبنانية موسعة يمكن استخدامها في الضغط على الحكومة العربية في دمشق . ووجد الفرنسيون استجابة على نطاق واسع من جانب الطائفة المارونية التى سارعت بإرسال وفد برئاسة البطريرك المارونى إلياس الحويك إلى عصبة الأمم لعرض وجهة نظرهم التى تلخصها في نقاط ثلاث:

١- الاعتراف باستقلال لبنان داخليا وخارجيا .

٢- تعديل الحدود الطبيعية والتاريخية للدولة اللبنانية (ويلاحظ أن الإشارة إلى الحدود الطبيعية والتاريخية تعطى لهذه الحدود مفهوما مرناً يفسره الأقوى لصالحه عادة) .

٣- الاعتماد على مساعدة الفرنسيين لتحقيق هذه الأمانى.

ثم تطورت الأحداث إلى حد أن فرنسا لجأت إلى القوة العسكرية ضد الدولة الفيصلية في دمشق ، وأسقطتها في يوليو ١٩٢٠ ، وكانت ذريعتها في ذلك هى الدفاع عن استقلال لبنان الذى هددته الدولة العربية . وعلى أثر سقوط الدولة الوطنية القائمة في دمشق ، بادر الجنرال «جورو» المفوض العام الفرنسى إلى إعلان قيام الكيان اللبنانى بحدوده الجديدة الموسعة والتى شملت - إلى جانب جبل لبنان - وادى البقاع ، والساحل المحاذى للجبل . وبضم هذه الأقاليم ، تضاعفت مساحة لبنان ، بالمقارنة إلى ما كان عليه في عهد المتصرفية ، فأصبح مجمل هذه المساحة يصل إلى ١٠٤٥٢ كيلو مترا مربعا . كذلك زاد عدد السكان من ٤١٤٨٠٠ ، كما قدرهم إحصاء عام ١٩١٣ ، إلى ٦٢٨٣٦٨ حسب ما ورد في إحصاء عام ١٩٢٣. ولكن هذا الضم أسفر ، من ناحية أخرى ، عن انخفاض نسبة السكان المسيحيين في إطار لبنان الكبير .. ذلك أنه بالإضافة إلى أن أعدادا غير قليلة من المسيحيين سكان الجبل كانت قد هاجرت إلى العالم الجديد ، كما قضت المجاعة التى وقعت في زمن الحرب على الكثيرين ، فإن إدماج السكان السنة والشيعة في المناطق التى ضمها الكيان الجديد أدى إلى تدنى نسبة السكان المسيحيين التى كانت تقدر ، قبل هذا الضم ، بنحو ٧٨ في المائة.

[٣]

نشأ الكيان اللبنانى ، إذن ، في حضن قوة أجنبية كانت هى التى ضمت أجزاءه إلى بعضها ورسمت حدوده مع جيرانه نتيجة لهذا الضم . ومع ذلك ، فسرعان ما بزغت المعارضة اللبنانية للوجود والنفوذ الفرنسى في لبنان ، ثم أخذت هذه المعارضة تتسع لتضم المسلمين والمسيحيين على السواء . ولكن إذا كان المسلمون قد عارضوا فرنسا لأسباب قومية في الأساس ، واعتمدت معارضتهم على المناداة بالاتحاد مع سوريا كما حدث خلال مؤتمرين عقدوهما عامى ١٩٣٣ و ١٩٣٦ ، فإن المعارضة المسيحية جاءت لأسباب مختلفة تماما . ذلك أن الرأسمالية المارونية سرعان ما اصطدمت مصالحها بالاحتكارات الفرنسية ، وخاصة إبان الأزمة الاقتصادية العالمية في نهاية العشرينيات وتضافر مع هذا الاصطدام في المصالح تنافس من نوع آخر اتخذ صورة صراع على النفوذ بين «بكركى»، مقر البطريركية المارونية ، والمندوب السامى الفرنسى الذى لم يكن يرضيه أقل من الاستئثار التام بالسلطة .

وعندما فرضت تداعيات الأحداث تراجع قوة الاحتلال الفرنسى ، نتيجة لانهزام فرنسا عام ١٩٤٠ في الحرب العالمية الثانية ، وبدا أن عهد الانتداب قد أصبح على وشك الزوال ، ظهر الخلاف بين اللبنانيين مرة أخرى .. ودار الخلاف هذه المرة حول علاقة لبنان مستقبلا مع مشروع الجامعة العربية ، الذى طرح في ذلك الوقت ، وكذلك العلاقة مع سوريا . كما أضيف سبب آخر للخلاف كان محوره التنازع حول اقتسام مقاعد مجلس النواب على نحو

قصة الوجود السورى في لبنان



يرضي مختلف الطوائف، وطرح اقتراح بأن يكون نصيب الطوائف المسيحية ٣٢ مقعدا مقابل ٢٢ مقعدا للمسلمين. وكادت لبنان أن تسقط في حرب طائفية نتيجة الخلاف حول اقتسام مقاعد مجلس النواب، لولا وساطة قام بها رئيس وزراء مصر آنذاك مصطفى النحاس الذي اقترح حلا وسطا بين هذا الاقتراح وبين مطالبة المسلمين باقتسام مقاعد المجلس مناصفة، وذلك بأن تكون النسبة ٥ إلى ٦ أي ٢٥ مقعدا للمسلمين مقابل ٣٠ مقعدا للمسيحيين.

وفي أواخر عام ١٩٤٢، دعا مصطفى النحاس رئيس وزراء مصر بشارة الخوري لزيارة القاهرة لبحث التحاق لبنان بالجامعة العربية عند إنشائها. وكانت النقطة الحساسة التي تثير مخاوف اللبنانيين، أو قسم منهم على الأقل، هي أن تطالب سوريا بالأقضية الأربعة التي اقتطعت منها، بالإضافة إلى طرابلس، عند إعلان «لبنان الكبير». ورأى النحاس أن يجمع بين بشارة الخوري والمندوب السوري جميل مردم، فأوضح الخوري أنه يؤيد التحاق لبنان بحركة التجمع العربي، رغم اعتراض بعض المسيحيين، ولكنه يصر على عدم المساس بالأراضي اللبنانية. وقد أجاب مردم بأن سوريا مستعدة لأن تعطي لبنان مزيدا من الأراضي. وهكذا أزيلت الشكوك من النفوس، وخاض بشارة الخوري انتخابات رئاسة لبنان في العام التالي على أساس التوفيق بين فكرة الكيان اللبناني وحركة التجمع العربي. ونجح الخوري في الفوز برئاسة لبنان وهزم منافسه «إميل إدة» الذي كان يعتمد على المتطرفين في فكرة الوطنية اللبنانية والذي كان يحظى أيضا بدعم من فرنسا.

وجاء الانحسار التدريجي للنفوذ الفرنسي في لبنان وتصفية الانتداب، والذي عززه تغير نظرة اللبنانيين إلى فرنسا بعد أن رأوها تهزم بسهولة في الحرب، ليشكل تحولا في موقف الموارنة خصوصا إزاء علاقات لبنان الخارجية بحيث لم يعودوا يعتمدون على قوة أجنبية لتدافع عن الكيان اللبناني بوجودها العسكري. ولكن هذا التحول في النظرة إلى العلاقات الخارجية لم يقترن بتحول مماثل في علاقات الطوائف بعضها ببعض، الأمر الذي دعا إلى استحداث صيغة لترتيب هذه العلاقات الداخلية قبل انتقال السلطة الفعلية إلى أيدي اللبنانيين بعد انتهاء الانتداب. وهكذا ولد «الميثاق الوطني اللبناني» في عام ١٩٤٣، وإن لم تتم صياغته في وثيقة مكتوبة وإنما بقي اتفاقا عرفيا ظلت الطوائف ترجع إليه للتهدئة وعلاج المشاكل التي لم تتوقف عن التوالد منذ إعلان الاستقلال. ولكن هذه «الصيغة» المعتمدة على «الميثاق الوطني».. كانت تحمل في الوقت نفسه، ولسوء الحظ، جرثومة الطائفية التي ظلت تنمو حتى تحولت إلى وحش فتك بالجميع فيما بعد. كما أن الصيغة التي فرح اللبنانيون بها كثيرا في البداية ظلت قائمة على الأساس نفسه الذي

كان لابد من الانتظار حتى تنهار الدولة العثمانية، وينتصر الحلفاء الأوروبيون في الحرب العالمية الأولى، قبل أن تتهيأ الظروف لإنشاء ما سمي بـ (لبنان الكبير) الذي أعلن المندوب السامي الفرنسي «الجنرال جورو» قيامه في عام ١٩٢٠

بعثته ـ في ظرف تاريخي معين ـ فورة وطنية جياشة، دون أن يحاول الزعماء تأصيل تلك الصيغة على أسس واقعية تجعلها قابلة للاستمرار وقادرة على مواجهة المتغيرات المتتالية والمحتومة. وهكذا فإن الصيغة لم تستطع الصمود للرياح والعواصف التي كانت تهب على لبنان بين الحين والآخر، وخاصة أن الشقوق والخلافات الجذرية بين سكان لبنان كانت موجودة طول الوقت في أعماق التربة اللبنانية وتركت حيث هي دون محاولة جدية لمعالجتها. وعندما زلزلت الحرب الأهلية لبنان (في عام ١٩٧٥)، فإن هذه الصيغة كانت في الحقيقة هي أولى الضحايا الذين سقطوا في الحرب واحترقوا في أتونها».[٣]

[٤]

ظلت سوريا دائما تبدي اهتماما بالغا بلبنان وما يجري فيه، سواء عندما كانا معا تحت الانتداب الفرنسي أو فيما بعد عندما تحقق الاستقلال لكل منهما. ولم يكن مبعث هذا الاهتمام هو أن سوريا ـ أيا كان الحكم القائم فيها ـ كانت تعتبر لبنان جزءا منها فقط، وإنما كان مبعثه أيضا الخوف من أن تؤثر الأحداث اللبنانية على سوريا أو تمتد عدوى تلك الأحداث إليها.. هذا فضلا عن مخاوف ـ قد يكون لها ما يبررها ـ في أن يستخدم لبنان، من جانب قوى أجنبية، منطلقا لإلحاق الأذى بسوريا. كان لدى الحكام السوريين، على اختلافهم، شعور بأن لبنان يمثل «خاصرة سوريا الضعيفة».. وقد تعززت هذه المخاوف ـ بالطبع ـ بعد قيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين، واستشعرت سوريا خطر المحاولات الإسرائيلية لاختراق لبنان سواء بعمليات التجسس التي لم تتوقف أو عن طريق إقامة علاقات خاصة مع بعض العناصر اللبنانية المارونية المتطرفة.

ولاشك في أن هذا الاهتمام السوري بكل ما يجري في لبنان قد ازداد بعد أن تعقد الوضع على الساحة اللبنانية بانتقال قيادة المقاومة الفلسطينية وكوادرها المقاتلة إلى لبنان، مما جعل منه ساحة مفتوحة للصراع. وأخذت السياسة السورية تجاه لبنان تشكل، منذ ارتقاء الرئيس حافظ الأسد سدة الحكم في سوريا، أحد المرتكزات الأساسية التي تعتمد عليها دمشق للتحرك وإدارة الصراع. ولأن سوريا أصرت دائما على أن تربطها بلبنان «علاقات خاصة» تفوق ما يربط الدول المتجاورة عادة، ورفضت باستمرار إقامة علاقات دبلوماسية عادية وتبادل السفراء وما إلى ذلك، فإن التطورات المتلاحقة والحاجة إلى «دور سوري ما» جعل اللبنانيين، على اختلاف اتجاهاتهم وانتماءاتهم وطوائفهم، يقبلون في أغلب الأوقات أو يسلمون بما يجري ترتيبه من جانب سوريا فيما يتعلق بالشئون اللبنانية. وهكذا، فإنه لم يكن ممكنا أن يصل إلى الحكم في لبنان رئيس دون أن يتوافر له دعم سوري، بدءا من سليمان فرنجية وحتى إميل لحود.. وباستثناء بشير الجميل الذي انتخب رئيسا في عام ١٩٨٢ في أعقاب الغزو الإسرائيلي للبنان وبعد أن دخلت القوات الإسرائيلية إلى بيروت، ولكنه قتل في انفجار مروع قبل تسلمه الحكم.

وعندما احتدمت الحرب الأهلية اللبنانية في عام ١٩٧٦، وبدا أنها خرجت عن نطاق السيطرة وأن نيرانها تزداد اشتعالا كل يوم، كان لابد أن تتدخل سوريا عسكريا.. إن لم يكن لوقف الحرب كلية، فمن أجل حصر الخطر على الأقل. ومن المفارقات أن التدخل السوري في بدايته جاء استجابة للزعماء الموارنة ـ وفي مقدمتهم الرئيس اللبناني الأسبق كميل شمعون رئيس حزب الوطنيين الأحرار وبيير الجميل رئيس حزب الكتائب ـ والذين كانت الميليشيات التابعة لهم تخوض حربا شرسة، لاسيما في الجبل، ضد التحالف الذي ضم القوات الوطنية اللبنانية بزعامة كمال جنبلاط الزعيم الدرزي وقوات المقاومة الفلسطينية. وكانت العلاقات قد تدهورت آنذاك بين الرئيس السوري حافظ الأسد والرئيس المصري أنور السادات، حتى وصلت العلاقات بين سوريا ومصر إلى أدنى مستوى لها إثر اتفاق فك الاشتباك الثاني الذي أبرم بين مصر وإسرائيل. وبدا واضحا أن مصر تدعم الحركة الوطنية اللبنانية المناوئة بزعامة جنبلاط وحلفاءها الفلسطينيين، في وجه «الجبهة اللبنانية» التي ضمت الزعماء اليمينيين الموارنة، ولهذا فإن دخول أولى الوحدات العسكرية السورية إلى لبنان، في صيف عام ١٩٧٦، اتخذ أيضا بعدا «إقليميا» في خضم الصراعات والخلافات التي سادت المنطقة.

على أن الوضع اللبناني، واحتمالات استشراء خطر الحرب، كان يسبب لسوريا قلقا كبيرا ويشكل هماً يوميا للمسئولين في دمشق الذين كانوا يتابعون الحرب الأهلية بكل تفاصيلها ساعة بساعة، بينما القتال يستمر بشراسة تجاوزت كل الحدود. وتزايد الخوف في العديد من العواصم العربية إزاء هذا التدهور المستمر، وبدا أن الخطوة الأولى الضرورية هي عقد مصالحة بين الرئيسين السادات والأسد، وهو مانجح في تحقيقه ولي العهد السعودي حينذاك الأمير فهد بن عبد العزيز من خلال قمة عربية سداسية عقدت في الرياض في ١٦ أكتوبر ١٩٧٦، بعد وقت قصير من انتخاب رئيس جديد للبنان هو إلياس سركيس. وفي هذه القمة اقترح سركيس تشكيل قوة ردع عربية لتعمل على وقف الحرب وتكون «تحت إمرة السلطة اللبنانية» على أن تتألف من ثلاثين ألف جندي. وعندما أقرت نتائج قمة الرياض من جانب القمة العربية الشاملة، التي عقدت إثر ذلك بالقاهرة في ٢٥ أكتوبر، كان ذلك بمثابة اعتراف عربي صريح بتدخل سوريا السياسي والعسكري في لبنان.

ولفت أنظار المجتمعين في قمة القاهرة أمران:

الأول: أنه عندما هاجم سعدون حمادي وزير خارجية العراق الذي رأس وفد بلاده، الوجود السوري في لبنان وطالب بانسحاب القوات السورية من لبنان، كان الذي تولى الرد عليه هو الرئيس اللبناني إلياس سركيس الذي أكد أن «وجود القوات السورية في لبنان هو وجود شرعي».

الثاني: تأكيد الرئيس الأسد أن الجيش السوري إنما دخل لبنان تلبية لطلب السلطة الشرعية اللبنانية، وأنه لن يخرج إلا استجابة لطلبها.

وفيما بعد، في أواخر عام ١٩٧٦، أبلغ الرئيس الأسد وفدا مارونيا من «الجبهة اللبنانية»، ضم أمين الجميل وطوني فرنجية وجورج سعادة وإدمون رزق وداني شمعون وماروت الحلو وكريم بقرادوني، أنه لايرى أن هناك «خطوطا حمراء» أمامه في لبنان، وقال: «لا تهتموا بالخط

قصة الوجود السوري في لبنان



الأحمر الذى يتحدث عنه الأمريكيون والإسرائيليون، فلا وجود له ، وعلى كل حال فإننى لا أراه . فى بدء عام ١٩٧٦ ، حذرتنى الولايات المتحدة ونصحتنى الاتحاد السوفيتى ألا اجتاز الحدود اللبنانية فى المصنع (نقطة الحدود بين لبنان وسوريا على طريق بيروت ـ دمشق) .. فالخط الأحمر كان إذن فى المصنع، لأن إسرائيل كانت تعتبر دخول الجيش السورى لبنان سببا كافيا لإعلان الحرب . اجتزنا المصنع ، فحدثونا عن خط أحمر جديد فى صوفر (بلدة جبلية على طريق بيروت ـ دمشق) ، فلما تجاوزنا صوفر حددوا لنا بيروت على أنها الخط الأحمر الجديد . فما هو هذا الخط الأحمر المبهم والمتحرك والمتنقل بشكل مستمر من مكان إلى آخر ؟»[٣] .

وأيا كان الأمر ، فقد استمرت الحرب على أرض لبنان ، بعد دخول القوات السورية ، لمدة أربعة عشر عاما جرت خلالها أحداث جسيمة بلغت ذروتها فى الغزو الإسرائيلى للبنان عام ١٩٨٢ ، وخروج المقاومة نتيجة لذلك .. ثم اصطدام القوات السورية بأطراف لبنانية وهى صدامات بلغت مداها فى الحرب الشرسة التى شنتها سوريا ضد الميليشيات المارونية حتى نجحت فى إسقاط الاتفاق الذى كان قد تم التوصل إليه عام ١٩٨٣ بين لبنان وإسرائيل وعرف باتفاق ١٧ آيار ـ مايو ـ ، ثم بعد ذلك بسنوات عندما اشتبكت مع القوات التابعة للعماد ميشيل عون قائد الجيش الذى عينه الرئيس الأسبق أمين الجميل عند انتهاء ولايته رئيسا لحكومة عسكرية رغم إرادة سوريا . ومن الواضح أنه لم يكن فى مقدور أى حكم لبنانى أن يعلن استغناءه عن القوة السورية فى لبنان وسط هذه الأحداث . فلما انتهت الحرب ، كان لبنان قد بلغ حدا من الضعف استدعى استمرار الوجود السورى ، على الأقل إلى أن تسترد البلاد عافيتها ويصبح فى إمكان الحكم أن يعول على القوى اللبنانية الذاتية .

[٥]

مثلما كان العمل العربى هو الغطاء الذى مكن سوريا فى عام ١٩٧٦ من التدخل العسكرى فى لبنان ، تحت مسمى قوات الردع العربية ، فقد كان هو أيضا الذى انبثقت عنه أول «وثيقة» تتناول الدور السورى فى لبنان بعد تحقيق الوفاق ، وإعادة انتشار القوات السورية . وكان المحفل العربى الذى صدرت عنه هذه الوثيقة هو مؤتمر الطائف الذى عقد بالمملكة العربية السعودية ، فى أكتوبر ١٩٨٩، بهدف وضع صيغة للوفاق بين الأطراف المتنازعة فى لبنان ووضع نهاية للحرب الأهلية .

كانت الظروف قد اختلفت جذريا عما كانت عليه فى عام ١٩٧٦ عند دخول القوات السورية، إقليميا ودوليا ، وبدا أن الأطراف الرئيسيين المستمرين فى القتال ـ بعد خروج المقاومة الفلسطينية عام ١٩٨٢ ـ هم الأطراف اللبنانيون فقط . كما بدا أن تحقيق الوفاق ،

كادت لبنان أن تسقط فى حرب طائفية نتيجة الخلاف حول اقتسام مقاعد مجلس النواب ، لولا وساطة قام بها رئيس وزراء مصر آنذاك مصطفى النحاس الذى اقترح حلا وسطا باقتسام مقاعد المجلس مناصفة

الذى كان صعب المنال طوال سنوات الحرب ، قد أصبح فى متناول اليد بعد أن أنهك القتال كل الأطراف وكاد أن يقضى على البلد الذى يقتتلون بحجة الدفاع عنه . كذلك ، فقد كان هناك عامل جوهرى مهم يجعل استمرار الحرب الأهلية مستحيلا من الناحية العملية ، وهو «نضوب الموارد» من المال والسلاح الذى كان يتدفق على لبنان ويذكى نيران القتال .

وهكذا أمكن ، فى الطائف ، الخروج بوثيقة الوفاق التى صدق عليها مجلس النواب اللبنانى فى ٥ نوفمبر ١٩٨٩ ، والتى أدخل بمقتضاها تعديل له مغزاه على النظام و«الصيغة» اللبنانيين ، وبالتالى على مشاركة الطوائف فى الحكم واقتسام المناصب . أما فيما يتعلق بالدور الذى تقوم به القوات السورية فى لبنان ، فقد نصت وثيقة الطائف فى نهاية البند الثانى منها على مايلى :

«وحيث إن هدف الدولة اللبنانية هو بسط سلطتها على كامل الأرض اللبنانية بواسطة قواتها الذاتية المتمثلة بالدرجة الأولى بقوى الأمن الداخلى ، ومن واقع العلاقات الأخوية التى تربط سوريا بلبنان ، تقوم القوات السورية مشكورة بمساعدة قوات الشرعية اللبنانية على بسط سلطة الدولة اللبنانية فى فترة زمنية محددة أقصاها سنتان تبدأ بعد المصادقة على وثيقة الوفاق الوطنى وانتخاب رئيس الجمهورية وتشكيل حكومة الوفاق الوطنى وإقرار الإصلاحات السياسية فى صورة دستورية . وفى نهاية هذه الفترة ، تقرر الحكومتان ـ الحكومة السورية وحكومة الوفاق الوطنى اللبنانية ـ إعادة تمركز القوات السورية فى منطقة البقاع ومدخل البقاع الغربى فى ضهر البيدر حتى خط حمانا ـ المديرج ـ عين دارة ، وإذا دعت الضرورة فى نقاط أخرى يتم تحديدها بواسطة لجنة عسكرية لبنانية سورية مشتركة . كما يتم اتفاق بين الحكومتين يجرى بموجبه تحديد حجم القوات السورية ومدة وجودها فى المناطق المذكورة أعلاه ، وتحديد علاقة هذه القوات مع سلطات الدولة اللبنانية فى أماكن وجودها . واللجنة الثلاثية العربية العليا مستعدة لمساعدة الدولتين فى الوصول إلى هذا الاتفاق إذا رغبتا فى ذلك».

وتعرضت وثيقة الوفاق الوطنى ، أيضا ، للعلاقات اللبنانية السورية ، فى بندها الرابع ، فنصت على مايلى : «إن لبنان ، الذى هو عربى الانتماء والهوية ، تربطه علاقات أخوية صادقة بجميع الدول العربية ، وتقوم بينه وبين سوريا علاقات مميزة تستمد قوتها من جذور القربى والتاريخ والمصالح الأخوية المشتركة ، وهو مفهوم يرتكز عليه التنسيق والتعاون بين البلدين ، وسوف تجسده اتفاقات بينهما فى شتى المجالات بما يحقق مصلحة البلدين الشقيقين فى إطار سيادة كل منهما واستقلاله . استنادا إلى ذلك ، ولأن تثبيت قواعد الأمن يوفر المناخ المطلوب لتنمية هذه الروابط المتميزة ، فإنه يقتضى عدم جعل لبنان مصدر تهديد لأمن سوريا ، وسوريا لأمن لبنان ، فى أى حال من الأحوال . وعليه ، فإن لبنان لا يسمح بأن يكون ممرا أو مستقرا لأى قوة أو دولة أو تنظيم يستهدف المساس بأمنه أو أمن سوريا ، وإن سوريا الحريصة على أمن لبنان واستقلاله ووحدته ووفاق أبنائه لا تسمح بأى عمل يهدد أمنه واستقلاله وسيادته».

وبعد إعلان وثيقة الوفاق ، التى أنهت فعلياً الحرب الأهلية فى لبنان ، دخلت الحكومتان السورية واللبنانية فى حوار بهدف محاولة تنظيم وتقنين العلاقات بينهما على نحو يلائم مرحلة ما بعد الحرب . وتمخض هذا الحوار عن وثيقة أخرى حملت اسم «معاهدة الأخوة والتعاون والتنسيق» التى تم التوقيع عليها فى دمشق فى ٢٢ مايو ١٩٩٩. وبالإضافة إلى ما نصت عليه هذه المعاهدة من إنشاء مجلس أعلى وهيئة للمتابعة والتنسيق ولجان لتنظيم التعاون فى مختلف المجالات ، فإنها تضمنت أمرين مهمين :

الأول : أنها تصدت ، مثلها فى ذلك مثل وثيقة الوفاق ، لقضية أمن البلدين (الذى يمثل هاجساً لسوريا) فنصت فى مدتها الثالثة على أن «الترابط بين أمن البلدين يقتضى عدم جعل لبنان مصدر تهديد لأمن سوريا ، وسوريا لأمن لبنان ، فى أى حال من الأحوال . وعليه ، فإن لبنان لا يسمح بأن يكون ممراً أو مستقراً لأى قوة أو دولة أو تنظيم يستهدف المساس بأمنه أو أمن سوريا . وإن سوريا الحريصة على أمن لبنان واستقلاله ووحدته ووفاق أبنائه ، لا تسمح بأى عمل يهدد أمنه واستقلاله وسيادته».

والثانى: أن المعاهدة أكدت من جديد الالتزام الذى ورد بوثيقة الوفاق فيما يتعلق بإعادة انتشار القوات السورية فى حدود المهلة المثبتة فى هذا الخصوص (أى مهلة السنتين).

ولكن ، أيا كانت الأسباب والظروف التى تلت ذلك ، فإن ما حدث هو أن سوريا لم تنفذ إعادة انتشار قواتها أو إعادة تمركزها خلال المهلة المحددة فى وثيقة الوفاق اللبنانية أو المعاهدة الموقعة بين البلدين .

[٦]

كان أول «تحرك» باتجاه تخفيف الوجود العسكرى السورى فى لبنان ، هو ذلك الذى قامت به القوات السورية فى شهر أبريل عام ٢٠٠٠ ، وإن يكن قد جاء محدودا وتم بهدوء حتى أنه لم يلفت الانتباه ، كما أن أحداً لم ينظر إليه على أنه جزء من خطة لتنفيذ ما نصت عليه وثيقة الوفاق ومعاهدة الأخوة والتعاون والتنسيق . ومن المؤكد أن احتلال إسرائيل لجزء من أرض لبنان فى الجنوب ، طوال هذه السنوات ، كان يشكل عائقاً يحول دون إقدام سوريا على تقليص وجودها العسكرى ، ربما خوفاً من ترك الساحة اللبنانية نهباً لمزيد من الاختراق الإسرائيلى بكل ما يحمله من أخطار على سوريا . ولم تأبه دمشق كثيراً للدعوات التى كانت ترتفع فى لبنان بين وقت وآخر ، وخاصة من جانب السياسيين الموارنة ، تطالب بإنهاء الوجود العسكرى لكل «القوى الأجنبية» على أرض لبنان . وكان رد الفعل السورى المعتاد على هذه المطالبة، هو الإعراب عن الغضب إزاء ما تنطوى عليه من مساواة الاحتلال الإسرائيلى للجنوب بوجود القوات السورية التى دخلت لبنان أصلاً بطلب من سلطته الشرعية ، وبتغطية عربية ، وبهدف واضح هو مساعدة لبنان على اجتياز محنة الحرب الأهلية واستعادة الحكومة اللبنانية سلطتها التى أهدرتها الحرب .

ويمكن القول عموماً إن العامل المهم الذى طرأ على الموقف وأدى إلى تزايد المطالبات علنا بخروج القوات السورية ، أو إعادة انتشارها على مراحل ، هو

قصة الوجود السورى فى لبنان



اضطرار إسرائيل إلى سحب قواتها المحتلة من جنوب لبنان نتيجة للضربات الموجعة والمتزايدة من جانب المقاومة اللبنانية . ذلك أنه منذ انسحاب القوات الإسرائيلية من الجنوب ، فى الصيف الماضى ، بدأت الأصوات تعلو فى لبنان بأن الوقت قد حان لأن تقوم القوات السورية بتنفيذ ما سبق الاتفاق عليه وما تضمنته وثيقة الوفاق الوطنى ومعاهدة الأخوة والتعاون والتنسيق . وتدريجياً ، بدا أن المطالبات توشك أن تتحول إلى تيار يتعذر تجاهله . وبلغت هذه الموجة ذروتها فى موقف البطريرك المارونى نصر الله صفير ، والذى عبر عنه خصوصاً فى سبتمبر ونوفمبر عام ٢٠٠٠ ، ثم من خلال مناقشة بيان حكومة رفيق الحريرى أمام مجلس النواب إثر الانتخابات التى جرت فى أكتوبر ، وانتقلت بعد ذلك إلى الشارع اللبنانى .

وقد جاء التعبير عن موقف الطائفة المارونية ، سواء من جانب البطريرك نفسه أو الفعاليات السياسية المارونية ، واضحاً وصريحاً فى مطالبته بخروج القوات السورية ـ حتى ولو تم ذلك تدريجياً ـ من لبنان .

على أن أكثر ما أزعج دمشق خصوصاً ، هو أن تأتى مثل هذه المطالبة من جانب شخصيات وزعامات لبنانية ظلت على مدى الأعوام العشرين الأخيرة تعتبر فى عداد «حلفاء» سوريا . ويأتى فى مقدمة هؤلاء الزعيم الدرزى وليد جنبلاط الذى ألمح إلى دعوة مماثلة لإعادة انتشار القوات السورية فى لبنان، وذلك عندما كان يتحدث أمام مجلس النواب بمناسبة مناقشة بيان الحكومة . وقد أثار موقف جنبلاط غضب دمشق إلى الحد الذى دفعها، فيما يبدو ، إلى اعتباره شخصاً غير مرغوب فيه وحظرت عليه دخول سوريا إلا «كشخص عادى».

وسرعان ما خرجت المناقشات إلى دائرة أوسع ، حتى أصبح «الوجود السورى» قضية مطروحة بالفعل على الساحة اللبنانية . ويلفت النظر بوجه خاص ، فى هذا الصدد ، أن شخصيات لبنانية بارزة انجذبت إلى الحوار الذى أخذ يزداد حرارة ـ حتى لانقول يزداد التهاباً ـ حتى احتل الدرجة الأولى من الاهتمام فى الشارع وفى وسائل الإعلام على السواء .

ولكن الظاهرة الأهم ، وربما الأخطر ، التى لفتت الانتباه وسط الضجة التى تعالت بسبب طرح قضية «الوجود السورى» فى لبنان على هذا النحو ، هى أن القضية أظهرت بجلاء أن اللبنانيين ما زالوا مختلفين حول الأمور الأساسية ذاتها ، رغم مرور ما يقرب من ستين عاماً على الاستقلال واعتماد «الصيغة الفريدة للتعايش» التى بنى عليها نظام الحكم منذ عام ١٩٤٣ . ذلك أنه ـ مع استثناءات قليلة ـ فإن الحوار الساخن أدى إلى استقطاب فى المواقف :

ولد «الميثاق الوطنى اللبنانى» فى عام ١٩٤٣ ، وإن لم تتم صياغته فى وثيقة مكتوبة وإنما بقى اتفاقا عرفيا ظلت الطوائف ترجع إليه للتهدئة وعلاج المشاكل التى لم تتوقف عن التوالد منذ إعلان الاستقلال

فالطوائف المسيحية انحازت إلى وجهة النظر التى تنادى بخروج القوات السورية من لبنان ، واندفعت إلى انتقاد موقف الحكومة اللبنانية من القضية على نحو ما جاء فى بيان للجنة التنسيق التى تضم حزب الوطنيين الأحرار والقوات اللبنانية (وهى جناح لحزب الكتائب) . فقد أكد هذا البيان ، الذى صدر فى ١٤ نوفمبر ٢٠٠٠ ، رفض «اعوجاج المنطق الذى يتحكم بالسلطة فى تغطيتها الوجود السورى غير الشرعى فى لبنان ، متوقفة فى هذا السياق عند الحديث عن ربط بقاء هذا الجيش بتحقيق السلام فى المنطقة وفق المفهوم السورى الحرفى لهذا السلام » . ثم مضى البيان قائلاً : «إن الوجود العسكرى السورى فى لبنان لايحمى أى مصلحة لبنانية ولا يدرأ عن لبنان أى خطر».

وفى المقابل ، أعربت قيادات الطوائف اللبنانية الإسلامية عن موقف مغاير ، أو مناقض ، عبر عنه مفتى الجمهورية اللبنانية الشيخ الدكتور محمد رشيد قبانى الذى أعلن ، عقب لقاء له فى اليوم نفسه مع المفتى الجعفرى الممتاز الشيخ عبد الأمير قبلان نائب رئيس المجلس الإسلامى الشيعى الأعلى ، قائلاً: إن الوجود السورى فى لبنان «شرعى وضرورى ما دامت إسرائيل تحتل مزارع شبعا والجولان وترفض منح اللاجئين الفلسطينيين حق العودة». واعتبر المفتى قبانى أن أمر الوجود السورى موكول إلى رئيس الجمهورية وأركان الدولة . ثم أضاف : «نحن نثق بالدولة .. بأركانها وبرؤسائها الثلاثة (يقصد رئاسة الجمهورية ورئاسة الحكومة ورئاسة البرلمان وهى الرئاسات الموزعة على الطوائف الرئيسية الثلاثة المارونية والسنية والشيعية على التوالى وفقاً للصيغة اللبنانية) وهى صاحبة القرار . ونرفض الدخول فى حوار جانبى أو فى خلق الحساسيات وفى خلق شرخ بين المواطنين ، لأننا نعتمد أولاً وأخيراً على حكمة رؤساء البلاد وخصوصاً الرئيس العماد إميل لحود الذى صرح مراراً بأن الوجود السورى شرعى ومؤقت . ونحن معه لأن بقاء الجيش السورى ضمانة للبنان من كل الاختراقات لأصحاب النفوس السيئة والمريضة.

ومن الواضح أن هذا الاستقطاب قد أثار مخاوف لدى المسئولين اللبنانيين الذين أبدوا انزعاجاً «من الخلفية الطائفية المتزايدة للجدل الحاصل حول موضوع الوجود السورى والعلاقة مع سوريا» على حد ما جاء فى صحيفة «الديار» اللبنانية . (١٦ نوفمبر ٢٠٠٠) . ولكن كبار المسئولين اللبنانيين أبدوا اهتماماً أكبر بمحاولة إزالة التأثير المحتمل لهذه الضجة على العلاقات بين لبنان وسوريا ، وذلك من خلال تصريحات تدعو إلى «عدم إثارة قضايا فى غير أوانها وفى غير محلها ، لأن الانعكاسات لن تصب فى مصلحة لبنان» على حد تعبير الرئيس اللبنانى إميل لحود .. أو تؤكد أن الوجود السورى فى لبنان «ضرورى وشرعى ومؤقت وليس أبدياً» على حد ما جاء على لسان رئيس الحكومة رفيق الحريرى الذى حرص على أن يؤكد أيضاً أن «هناك مصلحة لبنانية فى تطوير العلاقات أمنياً وسياسياً، وليس اقتصادياً فحسب » مع سوريا .

كذلك ، حاول رئيس المجلس النيابى اللبنانى نبيه برى القيام بمساع للتخفيف من حدة الجدل الذى احتدم حول الوجود السورى فى لبنان ، فقام بزيارة البطريرك المارونى نصر الله صفير فى مقره ، وأعلن من هناك أنه ليس هناك داع لكل هذا القلق الذى يبديه الأقطاب الموارنة ، لأن الجيش السورى فى لبنان قد بدأ بالفعل تنفيذ خطة إعادة انتشار كان قد بدأها فى أبريل الماضى وأن القيادتين السورية واللبنانية ستجتمعان لبحث تحديد مراكز تجمع القوات السورية بما يتفق مع ما جاء فى اتفاق الطائف . وقد رحب البطريرك والزعماء الموارنة بهذه التصريحات التى أدلى بها نبيه برى ، ولكن مبادرة رئيس مجلس النواب سرعان ما «بردت» نتيجة للفتور الذى واجهها من جانب دمشق.

أما المسئولون السوريون ، فقد تعاملوا مع هذا الموقف بأقصى درجة من الهدوء والبعد عن الانفعال الذى يقترب من أن يكون «عدم اكتراث».. ظاهرياً على الأقل. وكان من اللافت للانتباه ، أن أى مسئول سورى لم يتورط فى الدخول إلى حومة الجدل الدائر فى لبنان حول وجود القوات السورية على الأرض اللبنانية ، كما أن وسائل الإعلام السورية تجاهلت الأمر بصورة تامة تقريباً . وربما كان أقصى ما عبر عنه مسئول سورى فى هذا الخصوص هو ما جاء على لسان رئيس مجلس الشعب السورى عبد القادر قدورة خلال لقاء صحفى معه يوم ١٦ نوفمبر ، وشارك فيه كاتب هذه السطور ، فقال إن الإخوة فى لبنان أحرار فى إبداء آرائهم فى هذه القضية بالشكل الذى يرونه .. أما سوريا فإنها تتعامل فقط مع الدولة اللبنانية ممثلة فى رئيس جمهوريتها ورئيس حكومتها ، ولا يمكن لها أن تدخل فى حوار مع أى طرف آخر .

على أن هناك ملاحظة جديرة بالتسجيل ، فى هذا السياق ، وهى أن كل هذه التطورات التى جرت حول «الوجود السورى» فى لبنان ، سواء فى أكتوبر ونوفمبر عام ٢٠٠٠ أو فى مارس ٢٠٠١ ، قد تداعت فى أعقاب حدثين مهمين : أولهما ، غياب الرئيس السورى الراحل حافظ الأسد الذى ظل طوال مدة حكمه يمسك بيديه جميع الخيوط المتعلقة بالشئون اللبنانية ويحدد بنفسه سياسات سورية إزاءها . والثانى: هو خروج القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان ، تحت وطأة ضربات المقاومة اللبنانية الفعالة والناجحة .. وهو خروج تم دون أن يطرأ أى تغيير على «الوجود السورى» فى لبنان .

وهكذا تتأكد إحدى الحقائق الثابتة فى الموقف الراهن فى قضية الشرق الأوسط ، وهى ارتباط المسارين اللبنانى والسورى على نحو لا يسمح بمعالجة الشق اللبنانى منفرداً . ويتأكد أيضاً أن سوريا لا يمكنها ، وفقاً للمعادلة القائمة ، أن تتخلى عن ورقة لبنان قبل أن تعرف بوضوح كيف سيتم حل المشكلة برمتها.. بما فى ذلك إنهاء احتلال الجولان . ولهذا فإنه يبدو من المتعذر إمكانية الوصول إلى تصور لتحقيق خروج القوات السورية من لبنان ، فى الوقت الراهن على الأقل ، رغم الضجة التى يمكن أن تثار بين الحين والآخر من جانب «بعض» الفئات اللبنانية . ■

هوامش

(١) عبد العزيز عبد الغنى ، فى دراسة ضمن مجموعة دراسات بعنوان «الأزمة اللبنانية»، إصدار معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٨ .

(٢) م . أحمد : «لبنان ، انهيار أم انتحار»، إصدار مركز الأهرام للترجمة والنشر ، ١٩٨٩ .

(٣) كريم بقرادونى : «السلام المفقود» إصدار عبر الشرق.

قصة الوجود السورى فى لبنان





الجنيه المصرى إلى أين؟

أحـــمـــد أبـــو شـــادى

■■ أزمة سعر صرف الجنيه المصرى مازالت مستحكمة رغم مرور أكثر من شهرين منذ إعلان نظام جديد كان المأمول أن يعيد قدرًا من الاستقرار للأسواق التى تعانى من تفاوت الأسعار واختفاء الدولار فى البنوك وشركات الصرافة على السواء وعودة السوق السوداء وارتفاع معدلات اكتناز الدولار.

وكانت الحكومة المصرية قد أعلنت بعد طول سكوت عشرة إجراءات «لضَبْط» سوق النقد الأجنبى يوم الاثنين ٢٩ يناير ٢٠٠١ فى مؤتمر صحفى امتزج فيه التوتر بالتهكم وسط حشد من المحررين الاقتصاديين المصريين والأجانب، تحدث فى المؤتمر الدكتور يوسف بطرس غالى وزير الاقتصاد والتجارة الخارجية باعتباره المسئول الأول عن رسم السياسة الاقتصادية بما فى ذلك السياسة النقدية، والأستاذ إسماعيل حسن محافظ البنك المركزى، المسئول عن وضع هذه السياسة موضع التنفيذ كما أوضحت إجراءات «الضَبْط» الأخيرة.

وطبقا للمرجع اللغوى العريق «مختار الصِّحاح» للشيخ الإمام محمد بن عبد القادر الرازى فإن فعل «ضَبَطَ» الشيء (الجنيه المصرى فى هذه الحالة) يعنى «حفظه بالحزم»، وهو فعل يتفق مع المهمة الأولى للبنك المركزى فى تحقيق الاستقرار فى أسعار الصرف وفى هيكل الأسعار بشكل عام.

وهناك أيضا فعل «ضَبَطَ» الذى نستخدمه فى الإشارة إلى تصويب الشيء وإصلاحه كما أن هناك المعنى الدارج للكلمة فى الإشارة إلى ضَبْط المسئول عن المخالفة ومثوله أمام السلطات العليا!

أيا كان المعنى المقصود فإن أهم ما غاب عن نص الإجراءات العشرة التى أعلنتها الحكومة أنها تعنى تخفيض سعر الجنيه المصرى مقابل الدولار الأمريكى بنسبة ١٣٪ تقريبا فى عام واحد، من ٣٤٠ قرشا للدولار فى يناير ٢٠٠٠ إلى ٣٨٥ قرشا للدولار فى يناير ٢٠٠١ وهو ما ينطوى طبقا للتعريف الشائع بين المتخصصين فى علوم الاقتصاد على انهيار فى قيمة الجنيه والذى يعرفونه بأنه «انخفاض فى قيمة العملة بنسبة تزيد على ١٠٪ خلال ١٢ شهرا»!

إن أهـم ما غـاب عن نص الإجراءات العشـرة التى أعلنتـها الحكومـة أنها تعنى خفض سعـر الجنيـه المصـرى مقـابل الدولار الأمريكـى بنسبـة ١٢٪ تقريـبا فى عام واحد، مـن ٣٤٠ قرشـا للدولار فى ينـاير ٢٠٠٠ إلى ٢٨٥ قرشـا للدولار فى ينـاير ٢٠٠١

ومن ناحية أخرى فإن لفظة «ضَبْط» قد تعنى بالإنجليزية التعديل الملموس فى سعر الصرف استجابة لضغوط السوق خلال السنوات الأربعة الماضية بعد أن تصاعدت قيمة الجنيه المربوطة بالدولار بأكثر من ٤٠٪ تجاه العملات الأجنبية الأخرى وبالذات عملات شركائنا التجاريين الرئيسيين فى أوروبا، ومع ذلك لم تتدخل السلطات النقدية لتصويب الخلل مما أدى إلى غبن فادح للصادرات المصرية والمصدرين ومعهم الملايين من المستفيدين من هذا القطاع الحيوى المهم فى مقابل رغد ربحى غزير حظى به المستوردون بهذه العملات والذين حققوا مكاسب ضخمة يبدو أنهم احتفظوا بها فى جيوبهم فلم يشعر المستهلكون بأى انخفاض فى الأسعار الاسمية للسلع المستوردة.

يعتبر هذا «الضَبْط» إذن أول تحريك رسمى لسعر الجنيه خلال ما يقرب من عشر سنوات منذ عام ١٩٩١ عندما تم توحيد سعر الصرف فى إطار برنامج قوى للإصلاح الاقتصادى تم الاتفاق عليه وجرى تنفيذه بنجاح بالتعاون مع صندوق النقد الدولى خلال ست سنوات انتهت فى أكتوبر ١٩٩٧.

وقد اعتمد برنامج الإصلاح الاقتصادى منذ عام ١٩٩١ على ثلاثة محاور رئيسية هى:

• تحقيق التوازن التدريجى وتقليص العجز الكلى فى الميزانية العامة للدولة من خلال زيادة الموارد وضغط الإنفاق العام.

• إصلاح جذرى فى نظام الصرف بتوحيد أسعار صرف الجنيه المصرى وربطه بالدولار للسيطرة على التضخم وتحقيق الاستقرار فى الأسعار.

• سياسة نقدية مواتية وملتزمة بأهداف كمية محددة لتحقيق التوازن بين متطلبات توفير السيولة النقدية للاقتصاد وخفض معدلات التضخم.

ولعله كان من أول المظاهر الملموسة لبرنامج الإصلاح التى ارتاح لها الشارع المصرى حينذاك اختفاء السوق السوداء للدولار والعملات الأجنبية الأخرى بين يوم وليلة فى فبراير ١٩٩١ عندما أعلن عن توحيد أسعار الصرف وإطلاق التعامل فى النقد الأجنبى ورفع أسعار الفائدة لتتناسب ومعدلات التضخم، وأدى ذلك إلى تدفقات مالية كبيرة وصل مجموعها خلال السنوات الثلاث الأولى من برنامج الإصلاح إلى ٥ مليارات دولار أو ما يعادل ١١٪ من الناتج القومى الإجمالى حتى يونيو ١٩٩٤، واستمرت التدفقات المالية فى السنوات الثلاثة التالية بمعدلات أقل بلغت ٢,٥ مليار دولار حتى يونيو ١٩٩٧، وارتفع صافى الاحتياطيات الدولية لدى البنك المركزى إلى أكثر من ٢٠ مليار دولار، أى ما يكفى لتغطية تكاليف الواردات المصرية لحوالى ١٦ شهرا، وبلغت الثقة فى الجنيه المصرى أوجها مع انكماش ظاهرة الاحتفاظ بالدولار وتزايد الإقبال على الجنيه وتناقص معدلات «الدولرة» فى الاقتصاد المصرى.

اقتصر دور السلطات النقدية ممثلة فى البنك المركزى حتى عام ١٩٩٧ على التدخل فى السوق لشراء بلايين الدولارات التى تدفقت على مصر سعيا وراء الاستفادة من معدلات الفائدة المرتفعة على الودائع بالجنيه المصرى لكى تمنع سعر صرف الجنيه من الارتفاع، وتحملت الخزانة العامة خسارة بلغت حوالى ٦٠٠ مليون دولار فى المتوسط سنويا (٢,٤ مليار جنيه مصرى) تمثل الفارق بين الفائدة المرتفعة المدفوعة على الودائع بالجنيه وعائد الفائدة المتدنية على ودائع البنك المركزى بالدولار.

ومع ذلك التدخل من قبل البنك المركزى قدر الاقتصاديون أن القيمة الفعلية للجنيه ارتفعت بنسبة تصل إلى حوالى ٣٠٪ خلال المدة من ٩٠ / ١٩٩١ إلى ٩٦/ ١٩٩٧ وهو ما دعا صندوق النقد الدولى فى منتصف تلك الفترة إلى إثارة موضوع سعر صرف الجنيه وضرورة النظر فى تخفيضه حفاظا على تنافسية الصادرات المصرية وتحفيزا لها.

وشهدت تلك الحقبة فى منتصف التسعينيات مواجهات عديدة بين الحكومة المصرية وفريق مفاوضى صندوق النقد

الدولي برئاسة اقتصادى لبنانى مرموق - الدكتور صالح نصولى - الذى كان قد فرغ لتوه من مفاوضات ناجحة مع الحكومة التونسية انتهت إلى الاتفاق على نظام مرن لسعر الصرف ما زالت تنعم به تونس حتى الآن يحمى للصادرات والسياحة أسواقها ويوسع رقعتها ويحفظ قطاعاتها الإنتاجية ويرشد وارداتها .

وكما يحدث كثيرا فى حياتنا العامة تحول الخلاف فى الرأى بين فريق المفاوضين المصرى وبين الدكتور صالح نصولى ومعاونيه إلى خلاف شبه شخصى انتهى بان تنحى الرجل عن مهمته وهو فى اشد المرارة والأسف لرفض الجانب المصرى رؤية ما أثبته لهم بالحساب والأرقام من مغبة عدم تعديل نظام الصرف فى مصر بما يتيح الحد الأدنى من المرونة المطلوبة لحماية الصادرات المصرية وترشيد الواردات والمحافظة على التوازن الضرورى فى ميزان المدفوعات دون اللجوء إلى فرض قيود كمية وإدارية .

وسمحت ظروف هبوط مؤقت فى سعر صرف الدولار فى الأسواق العالمية فى ذلك الوقت وما واكبها من انفراج لم يطُل فى سعر صرف الجنيه مقابل العملات الأخرى ، بالإضافة إلى ضغوط سياسية نجحت مصر فى تجنيدها داخل صندوق النقد الدولى وخارجه أدت فى النهاية إلى أن تخلى الصندوق عن مطالبه بضرورة تقييم نظام الصرف وتعديله وخفض سعر الجنيه إذا لزم الأمر بما يخدم مصالح الاقتصاد المصرى على المدى الطويل ، واعتبرت الحكومة المصرية أن فى ذلك القرار انتصارا كبيرا لها ، ومدعاة للتندر والحبور لفترة ، لم تشأ الأقدار لها أن تطول .

ففى منتصف عام ١٩٩٧ تغير اتجاه الموارد من النقد الأجنبى الذى تمتع به الاقتصاد المصرى خلال السنوات السابقة مع الانخفاض الحاد فى عوائد السياحة فى أعقاب ماساة الأقصر الإرهابية كما انخفضت عائدات البترول لهبوط أسعاره فى أسواق العالم وضعف حجم الكميات المتوافرة للتصدير مما أدى إلى عجز فى الحساب الجارى بلغ ٢,٥ مليار دولار، قامت البنوك التجارية بتغطيته من مواردها الخاصة بطلب من الحكومة التى فضلت الا تمس احتياطى النقد الأجنبى فى البنك المركزى .

وتحول فائض ميزان المدفوعات الذى بلغ مليار دولار فى العام السابق ٩٦ / ١٩٩٧ إلى عجز وصل إلى ٣,٦ مليار دولار عام ٩٧ / ١٩٩٨ بما فى ذلك ٢٥٠ مليون دولار تمثل أساسا تحويلات المستثمرين الأجانب لأرباحهم من عائدات أذون الخزانة .

وتفاقمت الضغوط على الحساب الخارجى فى العام التالى ٩٨ / ١٩٩٩ وازداد العجز فى الحساب الجارى إلى ٤,٥ مليار دولار قامت البنوك التجارية مرة أخرى بناء على طلب الحكومة بتغطية ٢,٥ مليار دولار منها بينما ساهم البنك المركزى بسحب ٢ مليار دولار من الاحتياطى الدولى المتراكم لديه .

ويقول الاقتصادى الأيرلندى اللامع هاوارد هاندى الذى خلف اللبنانى صالح نصولى فى رئاسة فريق مفاوضى صندوق النقد الدولى حتى مطلع العام الماضى أن قرار الحكومة التضحية بأرصدة البنوك التجارية بدلا من اللجوء لاحتياطى البنك المركزى لتغطية الطلب على النقد الأجنبى أدى إلى تعقيدات كان الاقتصاد المصرى فى غنى عنها .

• أولها: كما جاء فى ورقة بحثية قدمها أمام مؤتمر عقده المركز المصرى للدراسات الاقتصادية فى نوفمبر الماضى - أن بيع البنوك التجارية لأرصدتها من العملات الصعبة نتج عنه ارتفاع حصيلتها من العملة المحلية التى لجأت إلى التخلص منها بالتوسع فى الإقراض للقطاع الخاص بنسب فاقت ٢٥٪ سنويا مما أدى بدوره إلى زيادة فى الطلب المحلى واستمرار الضغط على أسواق النقد الأجنبى ، بينما لو قام البنك المركزى بتوفير النقد الأجنبى فإنه يمتص السيولة المتمثلة فى حصيلة البيع بالنقد المحلى ويسهم بالتالى فى تهدئة السوق.

• ثانيا : انخفضت أرصدة البنوك التجارية من أذون الخزانة انخفاضا ملحوظا مما أدى إلى ارتفاع حاد فى إقراض البنك المركزى للحكومة والذى ارتفع بأكثر من ١٥ مليار جنيه فى العام المالى ٩٨ / ١٩٩٩ ليصل إلى ٥٠ مليار جنيه .

• ثالثا: بينما حافظ البنك المركزى على الجزء الأكبر من صافى الاحتياطيات الدولية لديه خلال العام المالى ٩٨ / ١٩٩٩ بالرغم من الضغوط على النقد الأجنبى، اهتز توازن الأصول والخصوم الأجنبية لدى البنوك التجارية ويضيف مصرفى معروف أن معظم البنوك لجأت إلى إخفاء ما لديها من أرصدة أجنبية تحت مسميات وهمية تحسبا لاحتمال تخفيض الجنيه .

وهكذا تفاقمت حالة القلق فى سوق النقد الأجنبى ، وتصاعدت الضغوط على سعر الصرف حتى وصل إلى ٣٧٠ قرشا للدولار فى أغسطس ١٩٩٨ ، ونشطت عمليات اكتناز الدولار التى عرفتها السوق المصرية قبل بدء برنامج الإصلاح الاقتصادى وعادت نسبة «الدولرة» للارتفاع مرة أخرى لأول مرة منذ عشر سنوات.

وتحسن الموقف مؤقتا خلال عام ٩٩/ ٢٠٠٠ عندما توقفت عمليات السحب من الأرصدة الأجنبية للبنوك التجارية ولجأ البنك المركزى للاعتماد على الاحتياطيات الدولية المتوفرة لديه لمواجهة الطلب على النقد الأجنبى ، لذلك أضافت البنوك التجارية مليار دولار

بيان بأهم الموارد والاستخدامات من النقد الأجنبى
وفقا لبيانات ميزان المدفوعات

المصدر: البنك المركزى المصرى — بالمليون دولار — للربع الأول

بيـــــان	٩٧/٩٦	٩٨/٩٧	٩٩/٩٨	٢٠٠٠/٩٩	٢٠٠١/٢٠٠٠
أولا: الموارد					
حصيلة الصادرات البترولية	٢٥٧٧,٨	١٧٢٨,٤	٩٩٩,٧	٢٢٧٢,٩	٦١٩,٥
حصيلة الصادرات غير البترولية	٢٧٦٧,٦	٣٤٠٠	٣٤٤٥,٤	٤١١٤,٨	١٠٣٥,٤
إجمالى الصادرات السلعية	٥٣٤٥,٤	٥١٢٨,٤	٤٤٤٥,١	٦٣٨٧,٧	١٦٥٤,٩
حصيلة السياحة	٣٦٤٦,٣	٢٩٤٠,٥	٣٢٣٥,١	٤٣١٢,٨	١٢١٢,٢
النقـــل	٦٨٦,١	٦٨٠,٦	٨٦٥,٩	٨٥٣,٩	٢١٣,٢
موارد قناة السويس	١٨٤٨,٩	١٧٧٦,٥	١٧٧١	١٧٨٠,٨	٤٦٥,٨
التحويلات الرسمية	٨٨٩,٦	٨٨٢,٦	١٠٩٦,٧	٩٣٢,٤	٢٧٦,٤
التحويلات الخاصة	٣٢٥٥,٦	٣٧١٧,٧	٣٧٧٢,٤	٣٧٤٧,١	٦٣٣,٩
دخل الاستثمارات	٢٠٥٣,٣	٢٠٨١,٣	١٩٣٢,٧	١٨٣٢,٥	٤٥٧,١
صافى الاستثمار المباشر فى مصر	٧٦٩,٧	١١٠٣,٩	٧١٠,٦	١٦٥٦,١	١٠٩,٨
صافى استثمارات محفظة الأوراق المالية فى الداخل	١٤٦٣,٩	-٢٤٨	-١٧٣,٦	٤٧٢,٦	٢٨٦,٨
موارد أخرى	٢٤٩٨,٤	٤٧٣٥,٣	٤٣٦٢,٨	١٣٠٠,٧	٢٧٩,١
١. إجمالى الموارد	٢٢٤٥٥,٢	٢٢٧٩٨,٧	٢٢٠١٨,٧	٢٢٢٧٧,٦	٥٥٩٠,٢
ثانيا: الاستخدامات					
الواردات السلعية	١٥٥٦٤,٨	١٦٨٩٩	١٧٠٠٧,٦	١٧٨٦١,٤	٤٠٢٧,٤
الفوائد المدفوعة	٩٩٥,١	٧١٥,٧	٧٨٩,٣	٧٦٩,٨	٢٥٧,٣
سداد الديون	٨٥٦,٣	٨٠٣,٨	٨٠٨,٢	١٠٥٦,٢	٢٨٣,٥
الاستثمار المباشر فى الخارج	٤٧,٢	١٣٦,٩	٥٥,٨	٤٢,٥	١١,١
استثمارات محفظة الأوراق المالية فى الخارج	٠	٥٦,١	٤٣,١	١٢,٢	٣
استخدامات أخرى	٢٨٣٢,٥	٣٣٧٨,٩	٤١٢٠	٥٦٨٠,١	١٧٢١,٢
٢. إجمالى الاستخدامات	٢٠٢٩٥,٩	٢١٨٩٠,٤	٢٢٨٢٤	٢٥٤٢٢,٢	٦٤٠٣,٦
٣. صافى السهو والخطأ	-٢٤٧	-١٠٤٣,٣	-١٣١١,٥	-٨٨٠,١	٢٥٧,٥
الفائض/ العجز (١-٢+٣)	١٩١٢,٣	-١٢٥	-٢١١٦,٧	-٣٠٢٤,٧	-٥٥٥,٩

كتاب الزاوية

عمارة الفقراء

٣- القرنة.. مشروع رائد

القرنة بالنسبة لى هى تجربة ومثال معًا. وكنت آمل أن يكون من القرنة عرضًا للطريقة التى يعاد بها بناء كل ريف مصر. وكنت آمل أنه ما إن يرى الناس كيف يمكن أن يكون الإسكان الجيد رخيصًا، فإنه ستوجد بين فلاحينا حركة هائلة للبناء بطريقة «أد العمل بنفسك».

وحتى نعطى أكمل المعلومات لبنّائى المستقبل الذين سيؤدون العمل بأنفسهم كان مطلبنا أن نأخذ فى إنشاء هذه القرية ابتداء من تراب الأرض، وأن نصنع كل أصغر التفاصيل بأنفسنا، ونكتشف كيفية القيام بها، وقدر تكلفتها، وكان علينا أن نصنع طوبنا بأنفسنا، هو وملاطنا، وأن نحفر طيننا، ونستخرج جيرنا ونحرقه، ونحتجر الحجارة لأنفسنا، ونصنع سباكتنا، ونقوم بكل شئون نقلنا.

وكنت آمل أنى باهتمامى اهتمامًا وثيقًا بكل تفصيل فى العمالة ومشتريات المواد، فإن هذا ينبغى أن يمكننى من عمل تحليل مفصل لتكاليف القرية عند اكتمالها، وينبغى أن أعرف كيف تم إنفاق كل قرش، وأن أتمكن من أن أقول واثقًا أن قرية مثل كذا وكذا فيها العدد كذا من البيوت، والعدد كذا من المبانى العامة، ستكلف بالضبط قدر كذا من النقود وتتطلب قدر كذا من العمالة.

وبهذا يمكن أن تطبق نتائجى على أى مشروع فى المستقبل، ويمكننا أخيراً أن نضع جسراً فوق تلك الهوة الغامضة - التى تبتلع ملايين كثيرة من الجنيهات - تلك الهوة ما بين الخطط التى تضعها هيئات التخطيط القومية، والمبانى التى تخرج للعيان كنتيجة لهذه الخطط.

الجنيه المصرى



لأصولها الأجنبية خلال العام بينما انخفض احتياطى البنك المركزى من العملات الصعبة بحوالى ٣ مليارات دولار خلال المدة ذاتها.

ومع انتصاف عام ٢٠٠٠ هبطت حدة الطلب على احتياطى النقد الأجنبى لدى البنك المركزى بعد أن قامت الحكومة بفرض التغطية الكاملة لقيمة اعتمادات الاستيراد مع ضرورة الإفصاح عن طبيعة استخدام النقد الأجنبى، كما تخلى أصحاب شركات الصرافة عن محاولة تقييد سعر الصرف مما أدى إلى ارتفاعه حتى وصل إلى ٣٨٠ - ٣٩٠ قرشا للدولار استجابة لتزايد الطلب.

وعندما لجأت الحكومة فى نهاية عام ٢٠٠٠ إلى فرض قيود كمية على السحب من الحسابات المفتوحة بالنقد الأجنبى وتقييد المعاملات المصرفية بين تلك الحسابات تبخرت ثقة المتعاملين فى السوق وتحولت مشكلة الدولار إلى أزمة مازالت جاثمة على أنفاس سوق النقد الأجنبى إلى يومنا هذا.

الإجراءات العشرة الأخيرة «لضبط» سوق النقد الأجنبى لا تتفق فى مجملها وما أعلنته الحكومة فى تقديمها لهذه الإجراءات عن إيمانها الراسخ بفاعلية آليات السوق، وإلا لما لجأت لمضاعفة رأس المال المدفوع لشركات الصرافة عشر مرات ليصل إلى ١٠ ملايين جنيه بدلا من مليون جنيه. والذى يعنى عمليًا إغلاق ٩٧٪ من شركات الصرافة المرخص لها بالعمل في السوق المصرية.

ومن ناحية أخرى لم تعلن الحكومة عن توقعاتها بشأن أسعار صرف الدولار فى الأسواق العالمية والتى بدأت فى الاتجاه إلى الهبوط مقابل اليورو والعملات الأوروبية الأخرى مما يعنى أن استمرار ربط الجنيه بالدولار فى هذه المرحلة قد يعيد بعضا من التوازن إلى أسعار التبادل مع العملات الأوروبية خلال الأشهر القادمة وهو ما يفسر الطبيعة الانتقالية التي يتسم بها نظام الصرف الجديد.

وإذا صح هذا السيناريو الذى تؤكده شواهد التباطؤ فى معدلات نمو الاقتصاد الأمريكى، فإن ذلك يعنى أن الدولار الذى كان مسئولا إلى حد كبير عن «شنق» الجنيه المصرى فى الفترة الأخيرة برفع قيمته بشكل مبالغ فيه تجاه العملات الأوروبية قد يتحول إلى سلم النجاة الذى يهبط بالجنيه إلى أرضية أكثر ثباتا وتوازنا مع العملات الأخرى كمقدمة لتبنى نظام صرف أكثر مرونة وواقعية من النظام الانتقالى الذى أرضى البعض ولكنه أدى أساسًا إلى ظهور السوق السوداء مرة أخرى.

وأيا كانت النتائج التى سوف تتمخض عنها الأسابيع والشهور القادمة فيما يتعلق باستقرار سعر صرف الجنيه وبنظام الصرف الحالى الذى يربطه بالدولار الأمريكى، يؤكد الأستاذ إسماعيل حسن محافظ البنك المركزى أن التحول إلى نظام صرف جديد أمر مطروح فى أروقة البنك المركزى بما يعكس الأهمية النسبية لشركائنا التجاريين، ويؤكد هذا الاتجاه المصرفى الكبير الأستاذ على نجم، الذى يقترح ربط الجنيه بـ«سلة» من العملات (بفتح السين) بنسب ترجيحية تضم ٤٠٪ لكل من الدولار واليورو و١٠٪ لكل من الجنيه الإسترلينى والين اليابانى فلا يصبح الجنيه مرة أخرى عرضة للتارجح هبوطا أوصعودا مع عملة واحدة.

ولن يغنى الاستقرار فى أسعار الصرف - إذا تحقق - عن استمرار البحث والاتفاق على نظام للتبادل يأخذ فى الاعتبار أن الأداء الاقتصادى الأفضل فى الدول النامية ارتبط بوجود سعر صرف واقعى ومرن يساهم فى زيادة الصادرات الصناعية واجتذاب الاستثمارات المباشرة وتحقيق معدلات نمو مرتفعة، وفى المقابل أثبتت تجربتنا العملية، كما عرفت دول كثيرة من قبلنا، أن التمسك بسعر صرف ثابت لمدة طويلة بعد استنفاد الغرض منه يؤدى إلى ارتفاع غير واقعى فى قيمة العملة وانكماش فى الصادرات السلعية.

* المهم أن التباطؤ في العلاج الحاسم للأزمة واللجوء للمسكنات والحلول الجزئية سوف يضر أكثر مما ينفع كما أثبتت التجربة المصرية السابقة لتنفيذ برنامج الإصلاح الاقتصادى الناجح عام ١٩٩١، والذى اعتمد ضمن أسسه المهمة نظام صرف واقعيًا حقق الاستقرار وخدم أهداف السياسة الاقتصادية.

وتبقى تحديات السياسة النقدية الأخرى المتمثلة فى المرونة المطلوبة فى أسعار الفائدة استجابة للمتغيرات الطارئة فى أسعار الصرف والاحتياطيات الدولية. ويدعو هاوارد هاندى الخبير الاقتصادى الذى ترك صندوق النقد وانضم منذ عام إلى معهد التمويل الدولى بواشنطن إلى ضرورة إطلاق قدرات البنك المركزى فى إدارة السياسة النقدية ويطرح ثلاثة مقترحات:

* أولاً: أن تتوافر للبنك المركزى محفظة متنوعة من الأوراق المالية القابلة للتداول حتى يتمكن من خلالها من التأثير فى السوق، وأن يكون البنك المركزى «سيد قراره» فعلا وقولا فيما يختص بتدخله فى السوق وفى إدارته للسياسة النقدية!

كما يجب أن تنعكس قوى السوق على عطاءات أذون الخزانة والتخلص من حالة الجمود التى تسود أسعار الفائدة عليها مما يؤدى إلى تطوير الأوراق المالية الحكومية فى إطار تعميق وتوسيع الأسواق المالية.

* ثانيا: تحديث النظام المالى والمصرفى ووضع برنامج محدد للإسراع فى عملية خصخصة البنوك التجارية الكبرى والمشتركة

إن التباطؤ فى العلاج الحاسم للأزمة واللجوء للمسكنات والحلول الجزئية سوف يضر أكثر مما ينفع كما أثبتت التجربة المصرية السابقة لتنفيذ برنامج الإصلاح الاقتصادى الناجح عام ١٩٩١

والتى توقفت بالرغم من صدور التشريعات المطلوبة منذ عام ١٩٩٨ والتى تسمح بنقل ملكية البنوك العامة وشركات التامين إلى القطاع الخاص لكى تسهم بشكل نشط وفعال فى الانطلاقة الاقتصادية المامولة، وقد اثبتت تجارب الدول الصناعية والنامية على السواء ان سيطرة الدولة على القطاع المصرفى مسئولة عما تتعرض له تلك المصارف من ازمات وما يحوط قروضها ومعاملاتها من شبهات ، وعن حالة الجمود وتدنى الأداء والخدمات للعملاء.

• ثالثا: الإشراف والرقابة على البنوك من اخطر المهام التى يضطلع بها البنك المركزى ، ومع التطوير المستمر الذى يشير إليه التقرير السنوى للبنك المركزى فى هذا المجال إلا ان البيانات التى توفرها البنوك فى مصر ما زالت دون الحد الأدنى المطلوب من الدقة والشفافية والإفصاح .

ويشير التقرير السنوى الأخير للبنك المركزى إلى سعيه لتحقيق الدورية والانتظام فى الفحص الميدانى بما يكفل الاكتشاف المبكر لأية ظروف غير مواتية فى العمل المصرفى... وفى هذا الإطار تم التفتيش على ١٥ بنكا من أصل ٦٢ بنكاً خلال السنة المالية ٩٩ / ٢٠٠٠ أى ٢٥٪ من إجمالى عدد البنوك !

يبقى فى النهاية فض الاشتباك وتداخل المهام والاختصاصات سواء فى رسم السياسات أو فى إجراءات تنفيذها بين وزارات الاقتصاد والمالية والبنك المركزى والبنوك الحكومية حتى تتحقق الاستقلالية والتوازن بين تلك المؤسسات الحيوية لكى تضطلع بمهامها الخطيرة من أجل الصالح العام. ■

إجراءات ضبط سوق النقد الأجنبى

على ضوء التطورات الاخيرة فى سوق الصرف الأجنبى، وما شهدته هذه السوق من تقلبات غير مبررة، وفى إطار تاكيد الحكومة على إيمانها الراسخ بفاعلية آليات السوق المنظمة، وبكافة الحقوق التى يكفلها قانون النقد الأجنبى، قررت الحكومة اتخاذ مجموعة من الإجراءات والتدابير التى تهدف أساسًا إلى تحقيق الاستقرار، وتوفير الطمأنينة لكافة المتعاملين فى السوق. وتتمثل هذه الإجراءات والتدابير فيما يلى:

١. يعلن البنك المركزى المصرى سعرًا مركزيًا للدولار الأمريكي مقابل الجنيه المصرى قدره ٣٨٥ قرشًا، وهو المتوسط المرجح لأسعار التعامل فى السوق (بنوك وشركات الصرافة) خلال الأسابيع الثلاثة الماضية، وتتحدد أسعار باقى العملات الأجنبية مقابل الجنيه المصرى بناء على هذا السعر.
٢. تقوم البنوك وشركات الصرافة بتحديد أسعار بيع وشراء الدولار الأمريكى (بنكنوت وتحويلات) بما يتوافق مع آليات السوق، وفى حدود هامش لايزيد على ± ١٪ ارتفاعًا وانخفاضًا من السعر المركزى الذى يعلنه البنك المركزى المصرى. وبالنسبة لأسعار العملات الأخرى، فتتحدد من واقع علاقة الدولار بهذه العملات فى الخارج.
٣. يتدخل البنك المركزى المصرى بائعًا أو مشتريًا للنقد الأجنبى كلما اقتضت الحاجة، وذلك لموازنة تحركات أسعار الصرف بالسوق، وسوف تتم مراجعة سعر البنك المركزى دوريًا وفق ظروف السوق.
٤. تلتزم البنوك وشركات الصرافة بإبلاغ تعاملاتها كل ساعة لغرفة إحصاءات النقد الأجنبى بالبنك المركزى المصرى. وتقوم الغرفة يوميًا بالإعلان عن متوسط مرجح لأسعار صرف العملات الأجنبية لكل المتعاملين فى السوق.
٥. تقوم البنوك بعرض كميات وأسعار بيع النقد الأجنبى الفائض على حاجتها، وأسعار شراء ما قد تحتاجه منه، وذلك من خلال الإعلان عنها لدى غرفة إحصاءات النقد الأجنبى بالبنك المركزى المصرى.
٦. تلتزم شركات الصرافة ببيع ما يزيد على أرصدة تشغيلها المصرح بها للبنوك فى نهاية كل يوم عمل، وذلك فى صباح يوم العمل التالى.
٧. يقوم البنك المركزى بتغطية كافة مراكز العملات الأجنبية القائمة لدى البنوك، كما فى نهاية عمل يوم الاثنين الموافق ٢٩ يناير ٢٠٠١، وذلك بسعر البنك المركزى السائد اليوم.
٨. يمكن لشركات الصرافة بيع ما لديها من عملات أجنبية قابلة للتحويل للبنوك مقابل الجنيه المصرى، وكذلك شراء ما تحتاجه من عملات أجنبية مقابل الجنيه وذلك فى إطار الآلية سالفة الذكر.
٩. تم تعديل اللائحة التنفيذية لقانون النقد الأجنبى رقم ٣٨ لسنة ١٩٩٤، بما يكفل ضبط السوق وإضفاء الحماية على العمليات السليمة لكافة المتعاملين، وكذا تشديد العقوبات على المخالفين والمتلاعبين.
١٠. يسرى تنفيذ هذه الآلية اعتبارًا من يوم الثلاثاء الموافق ٣٠ يناير ٢٠٠١.

يتم تنفيذ سياسة سعر الصرف السابق بيانها جنبًا إلى جنب مع مكونات السياسة النقدية الأخرى.

المصدر: وزارة الاقتصاد والبنك المركزى المصرى

كتاب الزاوية

عمارة الفقراء

٤ - بيت الفلاح

الفارق بين طريقة حياة الفلاح وساكن المدينة ينعكس على بيتيهما . فبينما يُقصد بالبيت فى المدينة أن يكون فحسب مأوى للناس الذين يعيشون فيه . فإن البيوت فى القرية يجب أن تحوى أنواعًا كثيرة من المخازن الواسعة كما تحوى أيضًا ماشية المالك .

وهكذا كان علينا أن نوفر فى بيوت القرنة مساحة رحبة للتخزين وحظائر كبيرة للماشية . وقد فكرنا فى بدائل شتى . فالوقود الذى يختزن عادة فى مصر فوق أسطح البيوت كثيراً ما يسبب حرائق مدمرة تنتشر لتحرق قرى بأسرها ، بمواشيها ، ومحاصيلها . وكل ما عليها .

إذن فإنه بدا معقولاً أن تخزن هذه المواد سريعة الاشتعال تخزينًا آمنًا فى مبنى عام كبير . كما بدا صحيًا أكثر أن تكون هناك حظائر ماشية عامة بعيدة تمامًا عن البيوت . إلا أن الفلاحين ماكانوا ليفترقوا عن محاصيلهم ولا عن ماشيتهم . كيف يتأتى أن تظل النساء يجرين طول اليوم فى الشوارع العامة لإحضار الوقود وحلب البقر ؟

ألزمت نفسى فى القرنة بأن أجعل البيوت تختلف فى حجمها حسب مساحة البيوت الأصلية التى ستحل محلها ، بحيث يتم إعدادها فى رقع شتى غير منتظمة ، وإذا كنت مستعداً لتغيير خطة كل منها لتلائم الناس الذين سيعيشون فيها ، فإنى بذلك ضمنت أننى سأفكر بما ينبغى من حرص بشأن تصميم كل واحد منها ، وأتجنب فخ إضافة التنوع بلا هدف . وإنى سوف أنتج قرية يكون للانتقالات المقامية المعزوفة فيها سبب واضح لأن توجد .

أمراض الحيوان .. تهدد

أحمد توفيق

لم يكن يخطر ببال أحد أن تظهر كل هذه الأمراض التى تنتقل من الحيوان إلى الإنسان فجاءة وبهذا القدر من الإثارة التى تصل إلى حد الرعب، وكأن هناك اتفاقا ضمنيا بين الهيئات العلمية العالمية على أن تلقى فى وجه البشرية وهى تبدأ القرن الواحد والعشرين بهذا الكم الهائل من الأخبار غير السارة التى تصيب الإنسان بالأرق وعدم الطمأنينة

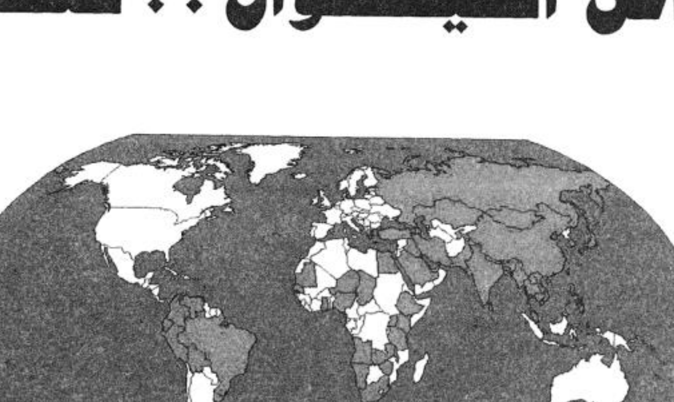
هناك حالات مرضية تظهر بصورة فردية فى الحيوان أو الإنسان أو على هيئة أوبئة فى بعض مناطق من العالم من حين لآخر حيث تساعد عوامل البيئة (مثل أمطار غزيرة وفيضانات ورياح وارتفاع درجة حرارة (الجو) وأنواع النشاط الآدمى والسلوكيات (مثل نظام الرى والحالة الاجتماعية والاقتصادية والتلوث البيئى) على زيادة أو ارتفاع نسبة الحشرات الناقلة للمرض أو تواجد العائل الرئيسى أو الوسيط (الطيور والطيور المهاجرة كما تتوقف شدة الإصابة على الكثافة السكانية والحالة المناعية لكل من الحيوان والإنسان وعلى طرق ونظم الرعاية الصحية لكل من الإنسان والحيوان .

ومن خلال دراسة استرجاعية لتحديد أهم العوامل (عوامل بيئية - مناخية - هيدرولوجيه - زراعية) التى تسبق الوباء وباستخدام تكنولوجيا الفضاء المختلفة يمكن التنبؤ بالظروف والمؤشرات التى تسبق الوباء بوقت كاف والتنبؤ بالأوبئة والأمراض المتوقع ظهورها حتى يمكن إبلاغ الجهات المعنية لاحتواء الأزمة قبل حدوثها وهو ما يستدعى ضرورة التعاون والتنسيق بين الهيئة القومية المصرية للاستشعار عن بعد ووكالات الفضاء العالمية (مثل وكالة الفضاء الفرنسية واليونسكو) ووزارة الزراعة (ممثلة فى المعاهد البحثية للثروة الحيوانية والهيئة العامة للخدمات البيطرية) ووزارة الصحة (ممثلة فى الإدارة المركزية للطب الوقائى) .

ويمكن فى هذه الحالة إنشاء نظام للإنذار المبكر والاستشعار عن بعد لإجراء دراسات علمية لتحديد الأماكن الجغرافية والاتصالات الفضائية وتشخيص الأمراض والطب عن بعد، وذلك لحماية صحة الإنسان والثروة الحيوانية .

هناك مجموعة أمراض مشتركة وهى تلك المجموعة من الأمراض التى تنتقل من الحيوان للإنسان عن طريق الاختلاط المباشر أو من خلال المنتجات والمخلفات الحيوانية العديدة، وقد يصل عدد الأمراض المشتركة الى أكثر من ٢٢٠ مرضًا تختلف مسبباتها وأعراضها وأهميتها وهى تمثل مشكلة صحية عامة فى العالم وخاصة فى الدول النامية أو دول العالم الثالث . ومن هنا أولتها منظمة الصحة العالمية (WHO) ومنظمة الأغذية والزراعة العالمية (FAO) أهمية خاصة فى برامجها، ومنها على سبيل المثال الفيروسية مثل الحمى القلاعية وحمى الوادى المتصدع وحمى غرب النيل، والبكتيرية مثل البروسيلا والسل والطفيلية مثل التركسوبلازما والليشمانيا والترايكينيلا والدودة الحلزونية والفاشيولا، وظهر أخيراً على الساحة مرض جنون البقر حيث إنه لم يثبت علمياً حتى الآن انتقاله للإنسان إلا بطريقة استنتاجية وليس بطريقة علمية مؤكدة .

ولم يكن يخطر ببال أحد أن ينفجر الوضع هكذا فجاءة وبهذا القدر من الإثارة التى تصل إلى حد الرعب، وكأن هناك اتفاقا ضمنياً بين الهيئات العلمية العالمية والمنظمات الدولية والمعنية بالصحة العامة والأمراض والأوبئة ورافقتها الشبكات العالمية وأجهزة الإعلام بسيطرتها وقدرتها البالغة على أن تلقى فى وجه البشرية وهى تبدأ القرن الواحد والعشرين بهذا الكم الهائل من الأخبار غير السارة التى تصيب الإنسان بالأرق وعدم



خريطة تبين الموقف الوبائى لمرض الحمى القلاعية وانتشاره بالعالم

صحة الإنسان!

الطمأنينة وتدفع دول الجنوب لدراسة الموقف بجدية في مواجهة ذلك الخطر الداهم دون الاعتماد على دول الشمال ونظرة إلى ما يبث حالياً في جنبات الدنيا الأربعة تكشف لكل ذي بصيرة خطورة الموقف وحتمية التكتل لعمل شيء حقيقي وذلك من خلال تعظيم الإمكانيات الذاتية وسد الفجوة الغذائية .

وقبل أن نتعرف على بعض الأمراض والأوبئة التي ظهرت على الساحة في الآونة الأخيرة نريد أن نستعرض بعض الحقائق والأرقام لتوضيح الرؤية المستقبلية لتوفير المنتجات ذات الأصل الحيواني في مصر:

١ - متوسط نصيب الفرد في مصر هو ٠,١٧ وحدة حيوانية بينما هذا المتوسط يصل إلى ٣ - ٤ وحدات حيوانية في أورجواي والأرجنتين وأستراليا على سبيل المثال.

٢ - يمثل الإنتاج الحيواني ما قيمته ١٩,٥ مليار جنيه من صافي الدخل الزراعي والبالغة قيمته حوالي ٦١ مليار جنيه، أي ١ إنتاج حيوان : ٢ إنتاج نباتي في مصر.

٣ - كمية الأعلاف المنتجة في مصر عام ٩٧ نحو ٦٤,٣ مليون طن أي بقيمة نشوية قدرها حوالي ٩,٤ مليون طن معادل نشا . وقد قدرت الاحتياجات النشوية للثروة الحيوانية والداجنة في عام ٩٧ بنحو ١٦,١٣ مليون طن معادل نشا .وبمقارنة القيمة الغذائية للأعلاف المنتجة (٩,٤ مليون طن معادل نشا) والقيمة الغذائية لاحتياجات الثروة الحيوانية والداجنة (وقدرها ١٦,١٣ مليون طن معادل نشا) يتضح وجود عجز قدره ٦,٧ مليون طن معادل نشا بنسبة قدرها ٤١,٧٪ .

٤ - نصيب الفرد في مصر من اللحوم الحمراء حوالي ١٤ كجم / سنة (إحصائية عام ١٩٩٧ من الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء) وهو أقل من الحد الواقي الصحي وقدره ٢٥كجم / سنة طبقاً لما حددته منظمة الأغذية والزراعة.

٥ - ارتفاع نصيب الفرد من ١٢جم بروتين حيواني/ يوم، عام١٩٨٢ إلى ١٧ جم بروتين حيواني/ يوم في التسعينيات رغم الزيادة السكانية، ومع ذلك فإن هذا المعدل يقل عن الحد الذي تنادي به المنظمات الدولية والذي يصل الى ٢٤ جم بروتين يوم .ولذلك فإن إستراتيجية النهوض بالثروة الحيوانية تهدف لزيادة نصيب الفرد من البروتين الحيواني ومن ضمن هذه الإستراتيجية مقاومة ومكافحة الأمراض والسيطرة أو القضاء عليها .

٦ - ارتفاع إنتاج اللحوم الحمراء من ٣٧٥ ألف طن إلى حوالي ٥٥٠ ألف طن كما ارتفع إنتاج الدواجن من ٢٤٠ ألف طن عام ١٩٨٢ إلى حوالي ٦٨٠ ألف طن وبالتالي أمكن سد الفجوة في اللحوم البيضاء وكذلك ارتفع إنتاج البيض من ٣,٤ مليار بيضة الى ٦,٨ مليار بيضة والألبان من ١,٨ مليون طن إلى ٣,٦ مليون طن.

٧ - من خلال التعرف على أعداد الوحدات المنتجة في مجال الألبان في مصر وإنتاجها ومقارنتها بتلك الموجودة في الدانمارك على سبيل المثال نجد أن أعداد الماشية في مصر تبلغ حوالي ٦,٢ مليون رأس تعطي إنتاجا سنويا حوالي ٣,٦مليون طن لبن بينما عدد الوحدات المنتجة في الدانمارك ١,٥ مليون رأس تعطي ٥,٥ مليون طن لبن، سنويا ويتضح من هذه المقارنة مدى انخفاض الكفاءة الإنتاجية للوحدات المنتجة في مصر (١٢٠٠ كجم لبن سنويا في الجاموس ، ٨٠٠ كجم لبن سنويا في الأبقار) .

٨ - تختلف القيمة الغذائية للبروتين تبعاً لأنواعه حيث تبلغ نسبة البروتين الحيواني في لحم الدجاج حوالي ١٩,٨٪ ممثلة أعلى نسبة من البروتين الحيواني بينما تبلغ في لحوم الأبقار ١٧,٥٪ ولحم الضان ١٥,٧٪ والبيض ١٣,٤٪ ولبن الجاموس ٤,٧٪ ولبن الأبقار ٣,٤٪ ولبن الأغنام ٦,٧٪ .. وهناك فارق ملحوظ في متوسط نصيب الفرد في مصر من البروتينات ذات الأصل الحيواني بالمقارنة بالدول المختلفة مع وجود اختلاف كبير داخل الدولة الواحدة نتيجة للتفاوت في الدخول.

هناك عوامل مساعدة على انتقال أمراض الحيوان كما ذكرنا مثل البعوض والطيور المهاجرة والهواء وعن طريق زيادة سرعة الرياح . وعلى سبيل الأمثلة لا الحصر حيث ظهر بأمريكا مرض الطاعون الأمريكي عام ١٦٤٧ وهو مرض انتقل خلال تجارة العبيد مع أفريقيا وعرف بمرض الحمى الصفراء (yellow fever) الذي ينتقل عن طريق البعوض، كما ظهرت حالات حمى الدنج (dengue fever) في آسيا وأفريقيا وشمال أمريكا عام ١٧٧٩ - ١٧٨٠ وأصبح المرض عام ١٩٩٦ متوطناً في حوالي ١٦ دولة في أمريكا الجنوبية كما اكتشف عام ١٩٣٠ أن البعوض ينقل إلى الإنسان والحيوان حمى الوادي المتصدع الذي ظهر في اليمن والسعودية أخيرًا (Rift Valley fever).

وكان للبعوض دور أيضًا في نقل أمراض أخرى مثل مرض حمى غرب النيل(west Nile Fever) كما ينقل البعوض ديدان النيماتودا التي تسبب بعض أنواع داء الفيل في الإنسان والحيوان ولا ينقل البعوض مرض نقص المناعة المكتسبة (AIDS) لهضم فيروس المرض في معدة البعوض. وتلعب الحشرات دورًا أقل خطورة في نقل بعض الأمراض للإنسان مثل حمى الثلاثة أيام في الإنسان (مثل ذبابة الرمل) ومرض القلب المائي(مثل القراد) كما تنقل أيضًا أمراضًا غير فيروسية للإنسان مثل الطاعون (البراغيث) والتيفوس(بواسطة القمل)ومرض النوم (ذباب التسي تسي).

وتنتشر العدوى عن طريق البعوض إما أفقياً(Horizontal) بالطريق المباشر من حيوان أو إنسان لآخر أو العكس ويحدث ذلك في معظم الأمراض التي ينقلها البعوض أو رأسياً (vertical)حيث ينتقل الفيروس للبيضة (Trans- Overian - Transmission) ومن خلال ذلك تظهر أجيال جديدة من البعوض بعد فقس البيضة حاملة مسبب المرض علماً بأن البيضة يمكن أن تقاوم الجفاف لمدة سنوات (مثل بعوضة أيدس وحمى الوادي المتصدع) ويحتوي لعاب البعوضة على مانع للتجلط (Anticoagulalant) حتى لا يتجلط الدم أثناء سحبه من جسم العائل وأخرى موسعة للأوعية الدموية (Vasodilator) حتى تضمن وصول الدم إلى مكان اللدغة وتضع الإناث لعابها على جسم العائل قبل اللدغ مما يسبب التهاب الجلد خاصة عند بعض الأفراد ذوي الحساسية العالية التي قد تصل إلى ورم واحمرار الجلد وألم شديد . واللعاب له دور كبير في نقل المرض وانتشاره عن طريق البعوض الحامل للميكروب والموجود أصلاً في الغدد اللعابية للبعوض إلى العائل أثناء سحب الدم . ويعتمد البعوض كثيراً على عوامل البيئة المختلفة في حياته مثل الأمطار والفيضانات والرياح والجفاف.

وكما ذكرنا فإن حمى الوادي المتصدع مرض فيروسي ينتقل عن طريق الحشرات وظهر لأول مرة قرب بحيرة نيفاشا بمديرية الوادي المتصدع بكينيا عام ١٩١٢ - ١٩١٣ . وفي عام ١٩١٣ قام العالمان د. هدسون ديبني وجرنهام بعزل المسبب المرضي من الحيوان والإنسان وظهر المرض لأول مرة في مصر عام ١٩٧٧ حيث ظهر الوباء فجأة في محافظة أسوان وانتشر في محافظات الوادي والدلتا عام ١٩٧٨ محدثاً خسائر في الثروة الحيوانية نتيجة نفوق الحملان والأغنام والأبقار والجاموس علاوة على حالات الإجهاض في هذه الحيوانات، بالإضافة إلى الإصابات الآدمية التي قدرت بحوالي ١٨٠٠٠ مصاب توفي منهم ٥٩٨، وقدرت الخسائر في الثروة الحيوانية بحوالي ٨٢ مليون جنيه، ولكن انحسر المرض واختفى وذلك نتيجة الجهود التي تبذلها وزارة الزراعة ممثلة في الهيئة العامة للخدمات البيطرية والمعاهد البحثية البيطرية التابعة لمركز البحوث الزراعية في التشخيص والمقاومة عن طريق استعمال اللقاح المحور المستضعف لتحصين الحيوانات. واحتمالية ظهور المرض أو عودة ظهوره ترجع إلى ورود الفيروس في دم الجمال المستوردة من السودان (الفيروس كامن في الجنين المجهض من الناقة) أو ورود الفيروس مع الحشرات الطائرة من المناطق الموبوءة عن طريق التيارات الهوائية العلوية من أفريقيا إلى الشرق الأوسط وشرق آسيا (لذا وسائل الإنذار المبكروالاستشعار عن بعد أحدث الوسائل المهمة لاتخاذ الإجراءات الوقائية حيث بدأ ظهور المرض في السعودية واليمن عام ٢٠٠٠) أو وصول مريض آدمي في فترة الحمى من السودان أو أي مكان موجود بمرض حمى الوادي المتصدع بأفريقيا كما أن تواجد البعوض في المنخفضات حول السد العالي له دور كبير في نشر المرض.

وحيث طالعتنا شبكات التليفزيون العالمية وأجهزة الإعلام بأخبار ظهور مرض الحمى القلاعية، وهو مرض فيروسي يصيب الماشية عموماً ويعتبر ضمن مجموعة الأمراض المشتركة التي يمكن أن تصيب الإنسان أحيانًا. ولكنه في الحقيقة مرض قديم ظهر في إيطاليا سنة ١٥١٤ وما أن حل القرن التاسع عشر حتى شمل الوباء كل قارات العالم ولم يكن بمقدور المزارعين والمربين معرفة خطورة هذا المرض وذلك لقصر مدة الطور الحاد للمرض ولقلة الأعداد النافقة. ومع مطلع القرن العشرين اتضح مدى تأثير الإصابة بمرض الحمى القلاعية على الاقتصاد ويعد ذلك نقطة تحول في مقاومة هذا المرض . ورغم النتائج الإيجابية الناتجة عن تطبيق قوانين الذبح والتحصين والوقاية إلا أنه مازالت الحمى القلاعية تهدد اقتصاد العديد من البلاد التي تعتمد على مزارع تربية الماشية . بالإضافة إلى الخسائر المباشرة الناتجة عن نقص الإنتاج.

- ومن أهم هذه الخسائر التي يسببها مرض الحمى القلاعية :

١ - نقص معدل نمو الحيوانات حيث يتوقف لعدة أشهر .

٢ - نقص إنتاج اللحم واللبن والمنتجات الحيوانية الأخرى .

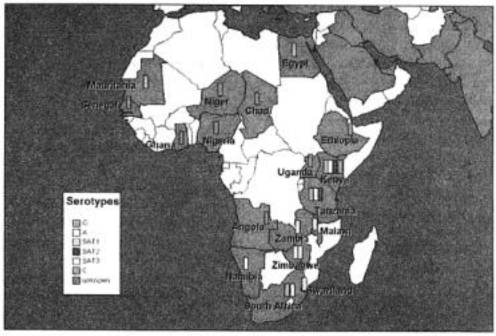
٣ - قلة الخصوبة في بعض الحيوانات .

٤ - نفوق نسبة من الحيوانات وخاصة الحيوانات صغيرة السن .

وينتشر المرض في معظم بلدان العالم المنتجة للماشية فيما عدا أمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى . استراليا . نيوزيلاندا، أندونيسيا . أيرلندا . شيلي . وجنوب الأرجنتين.

ومرض الحمى القلاعية مرض فيروسي سريع الانتشار يصيب الأبقار والجاموس والخنازير والأغنام والماعز والمجترات البرية، ويسببه فيروس من عائلة بيكورنيا جنس Aphthovirus ولفيروس المرض سبع عترات (أنواع) رئيسية ذات خواص مختلفة وذات درجات ضراوة متباينة، وقد لوحظ أن الإصابة أو العدوى بنوع واحد من العترات لا تعطي مناعة ضد العدوى بالعترات الأخرى، ولا توجد مناعة متبادلة بين هذه العترات أو تحت العترات المسببة للمرض .والحمى القلاعية من الأمراض المشتركة التي تصيب الإنسان أحياناً وخاصة الأطفال مسببة الحمى والقيء وظهور فقاقيع صغيرة على الشفتين واللسان وداخل الفم وأحياناً على الأيدي التي تستمر فترة قصيرة، حيث إنه من الفيروسات الضعيفة ونادرًا ما يصاب به الإنسان .

ولا يتأثر فيروس الحمى القلاعية بالمطهرات العادية أو الأساليب الشائعة لحفظ اللحوم كما لا يتأثر بالكحول والإثير ومذيبات الدهون الأخرى، ويساعد الجليسرين على احتفاظ الفيروس بحيويته خاصة إذا مزج بمحلول يمنع زيادة معدلات الحموضة حيث إن الفيروس أكثر تأثراً بالحموضة ويظل الفيروس حياً في الأدوات الملوثة لمدة ستة أسابيع وعلى الملابس والأغذية لمدة أسبوع وفي الشعر لمدة شهر وفي نخاع العظام الطويلة للحيوانات المذبوحة أو النافقة لمدة شهور نظراً لعدم تعرضها للحموضة التي تنشأ في الأنسجة كما يستمر الفيروس حياً في اللبن المبرد لمدة ٦ أيام عند درجة ١٨°م ولمدة ١٥ يومًا عند درجة ٤°م ويقضى على



خريطة تبين الموقف الوبائي للحمى القلاعية بأنواعها المختلفة بأفريقيا

الفيروس في درجة تركيز هيدروجيني PH6.7 بينما يثبط الفيروس في اللبن إذا تعرض لدرجة ٥٦ درجة مئوية لمدة سبع ثوان أو لدرجة ٨٠ درجة مئوية لأقل من خمس ثوان فإنه يقضي على الفيروس تماماً ويظل الفيروس حياً في اللبن المجفف لمدة سنتين وفي الجبن لمدة تزيد على شهرين.

وفيما يتعلق بطرق الإصابة بالمرض، فهي تنتقل بطريقة مباشرة نتيجة ملامستها للمواد الملوثة بالفيروس، وفي أماكن تجمعها بواسطة استنشاق الفيروس المنبعث من اللعاب أو من إصابات القدم أو عن طريق اللبن الملوث والبول والبراز أوعن طريق وسائل النقل المختلفة والأدوات وأكياس العلائق الملوثة كما يتلوث الهواء عند وجود حيوانات مصابة بالمرض عن طريق الجهاز التنفسي.

ويبقى فيروس الحمى القلاعية لمدة طويلة في هيكل الحيوانات المصابة وكذلك في الغدد الليمفاوية وداخل النخاع، وتظل الحيوانات النافقة حاملة لفيروس الحمى القلاعية لمدة طويلة وتكون مصدراً للعدوى بالمرض.

وتتراوح مدة الحضانة في مرض الحمى القلاعية من أربعة أيام إلى عشرين يوماً حسب ضراوة الفيروس ومقاومة الحيوان ولا يكتسب الحيوان بعد الإصابة بمرض الحمى القلاعية لأول مرة مناعة تستمر مدى الحياة ولكن يكتسب الحيوان مناعة لمدة حوالي سنة وضد نفس العترة التي أصيب بها، كما يكتسب النتاج حديث الولادة مناعة سلبية عن طريق السرسوب إذا كانت الأم ذات مناعة ناشئة من عدوى طبيعية أو عن طريق التحصين.

ومن بين أعراض المرض ارتفاع في درجة الحرارة وظهور حويصلات حول الفم والخد واللثة واللسان والقدم وعلى الأظلاف، ويسيل اللعاب بشدة من الفم ويصل حتى الأرض على هيئة خيوط فضية. كما يصاب الحيوان بالعرج وعدم المقدرة على المشي نتيجة ظهور الحويصلات بين الأظلاف.

وفي الدول المتقدمة التي لا يتوطن فيها الفيروس يتم استئصال المرض والسيطرة عليه عن طريق التخلص من الحيوانات المصابة وما يخالطها من حيوانات قابلة للعدوى بمرض الحمى القلاعية بالذبح والإعدام مع اتخاذ الإجراءات الصحية اللازمة. كما يحدث في إنجلترا الآن. ونظراً لأن الإمكانيات المحلية لا تساعد في اتباع مثل هذا الأسلوب لذا تتلخص الإجراءات المحلية في مقاومة المرض بعدم استيراد ماشية أو أغنام حية أو لحومها أو الألبان ومنتجاتها إلا من المناطق الخالية تماماً من الحمى القلاعية لمدة ستة شهور سابقة على التصدير على الأقل وذلك منعاً لتسرب عترات أخرى للفيروس إلى البلاد وطبقاً لتعليمات مكتب الأوبئة الدولي بباريس (OIE).

كما تتخذ إجراءات بيطرية صحية تهدف إلى القضاء على الفيروس في الموقع المصاب ومنع انتشار التلوث خارجه بالوسائل الآتية:

(ا) عزل الحالات المصابة في مكان بعيد ومنع اختلاطها مع الحيوانات القابلة للعدوى، عدم انتقال الأفراد المكلفين برعايتها إلى حظائر الحيوانات السليمة.

(ب) قطع الأرضيات الترابية والتخلص الصحي من علائق ومخلفات الحيوانات المصابة بالتطهير والحرق والدفن.

(ج) التطهير بالمطهرات المناسبة بمجرد الاشتباه لسرعة التحكم في مصدر العدوى ومنع انتشاره.

(د) عدم إدخال حيوانات جديدة في موقع سبق تعرضه للعدوى إلا بعد إخلائه وتنظيفه وتطهيره وتدخل الحيوانات بالتدريج.

وتتخذ وزارة الزراعة ممثلة في الهيئة العامة للخدمات البيطرية للسيطرة على المرض عددًا من الإجراءات من بينها:

١ - تحصين جميع الحيوانات (أبقار، جاموس، أغنام ، ماعز) على مستوى الجمهورية دورياً (كل ٤ شهور لماشية اللبن أو كل ٦ شهور للتسمين).

٢ - ثم جمع عينات سيرم من الحيوانات المحصنة قبل وبعد التحصين للاطمئنان على المستوى المناعي.

هناك أمراض أخرى مثل حمى غرب النيل وهو مرض يصيب الطيور البرية ويسبب التهاب المخ وأحيانا النخاع الشوكي، ويسببه فيروس من الفيروسات التي تنتقل عن طريق الحشرات ولا ينتقل المرض بالطريق المباشر بل ينتقل عن طريق لدغ البعوض ويصيب المرض الإنسان وبعض الحيوانات خاصة الخيول عرضياً. ويشمل تاريخ المرض اشتراك خمسة عناصر؛ ثلاثة منها أساسية [الفيروس - البعوض - الطيور] واثنان عرضيان (الإنسان والحيوان).

ومن حيث الطيور هي العائل الرئيسي بالمرض خاصة الطيور المائية وقد تم رصد أكثر من ٧٠ نوعا من الطيور التي تقوم بنقل فيروس المرض مما يؤكد أهمية دور الطيور المهاجرة في نقل المرض كما تلعب الطيور دور الخازن أو الحامل الأساسي للفيروس. ومن هنا نؤكد على أهمية دور المسح الشامل للطيور المهاجرة والمحلية للاكتشاف المبكر للأمراض كإحدى وسائل الإنذار المبكر لتوقع حدوث الأمراض الوبائية.

وأخيرا نتيجة لسلوك الإنسان وتغييره لطبيعة الحيوان من التغذية النباتية إلى إضافة مسحوق البروتين الحيواني المصنع من مخلفات الحيوانات النافقة والأغنام المريضة بمرض الحكة ومخلفات السلخانات، مما أدى إلى ظهور مرض جنون الأبقار أو مرض الاعتلال المخي الإسفنجي بالأبقار الذي يؤدي إلى ظهور أعراض عصبية بالحيوان نتيجة حدوث فراغات بالخلايا العصبية وحدوث شلل كامل ورقود الحيوان على الأرض نتيجة تلوث الغذاء بالبريون المعدي لمرض جنون الأبقار.

ولم تسجل رسميًا أي حالة مرضية لمرض جنون البقر في مصر، وذلك من خلال العينات التي وردت لمعهد بحوث صحة الحيوان وتوجد إمكانيات معملية وعلمية بمعهد بحوث صحة الحيوان التابع لمركز البحوث الزراعية لتشخيص المرض، بينما المطلوب علميًا إجراء مسح شامل لظاهرة الأعراض العصبية بالأبقار وذلك حسب توصيات مكتب الأوبئة العالمي بباريس (OIE) لتسجيل وتصنيف أن مصر خالية من مرض جنون البقر. وهذا التسجيل يجعل مصر مركزاً لإنتاج الجيلاتين والشحوم الحيوانية وبعض المنتجات الدوائية التي يمكن تصديرها لدول العالم.

ثم نستعرض مرضًا آخر وهو مرض نتيجة عوامل بيئية واجتماعية واقتصادية

ثبت أن السل يقتل الكثير من الشباب اليافع والبالغ وهو قاتل أكثر ضراوة من الملاريا والإيدز معا .. وبينما يقتل من النساء أكثر مما تسببه عمليات الولادة والإجهاض فهو يقتل أيضا حوالي مائة ألف طفل كل عام . ولعل ذلك وغيره مما دفع منظمة الصحة العالمية لاتخاذ خطوة غير مسبوقة عام ١٩٩٣ عندما أعلنت أن السل مرض عالمي

رغم شهرته الواسعة
كمرض يرتبط بالأوضاع
الاجتماعية ونظم المعيشة من غذاء
وسكنى ونظافة وأنماط عمل وسلوكيات ..
فقد خيل للعالم خلال العقدين الأخيرين
بفعل ارتفاع مستويات المعيشة والدخول
والتقدم الطبى والعلمى عامة،
أن الدرن أو السل يودع عالمنا
إلى غير رجعة

وسلوكيات الإنسان الا وهو مرض الفقراء أى مرض السل.

فرغم شهرته الواسعة كمرض يرتبط بالأوضاع الاجتماعية ونظم المعيشة من غذاء وسكنى ونظافة وأنماط عمل وسلوكيات .. فقد خيل للعالم خلال العقدين الأخيرين بفعل ارتفاع مستويات المعيشة والدخول والتقدم الطبى والعلمى عامة، أن الدرن أو السل يودع عالمنا إلى غير رجعة .

ونظرة إلى ما يبث حاليا فى جنبات الدنيا الأربعة تكشف لكل ذى بصيرة خطورة الموقف وحتمية التكتل لعمل شيء حقيقى ... فقد ثبت أن السل يقتل الكثير من الشباب اليافع والبالغ وأكثر من أى مرض معدٍ آخر فى العالم الآن . هو قاتل وأكثر ضراوة من الملاريا والإيدز معا .. وبينما يقتل من النساء أكثر مما تسببه عمليات الولادة والإجهاض فهو يقتل أيضا حوالى مائة ألف طفل كل عام . ولعل ذلك وغيره مما دفع منظمة الصحة العالمية لاتخاذ خطوة غير مسبوقة عام ١٩٩٣، عندما أعلنت أن السل مرض عالمى ... يثير قلق البشرية ويهددها ... ومن ثم يستوجب إعلان حالة الطوارئ الدولية .وتوقعت انه من الآن وحتى عام ٢٠٢٠ - سيصاب أكثر من بليون شخص جديد بهذا الداء وسوف يسقط مائتا مليون منهم مرضى ، بينما سيقضى نحبهم نحو سبعين مليونا منهم، ما لم يتحرك العالم ويتم اتخاذ إجراءات وقائية ناجحة ...

وبالنسبة لفرص المرض فى الدول النامية - فحدث ولا حرج - حيث تدفقت المعلومات من كل صوب، لتؤكد أن عام ١٩٩٨ شهد مصرع أعداد لم يشهدها عام آخر عبر التاريخ بسبب السل .

كما تؤكد حدوث فورة جديدة من المرض الآن فى شرق أوربا حيث تتسارع أعداد الوفيات وتتضاعف بعد أربعين عاما من تجمد الموقف الوبائى للسل فى تلك المناطق ... وأشارت الأرقام فى خوف إلى أن اكبر معدلات الوفيات سوف تتركز فى جنوب شرق آسيا ..

وعن الدول النامية مازال سيل الأرقام يتدفق .. حيث يقتل السل من ٢ - ٣ ملايين شخص كل عام. وأنه قد ثبت ازدياد الإصابة بنسبة ١٣٪ بين عامى ١٩٩٣ - ١٩٩٦ وأن حوالى مليونى حالة سنويا من المصابين بالسل تحدث بين سكان جنوب الصحراء الكبرى بأفريقيا، وحوالى ٣ ملايين حالة سنويا فى جنوب شرق آسيا ، وأكثر من ربع حالات الإصابة تحدث فى شرق أوربا .ويبدو انه حتى فى أوقات الخطر - لا ينسى البعض انحيازاته النوعية .. فقد أثارت وسائل الإعلام المعنية بشئون المرأة ضجة بالغة بعد اجتماع خبراء السل العالميين تحت مظلة منظمة الصحة العالمية مؤخرا فى السويد حيث حذرت العالم من خطر السل ... ذلك الطاعون الجديد ... الذى أصبح السبب الأول فى وفيات النساء ما بين ١٥ و ٤٤ عاما وأن ٩٠٠ مليون فتاة وسيدة قد أصبن بميكروب الدرن وينتظر أن تظهر الأعراض على ٢,٥ مليون منهم خلال العام الحالى . وسوف تلقى أكثر من مليون امرأة حتفها بسبب تأثر جهازها المناعى بهذا المرض المعدى .. وتؤكد تلك الأجهزة على وفاة ٧٠٠ ألف امرأة فى آسيا عام ١٩٩٧ مقابل ٣٩٠ ألف امرأة فى أفريقيا ، ٦٦ ألف سيدة فى القارة الأمريكية ، ٥٠ ألف حالة من النساء والشابات فى دول أوروبا الشرقية فى عام ١٩٩٧ .

وتنهى أجهزة ضخ المعلومات العالمية بياناتها التى لن تنتهى بسهولة بعدة ثوابت تؤكدها الخبرات المتراكمة حيث تقول إن أسلوب حركة وتنقلات الأشخاص على المستوى الفردى والإقليمى والعالمى تؤدى إلى ازدياد الإصابة بالمرض ، كما أن حالات فقدان المناعة المكتسبة تزيد ارتفاع معدلات الإصابة ، وأخطر من ذلك فإن البرامج المعدة لمكافحة المرض والتى تتميز بسوء الإدارة تجعل من المرض مرضا غير قابل للشفاء ولأن السل مرض مشترك بين الإنسان والحيوان فلعل هذه العجالة تمثل قطرة فى محيط مواجهة هذا الخطر الداهم ، ودافعا لمزيد من الفعل الجاد للتصدى له .

ونظرا لما سلف ذكره، فهناك دور لابد أن تنهض به وزارة الزراعة لتعظيم الإمكانيات الذاتية والنهوض بالثروة الحيوانية وذلك لسد الفجوة الغذائية للإنسان والحيوان من خلال مقاومة الأمراض الوبائية للحفاظ على الثروة الحيوانية وحماية الإنسان بمصرنا الحبيبة. ■



«موسوعة الأدب العربى»
بين نبل الهدف وقصور الجهد

صــــبــــرى حـــافـــظ

لاشك أن صدور هذه الموسوعة الأدبية الجديدة والفريدة معا عمل مهم وضرورى إلى أقصى حد. ومبادرة رائدة تستحق الثناء عليها والاعتراف بقيمتها كمبادرة ثقافية مهمة بسبب تنامى الاهتمام بالأدب العربى فى العالم الناطق باللغة الإنجليزية، بل فى العالم أجمع. لأن اللغة الإنجليزية أصبحت من اللغات المتاحة بقدر لابأس به من اليسر والسهولة لكل الباحثين فى شتى بقاع العالم. ولأن صدور موسوعة للأدب العربى فى هذه اللغة له أهمية صدور عدة موسوعات فى نفس الحقل المعرفى بلغات أوروبية أو غير أوروبية عديدة. فالموسوعات الكبيرة من هذا النوع، ليست مجرد أداة من أدوات البحث، وهى كذلك فى المحل الأول، ولكنها أداة لتنظيم المعرفة فى الحقل الذى تتناوله، ولنشر المعلومات الدقيقة عنه، بصورة تتيح لقارئها أو مستخدمها أن يمحص معرفته عن أى عمل يقرأه أو كاتب يصادف اسمه فى مقال ما، وأن يموضع كلا منهما فى سياق ثقافته، وضمن تطورها التاريخى والمعرفى. وهى فضلا عن هذا كله اعتراف ثقافى بأهمية الحقل الذى تخصص الموسوعة لتغطيته، وتكريسه كحقل معرفى جدير بأن تكون له موسوعته. لأن تأليف الموسوعة يتطلب قدرا من الاستثمار المادى والمعرفى لا يقبل الناشرون على الاستثمار فيه إلا بعد اقتناع بجدارته بهذا الاستثمار، وبأن مردود الاستثمار المادى والمعرفى فى هذا الحقل مضمون إلى حد ما.

وقد أصابت هذه الموسوعة من هذه الناحية الأولية فى تحقيق أهدافها. إذ رسمت حدود المجال المعرفى الذى تغطيه، وبرهنت على أهميته وحيويته وثرائه. وقدمته كحقل معرفى متماسك، له استمراريته التاريخية، برغم تباينات أجناسه ومراحله ومناطقه الجغرافية. وفضلا عن هذا كله تعد هذه الموسوعة عملاً مهمًا لأن الأعمال التى تنتمى لصناعة الثقافة الثقيلة من هذا النوع نادرة لما تحتاجه من استثمار وجهد كبير. تقوم به الدول أو المنظمات الكبرى فى كثير من الأحيان، ولكن الذى اضطلع به فى هذه الحالة ناشر إنجليزى خاص دون أى عون من المؤسسات العربية أو غير العربية. وهى عمل مهم وطموح. ثالثا لأن هذه هى المرة الأولى، لا فى اللغة الإنجليزية وحدها، بل فى اللغة العربية ذاتها، التى نعثر فيها بين دفتى كتاب واحد كما تقول مقدمة الموسوعة على «أهم الكتاب، والأعمال، والأجناس الأدبية، والمصطلحات الأدبية الرئيسية، والموضوعات المهمة فى التراث الأدبى العربى منذ العصر الجاهلى وحتى العصر الحديث مرورا بكل مراحل هذا الأدب القديمة والوسيطة».

وهذا فى حد ذاته عمل جليل ونبيل. لأنه ينطلق من مصادرة أساسية بوحدة الثقافة العربية فى عصورها القديمة والوسيطة والحديثة. وبوحدة الأدب العربى واستمراريته التاريخية والموضوعية معا، باعتباره التعبير الأدبى عن ثقافة واحدة، وليس عن ثقافات متعددة. وهى مصادرة على درجة كبيرة من الأهمية وتستحق الكثير من التقدير، خاصة ونحن نعرف أن التصور السياسى الغربى للعالم العربى يسعى لتأكيد عدم وحدته من

Encyclopedia of Arabic Literature (two volumes)

(موسوعة الأدب العربي «مجلدان»)

Edited by Julie Scott Meisemi, Paul Starkey

London, Routledge, 1998, 857pp.

النواحي التاريخية والجغرافية والقومية على السواء، منذ كانت «فرق تسد» هي أداة الاستعمار القديم للحكم، وحتى أصبحت الزراية بالتاريخ العربي وبتصور العربي لهويته وقوميته ووحدته هي أداة الاستعمار الأمريكي الجديد للسيطرة على واقعنا العربي الراهن. وهو تصور يحرص على إبراز التناقضات العرقية والإقليمية والثقافية لا داخل المنطقة العربية الكبيرة فحسب، وإنما داخل حدود القطر العربي الواحد كذلك.

ويعلن محررا الموسوعة في مقدمتهما لها أن النموذج الذي نسجا على منواله، وتوخيا الاقتراب من إنجازه في تأليف هذه الموسوعة هو نموذج سلسلة معاجم أوكسفورد الشهيرة المعروفة بـ Oxford Companion التي قدمت عبرها مؤسسة نشر جامعة أكسفورد العريقة موسوعاتها الميسرة للأدب الإنجليزي وغيره من الآداب الكلاسيكية القديمة إلى الأدب الفرنسي أو الألماني أو الإيطالي أو الأمريكي، وكذلك من الفنون العديدة من موسيقى ومسرح وفن تشكيلي. ولأنني من الذين يستعملون هذه المعاجم الأوكسفوردية الشهيرة، ومن المعجبين بمنهجها الموسوعي الذي جعلها أدوات لا غنى عنها للباحثين في كل اللغات والثقافات، فقد قررت استخدام هذه الموسوعة الجديدة لعام قبل الكتابة عنها. فمحك الحكم على الموسوعات ليس قراءتها أو تصفحها، لأنه ليس بطاقة أحد أن يقرأ موسوعة مهما كانت درجة فراغه، ونحن نعيش في عالم يتآكل فيه وقت الفراغ باستمرار. كما أن التصفح وحده، لن يمكن الباحث من اكتشاف مزايا الموسوعة وعيوبها. فالموسوعات أولا وأخيرا أدوات للبحث والمعرفة، قبل أن تكون كتبا للقراءة والإطلاع. وكلما استخدمت هذه الموسوعة وطال أمد استخدامي لها كلما اكتشفت المزيد من نواقصها وتناقضاتها وعيوبها، وكلما أدركت عجزها عن تلبية كثير من الحاجات المعرفية التي صدرت من أجل سد النقص فيها.

ومن البداية نجد أن إشارة المحررين إلى أنهما نسجا في موسوعتهما على منوال المعاجم الأوكسفوردية الشهيرة تستدعي من مراجع هذه الموسوعة مقارنتها بها. وهي مقارنة سرعان ما تخرج منها هذه الموسوعة خاسرة، لأن زعمهما بالنسج على منوال المعاجم الأكسفوردية الشهيرة ليس إلا تعبيرا عن طموح قصر الجهد عن الاقتراب من مشارفه. فليس لها سعة المجال، ولا اتزان الحكم، ولا دقة تمحيص المادة التي نجدها مثلا في معجم أكسفورد للأدب الإنجليزي Oxford Companion of English Literature أو الأدب الفرنسي أو الأدب الأمريكي. فقد أسندت أكسفورد مثلا تحرير الطبعة الجديدة من معجمها للأدب الإنجليزي إلى واحدة من أنشط الفاعلين في الحقل الثقافي الإنجليزي وهي الروائية والناقدة الإنجليزية مارجريت درابل. فلابد للطبعة الجديدة، وهي تبنى على تراث قديم ترسخت فيه إنجازات القرون السابقة، من أن تواكب جديد الأدب الإنجليزي ورصينه معا. لذلك حظي الجهد الذي بذلته درابل في مواكبة حركة الأدب الإنجليزي في القرن العشرين بشمول ورصانة بإطراء النقاد والدارسين. وهو الأمر الذي لم تحققه للأسف هذه الموسوعة الجديدة عن الأدب العربي. لأنها لم تتمكن من تحقيق التوازن المطلوب في مثل هذه المراجع بين الشخصيات والأعمال والمصطلحات. والواقع أن الأدب العربي الذي يمتد لأكثر من خمسة عشر قرنا، ويغطي الإنتاج الأدبي لما يقرب من عشرين بلدا يستحق أن تكرس له أحد معاجم أكسفورد الشهيرة تلك، لا أن تكون موسوعته ضمن مشروعات ناشر جديد في هذا المجال مثل دار نشر روتليدج Routledge النشيطة.

والواقع أن هذه الموسوعة، بالرغم من صدورها في جزءين، إلا أنها أقصر من حيث عدد الصفحات، مع تجاوز صفحاتها الثمانمائة صفحة، من أي من تلك الموسوعات الأكسفوردية التي كرست لأدب بلد واحد وثقافة واحدة. ومع ذلك فلابد من أن نحيي بداءة هذا الجهد العلمي الذي جاء ليسد فراغا حقيقيا في المكتبتين العربية والغربية. وأن نشيد به وبما بذله القائمون عليه من جهد. وبعد هذه التحية الواجبة لابد من التأكيد على أن هذه الموسوعة تعاني من الخلل الشديد، ونقص المادة، وغياب الكثير من الشخصيات والأعمال والمصطلحات عنها. ولكن عذرها أنها عمل رائد في هذا المجال، ولذلك فقد عانت من عثرات الأعمال الرائدة والأولى. ويبلغ ضعف الموسوعة وما بها من خلل وتخليط ذروته في تغطيتها للأدب الحديث. ذلك لأن هناك موسوعات أخرى في الثقافة الغربية سبق لها أن غطت، وبمزيد من التوسع والإحاطة، الأدب العربي القديم، من (دائرة المعارف الإسلامية Encyclopaedia of Islam) الشهيرة والتي تتوافر في أكثر من لغة أوروبية ومنها العربية إلى (قاموس الآداب الشرقية Dictionary of Oriental Literatures) وهي موسوعات ساهمت في دعم تغطية الجانب المتعلق بالآداب العربية القديمة والوسيطة في الموسوعة وإقالة الكثير من عثراته والتغلب على نواقصه. وهو الأمر الذي لم يتوافر في الأدب العربي الحديث الذي يعاني بحق من غياب المراجع الموسوعية عنه. فضعف الموسوعة في مجال الأدب الحديث هو ابن التواريخ الاستشراقية القديمة التي استمرأت لأمد طويل الزعم بأن الثقافة العربية هي ثقافة حضارة قديمة درست، ولم يعد لها في حاضرها ما يستحق الاهتمام، ولذلك على الدارس الاكتفاء بمعرفة قديمها وحده. وهو زعم كرس تجاهل هذه الثقافة للأدب الحديث وجهلها الفاضح به لعقود طويلة. وأعفى كثيرًا من المستشرقين من التمكن من اللغة العربية، أو تكبد مشاق الحديث بها. فهي كاللغة اللاتينية عندهم ماتت منذ انهيار الإمبراطورية الرومانية ولم يعد أحد يتحدث بها.

والواقع أن المحررين يعبران في مقدمتهما عن وعيهما بما تنطوي عليه الموسوعة من خلل، ويقدمان اعتذاراتهما المسبقة في هذا الشأن حينما يقولان إن «من الحتمي في مطبوعة من هذا الطراز أن تكون هناك بعض الفجوات. وقد كانت بعض هذه الفجوات حتمية بالطبع إذ نجمت عن ضرورة ألا يتجاوز حجم الموسوعة عددا معينا من الصفحات. أما في بعض الحالات الأخرى فقد تم للأسف التخلي عن مواد كانت موجودة في قائمة المحررين الأصلية، عندما أخفقنا في العثور على كتاب يستطيعون الكتابة عنها بكفاءة، أو يقبلون الكتابة ضمن الفسحة الزمنية المتاحة. وفي بعض الحالات الأخرى، وهي لحسن الحظ قليلة، فإن من وعدونا بتقديم مواد محددة لم يفوا بوعودهم، ولم يتح لنا بعد تقاعسهم الوقت الكافي لتكليف غيرهم بكتابتها. أما الجانب الآخر لهذا كله، فقد ظهرت بعض المواد التي قد يجدها أغلب القراء غريبة أو مستهجنة أو غير متوقعة، لأن بعض من كلفوا بالكتابة للموسوعة تطوعوا بتقديمها لنا لحماسهم لها، وقد كانت هذه المواد شيقة إلى الحد الذي لم نستطع معه رفضها».

والواقع أن الباحث ما أن يستخدم هذه الموسوعة لفترة من الزمن حتى يكتشف أن هذا ليس مجرد تكرار للاعتذار التقليدي والضروري لتواضع العالم وحيطته في عمل بهذا الحجم وبهذا الطموح، ولكنه اعتذار يثير العديد من التساؤلات حول مدى صرامة سياسة تحرير هذه الموسوعة المهمة ومدى عشوائيتها. بل يوشك أن يكون تعبيرا عن السياسة التحريرية للموسوعة، وعن المبادئ الحاكمة لإنتاج مادتها، وليس مجرد اعتذار عن تجاوز المطامح عادة للإنجازات. لأن الباحث الملم بهذا الحقل المعرفي سرعان ما يكتشف أن أهم عيوب هذه الموسوعة هو افتقارها للصرامة التمحيصية التي هي السمة الأساسية، بل التعريفية، للموسوعات. فالصرامة والدقة وتحرير المادة والقصد هي رديف كلمة موسوعة في اللغة، ونظيرها في المفهوم. والغريب أن هذا التخبط يرافقه ما يمكن دعوته بالتحيزات الاستشراقية الواضحة. وهي مفارقة مؤسية، لأن الاستشراق القديم، كان برغم تحيزاته الجائرة يفاخر برصانة مادته ودقة معلوماته. وكانت هذه الرصانة العلمية القائمة على التمحيص والتحرير هي سمة هذا الاستشراق التي يستند عليها في تحقيق مشروعيته في الحقل المعرفي الذي يعمل فيه، بالرغم من التحيزات الأيديولوجية التي تحكم منطلقاته.

وتكشف هذه التحيزات الاستشراقية عن نفسها في ميل الموسوعة للأدب القديم والوسيط على حساب الحديث. وقد اتسم الاستشراق القديم، ولعقود طويلة من الزمان، بالانطلاق من تصور مفاده أن العرب قوم كانت لهم حضارة قديمة وبادت، وأن على دارس ثقافتهم أن يتعامل معها باعتبارها ثقافة دارسة اندثرت منذ أمد بعيد، كما ذكرت. وكانت هناك بسبب هذا التصور الراسخ مقاومة كبيرة للأدب الحديث، لأن مجرد وجوده ينال من مصداقية هذا التصور الذي كان يخدم بالقطع تصورات استشراقية، ومازال. ولأن المعرفة قوة، ولأن للصورة السائدة عن ثقافة بعينها دورها في تكوين الاتجاه الغربي العام تجاهها، فإن لهذا التصور خطورته الثقافية والسياسية على السواء. فإن استقرار الاعتقاد بأن الثقافة العربية بادت ولا حاضر لها، ييسر كل ما يقترف في حق الواقع العربي والإنسان العربي من مظالم وآثام. كما أن انطلاق موسوعة من مثل هذا التصور، والموسوعات ذات عمر طويل نسبيا في أي ثقافة بالنسبة للعمر الفاعل لغيرها من التآليف، له دوره في تكريسه وإطالة أمد فاعليته في الثقافة الإنجليزية التي تعد مرجعا ثقافيا ـ بسبب سطوة اللغة الإنجليزية والقوة العظمى الأمريكية الناطقة بها ـ له تأثيره الكبير على صياغة الصورة المستقرة للعالم ولخريطة المكانات الثقافية فيه.

لهذا كله أعتبر هذا الخلل الأوليّ من أخطر سلبيات هذه الموسوعة. فإذا كانت موسوعات أكسفورد قد أوكلت لكاتبة معاصرة الإشراف على الطبعة الجديدة لمعجم الأدب الإنجليزي بها كما ذكرت، فإن هذا ابن وعي حاد بأهمية أن تبدو الثقافة الإنجليزية الطالعة من صفحات المعجم كثقافة حية ومعاصرة بل متجددة في المحل الأول. وهذا هو سبب تركيزي على دلالات هذا الخلل السلبية. لأن (موسوعة الأدب العربي)، على العكس من (موسوعة أكسفورد للأدب الإنجليزي) تكرس القسط الأكبر من صفحاتها للأدب القديم الذي ينال ثلثي صفحاتها، ولا يبقى للأدب الحديث إلا الثلث الأخير. وقد أدى هذا إلى تغطية أعلام الأدب القديم والوسيط،



تعد هذه الموسوعة عملاً مهمًا لأن الأعمال التي تنتمي لصناعة الثقافة الثقيلة من هذا النوع نادرة لما تحتاجه من استثمار وجهد كبير، تقوم به الدول أو المنظمات الكبرى في كثير من الأحيان، ولكن الذي اضطلع به في هذه الحالة ناشر إنجليزي خاص دون أي عون من المؤسسات العربية أو غير العربية

وأجناسه الأدبية المختلفة، بينما نجد أن تغطية أجناس الأدب الحديث وأعلامه تتسم بالفقر المدقع. والغريب أن الأدب الحديث أشد حاجة لمثل هذه الموسوعة من الأدب القديم الذى تتيسر للباحثين تغطيته فى المعاجم العربية والغربية على السواء، وأشهرها دائرة المعارف الإسلامية. ويمتد هذا التحيز إلى الجداول التاريخية المفيدة التى تنتهى بها الموسوعة (ص٨٣٥-٨٤١) والتى يبدو أنها تتوقف بشكل غامض عند القرن السادس عشر. أهى التصورات الاستشراقية القديمة عن أن حضارة العرب قد توقفت فى هذا الوقت، الذى انتقلت بعده السيادة للدولة العثمانية المشئومة؟ أهو تكرار جديد لانحطاط الثقافة العربية فى العصر العثمانى؟ والواقع أننا بحاجة إلى جدول تفصيلى للمرحلة الحديثة، وكل ما قدمته الموسوعة فى هذا الشأن هو قائمة بأسرة محمد على من حكام مصر، وهو أمر دال فى حد ذاته: أتقول لنا الموسوعة أن العصر الحديث فى مصر هو العصر الاستعمارى، وأنه ما أن تحررت مصر من أسرة محمد على ومن الاستعمار البريطانى معها حتى توقف تاريخها؟ أم أنها حدود المعرفة القاصرة؟ وما هو وضع بقية البلدان العربية فى العصر الحديث، بما فيها تلك التى وقعت فى ربقة الاستعمار؟ أين تواريخها فى الجداول التاريخية للموسوعة؟ وما هى دلالة هذا الصمت والغياب؟



يعلن محررا الموسوعة فى مقدمتها أن النموذج الذى نسجا على منواله، وتوخيا الاقتراب من إنجازه فى تأليف هذه الموسوعة هو نموذج سلسلة معاجم أوكسفورد الشهيرة المعروفة بـ Oxford Companion التى قدمت عبرها مؤسسة نشر جامعة أكسفورد العريقة موسوعاتها الميسرة للأدب الإنجليزى وغيره من الآداب

أما الجانب الآخر لهذا التحيز الاستشراقى فقد أسفر عن نفسه فى غلبة المستشرقين على الباحثين العرب فى تحرير هذه الموسوعة. لأن أغلب محرريها من المستشرقين الغربيين، وحتى العرب القلائل الذين نجد أسماءهم فى هذه الموسوعة، فإنهم من العاملين فى المؤسسات التعليمية، أو الاستشراقية الغربية. ولم يكلف المحرران نفسيهما عناء الاتصال بأى باحث يعمل فى أى جامعة عربية، إلا من قبيل ذر الرماد فى العيون، أو الاستثناء الذى يؤكد القاعدة. فقد شارك فى تحرير هذه الموسوعة، أو بالأحرى فى كتابة مواد لها ١٠٤ باحثين، ليس بينهم إلا ثلاثة يعملون فى جامعات عربية، وأحد هؤلاء الثلاثة مستشرق غربى يعمل فى جامعة السلطان قابوس بعمان. ويبدو أن هذا يتسق مع التصور الاستشراقى السقيم، ولا أريد أن أقول التصور الاستعمارى، بأن «أهل البلد الأصليين» Natives لا يستطيعون التعبير عن أنفسهم، أو تناول ثقافتهم بمنهج غربى متطور. وعندما توجه المحرران إلى الشرق الأوسط، فإنهما لم يذهبا إلى أى بلد عربى، ولم يتوجها إلى الجامعات العربية الكبيرة أو العريقة، وإنما إلى الدولة العبرية فى فلسطين المحتلة، حيث تعاملا مع كل من يعرف أدنى شىء عن الثقافة العربية، أو يلم ببعض قشورها وسفاسفها. وكانت المفارقة المؤسية الناجمة عن ذلك أن هناك سبعة مشاركين من مختلف الجامعات العبرية، ومشاركان فقط من كل الجامعات فى كل الأقطار العربية العشرين. وكان من الطبيعى أن تعانى المادة التى كتبها باحثون من الدولة الصهيونية فى فلسطين المحتلة من التخلف والقدم، إذ نجد أن بعضها قد تجاوزه الزمن بأكثر من ثلاثين عاما، كما هو الحال فى مادتى «قصيدة النثر» و«الترجمة» على سبيل المثال لا الحصر. والواقع أن غياب المشاركين من الجامعات العربية الرئيسة قد أضعف الموسوعة بشكل كبير، إذ حرمها من الباحثين القادرين على متابعة آخر التطورات فى الأدب العربى الحديث وملاحقة أحدث إصداراته وأكثر قضاياه حيوية وسخونة، فى هذا الميدان المعرفى الكبير الذى يتسم بالخصوبة وتلاحق الإصدارات. كما حرمها حتى من معرفة أبرز إنجازات الباحثين العرب فى مجال الأدب القديم والوسيط على السواء، فلانجد فى الموسوعة إشارة واحدة إلى أى من كبار محققى النصوص القديمة والوسيطة من الباحثين العرب من محيى الدين عبدالحميد ومحمود شاكر وأبوالفضل إبراهيم وعبدالسلام هارون وغيرهم.

وقد أعلنت الموسوعة أن هدفها هو أن تجمع فى «مجلد واحد أكثر الكتاب أهمية، وأهم الأعمال والأجناس الأدبية والمصطلحات الأساسية والقضايا». ومع أنها ظهرت فى نهاية الأمر فى جزءين لا فى مجلد واحد، فإنها أخفقت فى تحقيق هدفها المعلن ذاك. إذ نجد فيها الكثير من المداخل عن الكتّاب، أو بنسب تعبيرها «عن أكثر الكتاب أهمية»، ومن وجهة نظر محدودة وإشكالية بالطبع، ولكننا لانستطيع العثور فيها على «أهم الأعمال والأجناس الأدبية والمصطلحات الأساسية والقضايا». فليس فيها مدخل عن الرواية العربية، أو عن القصة القصيرة، بالرغم من أنه ليس ثمة نزاع فى أن كليهما من الأجناس الأدبية المهمة فى الأدب الحديث. ومع ذلك فثمة مداخل عن المسرح الحديث منه والوسيط، ومدخل عن القص بشكل عام. والمدخل الخاص بالمسرح الحديث كتبه أحد محررى الموسوعة، مما يعنى أنه واع بأهمية المسرح فى الأدب الحديث، وهو أمر يثير تساؤلا عن أسباب تجاهل الرواية والقصة القصيرة. هذا فضلا عن أنه ليس ثمة مدخل واحد عن أى عمل من الأعمال البارزة فى الأدب الحديث. فلم يحظ أى عمل من أعمال نجيب محفوظ الحاصل على جائزة نوبل فى الأدب بمدخل مستقل، ولا حتى ثلاثيته العظيمة (بين القصرين) و(قصر الشوق) و(السكرية). وهى أعمال ما كان ممكنا لموسوعة تتوخى أن تقتفى خطى معاجم أكسفورد الشهيرة أن تهملها. ويبدو أن الموسوعة تبلغ قارئها فى هذا المجال رسالة مضمرة، ولكنها بالغة الخطورة، وهى أنه ليس ثمة أعمال أو أجناس أدبية أو مصطلحات وقضايا جديرة بالذكر فى الأدب الحديث. وهى رسالة بالغة الخطورة والخطر فى آن.

وحتى المداخل التى تناولت الأعمال والأجناس الأدبية والمصطلحات والقضايا فى الأدب القديم والوسيط، فإنها لا تقدم لنا سياسة تحريرية تتسم بالاتساق ويحكمها منطق واحد. إذ تقرر مقدمة الموسوعة «أن هدفنا من تأليف هذه الموسوعة هو تقديم أحدث ما وصلت إليه الدراسات الجادة فى الأدب ما وسعنا الجهد، حيث سنعتمد على الدراسات الحديثة وليس على الرواسى القديمة التى استقرت عليها الدراسات التقليدية». ويبدو أن هذا الأمر لم يتحقق إلا فى حالات نادرة. لأن هناك الكثير من الحالات التى تبرهن على عكس ذلك كلية. فالمدخل الذى تقدمه الموسوعة عن (ألف ليلة وليلة) يتميز عن غيره من المداخل الكثيرة المشابهة بأنه يتناول تأثير هذا العمل الأدبى الكبير على الرواية الحديثة وعلى الشعر الحديث فى كل من العالم العربى وأمريكا فى العقود الأخيرة. وهذا هو الحال كذلك بالنسبة للمداخل التى تناولت النحو والنحاة والترجمة والمعاجم والتى تسعى للوصول بتغطيتها لمادتها إلى الزمن الحديث. لكن المدخل المتعلق بالمنتخبات anthologies وهى جنس أدبى راسخ يمتد من (المفضليات) فى القرن الثامن وحتى العصر الحديث، يقتصر بشكل غريب على المنتخبات القديمة وحدها، ويتجاهل المنتخبات الحديثة كلية، مع أن هذا النشاط الأدبى فى جمع المنتخبات لم يتوقف فى العصر الحديث منذ أن جمع محمود سامى البارودى مختاراته فى مطلع القرن وحتى الآن. وهذا هو الحال مع مداخل مثل الأمثولة، والإحالة، والتناص، والنثر الفنى، والأجناس الشعرية، والأدب الجغرافى، والخيال، والسيرة، والشروح، والارتجال، والأدب الفلسفى، وغيرها إذ تقتصر المعالجة فيها على القديم دون الحديث، حتى عندما يكون واضحا أن هذه الأجناس تمتد حتى العصر الراهن.

ومن المفارقات الغريبة فى هذا الصدد أن الموسوعة تكرس ثلاثة مداخل مختلفة للصوفية وآثرها، دون أن يتناول أى منها أثرها على الأدب العربى الحديث. ففى الشعر الذى أفردت له الموسوعة مدخلا خاصا حول الشعر الصوفى فإن هذا المدخل ينتهى عندها فى القرن السابع الهجرى بتأليف بردة البوصيرى دون أن يذكر شيئا بعد هذا التاريخ. ومع توسع الموسوعة نسبيا فى تغطية الشعر، وهو توسع يحمل ترسبات التاريخ الاستشراقى القديم لدراسة الأدب العربى والذى يعتبر أنه هو فن العرب الوحيد، لأنه فنهم القديم، فإن الموسوعة لم تجهد نفسها فى تتبع أثر النصوص الصوفية على الشعر الحديث، والذى لابد أن عددا من الذين تناولوه يعرفون مدى تأثير الصوفية لغة وقاموسا ورؤية، إلى حد استعارة بعض الشعراء المحدثين مفرداتها وصورها، على عدد من أبرز الشعراء المعاصرين، لانجد له ذكرًا أو تغطية فى هذه المداخل المختلفة. وهذا هو نفس الحال مع مدخل النثر الصوفى الذى يكتفى بذكر نماذج قديمة وشائعة مثل ابن عربى والسراج ولا يشير إلى النفرى أو أبوحيان التوحيدى. ناهيك عن أى تأثير للأدب الصوفى على الرواية أو القصة القصيرة فى الأدب الحديث، وثمة نماذج كثيرة فى هذا المجال تمتد من نجيب محفوظ وحتى أحدث كتاب القصة والرواية فى جيل التسعينيات، كما هو الحال مع منتصر القفاش مثلا.

والواقع أن إحدى السمات الفاشية فى هذه الموسوعة هى افتقارها للنسقية والإحكام المنهجى. فهناك مثلا مدخلان عن مدينة القاهرة: أحدهما عن قاهرة العصر الوسيط والآخر عن قاهرة العصر الحديث، بينما ثمة مدخل واحد عن دمشق فى العصر الحديث، وآخر عن بغداد فى العصر الوسيط فقط، وكأن بغداد لاحاضر لها أو كأنها اندثرت (وربما كان هذا ما يرجوه الغرب لها بحصاره الظالم)، وثالث عن تونس الدولة لا المدينة، والحديثة لا الوسيطة، بينما ليس هناك مدخل عن فاس أو مراكش. فإذا ما تمحصنا هذه المداخل فسنجد أنها شديدة الاختلاف عن بعضها البعض، ولا يوجد منهج واحد يحكم كتابتها. فبينما يهتم مدخل القاهرة الحديثة بمعالم النهضة العمرانية والبنية الثقافية لمؤسسات المدينة، فإن مدخل دمشق الحديثة يهتم بكتاب سوريا عامة وبتأثير الرقابة والتسلط السياسى عليهم. ويقدم لنا مدخل تونس الحديثة عرضا مختصرا لتطور الأدب العربى الحديث فى تونس. ونجد الافتقار نفسه فى النسقية والمنهجية إذا ما قارنا المدخل المكتوب عن بغداد فى العصر الوسيط، وهو مدخل جيد يربط بين المدينة وتطور الدولة العباسية وبين عمران المدينة وتطور بنية الدولة، بذلك المكتوب عن قاهرة العصر الوسيط سنجد أنه مدخل مليء

بالفجوات التاريخية والانتقائية ويفتقر إلى أية فكرة أساسية عن دور المدينة في مسيرة الثقافة أو بنية الدولة على السواء.

فإذا انتقلنا إلى مجال آخر، وهو مجال المؤسسات العلمية والثقافية سنجد أن المدخل الذي تناول مؤسسة الأزهر مثلا يعاني من الهزال في سرده التاريخي في مرحلة مابعد القرن الثامن عشر. إذ تختلط فيه التواريخ، ويتعثر الحديث به عن الإصلاحات، ولا نجد فيه أي ذكر لدوره إبان حملة نابليون بونابرت على مصر، ناهيك عن قانون إصلاح الأزهر في الستينيات في العصر الناصري، وما ترتب عليه من تحويله إلى جامعة حديثة أقرب ما تكون من حيث البنية وشمول الاهتمامات المعرفية للجامعة العصرية. وسيكون من التزيد مطالبة الموسوعة بملاحقة ما حدث في هذه المؤسسة العريقة في العقود الثلاثة الأخيرة التي اتسمت بتعقد العلاقة بينها وبين السلطة من ناحية وبينها وبين مختلف تيارات الإسلام السياسي في مصر وخارجها من ناحية أخرى. ومع أن مدخل الموسوعة حول الأزهر قاصر، فإن القصور بلغ درجة الشلل الكلي حينما يتعلق الأمر بمؤسسات عربية أخرى مشابهة من القرويين في فاس، والزيتونة في تونس، وحتى المركز الشيعي الكبير في النجف، فإنها جميعها غير موجودة في الموسوعة. أما بالنسبة للمؤسسات العلمية والبحثية الحديثة والجامعات العربية المختلفة فإنها غائبة كلية من الموسوعة. وحتى المدخل الذي تخصصه الموسوعة للتعليم في العصر الحديث فإنه مدخل قاصر ومعيب، لأنه مليء بالأخطاء ويعاني من نقص خطير في المعلومات. يذكر الجامعة الأمريكية في بيروت والقاهرة، وجامعة القديس يوسف بلبنان، ولا يذكر أيا من الجامعات العربية على الإطلاق. اللهم إلا تأسيس الدول النفطية للجامعات الحديثة في السبعينيات، واستقدامها للأساتذة المصريين والفلسطينيين والسودانيين للعمل بها، دون أن يذكر شيئا عن الجامعات التي جاء منها هؤلاء الأساتذة. صحيح أن بالمدخل إحصائية حول معدلات التعليم في البلدان العربية المختلفة وعدد الجامعات في كل بلد، وتاريخ تأسيس أول جامعة حكومية، لكن هذه الإحصائية مليئة هي الأخرى بالأخطاء، لأنها تشير إلى أن أول جامعة حكومية في مصر قد أسست عام ١٩٢٥، أي بعد الجزائر ١٩٠٩ وسوريا ١٩٢٣، وهو أمر غير صحيح، لأنه لايأخذ في اعتباره تاريخ الجامعة المصرية، ليس فقط من حيث تأسيسها كجامعة أهلية أولا، ولكن لأن نواتها الحكومية التي تجسدت في المدارس العليا قد تبلورت، حكوميا كذلك، منذ زمن تأسيس محمد علي لهذه المدارس مثل مدرسة الطب والمهندسخانة.



أهم عيوب هذه الموسوعة هو افتقارها للصرامة التمحيصية التي هي السمة الأساسية، بل التعريفية، للموسوعات. فالصرامة والدقة وتحرير المادة والقصد هي رديف كلمة موسوعة في اللغة، ونظيرها في المفهوم

هذه بعض القضايا العامة التي تطرحها هذه الموسوعة على قارئها، أما القضايا التفصيلية وإشكاليات الحذف والتقييم، أي إسقاط بعض الشخصيات وإعطاء البعض الآخر حجما أكبر من حجمها الحقيقي، ومدى تمحيصها للمعلومات التي تذكرها في كل مدخل، فإنه أمر يحتاج إلى المزيد من التفصيل وذكر الأمثلة التي لا يمكن بدونها تصور حقيقة الخلل الذي يعمر صفحات هذه الموسوعة. والواقع أن الفرق الأساسي بين العمل الموسوعي، وأي نوع آخر من التأليف الأدبية هو الصرامة المنهجية المطلقة في تأسيس المعلومة وتمحيصها والتأكد من صحتها قبل إدراجها في أي مدخل من مداخل العمل الموسوعي. ليس فقط لأن الهدف الأساسي من أية موسوعة هو تقديم هذه المعلومات بطريقة يعتمد عليها، ويثق الباحث في صحتها. ولكن أيضا لأن الموسوعة هي العمل التأليفي الوحيد الذي لا تستطيع أن تستخدم معه العبارة الشائعة في التمهيد التحريري لمختلف الدوريات والكتب بأن النصوص المنشورة هنا تعبر عن آراء أصحابها، ولا مسئولية للناشر عنها. فالموسوعة وكل ما بها من معلومات هي مسئولية الناشر والمحررين أولا وأخيرا، لأنها عمل يتوخى بالدرجة الأولى تأسيس المعلومات والحقائق المعرفية في الحقل الذي يشمله، ويتجنب بقدر الإمكان الآراء الشخصية للكتاب، أو وجهات النظر ذات الطبيعة الخلافية، أو التقييمات التي لا تجمع الثقافة عليها دون جدال. فإذا ما اعتورك الشك فيما تقدمه لك أي موسوعة من المعلومات، فلن تلجأ إليها بعد ذلك. وإذا ما وجدت تناقضا بين المعلومات التي تقدمها المجموعة في مداخلها المختلفة، كأن تذكر شيئا في مدخل ما ثم تشكك فيه في مدخل آخر، فلن تثق في المدخلين معا، بل في الموسوعة كلها. ويختبر الناقد عادة مصداقية أي عمل موسوعي، لا بالكشف فيه عما لايعرفه، وإنما بالكشف عما يعرفه جيدا، للتأكد من مدى دقة ما تقدمه الموسوعة عنه. فإذا انتفت الدقة الصارمة عن الموسوعة في هذا المجال، فلن يستطيع أن يمنحها ثقته فيما لايعرفه فمن الذي يستطيع أن يطمئنه على صدقها؟

وكان هذا هو ما فعلته مع (موسوعة الأدب العربي) فتأكدت من افتقارها للصرامة المنهجية، وتزعزعت بذلك ثقتي فيها بالرغم من أهميتها ومن الحاجة الماسة إليها في الدراسات العربية التي تلقى في الغرب كل عام المزيد من الاهتمام والتوسع. ولنبدأ أولا بالتناقض داخل الموسوعة بين مداخلها المتعددة. ففي المدخل الذي خصصته للكاتب الفلسطيني الشهيد غسان كنفاني، تخبرنا الموسوعة، وقد حالفها الصواب في هذا الخبر، بأنه قد اغتيل بقنبلة زرعها في سيارته عملاء الدولة العبرية في فلسطين المحتلة (ص ٤٢٦)، بينما يخبرنا المدخل الذي خصصته الموسوعة للرقابة في الأدب العربي - وهو مدخل غبي مشوش ومليء بالتخليط يتعمد كاتبه ألا يذكر فلسطين بل يشير إلى الأراضي التي تحتلها الدولة العبرية - بأن الكتاب الذين ينتقدون السلطات الحاكمة يتعرضون للاعتقال والضرب وأحيانا للاغتيال أو القتل غير المشروع مثل غسان كنفاني الذي يزعم أنه قتل في لبنان من قبل عملاء لـ...» ويذكر اسم الدولة العبرية في فلسطين المحتلة (ص ١٧١) فأيهما نصدق؟ المدخل الذي ذكر الحقيقة وأكد أن الصهاينة القتلة، الذين قتلوا عددا كبيرا من المثقفين الفلسطينيين، هم الذين فخخوا سيارته وقتلوه، أم هذا المدخل الغريب الذي يريد للقارئ أن يعتقد أن غسان كنفاني قد قتل لأن من ينتقد السلطات العربية يتعرض للاعتقال والتعذيب والاغتيال؟ ثم يزعمون أن الصهاينة هم الذين قتلوه! أي هراء هذا!

وهناك العديد من المداخل التي تنطوي على معلومات خاطئة، أو تتوقف معلوماتها قبل عشر سنوات أو أكثر، أو تنطوي على معلومات قديمة عفى عليها الزمن، مثل المدخل الذي تناول «السينما والأدب» والذي ينطوي على معلومات خاطئة عن عدد الأفلام المصرية المنتجة كل عام، وعن أكثر الكتاب الذين حولت أعمالهم إلى أفلام وغير ذلك من الأخطاء. وهذا هو الحال في المدخل المخصص للأدب العربي المسيحي الذي يتوقف عند حنين بن اسحاق ويحيى بن عدي من العصر القديم. ولا يذكر في العصر الحديث غير حركة المهجر في سطر واحد. وكأن الإسهام المسيحي في الأدب الحديث غير موجود، مما يؤكد بشكل مضمر مصادرة استشراقية أخرى حول قمع الثقافة العربية الإسلامية لإسهامات غير المسلمين. أو المدخل الذي تناول «الالتزام» في الأدب، فتوقف عند الجدل الذي دار حوله في جيل طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم. ولم يذكر شيئا عن دور محمود أمين العالم أو رئيف خوري أو حسين مروّة في هذا المجال. ولم يميز بين دعوات الالتزام القومية والماركسية والسارترية، وإن ذكر دور مجلة (الآداب) البيروتية في إشاعة هذا المفهوم. أما مدخل «الترجمة» والذي قسمته المجموعة إلى قسمين أحدهما عن الترجمة في العصر الوسيط وهو مدخل جيد بحق لا يهتم بترجمة العرب لعيون الآداب الهندية والفارسية واليونانية، وإنما بترجمة أوروبا العصور الوسطى لعيون المعارف العربية ودور الأندلس وصقلية في نقل التراث العربي لأوروبا. أما القسم الآخر الذي خصص للترجمة في العصر الحديث فإنه لم يقترب من رديفه الوسيط، بل عجز حتى عن الوفاء بجانب واحد مما حققه. فقد فهم الترجمة على أنها ترجمة الأدب الأوروبي للعربية دون بقية الآداب الأخرى. ولم يشر من قريب أو بعيد إلى ترجمة عيون الأدب العربي الحديث للغات الأوروبية المختلفة. وانشغل المدخل بإثبات دين الأدب الحديث للغرب وتأثره به. ويبدأ المدخل بذكر ترجمة الطهطاوي لرواية فينيلون (مغامرات تليماك) ويدون بعدها تاريخ ١٦٩٦ بينما تاريخ نشر رواية فينلون الصحيح هو ١٦٩٩. ثم يتناول الترجمة في بدايات هذا القرن، فيذكر الترجمة من الإنجليزية والفرنسية دون الروسية التي كان لها تأثير كبير على تطور فنون القص العربية. ويزعم أن الترجمات حتى العشرينيات كانت تأتي للعربية عن طريق التركية أو الفارسية وهو زعم غريب. كما يذكر أن الرواية كانت أكثر الفنون الأدبية ترجمة للعربية، ثم يضيف أن الروايات التي اختارها العرب للترجمة كانت روايات تافهة، ونادرا ما ترجمت عيون الرواية الأوروبية. ويبدو أنه لايعرف أن جل أعلام الرواية الأوروبية الكبار من تولستوي وتورجينيف وبلزاك وفلوبير وستندال وكبار الروائيين الإنجليز وحتى الأمريكيين مترجمين للعربية، وأن الأعمال الكاملة لأعظم روائيي أوروبا وهو فيدور ديستويفسكي مترجمة كلها للعربية وفي أكثر من طبعة. ولكنها الرغبة المسمومة في تشويه الأدب العربي من الباحثين الصهاينة. وعندما يشير إلى ترجمة الأعمال الشعرية يذكر (روميو وجولييت) و(تاجر البندقية) لشكسبير دون أن يدرك أن أعماله الكاملة ترجمت للعربية وأن بعضها ترجم أكثر من مرة. ولا يشير المدخل إلى أي من المشاريع الكبرى للترجمة سواء مشروع طه حسين الكبير (الألف كتاب) في الخمسينيات، أو (الألف كتاب الثاني) في الثمانينيات، أو المشروع القومي للترجمة في التسعينيات، ناهيك عن حركة الترجمة النشيطة في المغرب العربي.

أما المدخل الذي يتحدث عن «العامية في الأدب» والذي قسمته الموسوعة إلى قسمين أحدهما عن العصر الوسيط، أو الأدب القديم، والآخر عن الحديث فإنهما - كليهما - مليئان بالتخليط والأراجيف. إذ يزعم أولهما أن سيطرة الفصحى القرآنية



شارك في تحرير هذه الموسوعة، أو بالأحرى في كتابة مواد لها ١٠٤ باحثين، ليس بينهم إلا ثلاثة يعملون في جامعات عربية، وأحد هؤلاء الثلاثة مستشرق غربي يعمل في جامعة السلطان قابوس بعمان. ويبدو أن هذا يتسق مع التصور الاستشراقي السقيم

أسلوبيا وأدبيا هي المسئولة عن الازدواج اللغوي في البلدان العربية، وأن العامية هي اللغة الأم لكل عربي، وأن الأدب العربي الذي كتبه اليهود والمسيحيون هو الذي يوثق التطور الحقيقي للغة العربية أكثر من الأدب الذي كتبه المسلمون(كذا) (ص١٨٩). أما ثانيهما فإنه لايقل تخليطا عن الأول، إذ يزعم أن لويس عوض كتب مذكراته بالعامية، فلما أدانها الواقع الأدبي بقسوة أعلن بعدها أنه سيلتزم بالفصحى في كتاباته الأكاديمية، وأن أحمد شوقي كتب شعرا بالعامية، وأن بيرم التونسي وأحمد فؤاد نجم يحظيان بسوء السمعة ولم يدرجا ضمن النصوص المقبولة أو المكرسة في الأدب. بينما حظيت حفنة قليلة من الذين كتبوا بالعامية بالاهتمام النقدي مثل ميشيل طراد وفؤاد حداد وصلاح جاهين (كذا). ونجد الأمر نفسه في المدخل المخصص لـ«الحوار في الأدب» والذي يعد امتدادا من نوع ما للمدخلين السابقين. أما المدخل الخاص بـ«قصيدة النثر» فقد توقف بها عند بدايات أنسي الحاج، ولم يتطرق إلى التطورات التي انتابت هذا الشكل الشعري بعده حتى أصبح أكثر الأشكال الشعرية انتشارا بين كتاب آخر جيلين من شعراء العربية الذين لانجد ذكرا لأي منهم في المدخل. وهذا مرة أخرى من عواقب الاعتماد على باحثين من الدولة الصهيونية لايتابعون بحكم رفض الثقافة العربية لهم من ناحية وحالة العداء بينهم وبين العالم العربي من ناحية أخرى ما يدور في حاضر هذه الثقافة القريب.

وإذا كان من الممكن الدفاع عن بعض هذا التخليط بأنه من قبيل التفسير ووجهات النظر، فإن هناك مجموعة كبيرة من الأخطاء الفاضحة التي لايمكن التعلل بأنها آراء أو وجهات نظر، مثل تلك التي ترد في المدخل الذي تناول الشاعر «محمد عبدالمطلب»، وأخبرنا أنه ولد في «باصونا» بمحافظة «جرجا» في صعيد مصر (كذا)، (ص١٥) لأن أي باحث عربي يعرف أنه ليست هناك محافظة باسم جرجا في صعيد مصر، وليست بها قرية باسم باصونا. وينطوي هذا المدخل على العديد من الأخطاء مثل إشارته إلى أن عبدالمطلب عمل مدرسا في المدارس الابتدائية ثم أستاذا «بروفيسور» في مدرسة «القانون الديني» (كذا) ثم أصبح بعد ذلك أستاذا في دار العلوم. أما المدخل الذي خصصته الموسوعة للكاتب العراقي «فؤاد التكرلي» فإنه يخبرنا بأنه هاجر إلى باريس عام ١٩٧٩ وهو أمر عار من الصحة تماما، صحيح أنه عاش في باريس عاما أو بعض عام، وكان هذا بالقطع بعد هذا التاريخ، لكنه لم يهاجر إليها، بل عاد بعد فترة باريس تلك إلى العراق وأمضى به سنوات عديدة، ثم انتقل عام ١٩٩١ إلى تونس، ومازال يعمل بالسفارة العراقية بها. كما أنه يذكر تاريخين مختلفين لروايته (الرجع البعيد) وهما ١٩٨٠-١٩٩٣، ويكتبهما بعد الرواية بطريقة توحي بأن كتابة الرواية التي يقول لنا أنها استغرقت ١١ عاما هي الفترة الممتدة بين التاريخين، دون أن يدرك أنهما تاريخان لطبعتين مختلفتين للرواية نفسها، وأن التاريخ الدقيق هو تاريخ الطبعة الأولى وهو ١٩٨٠. ناهيك عن خلل المدخل في تفسير هذه الرواية الجميلة، وإخفاقه في فهم دلالاتها أو سبر أغوار عوالمها الثرية. وهو نفس الأمر الذي تكرر مع ما ذكره المدخل عن روايته التالية (خاتم الرمل) ١٩٩٦ ثم لم يذكر لنا المدخل شيئا عن بقية أعمال التكرلي الواقعة بين الروايتين.

وهناك مداخل كثيرة مليئة بالأخطاء الفاضحة. ففي صفحة واحدة (ص١٨) تقدم لنا الموسوعة مدخلين أولهما عن عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) فتذكر التاريخين التاليين بعد اسمها (١٩١٢-١٩٧٤) بمعنى أنها ماتت عام ١٩٧٤، مع أنها كانت لاتزال على قيد الحياة عند صدور الموسوعة، وماتت بعد صدورها عام ١٩٩٩. ولا يقتصر خطل هذا المدخل على هذا الخطأ الفادح بأي معيار، وإنما يذكر لنا أنها كانت رئيسة لتحرير مجلة (الأدب) وهي المجلة التي كان يرأس تحريرها زوجها الشيخ أمين الخولي وليست هي. أما المدخل الثاني بنفس الصفحة فعن الشاعر السوداني جيلي عبدالرحمن الذي تذكر الموسوعة بعد اسمه هذا التاريخ (١٩٣١-) مما يوحي أنه ما زال على قيد الحياة، بالرغم من أنه رحل عن عالمنا عام ١٩٩٠. فالحي تؤكد الموسوعة موته، والميت تزعم أنه لايزال على قيد الحياة. فكيف يمكن أن نثق في المعلومات التي تقدمها عنهما وهي أيضا معلومات ناقصة وغير دقيقة. ولايقتصر الزعم بأن الراحلين لايزالون على قيد الحياة على هذا المدخل وحده، فكثير من الكتاب الراحلين تذكر الموسوعة أنهم لايزالون على قيد الحياة. وكثير من سنوات ميلاد الكتاب مذكورة خطأ (مثلا :إبراهيم أصلان ١٩٣٧ وليس ١٩٣٩ كما بالموسوعة). وسوف اقتصر هنا على ذكر عدد من الأمثلة من الذين رحلوا قبل عامين على الأقل من صدور الموسوعة، ومع ذلك تركت الموسوعة أقواس التواريخ أمامهم مفتوحة مما يعني أنهم على قيد الحياة وقت صدورها. فبالرغم من أنها استطاعت أن تسجل رحيل سعدالله ونوس ومحمد مهدي الجواهري فقد أخفقت في تسجيل رحيل أمينة السعيد وإبراهيم ناجي (١٩٨١) وفتحي رضوان (١٩٨٨) وعمر أبوريشة (١٩٩٠) وعبدالرحمن الخميسي (١٩٩١) وعبدالحميد بن هدوقة (١٩٩٦) وسهير القلماوي (١٩٩٥) ولطيفة الزيات (١٩٩٦) وعبدالملك نوري (١٩٩٧) وكثيرين غيرهم.

ولايقتصر الأمر على هذه الأخطاء، فهناك الكثير من المداخل التي لا يمكن اعتبارها أكثر من مجرد مسودة لمدخل تحتاج إلى التحرير والتدقيق والتمحيص والإضافة. فالمدخل الخاص بفاطمة اليوسف مثلا يذكر لنا التواريخ الآتية بعد اسمها (؟١٨٩-؟؟١٩) بمعنى أن كاتبة المدخل لم تبحث بعد هذه التواريخ، وربما تعود إليها بعد مراجعة بعض المصادر. لكن هذه المسودة تنشر كما هي في الموسوعة، بالرغم من أن هناك مصادر عديدة متوافرة تؤكد أن فاطمة اليوسف، مؤسسة مجلة (روز اليوسف) والتي تحولت إلى مؤسسة صحفية كاملة بعد وفاتها قد ولدت عام ١٨٨٨، وليس في تسعينيات القرن الماضي كما تخمن الباحثة، وهي للأسف باحثة مصرية تعمل في جامعة نيويورك وتتسم كل مداخلها في الموسوعة وهي عديدة بنفس السمات التي نجدها في هذا المدخل، كما أن تاريخ وفاتها معروف وهو بالتحديد ١٠ أبريل ١٩٥٨. فلم يكن ثمة داع لعلامات الاستفهام لو أجهدت الباحثة نفسها قليلا. أما المدخل نفسه فحدث عما به من خلل دون حرج. إذ يذكر أنها تزوجت محمد عبدالقدوس، دون أن يذكر السنة وهي ١٩١٦، ولا ندري سبب ذكر هذا الزوج دون بقية أزواجها، زكي طليمات ثم حفيد قاسم أمين. ثم يشير المدخل إلى بداية حياتها كممثلة عملت مع عزيز عيد وجورج ابيض وفرقة رمسيس، دون أن يذكر يوسف وهبي. ثم يقول لنا أنها أسست مجلة (روز اليوسف) عام ١٩٢٩، وهي أسبوعية سياسية و«أكثر المجلات الأسبوعية السياسية احتراما في العالم العربي»(ص٨١٥) ويبدو أن الباحثة لم تر هذه المجلة مؤخرا، ولو طامنت من حماسها قليلا، وأشارت إلى أنها «من أكثر» وليست «أكثر» بأفعل التفضيل على إطلاقها لغفرنا لها حماسها. ثم تذكر بعد ذلك أنها «أصدرت بعد ذلك صحيفة يومية» مما يفهم منه أنها صحيفة أخرى غير (روز اليوسف) الأسبوعية، دون أن تحدد أن «روزاليوسف» الأسبوعية نفسها صدرت يومية لمدة عامين، ثم عاودت الصدور كأسبوعية بعد ذلك مرة أخرى.

ونجد هذا الإهمال نفسه في المدخل الذي كتبته الباحثة ذاتها عن «ثروت أباظة» إذ ينطوي على معلومات ناقصة وشحيحة عنه، والرجل شهير إلى حد كبير، ويقف المدخل بإنتاجه عند (السباحة في الرمال) سنة ١٩٧٢، وكأنه لم يكتب شيئا بعد هذا التاريخ، بالرغم من أنه أصدر العديد من الروايات والمجموعات القصصية بعدها. وهذا هو الحال مع مداخل كثيرة تبدو وكأنها كتبت قبل عشرين عاما، حيث توقفت معلوماتها عند ذلك مثل المداخل الخاصة بكل من سليمان فياض، وحيدر حيدر، وألفريد فرج، وعبدالله العروي، ويوسف العاني، والأدب الجزائري الحديث الذي لايذكر شيئا بعد الطاهر وطار وعشرات المداخل الأخرى. وهذا هو الحال كذلك مع المدخل الخاص بإحسان عبدالقدوس، والذي كتبه أحد محرري الموسوعة. فهو الآخر مدخل ناقص، يتناول إحسان عبدالقدوس كصحفي سياسي بالدرجة الأولى، دون أن يخبرنا بما جرى له سياسيا، ويشير إلى أنه كاتب قصة ورواية، دون أن يذكر لنا شيئا عن أعماله الأدبية، ودون أن يكلف نفسه عناء ذكر عنوان رواية واحدة أو مجموعة قصصية واحدة من أعماله الغزيرة بالرغم من اعتراف المدخل بشعبية أعماله القصصية، وتحول الكثير منها إلى أفلام أو مسلسلات تليفزيونية وبالرغم من أن إحسان عبدالقدوس هو أكثر الأدباء الذين تحولت أعمالهم للسينما، فإننا لانجد له ذكرا في المدخل المخصص «للأدب والسينما»، بمعنى أن قارئ الموسوعة لايستطيع العثور على اسم عمل واحد لإحسان عبدالقدوس بها في أي من مداخلها التي يمكن أن نتوقع وجوده فيها.

ولا يمكن أن نتصور أن يكون هناك استسهال أكثر من ذلك فلا تمحيص للمداخل ولا تأكد من بقية المعلومات الضرورية عن صاحب

المدخل أو صاحبته التى لاتعرف عنه أو عنها من هذا المدخل إلا أقل القليل. فهناك مدخل عن الكاتبة الكويتية ليلى العثمان لا يذكر سنة ميلادها ويكتفى بـ١٩؟؟، أما المدخل الذى خصصته الموسوعة لروفائيل نخلة فإنه يكتفى بأن يذكر (١٨؟؟-١٩؟؟) فيا للحصافة! لكن مدخل حنين نعمت الله خورى لا يقدم لنا حتى سنة ميلاده أو وفاته أو علامات الاستفهام التخمينية كما فى سابقه. إنه لايحترم أبسط شروط العمل الموسوعى ويترك الاسم غفلا من كل تاريخ. وليس فى المدخل ما يبرر تخصيص مدخل خاص لشخص كهذا. كتب عدة مقالات عن التاريخ فى (المقتطف)، وترجم كتابين، وهناك كثيرون أهم منه لم تدرجهم الموسوعة ضمن أعلامها. ويقودنا هذا إلى أهم نواحى الضعف فى هذه الموسوعة، بالرغم من كثرة ما بها من قصور وأخطاء، وهو افتقاد أى معيار سليم لإدراج علم أو جنس أدبى دون غيره، وكذلك افتقاد معيار تخصيص المساحة أو عدد الكلمات لكل مدخل. فإذا خصصت الموسوعة مثلا صفحة لعلم ما، فإن القارئ يستنتج أنه أهم من ذلك الذى خصصت له عمودا أو نصف عمود، وأنه أقل أهمية من ذلك الذى اختص بصفحتين كاملتين. فالمساحة التى تفردها الموسوعة عادة لأى مدخل تتناسب مع أهمية المدخل، وفق قانون الأوزان الثقافية النسبية للمداخل، أو عدم أهميته. لأن تخصيص المساحة فى الموسوعة هو الحكم المعيارى، أو حكم القيمة الوحيد المتاح لمحرريها، إذ يجب بعده تجنب الدخول إلى الرمال الناعمة لأحكام القيمة والآراء الشخصية.

فإذا تناولنا ما لم تدرجه، بالنسبة لما أدرجته سنجد أننا بحاجة إلى قائمة طويلة من الأمثلة والمقارنات. وسأكتفى هنا بعدد من الأمثلة القليلة. ففى مجال المجلات الأدبية مثلا نجد أنها أهم المجلات الأدبية فى العصر الحديث مثل (الآداب) و(الأديب) و(شعر) البيروتية، و(المجلة) و(المجلة الجديدة) القاهريتين لم تدرجا، بينما أدرجت الموسوعة مجلات أقل منها أهمية، وأضعف دورا. وهذا هو الحال مع الأعلام. حيث نجد أن أعلاما قد أدرجوا مع أنهم أقل أهمية من أعلام آخرين من نفس البلد لم تدرجهم الموسوعة، فبينما تدرج أنيس منصور، فإنها تهمل الكثيرين ممن هم أهم منه أدبيا مثل سعد مكاوى ويوسف الشارونى وبدر الديب ومحمد عبدالحليم عبدالله وأبوالمعاطى أبو النجا، وصالح مرسى وعلاء الديب ومحمد البساطى. وبينما نجد فيها نقادا مثل عزالدين إسماعيل، وخالدة سعيد، وعبدالعظيم أنيس، فإن نقادا أهم منهم، أو لايقلون عنهم أهمية مثل شكرى عياد وعلى الراعى وعبدالقادر القط وأنطون مقدسى وعبدالمحسن طه بدر ويمنى العيد ليس لهم وجود فى الموسوعة. وإذا ما انتقلنا إلى الجيل الأصغر من النقاد فإننا سنجد أنها تفرد مدخلا لكل من عبدالسلام المسدى وخلدون الشمعة، بينما تهمل جابر عصفور ومحمد عابد الجابرى ورضوى عاشور وسيزا قاسم وفريال غزول ونبيل سليمان وعبدالمنعم تليمة وفاضل ثامر وياسين النصير ومحمد مفتاح وصلاح فضل وغيرهم. وبينما تخصص مدخلا لإحسان عباس، فإنها تهمل محمد يوسف نجم، وتخصص مدخلا للكاتب المغربى محمد شكرى وتهمل محمد برادة ومحمد الأشعرى وعبدالجبار السحيمى ومحمد بنيس وغيرهم من مجايليه البارزين.

فإذا ما انتقلنا إلى مساحة المداخل وحجمها، فسنجد أن الموسوعة مليئة بالعجب العجاب. وأكثر الأمثلة غرابة فى هذا الموضوع هو أنها تخصص أربعة أعمدة كاملة لمدخل عن أدونيس بينما لايحظى أعلام أهم منه بعشرات المرات مثل ابن رشد وابن خلدون والمعرى والمتنبى وأبو العلاء بنصف هذه المساحة. وهى مساحة لم يحظ بها فى تغطية الموسوعة لأعلام العصر الحديث الكاتب العربى الوحيد الذى نال جائزة نوبل فى الآداب وهو نجيب محفوظ. كما أن شعراء جيله، وبعضهم أهم منه دورا وإنجازا مثل بدر شاكر السياب وصلاح عبدالصبور وخليل حاوى لم تخصص لهم إلا ربع هذه المساحة، وبعض شعراء جيله مثل أحمد عبدالمعطى حجازى لم يحظ حتى بربع عمود، إذ لم يتعد المدخل الذى خصص له تسعة أسطر. فما هو معيار تخصيص المساحة فى هذه الموسوعة؟ وهل يجوز أن يخرج القارئ غير المتخصص بانطباع بأن أدونيس أهم من المتنبى أو ابن خلدون أو ابن رشد أو نجيب محفوظ؟ أى هراء هذا؟! وقد كان يمكن التساهل مع مثل هذا الخلل لو أن المدخل الذى كتب عن أدونيس كان مدخلا موضوعيا، لكن الموسوعة توكل كتابة هذا المدخل لأحد حوارييه، فجاء مترعا بالعواطف الفجة والمبالغات، ويفتقر إلى أبسط قواعد الكتابة العلمية والموسوعية. إذ لم يشر إلى أبسط الحقائق مثل علوية أدونيس وأثر باطنية العلويين عليه، ولم يذكر اعتناقه فى بداية حياته لمبادئ الحزب القومى السورى، وهو من الأحزاب الفاشية العربية، وعلاقته الخاصة بزعيم هذا الحزب الذى منحه اسمه الشعرى «أدونيس».

ولا أريد الاسترسال فى ذكر الأمثلة الكثيرة فى هذا المجال، فقد أوشكت المساحة المخصصة لهذا المقال على النفاد، ولكنى أود أن أؤكد أن هناك عشرات من الأمثلة التى لم أذكرها. والتى تؤكد كلها كثيرًا مما ذكرت من نقاط. ومع أننى لا أريد أن ألتمس العذر لهذه الموسوعة فقد بددت إلى حد كبير فرصة كبيرة لاتعوض بيسر، إلا أننى أود الإشارة مع ذلك إلى أن تغطيتها للأدب الحديث تعد تغطية رائدة إلى حد ما. فلم يسبقها فى هذا المجال إلا قاموس روبرت كيمبل Robert Campbell الذى أصدره المعهد الألمانى للدراسات الشرقية ببيروت (أدباء العرب المعاصرين) Contemporary Arab Writers ولايزال هذا الحقل الحديث فى حاجة إلى المزيد من العمل والتدقيق. ولابد فى النهاية أن أشير إلى أن هذه الموسوعة برغم كل ما بها من خلل وأخطاء فادحة هى خطوة أولى على الطريق الصحيح، ولايجب أن يعتبرها الباحثون والناشرون نهاية المطاف بأى حال من الأحوال. بل بداية تنبهت إلى وحدة هذا الأدب العظيم وثرائه. وتحتاج إلى متابعة العمل فى هذا المجال حتى يحظى الأدب العربى بقاموس أكسفورد الخاص به فى نهاية الأمر، والذى لابد له - بسبب سمعة سلسلة قواميس أكسفورد المرموقة - من أن يتغلب على كل نواحى القصور فى هذه الموسوعة. ■

كتاب الزاوية

عمارة الفقراء

٥- فشل التجربة

تجربة القرنة أصابها الفشل، ولم تكتمل القرية قط، وهى حتى يومنا هذا لم تصبح بعد مجتمعًا قرويًا مزدهرًا، ولن يكون من الإنصاف القول أن المبادىء تنجح أوتوماتيكيًا عند التطبيق. وفى نفس الوقت فإنى لن أكون منصفًا لنفسى ولا لبلدى لو تركت هذه المبادىء تظل مدانة بسبب فشل هذه المحاولة الوحيدة لتطبيقها. فليست القرنة وحدها التى توقفت. بل لقد توقف كل أمل حقيقى للوصول بالفلاح المصرى إلى المستوى اللائق من المعيشة.

وكنتيجة لأن القرنة لم تكتمل قط. تمت إدانة كل نظرية البناء بطوب اللبن هى والرأى بأن الإسكان الريفى يقتضى استخدام المهارات التراثية، وأدين كل هذا على أنه نزوات غير عملية. ولم يقتصر الأمر على عدم بذل أية محاولة لاستكمال القرنة بل ولم تبذل أية محاولة لإيجاد وسائل أخرى عملية للوصول إلى بناء بيوت ريفية. وكان المهندسون المعماريون الحكوميون أثناء بناء القرنة وبعد توقف العمل فيها، يصورونها على أنها - بأكثر التعبيرات تأدبًا - فشل مثير للاهتمام، رحلة عاطفية على درب منحرف لا يمكن أن يؤدى إلى النجاح. وكان يتم الهمس بهذه الافتراءات فى دهاليز الوزارات بل إنها ظهرت فى صحيفة أجنبية فى وقت تأخر حتى عام ١٩٦١. وبالتالى فلابد أن أرد على هذه التهم قبل المضى لما بعد ذلك.

وليس أسهل من أن أقول فى إبهام أن ما منعنى من إكمال القرنة هو ما عند الفلاحين من غموض وما عند البيروقراطيين من عداء. إلا أننى سأكون أكثر إقناعًا لو تركت لتاريخ المشروع أن يتحدث عن نفسه.

يصقله النقد..

هموم الكتاب العربي

محمد عدنان سالم

أليس مما يبعث على الملل ويدفع إلى السآمة ـ إن لم أقل إلى السخرية ـ أن نكرر على أسماع الناس وأبصارهم، حديث أزمات الكتاب: أسبابها وبواعثها وسبل الخلاص منها، من دون أن تجد واحدة من هذه الأزمات طريقها إلى الانفراج، أو يجد اقتراح من الاقتراحات سبيله إلى بؤرة الضوء وحيز التطبيق؟!

■■ أشعر بكثير من الخجل والمرارة والرغبة في اللواذ بالصمت تجنباً لتداعيات القرف والغثيان، كلما دعيت للحديث عن أزمات الكتاب.. أشعر كما لو أنى أعانى من إدمان غريب: أكرر الشيء نفسه وأنا أحسب أنى قد أتيت بجديد. كأنى أتحول إلى مسجلة، ما إن تضغط على زر التشغيل فيها حتى تنطلق بحديثها المكرور، أو أنى ارتديت جبة واعظ يعتلى أحد المنابر العثمانية، ما إن يؤذّن بين يديه للخطبة حتى يستل من جيبه كتابه ـ المهترئ من كثرة الاستعمال ـ وقد وضع داخله علامة على خطبة اليوم، التي تكررت وستتكرر في اليوم ذاته من سنوات خلت أو هي قادمة.

ولكى لا يظن قارئى أنى أبالغ أو أغالى من أجل لفت انتباهه، أو أنى كرسام الكاريكاتير أضخم العيوب لاجتذاب نظره إليها، فإنى أؤكد له أنى أستطيع أن أنثر بين يديه عشرات الأمثلة تتراوح أعمارها بين عشر سنوات وخمسين سنة: مقالات صحفية، وندوات ثقافية، ومحاضرات، ومؤتمرات، وتوصيات، بل واتفاقيات، لو اسْتبدلتَ بتاريخها الذي يعود إلى الأربعينيات تاريخ اليوم الحاضر، لما شعر أحد بفعلتك التي فعلتَ، فالأزمة هي الأزمة، قد جُمّدت في ثلاجة شديدة البرودة، أو اعتقلت في سجن محكم الأسوار من سجون التخلف، أو أحيطت بخط أحمر مغلق منعت من تجاوزه فظلت تراوح مكانها في داخله.

أحد هذه الأمثلة مقال منشور في مجلة الكتاب، في عددها الصادر عن دار المعارف المصرية في أبريل (نيسان) عام ١٩٤٧م جاء فيه ما يلي: «انتهى إلينا أن اللجنة القانونية بجامعة الدول العربية قد وضعت مشروعاً لحماية الملكية الأدبية والفنية...وهذا هو أمنية أهل الجد والكرامة من حملة الأقلام: لأن الملكية الفكرية لا يجوز أن تبقى نهباً لدى لصوص الإجهاد العلمي والإنشاء الفكري، فلا بد من حمايتها كالملكيات الأخرى، فهي ملكية مشروعة، لها قوتها وسلطتها وتعيينها.. إنْ طبع مؤلَّف الآخرين غصبٌ بيِّن واعتداء صارخ على ملكية صاحب الكتاب، لأن الغاصب يستفيد مالاً بما لا مبرر له، كمن يسرق شيئاً يضعه في وعاء ويبيع الوعاء وما احتواه».

وعلى الرغم من أن أي نص قد يحمل في أسلوبه ما يحدد هويته والعصر الذي كتب فيه، فإنى لا أجد في هذا النص ما يثير الارتياب في تاريخه لو أعيد نشره حاملاً أي تاريخ على مدى الأعوام التي أربت على الخمسين، ونسب إلى أية مؤسسة أخرى ممن يهتم بشؤون الملكية الفكرية غير الجامعة العربية.

ومثال آخر: قرار مؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي، الصادر عنهم في دورتهم السادسة المنعقدة في دمشق في ٢١-٢٣ أبريل (نيسان) ١٩٨٧ المتضمن مشروع (الاتفاقية العربية لتيسير انتقال الإنتاج الثقافي العربي) التي تم تنقيحها في ضوء الملاحظات التي تقدمت بها بعض الدول العربية، ثم حظيت بموافقة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في مؤتمرها العام في دورته التاسعة المنعقدة في تونس ١٩ ـ ٢٢ /١٢/ ١٩٨٧ (العام ذاته). وقررت توجيه الشكر للدول التي وقعت على هذه الاتفاقية ودعوة الدول الأخرى للتوقيع عليها.

فبعد أن أوضحت المادتان الأولى والثانية المقصود بالتعابير الواردة، وأنواع المصنفات المشمولة بالاتفاقية، تعاقبت المواد للنص على ما يلي:

المادة الثالثة: تعمل الدول العربية على تيسير انتقال الإنتاج الثقافي العربي.. (سواء داخل الأقطار العربية أو خارجها) بمختلف الوسائل الناجعة ومنها بصورة خاصة:

(أ) إعفاؤه من الرسوم الجمركية.

(ب) منحه أولوية النقل بين الأقطار العربية.

المادة الرابعة: تعمل الدول العربية على أن يتمتع الإنتاج الثقافي العربي الوارد ذكره في المادة الثانية من هذه الاتفاقية بتعرفات نقل مخفضة على وسائل النقل بين البلاد العربية، بحيث لا تزيد تعرفات نقل هذا الإنتاج عن ٢٥ ٪ من تعرفات النقل المفروضة على السلع الأخرى.

المادة الخامسة: تعمل الدول العربية على إعفاء ما تستورده من مواد تدخل في عملية الإنتاج الثقافي العربي من الرسوم الجمركية، وفي حال تعذر ذلك تضع الدول العربية رسوماً جمركية رمزية على هذه المواد المستوردة.

ثم أوضحت المواد السادسة إلى التاسعة بعض الإجراءات اللازمة لتطبيق بنود هذه الاتفاقية أو تجاوزها إلى ما يفوقها في اتفاقيات ثنائية، عادت لتتحفظ كالمعتاد.

المادة العاشرة: مع عدم الإخلال بالاتفاقيات المبرمة فيما بين الدول عربياً ودولياً، لا تمس أحكام هذه الاتفاقية حق كل دولة من الدول الأعضاء في أن تسمح أو تراقب أو تمنع وفقاً لتشريعها الوطني تداول أي مصنف في إطار سيادتها.

ولو استنطقنا الكتاب للإجابة عن تساؤلنا عما حدث له منذ اتفاقية عام ١٩٨٧ لتيسير انتقاله بين الدول العربية، لأجابنا، بصوت خافت مبحوح، وقلب كسير مهان:

ما رأيت غير مزيد من التعقيد والقيود، مزيد من الرسوم والأعباء، ونظراً لنفاذ بصيرته التي تهتم بالمسميات قبل الأسماء وبالنتائج قبل المقدمات لم ينخدع بما أعلنته الأنظمة تطبيقاً للاتفاقية: من إعفاء شكليّ من الرسوم الجمركية عوضته أضعافاً مضاعفة بما فرضت عليه من رسوم أخرى، أطلقت عليها أسماء شتى، كمن يأخذ بإحدى يديه أضعاف ما أعطاه بالأخرى.

مادة واحدة من الاتفاقية طبقتها الأنظمة بصدق وشفافية عالية هي المادة العاشرة، فمارست حقها المزعوم في الرقابة على الأفكار، والوصاية على الناس، مفترضة قصور عقولهم، وعجزهم عن تمييز النافع من الضار، والخبيث



وتقتله الرقابة

من الطيب، مما يستدعي فرض الحجر عليهم، وحجب الرؤية عن بصائرهم، ومنعهم من الاطلاع على ما تمنعه السلطات، والاقتصار على ما تسمح به، مبدية إشفاقها الحاني عليهم وسهرها على مصالحهم وحرصها على إراحتهم من عناء التفكير، مرددة قولة فرعون:

﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر ٤٠/٢٩).

يقول الكتاب: لقد كنت قبل اتفاقية التيسير أتنقل بين البلدان بكثير من اليسر: ما إن أخرج من المطبعة حتى تستقبلني وسائط النقل المختلفة بكل ترحيب لتقلني إلى مختلف الأصقاع: تتوقف جميع السلع عند موظفي الجمارك على الحدود، يدققون مستنداتهم ويتفحصون شهادات منشئها وفواتيرها، ولا أتوقف... كنت أشعر بكثير من الاحترام، أجتاز الحدود كمن يحمل جواز سفر دبلوماسيًا، ترفع له التحية وتفتح له الأبواب، لا أحتاج إلى إذن بالطبع ولا إذن بالخروج ولا بالدخول، لا يفصل بين ولادتي ووصولي إلى يد قارئي في أي بلد عربي غير ساعات يتفاوت عددها حسب تباعد المسافات بين القاهرة وبيروت ودمشق وبغداد وعمان والدار البيضاء، ولم أكن أحمّل القارئ في بلد المقصد عبئاً مالياً يذكر فوق ما يحمله في بلد المولد، إذ لم أكن أطالَب في طريقي إليه بأية رسوم..

لا أنكر أن من بين لداتي وأترابي كتباً تتوارى زهراتها خلف أشواك تدمي اليدين، وأن فيها ما يتشكل بأشكال الورود، ويتلوّن بألوانها الزاهية، وهو يخفي في طياته السم الزعاف مثل زهر الشوكران، وأن فيها ما ينطوي على الأحقاد والضغائن ويضمر الشر والإيقاع بالقارئ، وفيها ما يمتلئ بالغثاثة والتفاهة لتزجية وقت الإنسان بما لا ينفع إن لم يضر: وفيها، وفيها...ولكن صدقوني أن القارئ كان دائماً أكثر وعياً وأشد يقظة من رقباء آخر الزمان. وما أكثر ما دفن من هذه الكتب في مقابر النسيان والإهمال، وما أكثر ما ألقي في حاويات النفايات. فلم يبق بين يديه ولم يحتفِ إلا بما ينفعه من أدب وعلم.

أنّى للقارئ أن يتكون لديه هذا الوعي، لو لم تدمَ يداه بتنحية الشوك ليصل إلى الأزهار ويقطف الثمار؟!

أنى له أن تتكون لديه هذه المناعة لو لم يتدرب على فرز الخبيث، وتمييز الغث، وتذوّق المر، وتجنب لسع الأفاعي؟!

ولقد رأيت هذا القارئ ينزلق أحياناً مجاراة لبعض ما قرأ، وسرعان مايسترد صوابه بعد قراءة أخرى، فعرفت أن القراءة تصحح أخطاءها، وأن من يقرأ أكثر يلُمّ أكثر..

ثم إني رأيت في ظلال نظم الوصاية والحجر -أياً كان نوع الوصاية والحجر- عجباً..

رأيت كتباً دفنها وعي القراء عشرات السنين، فأحياها ضجيج الاستنكار والقمع وهي رميم..

ورأيت كتباً ممنوعة تنتشر في أيدي القراء، يدفعهم حب الاطلاع لاقتنائها واجتلاء أسباب منعها، وذلك طبعٌ في الإنسان جُبل عليه في جيناته الوراثية، فكل ممنوع عليه مرغوب لديه، وكل مبذول له مزهود فيه..

ورأيتُ كتّاباً وناشرين فطنوا لهذا الطبع الإنساني فاستخدموه وسيلة للترويج، وطريقاً للنجومية، فسعوا إلى استصدار قرارات المنع، واستثارة الضجيج والإنكار، ولم يكن حصادي من ذلك كله غير المزيد من التسطح الفكري والعوز الإبداعي بين ثقافة سلطوية (مؤدلجة) في اتجاه واحد يرفضها القارئ برماً بها، وبين (سيناريوهات) الترويج لثقافة التهريج التي يديرها المتسلقون من أدعياء الإبداع.

ويتابع الكتاب بثّ أحزانه، مستعيداً ذكريات صباه وأيام عزه:

لقد كنت دائماً تحت الوصاية، ولكن شتان بين وصايتين: أولاهما كانت تكلني إلى النقد، وتسلم زمام أمري إلى كبار الأدباء والكتّاب، يختصمون فيّ، ثم يحتكمون إلى قواعد وضوابط تعارفوا عليها، تكشف الزيف، وتميز الخبيث من الطيب..

يومها كانت الكلمة مسؤوليةً، يتردد الكاتب في قولها، ويقلبها على وجوهها قبل أن يخطها في كلمات، حتى لا يُسلق بألسنة حداد، أو يشوى على السفود.

وكان النقد جاداً يسهم بفعالية في توليد الأفكار وفي إنضاجها، مثلما يسهم في تداولها فيستخلص سمينها وينفي خبثها..

وكانت الحركة الثقافية، على ضعف أدواتها، نشطة صاخبة: تمور بالأفكار يضخها المبدعون الرواد، ويتلقفها المجتمع بكل فئاته زاداً معرفياً قد أنضجه النقد الموضوعي، وتباينت فيه وجهات النظر تأييداً ومعارضة، تترك للقارئ إصدار حكمه بعد إعمال عقله، فيصبح هذا القارئ جزءاً من عملية الإبداع وإنتاج الأفكار.

أما الوصاية الأخرى التي ولِيت أمري في آخر الزمان، فقصمت ظهري وأفسدت عيشي وعطّلت وظيفتي، وحالت بيني وبين قارئي، فهي (الرقابة) بكل أشكالها السلطوية الرسمية والدينية والاجتماعية.

آه من الرقابة!! ثم آه من الرقيب!!

لقد استيقظ ضمير الدولة الحديثة فجأة أواسط القرن المنصرم، واستشعرت مسؤوليتها عن ثقافة الأمة وصيانتها من الاختراق والعبث والتلوث، فاستحدثت وزارات للثقافة والإعلام، وزودتها بميزانيات ضخمة لإنتاج ثقافة الاتجاه الواحد والرأي الواحد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، واستصدرت قوانين للمطبوعات منحتها صلاحيات واسعة تمكنها من ممارسة جميع أشكال الحجز والمنع والقمع والمصادرة والتجميد والحبس وحتى الإعدام.

لم يعد القارئ في نظرها، ذلك الراشد الذي وهبه الله عقلاً قادراً على التمييز والمحاكمة، بل أصبح قاصراً، يستوجب قصوره إحكام الوصاية عليه، حرصاً على أمنه الثقافي، فحجرت عليه، وأوكلت أمره إلى رقيب وعتيد يتوليان الإشراف على مقروءاته وتنقيتها من الشوائب: أما رقيبٌ فيقيم في الإدارة المركزية، يتولى الإذن بطبع الكتب والدوريات، وإصدار قوائم المسموحات والممنوعات، يصدر قراراته أحكاماً مبرمةً غير قابلة لأيّ من طرق الطعن أو النقض والمراجعة، أحكاماً أبديةً لا تسقط بمرور الزمن، ولا يعاد النظر فيها عند تغير الأحوال. وقرارات رقيب غالباً ما تكون عشوائية مزاجيةً، شأنه شأن الرقباء الآخرين، تختلف قراراتهم باختلاف أمزجتهم وثقافاتهم وآفاقهم. وأمرهم كلهم عجب، فواحد يمنع وآخر يسمح، لا تعرف لم سمح هذا ولم منع ذاك.

وأما عتيد فيقف على الحدود، الأصل عنده المنع، فإذا أمسك بكتابٍ مستعلن في يد مسافر أو مستخف في حقيبته، طالبه بموافقة رقيب، وإلا فالمصادرة.

ولم تقتصر الوصاية على القارئ المتلقي على حريته في القراءة، وإيصاد أبواب المعرفة في وجهه، والحيلولة دون إرواء حبه للاطلاع، بل هي تقف في مراكز إنتاج المعرفة على أبواب المفكرين والمبدعين: تعلن تقديرها وتقديسها لحرية التفكير، مكرهةً نتيجة عجزها عن الولوج إلى تلافيف عقل المؤلف للحد منها، ثم تفرض وصايتها على حرية التعبير بذريعة الأمن الثقافي، افتئاتاً عليها بوصفها حقاً من حقوق الإنسان التي منحه الله تعالى إياها، وهي في الحقيقة تنشد أمنها السياسي أكثر مما تنشد أمن الأمة الثقافي.

والفكرة عند أجهزة الرقابة تولد مدانة منذ أن تنفصل عن ذهن مبدعها، وعليها أن تقضي بضعة أشهر في حبس احتياطي أحكمت تحصينه في أقبيتها، فإذا انقضت المدة، فإما أن يفرج عنها لثبوت براءتها من تهمة المساس بالنظام العام، أو إقلاق الراحة العامة، أو الخروج عن الأعراف والتقاليد السائدة، وإما أن تمدد فترة الحبس الاحتياطي لأجل غير مسمى، وهو ما أطلق عليه مصطلح التريث أو التجميد، وإما أن تواجه الحكم المبرم بإعدامها ومنعها من الطباعة والتداول.

ونظراً لأن ثقافة الرقباء -مهما عظمت واشتُرطت لها المؤهلات العالية والشهادات- تظل محدودة، فإنه يتوجب على كبار العلماء والأدباء والمفكرين أن يراعوا ظروفهم وإمكاناتهم، ولا يثقلوا عليهم بمفاهيم أعلى من قدرتهم على التمثل، وأفكار أعلى من قدرتهم على الاستيعاب.

ونظراً -لأن عدد هؤلاء الرقباء يظل محدوداً بمحدودية عنق الزجاجة- مهما تعاظموا، وتعاظمت قدراتهم على القراءة-، فإنه يتوجب على الإبداع، الذي يفترض فيه ألا يكون محدوداً، أن يمر من خلال ذلك العنق ويجتازه.

هكذا تتسطح الثقافة: فيتكيف المفكرون مع فكر الرقباء، ويهبطون بأفكارهم، فلا يبقى لها وزن يتغلغل في الأعماق فيحرك مياه المستنقع الراكد، ولا صوت يدوي في الأسماع فيوقظ النائمين في خيام الغفلة والتخلف.. ويتضاءل الإبداع ويضمُر لكي يتسنى له المرور من عنق الزجاجة، ويتمكن من اجتياز العقبة.. ويتمادى الفاصل الزمني بين إبداع الفكرة ووصولها إلى القارئ، بانتظار دورها على طاولة الرقيب، ولو أدى الانتظار إلى أن تفقد قيمتها ويفوت أوانها في عصر المعلوماتية وسرعة التحولات..ويتخفف القراء من عناء القراءة، فلا يقرءون إلا ما يجود به الرقيب،وبذلك تتجنب ثقافتهم السمنة والترهل، ويحققون لأفكارهم ما تتطلبه أنظمة الرقابة من ضمور ورشاقة فيها أصبحت لديها مطلباً عصرياً أسوة برشاقة الأجساد.. وتضيق ساحة انتشار الكتاب نظراً لتباين الاتجاهات لدى أنظمة الرقابة، واتفاقها جميعاً على الأحادية والانغلاق ورفض الآخر، فما يُسمح به هنا يمنع هناك ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم ٣٠/٣٢).

ولئن ابتلي مجتمع بمثل هذه الرقابة الأحادية، فلسوف تصاب ثقافته بالكساح والطفولة المزمنة والعجز عن النماء، لأن الفكر الأحادي عقيم لا ينجب، والأفكار لا تنمو إلا بالتزاوج.

أما إذا ابتلي مجتمع برقابة مزدوجة متباينة (علمانية وإسلامية مثلاً)، فلن يقرأ هذا المجتمع شيئاً، وسيرتاح من عناء التفكير أبداً ليأوي إلى كهف يغط به في نوم عميق خارج التاريخ.

ويشهق الكتاب متسائلاً: الخرج من القرن العشرين أسوأ مما دخلته؟!

أما أنا، فلي في أزمات الكتاب رأي آخر مختلف:

ففي عصر المعلومات، وثورة المعلوماتية والاتصالات، وهذا المنعطف الخطير الذي تمر به البشرية بتسارع مذهل، لتتحول من عصر صناعة المواد الذي تتفاوت فيه الأمم فيما تمتلكه من خامات وثروات وتقنيات ومصانع، إلى عصر صناعة الأفكار الذي يتساوى فيه البشر فيما يمتلكونه من نعمة العقل: هبة الله للإنسان، فيقفون جميعاً على عتبة سباق واحدة، يستقبلون الفية ثالثة، سوف يتغير فيها كل شيء..

سوف يقترب الناس بعضهم من بعض، ويتعارفون، وتتمازج الحضارات.. وسوف يتخاطبون عن بعد من دون أسلاك ولا أدوات.. وسوف تسقط المسافات والأبعاد والحدود وسائر القيود..

وسوف تنمو الأفكار وتُسال المعلومات إلى الإنسان في كل مكان، كما يسال الماء والغاز والكهرباء: قطرات تنهمر عليه من فضائيات السماء، وينابيع تتفجر بين يديه من شبكات الأرض.

وسيلوذ الإنسان بالقراءة طوقَ نجاة يعصمه من الغرق في طوفان المعلوماتية الهادر من حوله..

وسيذهب ورق الكتاب، ومداد الكاتب، ومقص الرقيب، وتعليمات الوصي، وقوانين المطبوعات، وقوالب (الأيديولوجيات) إلى متاحف التاريخ مع الديناصورات.

وسينكسر احتكار الحقيقة والمعرفة، وينعم الناس بنعمة الاختلاف التي أنعم الله عليهم بها وسيلةً للنماء والارتقاء..

وستسقط الوصايات الفكرية وتتهاوى أنظمة الحجر، وتتراخى قبضة السلطة عن الثقافة، التي سيشتد ساعدها، ويزداد تأثيرها، ويعلو شأن المثقفين..

وستتعدد الخيارات أمام المتلقي، فلا يبقى أسير الصوت الواحد، والرأي الواحد، بل سيصغي إلى الصوت الآخر ويتفهم الرأي الآخر، ويسود الحوار..

وستتبدل الأذواق والعادات والتقاليد وأنماط الحياة وأساليب العيش ووسائط النقل وطرق التعليم والتوثيق.

ولسوف تزول جميع المشكلات التقليدية للكتاب، لتحل مكانها مشكلات جديدة تستدعي التأمل.

وستذهب أنظمة الرقابة، بكل أشكالها، ولن يكون إصرارها على ممارسة هوايتها بالوصاية على الكتاب - ذي العدد المحدود - إلا نوعاً من التشبث بالماضي دفاعاً عن الذات وثأراً من الكتاب لكرامتها التي داستها الفضائيات والشبكات ذوات القدرة غير المحدودة على الاتصال.

ويسألني المشفقون على ثقافة الأجيال: هل نرفع الوصاية، ونطلق العنان، ونترك الحبل على الغارب؟!

وأقول في الجواب:

أنا مع تكوين (المناعة)، لا مع (المنع).

ومع تقديم (البديل) الأكثر نفعاً.

إن وعي القارئ هو وحده جهاز المناعة القادر على تحصين ثقافة المجتمع وتنقية أجوائها، وهو جهاز الرقابة الكفيل بتوجيه الثقافة ونفي خبثها. ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (الرعد ١٣/١٧). ■

عـــروض موجـــزة

كتب عربية

السجينة

مليكة أوفقير
ترجمة: غادة الحسيني
بيروت. دار الجديد، ٢٠٠٠، ٣٧٥ صفحة



في أغسطس ١٩٧٢، طاردت طائرة من سلاح الجو المغربي طائرة الملك الحسن الثاني فوق مدينة تطوان المغربية.

أطلقت في اتجاهها عددًا من الصواريخ، أخطأت الصواريخ هدفها، وهبطت طائرة الملك بسلام في مطار الرباط.

أحد الطيارين اللذين نفذا المحاولة، قال إن مدبر الانقلاب هو الجنرال محمد أوفقير، وزير الدفاع وقائد القوات الجوية الملكية آنذاك.

استدعى الملك الجنرال أوفقير إلى قصر الصخيرات، وقبل أن يصل إليه كانت نهايته تقررت: خمس رصاصات مزقت جسده وحوّلته إلى أشلاء.

لا شيء يستدعي الأسى في مصير أوفقير حتى لو لم يكن هو مدبر الانقلاب، فقد كان أوفقير رجل الملك وذراعه الباطشة، هو الذي أخمد انقلاب الصخيرات قبل ذلك بشهور، وقتل أصدقاءه من الجنرالات والضباط كي يؤكد ولاءه للعرش، وهو الذي اغتال «المهدي بن بركة» أحد زعماء المعارضة في باريس، وعشرات غيرها من الجرائم الإنسانية والأخلاقية.

ما يستدعي الأسى فعلاً هو ما جرى لأسرته، إذ جاوز انتقام الملك مدبر الانقلاب إلى أسرته، فألقى بها عشرين عامًا في السجون، من نهاية ١٩٧٢ وحتى ١٩٩١، حين تمكنوا من الهروب في عملية أسطورية عصية على التصديق، إذ حفروا نفقًا أسفل السجن بالملاعق والشوك والأظافر وعلب الصفيح، تمكنوا عبره من النفاذ إلى خارج أسواره الرهيبة، بعد سنوات من الجوع والتعذيب والقهر النفسي والإحباط، ومحاولات متكررة يائسة للانتحار، جعلتهم جميعًا في حالة لا تسمح بأكثر من انتظار الموت.

ومليكة صاحبة هذه المذكرات، كتبتها بعد ٦ سنوات من هروبها، وبعد عام واحد من هجرتها إلى باريس في عملية هروب ثانية، والغريب أن مليكة هي ابنة الملك محمد الخامس بالتبني، إذ تبناها الملك كي تؤنس وحدة ابنته الصغيرة «للا أمينة»، التي تقاربها في السن، عاشت في كنفه سنوات طفولتها الأولى، وحين مات واصل الحسن الثاني ما بدأه أبوه، إلى أن طالبت هي ذاتها بأن تعود إلى أهلها لتعيش حياتها الطبيعية في كنفهم.

وحين اتهم أبوها بتدبير انقلاب ضد الملك، أخذت أسرته بجريرته، دخلوا جميعًا السجن وتنقلوا بين عدد من الحصون والقلاع في الصحراوات المغربية. كانت الخطة، أن يتركوا لمصيرهم داخل السجون حتى يلاقوا حتفهم واحدًا تلو الآخر، لكن إرادة الحياة لديهم كانت أقوى من حقد ساجنيهم، فهربوا بطريقة يعجز عن وصفها خيال السينما، وحكوا قصة معاناتهم للصحافة والإعلام الفرنسي، الذي مثل ضغطًا على النظام الملكي وأركانه، فأفرجوا عن بقيتهم، وبقيت الأسرة ٥ سنوات قيد المراقبة داخل المغرب، عاجزين عن العمل أو التنقل أو السفر، حتى نجحوا في الهجرة إلى باريس.

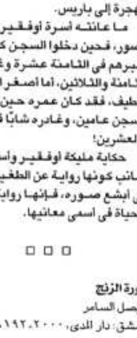
ما عانته أسرة أوفقير يفوق أي تصور، فحين دخلوا السجن كانت مليكة أكبرهم في الثامنة عشرة وغادرته في الثامنة والثلاثين، أما أصغر الأولاد عبد اللطيف، فقد كان عمره حين زُج به في السجن عامين، وغادره شابًا في الثانية والعشرين!

حكاية مليكة أوفقير وأسرتها إلى جانب كونها رواية عن الطغيان والقهر في أبشع صوره، فإنها رواية عن إرادة الحياة في أسمى معانيها.

□ □ □

ثورة الزنج

فيصل السامر
دمشق: دار المدى، ٢٠٠٠، ١٩٢ صفحة



نصح القرآن الكريم بحسن معاملة الرقيق، ودعا المسلمين إلى تحريرهم، والشريعة الإسلامية تنظر إلى تحرير العبيد كعمل من أعمال التقوى يثاب عليه المسلم، وإذا كانت الشريعة الإسلامية قد اشترطت أن يستعبد الأسرى في حالة الحرب الشرعية مع الكفار بعد الإنذار والإشهار، فإن التطور الاقتصادي الذي شهده العالم الإسلامي، وتغلب المصالح المادية على الشعور الديني في كثير من الأحيان، أدى إلى قيام نوع جديد من الرق لم يكن مشروعًا ولا مقبولاً هو النخاسة، أو تجارة الرقيق التي انتشرت في أسواق الشرق وبخاصة في بغداد، وقد جلب تجار الرقيق المسلمون العبيد السود من ساحل أفريقيا الشرقي، وهي أرض الزنج التي أطلق العرب عليها زنجبار.

عمل الزنج في ظروف بالغة القسوة والضراوة، ولم يُسمح لهم بتكوين أسر أو العيش في كيانات اجتماعية قابلة للنمو والتطور.

وقد ضرب علي بن محمد «صاحب الزنج»، على وتر المستوى المعيشي المتدني واللا إنساني الذي عاش في ظله الزنج، فاستجابوا لدعوته وناصروه.

انطلقت ثورة الزنج بقيادة علي بن محمد من فرات البصرة عام ٢٥٥ هـ، ودامت نحو ١٤ سنة، وعُرف عنه تذوقه للأدب وكان هو نفسه قارضًا للشعر، وقد رأى بعض الباحثين أن صاحب الزنج إنما قام بثورته لتحقيق طموحه الشخصي ونزعاته إلى الشهرة والمجد، فيما يرى آخرون أنه خرج على الدولة العباسية متألمًا مما آلت إليه الأمور من فساد، ولرغبته في نشر العدل وتحقيق العدالة الاجتماعية، ويذهب المؤلف إلى أن صاحب الزنج كان مخلصًا للدعوة التي تبناها، برغم أن عديدًا من المؤرخين كالوا له السباب والشتائم ووصفوه بأقذع الصفات، فهو الدعي الخبيث اللعين عدو الله والمسلمين.

ويعترف المؤلف بفظاعة الجرائم التي ارتكبها علي بن محمد وأتباعه في عديد من المدن والقرى التي دمروها ونهبوها، لكنه يبرر هذه الأفعال بأمرين، أولهما: أن الزنج كانوا في حالة حرب سافرة مع الدولة، وأن الجميع وقفوا ضدهم وحاربوهم بكل قواهم، مما جعلهم في موقف دفاع عن النفس، وثانيهما: أن أعمال القسوة والتعذيب والعنف في الحروب، وجدت دائمًا في حروب ذلك الزمان، وأنها شملت معسكر الزنج والعباسيين على السواء.

كانت ثورة الزنج هي ثورة العبيد الأفارقة في البصرة وما حولها، كانت حلقة في سلسلة من الحركات التي عبرت عن القلق الاجتماعي وعدم الرضا عن النظام السياسي الذي كان قائمًا آنذاك، كانت ثورة الزنج بحسب ما يشير المؤلف، حربًا اجتماعية ذات طابع طبقي، ضد الظلم والفساد والتفاوت في الغنى والفقر.

حقق الزنج انتصارات كبيرة على العباسيين، واحتلوا مدنًا وقرى عديدة، وهددوا أملاك الدولة العباسية سنوات عديدة، وعقدوا تحالفات مع خصومهم، ومع بدء العام ٢٦٦ هـ بدأ نجم الزنج كقوة عظيمة يأفل، وبدأ الإعداد لحرب حاسمة قادها أبو أحمد الموفق، الذي أسقط عاصمتهم «المختارة» في عام ٢٧٠ هـ، لينهي بذلك واحدة من أهم الثورات الاجتماعية في التاريخ الإسلامي.

□ □ □

يهود الجزائر
٢٠٠٠ سنة من الوجود

عيسى شنوف
الجزائر: دار المعرفة، ٢٠٠٠، ٢٢٦ صفحة



يوهمنا المؤلف الذي يقول أنه عمل سنوات في الصحافة المكتوبة، بأن دافعه إلى كتابة هذه الدراسة علمي بحت، وأنه توخّى الموضوعية التامة في تناوله لليهود كظاهرة تاريخية في المجتمع الجزائري، لكن سطورًا قليلة في مقدمته، تكفي تمامًا لكشف نواياه، فالمؤلف داعية تطبيع لا تنقصه السذاجة والادعاء، ويخلط عمدًا بين التاريخي والسياسي. ويصير الكلام عن يهود الجزائر واندماجهم في المجتمع الجزائري وتميزهم في أشغال المال والتجارة، وعطائهم في الفن والأدب، وتعاطف كثيرين منهم مع الكفاح الجزائري في مواجهة الاستعمار الفرنسي، يصير هذا كله أسبابًا معقولة وتبريرات منطقية للتعاطف مع الإسرائيليين، ويتساءل بسذاجة لا يحسد عليها: «هل علينا أن نتفاعل مع اليهود بموضوعية وروية أم سلبيًا وبرعونة باللعب على الجانب العاطفي.

والموضوعية التي يقصدها تلخصها تلك السطور: هل ننسى أن اليهود مازالوا إلى يومنا هذا شركاء ممتازين للشركات الخاصة والعمومية الجزائرية؟ علاقات اقتصادية هائلة مربوطة معهم عن طريق الفاكس دون أن نغادر الحدود.

ويقول في موضع آخر: نحن نعلم أن اليهود وسطاء تجاريون محنكون إلى درجة مكنتهم اليوم من التحكم في مفاتيح المالية العالمية الكبرى، فهم يتحكمون في وسائل النقل البحرية ويستخلصون فوائد جمة من الصفقات التجارية التي يديرونها بمهارة في العالم العربي وفي الشرق الأوسط، ونجدهم في كل مكان به المال أو تتداول به العملة أو تحصّل منه الفوائد، وهم ينسجمون بسهولة في نموذج المجتمع الذي هم مطالبون بالعيش فيه، ويكشف سريعًا عن نواياه حين يقول: الآن وقد سارت الأمور في اتجاه السلام على النحو الذي آلت إليه، فهل علينا أن نكون ملكيين أكثر من الملك، وإذا كان الفلسطينيون قد قبلوا السلام، فلماذا لا تقبل به الأمم العربية الأخرى، فلماذا علينا أن نكون عربًا أكثر من العرب ومسلمين أكثر من المسلمين.

ولا يجد المؤلف حرجًا في أن يرى في

انتصار أكتوبر هزيمة، مرددًا نفس الدعاوى الإسرائيلية، يقول بوضوح لا يحتمل التأويل: إن القوة المتعجرفة للإسرائيليين كانت لها الكلمة الأخيرة أمام جبن الأمم العربية التى فترت عزيمتها هزائم ١٩٦٧ و١٩٧٣.

لقد كتب الكثير من المؤرخين عن اليهود فى بلادهم، وتناولوا عطاءهم أو عزوفهم فى إطار المجتمعات التى عاشوا فيها، وتاريخهم السياسى والاجتماعى وإسهاماتهم الثقافية، وهى دراسات لم تغضب أحدًا، لأن اليهود كانوا عمليًا جزءًا من هذه المجتمعات، والوجود اليهودى لا يمكن إنكاره فى غير عاصمة عربية، فى العراق وسورية والمغرب والجزائر وسواها، لكن القبول باليهود شىء، والقبول بإسرائيل كمشروع استيطانى استعمارى شىء آخر، وهو ما يشكك كثيرًا فى حيادية المؤلف وموضوعيته المزعومة.

□ □ □

أبوالعلاء المعرى
أو... متاهات القول

عبدالفتاح كيليطو
الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ٢٠٠٠



عاش أبوالعلاء المعرى فى «معرة النعمان» بسورية بين القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين، وذهب كثير من الباحثين إلى أن «دانتى» استفاد كثيرًا فى كتابه الشهير «الكوميديا الإلهية» من كتاب المعرى الشهير أيضًا «رسالة الغفران»، وعرف المعرى بأنه رهين المحبسين، خلوته وبصره الذى فقده وهو فى الرابعة من عمره، كما عرف بتشاؤمه الذى كان نتاجًا طبيعيًا لظروفه القاسية، وكان يؤرقه دومًا أنه لا يستطيع أن يحقق شيئًا بمفرده، وإنما هو فى حاجة دومًا إلى معونة آخرين، يقول عن ذلك فى رسالة الغفران: «وأنا مستطيع بغيرى، فإذا غاب الكاتب فلا إملاء»، واشتهر بقدرته الخارقة على الحفظ، حتى حفظ وهو فى العشرين من عمره كل الشعر العربى. يقول المعرى: «ما سمعت شيئًا إلا حفظته، وما حفظت شيئًا ونسيته»، وقيل أن الناس كانوا يلجأون إليه إذا تعذّر عليهم الحصول على نسخة من كتاب مفقود، أما أشهر أبياته التى يعرفه العامة والخاصة فبيته المعروف:

هذا جناه أبى علىّ
وما جنيت على أحد

وقد تأثر كثيرًا بفقد أمه التى فارقته وهو فى السابعة والثلاثين، وقال فى فقدها:

مضت وقد اكتهلت فخلت أنى
رضيع ما بلغت مدى الفطام

المؤلف يغوص فى عالم أبى العلاء كاشفًا عن المضمر فى قوله، ومنقبًا بين السطور عما لم يقله، فى محاولة لاكتشاف عالمه وسبر أغوار حياته النفسية والاجتماعية، وفى سبيل ذلك يعيد قراءة «رسالة الغفران»، وينفى أن يكون «دانتى» قد أفاد منها لأنها ببساطة لم تترجم إلى أية لغة.

ثم يعيد الاعتبار لكتابه «الفصول والغايات فى تمجيد الله والمواعظ»، الذى قُرىء قديمًا بوصفه محاولة لمضاهاة القرآن الكريم، ولهذا رُفض وأهمله النقاد، وبرغم أن المؤلف يراه كتابًا حافلاً بالوعظ والتقوى، رآه ابن الجوزى غير ذلك، يقول: «رأيت للمعرى كتابًا سماه الفصول والغايات، يعارض به السور والآيات، وهو كلام فى غاية الركة والبرودة، فسبحان من أعمى بصره وبصيرته».

ولم يشفع للمعرى عند ابن الجوزى إقراره فى كتابه أن كلام الخالق فوق كل كلام، وأنه يتعدى قدرة المخلوق.

أما «لزوم ما لا يلزم» فإن المؤلف يعتبره دليلاً أكيدًا على أن المعرى هو ربّان سفينة الحداثة قبل أن يعرف الغرب الحداثة بقرون، فقد حرّم المعرى على نفسه فى هذا الكتاب الأغراض التقليدية التى تحبب الشعر إلى الناس، وقد أكد فيه على ذم الدنيا وتبكيت النفس، والمح إلى الفتور والضعف اللذين يلحقان الشعر عندما يقتصر على الصدق، فأجمل الشعر برأيه أكذبه.

لقد ظلم معاصرو المعرى شعره وكتابته إجمالاً، لأنهم قرأوا ظاهرها بروح عدائية، ولم يسعوا إلى فهم أغراضه ومراميه.

□ □ □

مقاومة

سهى بشارة
بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٠، ٢٥٤ صفحة



كان يكفى ذكر معتقل «الخيام»، حتى ترتعد فرائص اللبنانيين من هول ما سمعوه وما عرفوه عن هذا السجن الرهيب. فى هذا المعتقل، قضت سهى بشارة عشر سنوات من أجمل سنوات عمرها، حيث تعرضت لتعذيب قاس يفوق القدرة على التصور والاحتمال، عقابًا لها على محاولتها اغتيال قائد جيش لبنان الجنوبى العميل لإسرائيل.

تنتمى سهى إلى إحدى قرى الجنوب التى تحررت أخيرًا، لم يكن يفصلها عن مواقع الجيش العميل سوى أمتار معدودة، كان بوسعها حين تعتلى ربوة عالية، أن تواجه فوهات مدافعهم موجهة نحو أهاليهم من اللبنانيين مثلهم، وهى نضاليًا وأيديولوجيًا، تنتمى إلى أسرة شيوعية، فقدت بعضًا من أفرادها فى حروب المقاومة ضد الإسرائيليين، وفى الحرب الأهلية اللبنانية، التى تفتح وعى سهى على جنونها الذى لم يبق أو يذر، ولم تفرّق فى جنونها بين المشاركين فعلاً فى الحرب، وسواهم ممن أخذوا بجريرة غيرهم. لا تبدأ سهى مذكراتها عن السنوات العشر الرهيبة من لحظة المعاناة، وإنما قبل ذلك بسنوات فتحكى عن قريتها «ديرسيماس»، وعائلتها وعلاقتها بالسياسة والحرب الأهلية اللبنانية وجنونها غير المبرر، وتعاطفها مع النضال الفلسطينى ضد الاحتلال الإسرائيلى، ثم الاجتياح الإسرائيلى لبيروت بقيادة اريبل شارون فى الخامس عشر من يونيو ١٩٨٢، وقتها كانت سهى تستعد للاحتفال بعيد ميلادها الخامس عشر. هكذا، قُدّر لها أن تواجه وهى على عتبات المراهقة مع جيش الأعداء الذى أحال - ومازال - حياة الفلسطينيين واللبنانيين إلى جحيم مستمر، وأشعل بداخلهم رغمًا عنه، رغبة المقاومة والتحدى لوجوده المأساوى، مهما كانت التضحيات.

فى هذه اللحظة بالذات، تولّدت لديها فكرة عما يمكن أن تفعل لمقاومة الأعداء الذين كان وجودهم سببًا فى كل ما جرى فى المنطقة، وعليه، قررت الانضمام فورًا إلى جبهة المقاومة اللبنانية ضد الاحتلال الإسرائيلى، التى أعلن عن قيامها فى ١٦ سبتمبر ١٩٨٢، وجعلتها الشهيدة سناء محيدلى، التى فجرت نفسها بقنبلة لدى مرور دورية إسرائيلية، واختارت الموت وهى بعد لم تبلغ التاسعة عشرة، تدرك أن النضال فى مثل تلك الظروف ليس شعارات ومظاهرات فحسب، ولابد من أن يجد صداه فى صور من التضحية أسماها التضحية بالنفس. بدأت سهى عملها السرى، إذ تم تكليفها باغتيال أنطوان لحد قائد جيش لبنان الجنوبى الموالى لإسرائيل، وتمكنت بعد جهود مضنية، من الاقتراب من «نيرفا» زوجته، بوصفها مدربة للتمارين الرياضية، وتحكى سهى عن الفرص التى واتتها لقتل لحد. إلا أنها لم تستطع، حتى حانت لها اللحظة المناسبة وأطلقت عليه رصاصتين من مسدسها. فى بيته وأمام زوجته وضيوفه، أصابته الطلقتان إصابات بالغة، نقل بسرعة إلى إسرائيل حيث اخترعت الأعاجيب لإنقاذه، فتم إنقاذه فعلاً، وخضعت سهى لعملية استجواب طويلة استمرت نحو ثلاثة أشهر، أودعت بعدها فى معتقل الخيام عشر سنوات، بينها ست سنوات فى حبس انفرادى، حتى أفرج عنها فى عام ١٩٩٨، لتشهد بعد ذلك بعامين خروج الإسرائيليين القسرى من جنوب لبنان، ورحيل أنطوان لحد إلى تل أبيب، ليعيش بقية حياته بين من اختار أن يكون عميلاً لديهم، مقابل قتل أهله وبنى عروبته.

□ □ □

مصر والعالم على أعتاب ألفية جديدة

محمود عبد الفضيل
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠، ١٧٠ صفحة



مفاهيم وأفكار جديدة حول العمل وأساليب الإنتاج حملتها الثورة التكنولوجية الثالثة، ثورة الاتصالات والمعلومات، فقد اختفت أو كادت، الوظيفة الثابتة، وصار العمل لبعض الوقت أو بالمشروع هو النمط التوظيفى السائد، بما يستتبع ذلك من تقلص الحقوق التأمينية للعاملين، والإحساس بعدم الأمان لانعدام تدفق الدخل الثابت لديهم، وفى أساليب الإنتاج تزايد الاعتماد على العمالة الاصطناعية «الروبوت»، واستتبع ذلك بطبيعة الحال تحولات مهمة فى أداء الأسواق وظهرت التجارة الإلكترونية التى تختصر المسافات والمساحات وتتم عبر شبكة الإنترنت، مما أدى إلى اختفاء الوسطاء وتوفير الوقت المكرس لعمليات البيع والشراء، ومن المتوقع أن يبلغ حجم التجارة الإلكترونية ما بين ٢٠٠ مليار دولار إلى ٨٠٠ مليار دولار خلال السنوات الخمس المقبلة.

تطرح هذه التحولات وغيرها كثير، تحديات كثيرة على مصر والعالم العربى، كما تمنحها فرصًا لم تكن متاحة من قبل، ثمة عملية «هدم» تجرى، تقابلها عملية «خلق» جديد، وهما عمليتان تتمان بالتوازى وبالسرعة نفسها فى ظل التغيرات المتسارعة التى تفرضها العولمة، لكن المشكلة الأساسية التى تواجه العالم العربى، هى عدم استعداده للاستجابة الإيجابية لما يجرى، والكتابات الحديثة فى معظمها تصوّر عمليات العولمة ونتاج ثورة المعلومات والاتصالات على أنها تفضى إلى كونية جديدة، ينجم عنها تقصير المسافات فى

عـــروض موجـــزة

الزمان والمكان، لكن العولمة فى جوانب عديدة منها، تقود إلى توسيع وزيادة المسافات بين العالم المتقدم والعالم العربى فى العديد من المجالات الاقتصادية والتقنية والاجتماعية.

والمؤلف يشير إلى التباس فى فهم الظاهرة يخلط بين قضيتين: أولاهما أن العولمة الجارية عملية تاريخية تجرى فى إطار مرحلة عليا من مراحل التطور الرأسمالى.

وثانيتهما أنها نقع خالص وحتمية تاريخية لا فكاك منها دونها الموت والفناء، وعليه فإن الاندماج فى ثورة الاتصالات والتسليم بصعود رأس المال المالى ونمو وتوسع الشركات متعدية الجنسيات يعد بدوره من المسلمات.

العولمة - بحسب ما يذهب المؤلف - تخلق علاقات قوى جديدة على الصعيد العالمى، تتسم بعدم المساواة بين هؤلاء الذين يمتلكون مفاتيح التقدم التكنولوجى وهم اللاعبون الرئيسيون، والآخرين الذين يقتصر دورهم على الاستقبال والاستهلاك. تلك هى الفكرة الأساسية التى يدور حولها الكتاب الذى يشتمل على أقسام ثلاثة. يتناول الأول منه مصر والعرب فى ضوء تلك التحديات، ويخصص القسم الثانى للوضع الاقتصادى المصرى على أعتاب ألفية جديدة، ويتناول الثالث إشكاليات وتداعيات وتناقضات العولمة، التى تواجهنا بشراسة وقوة ولا فكاك من آثارها شئنا أم أبينا.

□ □ □

ليتك يا ليليان ما قرأت الفنجان

جمال إسماعيل

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١، ١٢٥ صفحة



لا يمكن المغامرة بتصنيف هذا الكتاب ضمن أدب الرحلات، ولا اعتباره مذكرات شخصية، ولا يجوز التعاطى معه كرواية أو قصة طويلة. الأصوب أن نعتمد ما أقره المؤلف على غلافه بوصفه سردًا صحفيًا.

يحكى المؤلف شيئًا من تجاربه الصحافية والحياتية فى العاصمة البريطانية «لندن»: التى هبط إليها فى أواخر السبعينيات، طامحًا فى تحقيق ذاته المهنية.

فى هذه الفترة، كان التدفق العربى على لندن هائلاً ومتنوع الأسباب. البعض جاء لأسباب اقتصادية. آخرون أجبرتهم الأحوال السياسية فى بلادهم على الهجرة إلى عاصمة الضباب. فريق ثالث كانت دوافعه علمية وتعليمية ومهنية. المهم أن لندن كانت مقصدًا لعشرات الآلاف من العرب، عرب الخليج وشمالى أفريقيا والشام على السواء. وكانت مناسبة جيدة أن يحتك المؤلف بهذه النماذج على اختلاف مقاصدها، وأن يختبر بعض قناعاته عن العروبة والوحدة والدم الواحد والمصير المشترك. وأغلب الظن أن النتائج جاءت مخيبة لآماله. تمامًا كما خاب أمله فى تحقيق بعض ما طمح إليه فى مهنة الصحافة التى أحبها. وانتهى به الأمر إلى صحفى بعض الوقت و«نصاب كل الوقت». والمؤلف هنا يسرد لنا كيف تدار الأمور فى الصحافة المهاجرة، وكيف ينتقل الصحافيون بين ليلة وضحاها من الضد إلى الضد، كيف يدافعون عن سياسة دولة ما يومًا، وينتقدونها بالحماس ذاته فى اليوم الذى يليه، كيف كان الخبر الواحد تعاد صياغته وتنسب مصادره إلى مجهولين أحيانًا، ومصادر عليمة ببواطن الأمور أحيانًا أخرى، كى يقرأه الجمهور فى الحالين ظنًا منه أنهما مختلفان.

ويروى لنا المؤلف شيئًا مما واجهه من مؤامرات «إخوة العروبة» فى إحدى الصحف التى عمل بها تحت عنوان «الغابة»، فيختار لكل شخصية اسم حيوان تتشابه معه صفاته. المهم أن الأمور تنتهى بفضيحة كبرى لـ«الحمار الأشيب» عكرت صفو حياته وجعلته نهبًا للألسنة والأقاويل.

لكن القسم الذى يبدو مسيطرًا أكثر على السرد، هو ذاك الذى يحكى فيه المؤلف عن بعض تجاربه النسائية، وزواجه من «ليزا» الذى نجم عنه ابنتهما «زينة»، وقد ظل هذا الزواج ثم الانفصال فيما بعد واحدًا من منغصات حياته حتى الآن.

ولا يفوت المؤلف أن يقدم لنا نقدًا اجتماعيًا لعديد من المشاهد التى صادفها بعد عودته إلى القاهرة، وهذا بُعد آخر فى السرد الذى يتداخل فيه السياسى بالاجتماعى بالإنسانى فى نسيج متصل.

أما أكثر ما يلفت الانتباه، فهى اللغة الأدبية الرشيقة التى اعتمدها المؤلف، فقد جاءت مقتصدة بلا زوائد، بسيطة ومباشرة، دون أن تنزلق إلى فخ التقريرية، وأتصور أن أكثر من عقد من العمل الإعلامى فى لندن، وفى هذه الأجواء، أجواء الثمانينيات والسنوات الأولى من التسعينيات، يمكن أن تعدنا بأكثر مما جاء فى الكتاب، عن علاقات الجاليات العربية ونظرتهم إلى المجتمع الغربى، ونظرة الغرب إليهم، وقضاياهم ومشاحناتهم واتفاقاتهم واختلافاتهم وقصص نجاحهم وإخفاقهم، وعشرات غيرها من الموضوعات التى ربما أفرد لها المؤلف كتابًا مستقلاً فيما بعد.

□ □ □

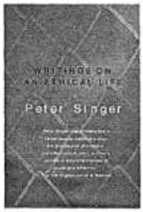
كتـب أجنبيـة

Writings on an Ethical Life

(كتابات فى الحياة الأخلاقية)

Peter Singer

Fourth State, 2001, £15.00.



يعد بيتر سينجر من أهم الفلاسفة المعاصرين الذين كانت لهم بصماتهم الواضحة على عالمنا الحالى. وقد أدى كتابه الذى صدر عام ١٩٧٥ بعنوان «تحرير الحيوان» إلى ظهور حركة بنفس الاسم. وقد تعرض مؤخرًا للانتقادات، بل والتشويه لأنه حبذ مسألة القتل الرحيم لهؤلاء المرضى غير المتوقع شفاؤهم، أو الأطفال المعوقين إعاقة شديدة. وهى قضية تثير مشاكل كثيرة فى دول الغرب ومنها بريطانيا.

والكتاب عبارة عن مجموعة مقالات وكتابات للمؤلف فى هذه القضايا التى تثير جدلاً شديدًا ليس بين المتخصصين ولكن مع القراء أيضًا. ويخلص سينجر إلى مجموعة من الاستنتاجات هى باختصار: أن الألم أمر سيئ لكن البشر ليسوا هم وحدهم الذين يشعرون بالمعاناة والألم، وأنه فيما يتعلق بمسألة القتل فإن المسألة لا يجب أن تتوقف فقط عند اللون أو الجنس أو النوع، بل على كون هذا المقتول فردًا أيًا كان نوعه أو جنسه أو لونه. وبهذه المناسبة فإن البشر يقضون على عشرات الملايين من الكائنات الأخرى لكى يأكلوها دون أن يرف لهم جفن.

ويؤكد المؤلف أيضًا أن البشر مسئولون ليس فقط عما يفعلونه ولكن أيضًا عما يمكنهم أن يمنعوا حدوثه. إن أرواح بعض الحيوانات فى نظر سينجر ربما تكون لها قيمة أكبر من قيمة بعض البشر، ثم إنه ليس لكل البشر قيمة متساوية.

ويقارن المؤلف بين المحاولات غير العادية للإبقاء على حياة إنسان ما (مريض أو معاق فى الغالب) رغمًا عن إرادته فى بعض الأحيان وبين قتل الكائنات الأخرى دون أن يكون أفراد هذه الكائنات راغبين فى الموت. ويتناول سينجر فى كتابه قضايا أخلاقية عديدة تصدم القارئ وتحتاج لنقاش عميق سيختلف بالتأكيد من حضارة لأخرى ومن مجتمع لآخر وحتى من شخص لآخر. لكن النقطة الأهم فى هذا الكتاب هى أن المؤلف يتحدث بشجاعة ويقول بصدق ما يعتقد حتى لو أدى ذلك لتعرضه للانتقاد والهجوم، وهو يؤمن بأن هناك حقًا فى المعرفة ولا يجب على الإطلاق أن نتوقف عن استخدام هذا الحق حتى لو فسر الآخرون ما نقول بصورة غير صحيحة أو مغلوطة.

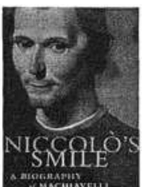
□ □ □

Niccolo's Smile

(ابتسامة نيكولاى)

Maurizio Viroli

IB Tauris, 2001,27PP,. £18.95



من العبارات الشهيرة للفيلسوف البريطانى الراحل برتراند راسل عن كتاب «الأمير» للفيلسوف الإيطالى نيكولاى ميكافيللى أنه «دليل لقطاع الطرق». وهذه العبارة ليست سوى نموذج لآراء كثيرين من المفكرين والفلاسفة والأدباء حول فكر ميكافيللى والذى اختصره كثيرون فى مبدأ الغاية تبرر الوسيلة. لقد رسم ميكافيللى طريقًا شهيرًا للحكام لكى يسيروا عليه من أجل أن يبقوا فى السلطة وهم لا بد أولاً أن يقضوا على كل من يقف فى طريقهم دون رحمة أو شفقة.

لكن مؤلف هذا الكتاب له رأى مختلف إلى حد ما حيث ينظر إلى الجانب الإنسانى فى ميكافيللى، والذى اعتقد كثيرون أنه غير موجود بالأساس. ويرى المؤلف أن الإنجاز الأساسى لميكافيللى يتمثل فى تطوير فلسفة إنسانية رحيمة للحياة. ومستخدمًا ليس فقط كتاباته، بل ورسائله وأدلة كثيرة من حياته، فإن المؤلف يرسم صورة لميكافيللى باعتباره الرجل الذى استقطر الحكمة من بيئة جافة للغاية.

ومن المعروف أن ميكافيللى لم يكن باحثًا أكاديميًا، بل رجل عمل. فقد خدم فى السلك الدبلوماسى لفلورنسا وفى عهد أسرة ميديتش تعرض للإذلال والإهانة وتقاعد ليعمل فى مزرعة للأسرة.

ويشير المؤلف إلى أن هذه الحياة الصاخبة الشاقة علمته كثيرًا من الحكمة، الأمر الذى جعله يعتقد أن على المرء أن يسير وفق ما تراه نفسه وطبيعته دون قلق أو خوف من آراء الآخرين. ويقول إن ميكافيللى زهد السلطة ووجد نفسه أكثر رضًا مع الحب والضحك والسعادة. وهذا

عروض موجزة

الرأى سيكون مثيرًا وغريبًا بالنسبة لأناس كثيرين اعتبروا ميكافيللى فيلسوف الشر وليس فيلسوفًا اخلاقيًا كما يقول المؤلف. ورغم كل شىء فإن قراءة فكر ميكافيللى امر ضرورى، فهو رأى هذا الفكر - مازال حتى الآن لديه ما يقوله بشأن طبيعة السلطة. والسياسيون بالنسبة له هم دعاة الوهم الذكى والذين لا مكان لديهم للعواطف. إن السياسة فى نظر ميكافيللى، هى استغلال للضعف الإنسانى وكذلك للقسوة البشرية.

□ □ □

Late victorian Holocausts
(هولوكوست نهاية العصر الفيكتورى)
Mike Davis
Verso, 2001, 462PP., £20.00.



فى نهايات العصر الفيكتورى تعرض العالم لموجتين صاعقتين من المجاعات والجفاف اكتسحتا مناطق كثيرة من العالم آنذاك.

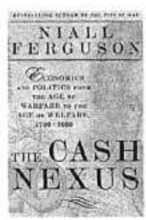
وقعت المجاعة الأولى فى الفترة من ١٨٧٦ حتى ١٨٧٩ ثم جاءت الثانية فى الفترة من ١٨٩٦ - ١٩٠٠. وكانت اشد الدول تضررًا منها الهند والصين والبرازيل، ويقدر الخبراء بأن ما يتراوح بين ٣٠ إلى ٦٠ مليون شخص ماتوا فى هذه الدول وحدها نتيجة لذلك. وقد وقعت مجاعات أقل شأنًا من تلك السابقة فى فلسطين وأمريكا الجنوبية وكوريا وأثيوبيا. ويعتقد بعض المؤرخين أن ضحايا هذه المجاعات أكثر عددًا من ضحايا أية كوارث كبرى فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين باستثناء الموت الأسود. ويقول المؤلف انه ربما يكره البعض، يقصد اليهود، أن يطلق لفظ هولوكوست على أية كارثة باستثناء ما حدث فى عهد النازى، لكن هذه المجاعات هى هولوكوست أو عملية إبادة حقيقية.

إن هناك سببين لهذه الكوارث، الأول: الأحوال المناخية السيئة وخاصة إعصار الڤينو والذى يعنى حرفيًا المسيح الطفل، والذى اكتشفه العلماء فى نهاية الستينيات من القرن العشرين فقط، والسبب الثانى وهو الأهم: سياسى، فقد شهدت تلك الفترة حركة استعمارية كاسحة قادتها بريطانيا، الامبراطورية التى لم تكن تغيب عنها الشمس آنذاك، وسيطرت من خلالها على مناطق عديدة وشاسعة من العالم وقد ربطت الدول الاستعمارية خاصة بريطانيا وفرنسا هذه الدول المحتلة بها وبعد أن كانت تلك المستعمرات فى السابق تعتمد ذاتيًا على نفسها أصبحت تابعة للدول الاستعمارية التى استولت على كل المواد الخام لصالح مصانعها.

ويتحدث الكتاب تحت عناوين لافتة مثل التاريخ السرى للقرن التاسع عشر عن شرور الرأسمالية التى جاء بها الاستعمار إلى ما سيصبح بعد ذلك العالم الثالث. وهو لا يكتفى فقط بالحديث عن الأحوال المناخية السيئة كسبب للكوارث، كما يعتقد كثير من المؤرخين، بل يتحدث بالتفصيل عن الأسباب السياسية. وللحق فإن أمارتياسين الاقتصادى الهندى الفائز بجائزة نوبل فى الاقتصاد كان أول من تحدث عن أن الناس من النادر أن يموتوا فقط، لأنه لا يوجد طعام حولهم، ولكنهم يموتون لأن هناك هياكل اقتصادية وشبكات اجتماعية تتسبب فى حدوث المجاعات.

□ □ □

The Cash Nexus: Money And Power in the Modern World
(المال والسلطة فى العالم الحديث)
Niall Ferguson
Allen Lane, 2001, 553PP., £20.00



الفكرة الرئيسية التى يدور حولها الكتاب للمؤلف والمؤرخ البريطانى البارز نيال فيرجسون هى الحتمية الاقتصادية. وهناك تساؤلات داخل هذه الفكرة: هل الاقتصاد هو البنية الأساسية والسياسة هى البنية الثانوية المترتبة على ذلك، وهل المال هو الذى يصنع كل ما حولنا فى العالم، وهل هو مصدر السلطة.. ويحاول فيرجسون أن يناقش كل ذلك من خلال دراسة الافتراض الأساسى لفلسفة كارل ماركس القائم على الحتمية الاقتصادية. وللإجابة عن هذه التساؤلات يأخذ فيرجسون القارئ فى رحلة طويلة ليشير أولاً إلى أن هناك بعض الحقيقة فيما يتعلق بالحتمية الاقتصادية فالمؤسسات الاقتصادية التى كانت لدى بريطانيا فى القرن السابع عشر هى التى مكنت البلاد من هزيمة فرنسا فى المعركة الطويلة للسيادة على العالم فى الفترة من ١٦٨٨ حتى ١٨١٥، ثم يقول إن هناك مشابهة بين هذا النجاح البريطانى فى الماضى وبين الانتصار الأمريكى على الاتحاد السوفيتى فى الحرب الباردة، ففى الحالتين فازت الدولة التى لديها سوق أسهم متطورة وقدرات مالية تساعد فى تحقيق النصر العسكرى.

إن الدور الاقتصادى فى التاريخ لا شك فيه لكن المؤلف يعتقد أن فى الأمر سوء فهم. ويقول إن السياسة هى الأساس والاقتصاد هو الثانوى، فالتدفق النقدى ربما كان ضروريًا لشرح أحوال العالم الحديث، لكن ذلك ليس كل القضية ويشير إلى أن الكساد العظيم الذى ضرب العالم فى الثلاثينيات من القرن العشرين على سبيل المثال لم يؤد إلى ظهور هتلر كما كان مؤرخون ومفكرون كثيرون يعتقدون لأن النازى كان قد ظهر قبل ذلك. ويشير إلى أمثلة عديدة على صواب فكرته.

إن فيرجسون مقتنع بأن التاريخ الإنسانى ودوافع الجنس والعنف والسلطة أكثر أهمية من الاقتصاد وهو يفضل فرويد وديستوفيسكى لكى يعرف الطبيعة البشرية عن طريقها أكثر من كينز أو ميلتون فريدمان وهما من أشهر الباحثين الاقتصاديين.

ويشير إلى أنه فى كل يوم نلاحظ أن هناك من البشر من يضحى بمصلحة اقتصادية من أجل دوافع أخرى. والمسألة برمتها دار حولها جدل كبير، وفى هذا الكتاب فإن فيرجسون يعطى أدلة واضحة وقوية داعمة لوجهة نظره.

□ □ □

Islamic Archteecure: Form, Function Meaning
(العمارة الإسلامية: الشكل، الوظيفة، المعنى)
Robert Hillenbrand
Cairo, Auc Press, 2000, 664 PP., L.E. 150



مؤلف هذا الكتاب واحد من أعظم المتخصصين فى العمارة الإسلامية فى العالم، وهو يقدم نصًا ضخمًا بالغ الروعة والجمال للعمارة الإسلامية على مدى تاريخها وتنوع مجالاتها، والكتاب لا يسير على خطى الكتب السابقة عن العمارة الإسلامية التى تهتم بإعطاء سجل زمنى للأعمال الشهيرة فى هذا المجال، بل إنه يغوص فى أعماق العمل ويحاول الإحاطة به فنيًا وتاريخيًا ودينيًا. ويتضمن الكتاب فصولاً عن العمارة الدينية والعمارة العلمانية ويحتوى على ١٥٠٠ من الرسومات والصور والتوضيحات بينها ٣٠٠ من الرسوم ثلاثية الأبعاد لمبان كاملة.

ولأن هذا الكتاب بالغ العمق والإحاطة بموضوعه، فقد أصبح المرجع الرئيسى والدليل الشامل حول مواضيع العمارة الإسلامية. وقد اعتبره النقاد أحد أهم الكتب التى تناولت موضوع العمارة الإسلامية فى القرن العشرين بأكمله. والمؤلف يعمل أستاذًا للفن الإسلامى فى جامعة أدنبرة فى اسكتلندا.

□ □ □

The Cairo Heritage: Essays in Honor of Laila Ali Ibrahim
(تراث القاهرة، مقالات فى تكريم ليلى على إبراهيم)
Edited By Doris Behrins Abouseif
Cairo, Auc Press, 2000, 340 PP., L.E. 80



يضم الكتاب ٢٠ مقالة تكريمًا للباحثة المصرية فى مجال الفن والعمارة الإسلامية ليلى على إبراهيم. وكتاب هذه المقالات مجموعة متميزة من الباحثين فى التاريخ الإسلامى وفى الثقافة والعمارة الإسلامية، وكذلك فى الحفاظ على التراث الإسلامى. ويقع الكتاب فى ٤ أجزاء، الأول تاريخى يتضمن دراسات عن خطط المقريزى وعن الشئون الأسرية والأوقاف فى العهد المملوكى، بينما يتناول الجزء الثانى التراث المعمارى والحضرى للقاهرة، ويتضمن العمارة الإسلامية والمصرية فى العهد المملوكى. أما الجزء الثالث فيتناول فنون الزخرفة، وتتحدث فيه المقالات عن صناعة الفخار المملوكية والزجاج المطلى.

ويتحدث الجزء الرابع عن الحفاظ على التراث المعمارى للقاهرة ويناقش الجوانب المحيطة بذلك والتعقيدات الاقتصادية، والموقف الحالى لمدينة القاهرة التاريخية.

□ □ □

اجتمـــــاع

علم الاجتماع السياسى

شعبان الطاهر الأسود

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

عن علاقة التأثير المتبادلة بين الظواهر السياسية والظواهر الاجتماعية، والتداخل بينهما قد لا يُرى على السطح. لكن تأثير السياسى الفوقى على الاجتماعى الشعبى مما لا يمكن إنكاره.

■■■

Endangered Daughters: Discrimination and Development in Asia

(بنات فى خطر: التفرقة والتنمية فى آسيا)

Elisabeth Croll

Routledge, 2000, 224 PP., £ 14.99

تحلل المؤلفة الآثار الاجتماعية الضارة التى ترتبت على السياسات التنموية فى الصين والهند. ففى الصين أدت سياسة «طفل واحد لكل أسرة» التى بدأت فى السبعينيات إلى إصرار كثير من الأسر على أن يكون هذا الطفل ذكرًا وليس أنثى، مما أدى إلى عمليات إجهاض ووأد للإناث.

وقد بدأ الاهتمام يزداد بمخاطر هذا الخلل فى التوازن الديموجرافى، حيث يزداد الآن عدد البنين عن البنات بدرجة عالية مما يهدد أمن المجتمع.

■■■

Purified by the Fire: A History of Cremation in America

(التطهر بالنار: تاريخ حرق جثث الموتى فى أمريكا)

Stephen Prothero

University of California, 2000, 280pp., $ 27.50

أصبح الناس فى المجتمع البريطانى يفضلون بشكل متزايد أن تحرق جثثهم بعد الموت على أن تدفن فى الأرض، حتى وصلت نسبة حرق الموتى فى بريطانيا إلى ٧٠٪. بينما لم تتعد النسبة فى أمريكا ٢٥٪، حيث يفضل الناس الدفن على الطريقة التقليدية. وقد تبين للمؤلف أن الموضوع يتضمن صناعة مربحة يقف وراءها تجار كبار يدافعون عن الطريقة التقليدية. أما أنصار الحرق، فيعددون المزايا الاجتماعية والبيئية لطريقتهم، التى لا تكلف أسرة المتوفى النفقات الباهظة ولا الزيارات المتتالية للمدافن.

اقتصـــــاد

الأموال

أبو جعفر الداوودى

القاهرة: مركز الدراسات الفقهية والاقتصادية، ٢٠٠٠

يهتم الكتاب بتعريف ما الذى يعنيه الاقتصاد فى الإسلام، ويقدم حلولاً لبعض المشكلات الاقتصادية من منظور إسلامى، وأهمها بطبيعة الحال، تلك المتعلقة بعمل البنوك والفوائد والربا.. إلخ.

■■■

الفقر وتوزيع الدخل فى الوطن العربى

عبد الرزاق الفارسى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠

يبحث الكتاب فى ظاهرة الفقر وحدوده داخل أقطار الوطن العربى، وبحسب إحصاءات مؤسسات رسمية اقتصادية دولية، فإن نسبة كبيرة من سكان الوطن العربى يعيشون تحت مستوى الفقر.

والمؤلف يحاول اكتشاف خصائص الفقر والفقراء فى الوطن العربى، ويدرس التفاوت الرهيب فى توزيع الدخل بين أقطاره والسياسات المتبعة لمواجهته، وأثر النمو الاقتصادى فى تخفيف حدته.

■■■

India Unbound

(الهند تتحرر من قيودها)

Gurcharan Das

Knopf, 384pp., 2001, $ 27.50

بعد عشر سنوات من الإصلاح الاقتصادى فى الهند، والذى أطاح بشعارات الاكتفاء الذاتى والتخطيط الاقتصادى، يحتفى هذا الكتاب بنتائج السياسة الرأسمالية الجديدة التى أفرزت قطاعًا ناجحًا فى تكنولوجيا المعلومات، ومعدلات نمو أسرع.

المؤلف وهو رئيس سابق للفرع الهندى من شركة «بروكتر آند جامبل» المتعددة الجنسية، يعتقد أن الرأسمالية سوف تعالج الفساد الذى استشرى فى ظل النظام الاشتراكى، حيث إن شدة المنافسة تجعل من الوساطة والمحسوبية أمورًا مكلفة ومهدرة للربح.

■■■

Creative Destruction: Business Survival Strategies in the Global Internet Economy

(التدمير الخلاَّق: استراتيجيات البقاء فى اقتصاد الإنترنت العالمى)

Lee Mcknight, Paul Vaaler, Raul Katz (eds)

MIT Press, 2001, 250 pp, $ 24.95

منذ خمسين عامًا، خرج جوزيف شومبيتر بمقولة أو نظرية «التدمير الخلاَّق» قاصدًا أن العمليات المرتبطة بالمجتمع الرأسمالى تتضمن باستمرار ابتكارات تكنولوجية جديدة وأكثر كفاءة تدمر الأساليب التكنولوجية الأقدم، وتحل محلها.

السؤال فى هذا الكتاب هو: هل ما يحدث الآن فى الصناعات المرتبطة بالانترنت والاتصالات يعد دليلاً على «التدمير الخلاَّق» أم أنه دليل على الفوضى؟

يقدم الكتاب كذلك نصائح للشركات والحكومات فى كيفية مواجهة تحديات هذه المرحلة وكيفية اقتناص الفرص التى تتيحها.

■■■

The Wind of the Hundred Days: How Washington Mismanged Globalization

(رياح المائة يوم: كيف أساءت واشنطون إدارة العولمة)

Jagdish Bhaguati

MIT Press, 2000, 408 pp., $ 32.95

يعد جاجديش باجواتى من أهم الاقتصاديين المدافعين عن العولمة والتجارة الحرة. ويقول فى هذا الكتاب أن فضيحة كلينتون الحقيقية تتمثل فى فشله فى إدارة العولمة الذى نتج عنه تناقض بين نجاح السياسة الاقتصادية الداخلية والفشل الذريع على الجبهة الخارجية.

يحلل باجواتى كذلك أزمة النمور الآسيوية، وينتقد الإدارة الأمريكية فى تحرير التجارة التى أدت إلى أحداث سياتل، وهو يرى أنه كان من الممكن تجنبها بتفعيل دور منظمات مثل «منظمة العمل الدولية» بدلاً من «منظمة التجارة العالمية».

إعــــلام

Me And Ted Against The World: The Unauthorized Story of the Founding of CNN

(أنا وتيد فى مواجهة العالم: القصة غير المعتمدة لإنشاء محطة الـ سى. إن. إن)

Reese Schonfeld

Harper Collins, 2001, 407 pp., £ 26.00

اشترك ريز شونفلد مؤلف الكتاب مع «تيد ترنر» فى تأسيس محطة الـ سى. إن. إن، كما كان أول رئيس لها للمحطة فصله ترنر عام ١٩٨٢. وهو يقوم هنا بتوجيه نقد لاذع للمستوى الذى آلت إليه المحطة فى السنوات القليلة الماضية. بعد أن وصلت لقمة مجدها أثناء تغطية حرب الخليج.

فاليوم تواجه سى إن إن منافسة خطيرة من مقلديها مثل إم. إس. إن. بى سى. وفوكس نيوز، بالإضافة إلى انخفاض فى شعبيتها، وقد تمثل أكبر فشل للمحطة فى تغطية انتخابات الرئاسة الأمريكية لعام ٢٠٠٠. ويقول ريز أن المحطة التى أحدثت ثورة فى الصحافة الإخبارية التليفزيونية أصبحت بطيئة وسطحية، فقد توسعت فى جميع أنحاء العالم أفقيًا على حساب العمق والاستيعاب الحقيقى.

■■■

The First Casuality: The War Correspondent as Hero and Myth - Maker from the Crimea to Kosovo

(الضحية الأولى: المراسل الحربى بطلاً وصانعًا للخرافة، منذ حرب القرم حتى كوسوفا)

Knightley Phillip

Propn Books, 2000, 585 pp., £ 15.00

هذه قصة المراسلين الحربيين والمؤثرات العديدة التى يمكن أن تشوه أو تحول دون وصولهم إلى الحقيقة. والمراسل هنا يقوم بالبحث عن الحقيقة كما يلعب دور المروج لحكومته (أو أى حكومة أخرى). وأحيانًا مايشترك مع حكومته فى خداع العدو بنشر أكاذيب أو بالتجسس لصالحها.

■■■

Veils and Daggers: A Century of National Geographic's Representation of the Arab World

(أحجبة وخناجر: قرن من تناول العالم العربى فى مجلة الناشونال جيوجرافيك)

Linda Steet

Temple Up, 2000, 194 PP., £ 18.50

على مدى قرن كامل، تناولت مجلة الناشونال جيوجرافيك العالم العربى فى أعداد كثيرة. هذا الكتاب يحلل الصورة التى أنشأتها وقدمتها المجلة عن الرجال والنساء العرب والثقافة العربية والإسلامية، ونوع الخطاب الاستشراقى المتصل بتلك الصورة.

تاريــــخ

العلم العربى فى حضارة الإسلام

عبد الحميد صبرة

الكويت: دار قرطاس، ٢٠٠٠

تاريخ نشأة العلم عند العرب وتطوره وتأثير الإسلام فيه، وأهم مراكز الإشعاع العلمى فى التاريخ العربى والإسلامى.

■■■

Islam's Black Slaves: The Other Black Diaspora

(الرقيق الأسود فى الإسلام: الشتات الأسود الآخر)

Ronald Segal

Farrar, Straus, & Giroux, 2001, 273pp., $25.00

يتناول الكتاب تاريخ الرق الأسود فى العالم الإسلامى والذى بدأ قبل الرق الأطلنطى بزمن طويل، كما أن أهدافه كانت مختلفة، حيث لم يكن العبيد يجلبون فقط من أجل العمل فى الحقول، ولكن كانوا يعملون كجنود وحراس وجوارٍ وطهاة وموسيقيين. يبين الكتاب كيف أن الحدود التى تفصل بين الحرية والعبودية كانت أكثر سيولة عما كانت عليه فى الغرب. فقد كان السلطان العثمانى يزوج بناته وأخواته إلى العبيد (المماليك) كما كان من الممكن جدًا أن يصل هؤلاء العبيد إلى مناصب قيادية فى الدولة مثل الظاهر بيبرس ومثل غيره من الوزراء وقادة الجيش والحكام الإقليميين.

يصل الكتاب فى النهاية إلى تحليل أوضاع الرق فى الوقت الراهن، حيث مازال قائمًا فى السودان وموريتانيا، ويلقى باللوم على الاستعمار الفرنسى فى الإبقاء عليه فى الأخيرة. كذلك يربط المؤلف بين الرق فى الإسلام وبين أسباب انتشار الإسلام بين الأمريكيين السود وقيام منظمة «أمة الإسلام» فى الولايات المتحدة الأمريكية.

■■■

Battle of Wits: The Complete Story of Codebreaking in World War Two

(معركة الذكاء: القصة الكاملة لفك الشفرات فى الحرب العالمية الثانية)

Stephen Budiansky

Free Press, 2000, 448 PP., $ 27.50

خلال السنوات الخمس الماضية، أفرج الجيش الأمريكى والحكومة البريطانية عن مليون ورقة من وثائق الحرب العالمية الثانية المتعلقة بفك الشفرات، هذا الكتاب يقدم لأول مرة تاريخ الحرب العالمية الثانية من خلال تلك الوثائق، التى تبين كيف حسمت عديد من المعارك لا بسبب التفوق

العسكرى لطرف على الآخر، ولكن بسبب تمكنه من معرفة نواياه وقراءة خططه.

تـــــراث

مكائد النساء

فوزى شعبان

القاهرة: دار الأحمدى للنشر، ٢٠٠١

سياحة فى كتب التاريخ والتراث، عن النساء ومكائدهن، والنساء عنده لسن فقط العاديات منهن، فهو يبدأ من نساء الأنبياء وعلاقتهن بأزواجهن وبغيرهن من النساء، وتكاد تجزم مع المؤلف أن الغيرة هى المحرك الرئيسى للمرأة أيًا كانت، وأن هدفها دائمًا هو إثارة غيرة زوجها وإبعاد منافساتها عنه.

تعـــــليم

العربية والتحديث.. اتجاهات التأليف اللغوى فى العراق

محمد عبد المطلب البكاء

بغداد: دار الشئون الثقافية العامة، ٢٠٠١

عن اللغة قديمًا وحديثًا، وطرق تدريسها فى المدارس، ومشكلات النحو والمصطلحات العربية وبدائلها الأجنبية فى المجتمع العراقى، وإلى جانب الرصد، يسعى المؤلف إلى وضع تصورات لرفع مستوى اللغة العربية فى العراق.

■■■

دفتر أحوال الجامعات المصرية

محمود عارف

القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠١

رؤية صحافية للأوضاع التعليمية عبر ٣٢ عامًا عمل خلالها المؤلف محررًا للتعليم، وهو هنا يطرح القضايا التعليمية من منظور استراتيجى بهدف إصلاح المسار التعليمى والاستعداد للمستقبل.

رواية وأدب

الآثار الكاملة مع تفسيراتها

فرانز كافكا

دمشق: إبراهيم وطفى، ٢٠٠٠

يضم الجزء الأول من أعمال كافكا أربعة أعمال تحت عنوان «الأسرة» بالإضافة إلى دراسات ومقالات عن هذه الأعمال.

■■■

التوءم المفقود

سليم مطر

عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١

تحكى الرواية قصة التطرف فى مواقف البطل وانتقاله الحاد بين الشيوعية فى أقصى حالاتها والبحث الدءوب عن اليقين الروحى والصفاء النفسى، وهى عبر شخوصها وعلاقاتهم والمشاحنات بينهم، تعبير عن حالة التطرف فى المواقف والأفكار التى تقود حتمًا إلى انفصام فى الشخصية، وهى حالة يعيشها عالم عربى ممزق بين شعارات ترددها أجهزة إعلامه ليل نهار، وقدراته التى لا تقارب بحال شعاراته.

■■■

فتنة الرءوس والنسوة

سالم حميش

بيروت: دار الآداب، ٢٠٠١

رواية جديدة للروائى التونسى المقيم فى ميونيخ بألمانيا، وهى مغامرة جديدة فى اللغة وفى عالم المؤلف الذى يحتشد بالشخوص والعلاقات وربما المؤامرات. المؤلف كما فى روايته السابقة «الآخرون» ينهل من تجاربه العميقة بين الحياة والناس.

■■■

لحم السعادة

محمد العبد الله

بيروت: دار الفارابى، ٢٠٠٠

كتابات تجمع بين الحزن الشفيف والسخرية اللاذعة، وهى سخرية تقترب من الكوميديا السوداء عن حال الناس فى الجنوب اللبنانى، وضغوط الاحتلال الجاثمة التى تحيل حياة الناس إلى جحيم يومى لا يطاق.

■■■

هليوبوليس

مى التلمسانى

القاهرة: شرقيات، ٢٠٠١

تصف الرواية قصة حياة عائلة من عائلات حى مصر الجديدة الراقية، والبطولة هنا للمكان، ليس لناسه أو لأشيائه، عين مراقبة تلاحظ وتلتقط أدق التفاصيل كى تحدثنا عن أشياء تتهاوى وزمن يمضى وعالم يتصدع ومصائر تهوى.

■■■

Martyr's Crossing

(معبر الشهداء)

Amy Wilents

Simon & Schuster, 2000, 311pp., $24.00

الرواية الأولى لمراسلة مجلة «النيويوركر» السابقة فى إسرائيل. وتحاول فيها أن تجسد للقارئ مدى تعقد الموقف السياسى والإنسانى والأخلاقى الذى يواجهه يوميًا الفرد العادى سواء على الجانب الإسرائيلى أو الجانب الفلسطينى. ومعبر الشهداء الذى يأتى فى عنوان الرواية هو نقطة تماس إسرائيلية على طريق رام الله، والذى يجب أن يعبره الفلسطينيون الراغبون فى الوصول إلى القدس.

تبدأ الرواية حين يتم غلق المعبر على أثر حادث انفجار حافلة فى القدس، بينما تريد سيدة فلسطينية العبور إلى القدس بطفلها المصاب بالربو لتتمكن من معالجته فى مستشفى هناك، وعندما يرفض الضابط الإسرائيلى تمريرها يموت طفلها، وتتداعى الأحداث والشخصيات، التى تحاول المؤلفة أن تبين مواقفها ومنطلقاتها الأخلاقية والمبدئية المتباينة.

ســــياســــة

البوسنة والهرسك وأشواك السلام

زكريا عبيد

القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠١

بعد خمس سنوات من إقرار السلام فى البوسنة والهرسك، يحاول المؤلف أن يستقرئ محاولة لتحليل الأوضاع هناك وعلاقات هذه الدولة بجيرانها فى البلقان وأوروبا سعيًا من أجل سلام نهائى بين طوائفها وفصائلها.

■■■

الدولة والكنيسة

رأفت عبد الحميد

القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١

هذا هو الجزء الثالث من كتاب المؤلف فى هذا الموضوع الشائك عن علاقة الدولة بالكنيسة وعنوانه «قيصر والمسيح»، والكتاب يتناول فترة مهمة وحرجة فى تاريخ الكنيسة شهدت توترًا هز أركان العلاقة بين الطرفين.

■■■

العلاقات الكويتية اللبنانية

حمزة عليان

الكويت: مركز البحوث والدراسات الكويتية، ٢٠٠٠

دراسة فى العلاقات بين بلدين على صغر وضآلة سكانهما، يلعبان دورًا بالغ التأثير فى سياسة المنطقة وثقافتها، وقد تعرضت لبنان لحرب أهلية طويلة أثرت فى نموها وتطورها طوال ربع قرن، كما تعرضت الكويت لعملية غزو من دولة عربية شقيقة، وقد أثرت هذه الأحداث على علاقات البلدين بجيرانهما وعلاقتهما ببعضهما البعض.

■■■

التيارات السياسية فى إيران

سعيد برزين

أبو ظبى: مركز الإمارات للدراسات، ٢٠٠٠

تيارات سياسية عديدة أثرت فى سياسة إيران وفى المجتمع الإيرانى، وهى تيارات تمايزت حسب المرحلة التى عاشتها إيران أيام الحكم الامبراطورى، ثم بعد الثورة الخمينية، حتى الإصلاحات الخاتمية الأخيرة.

■■■

المؤسسة العسكرية فى إسرائيل

أحمد السلمانى

بيروت: مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، ٢٠٠١

يتناول الكتاب المؤسسة العسكرية الإسرائيلية ويحاول أن يفسر آليات عملها بعد نصف قرن من إعلان قيام الدولة، ويتتبع فى خمسة فصول تاريخ هذه المؤسسة وهيكلها التنظيمى وعقيدتها العسكرية والعلاقات بينها وبين المؤسسة المدنية، ويستشرف مستقبل هذه المؤسسة وآثار عملية التسوية السياسية عليها.

■■■

أيام مع الرئيس هوارى بو مدين

محيى الدين عميمور

الجزائر: دار موفم، ٢٠٠٠

رافق عميمور وزير الإعلام والثقافة الحالى فى الجزائر الرئيس بو مدين فى مسيرته النضالية والرئاسية، وهو هنا يحكى عن هذه المسيرة سياسيًا وإنسانيًا.

■■■

براءة سياسية

أحمد شرف

القاهرة: مركز الحضارة للنشر، ٢٠٠١

عن أحداث مظاهرات الطلبة عام ١٩٦٨، وهى المظاهرات الشهيرة التى أعقبت أحكام الطيران، وهو شهادة تاريخية لشاهد عيان ومعايش للأحداث التى تفجرت ببراءة وعفوية بين طلاب الجامعة فى مصر، الذين هالتهم الهزيمة، وروعهم أن يكون العقاب مخففًا إلى هذا الحد.

■■■

Stars and Strife: The Coming Conflicts Between the USA and the European Union

(الصراعات القادمة بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبى)

John Redwood

Palgrave, 2001, 202 pp., £ 39.95

يتناول المؤلف البريطانى قضية الاتحاد الأوروبى من زاوية بريطانية متشككة، حيث يؤكد مرارًا على أن علاقات بريطانيا الجيدة مع الولايات المتحدة ونظامها الليبرالى يتعارض مع الاتحاد الأوروبى الفيدرالى، الذى يؤيد السياسات الحمائية ويعادى الولايات المتحدة.

بل ويرى أيضًا أن مصلحة بريطانيا تتحقق بالاشتراك فى منظمة النافتا (اتفاقية شمال الأطلنطى للتجارة الحرة) حيث تتميز بالمرونة والحداثة كما تقوم على الاقتصاد الجديد، بينما الاتحاد الأوروبى ينتمى للعالم القديم، حيث يقوم فى جوهره على الصناعات التقليدية مثل الفحم والحديد والمواد الغذائية.

■■■

Eastword to Tartary: Travels in the Balkans, the Middle East, and the Caucasus

(شرقًا إلى التتار: رحلات فى البلقان والشرق الأوسط والقوقاز)

Robert D. Kaplan

Random House, 2000, 384PP., $ 26.95

اشتهر روبرت كابلان بكتبه وتحليلاته السياسية للمناطق المتوترة من العالم. وفى هذا الكتاب يستعرض المؤلف منطقة «الشرق الأدنى الحديث» التى تضم من وجهة نظره البلقان والشرق الأوسط ووسط آسيا. ويرى أن مستقبل العالم سوف يحدده مستقبل الصراع فى هذه المنطقة المتفجرة من العالم.

يزور المؤلف سوريا والأردن وتركيا ومجموعة دول القوقاز، كما يذهب إلى رومانيا وبلغاريا التى يسميها «العالم الثالث الأوروبى».

شـــــعـر

الأيقونات والكونشرتو

محمد القيسي

عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠

القسم الأول من الديوان، حنين وغنائية مباشرة لأرض الذاكرة الأولى: فلسطين المحتلة، والقسم الثاني تتعدد فيه أغراض الشاعر وموضوعاته، مراوحًا بين قصيدة التفعيلة التي تعتمد قافية ظاهرة، فيما ترتكز قصائد أخرى على موسيقى الألفاظ ودلالاتها.

■■■

المثاقيل

سليم بركات

بيروت: دار النهار، ٢٠٠٠

مجموعة شعرية جديدة، يواصل فيها المؤلف الإعلان عن بيانه اللغوي ومغامراته المعجمية التي اعتادها في أعماله الشعرية والروائية أيضًا، فالمؤلف شغوف بالمعاجم، حريص على استدعاء ما هُجِر من الكلام لا ما شاع منه، صانعًا بتلك الوسيلة المرهقة عالمه الأدبي الخالص.

■■■

إلياذة هوميروس.. الجزء السادس عشر

ترجمة: فالح حسن عبد الرحمن

بيروت: دار رياض نجيب الريس، ٢٠٠٠

يتناول هذا الجزء مقتل باتروكلوس، ويحافظ المترجم على الأسلوب الهوميري دون أن يخلو من النفس الشعري ذي الإيقاع النثري الحسي، مواكبًا المواقف الدرامية المشحونة التي تشتمل عليها الإلياذة.

■■■

Cairo Traffic

(زحام القاهرة)

Lloyd Schwats

University of Chicago Press, 2000, 83pp., $26.00

مجموعة من القصائد المتنوعة، اختار لها الشاعر عنوان «زحام القاهرة» لأنه يرى العالم على أنه مشهد يماثل الاختناق المروري الذي يحدث في شوارع القاهرة، فهو مشهد كوميدي ومؤلم في ذات الوقت، تتداخل فيه وتتشابك الأصوات في صراع مستمر. زار الشاعر مصر كما زار البرازيل وروسيا، وفي مصر طلب من «أبو الهول» أن يجيب له عن بعض ألغاز الحياة، ثم تركه قبل سماع الإجابة لأنه مؤمن أننا فقط القادرون على حل ألغاز وتناقضات حيواتنا.

فـكـــــر

الأخـلاقـيـات الإسـلامـيـة وأسس الديمقراطية

مؤلفون عرب وفرنسيون

الدار البيضاء: دار مقدمات، ٢٠٠٠

المشاركون ينتمون إلى تيارات فكرية وتوجهات مختلفة إلى حد التمايز، وهو ما يمنح الكتاب نكهته الخاصة، فالديمقراطية تطرح هنا من وجهات نظر غربية وإسلامية بما يثير الموضوع، وبين المشاركين في الكتاب وجيه كوثراني ومحمد شحرور وعبد الله النعيم وعابد الجابري وغيرهم.

■■■

العلمانية بين الإسلام والعقل والتأسلم

رفعت السعيد

دمشق: دار الأهالي، ٢٠٠١

تثير العلمانية التباسًا بين جمهور الناس، فهي عند البعض مرادف الإلحاد، وعند آخرين إعمال للعقل ومحاولة لإبراز طاقاته الخلاقة في النقد والإبداع، وبين الرافضين لمفهوم العلمانية باعتباره ضد الدين، فئة يسميها المؤلف المتأسلمين، ويعني بهم أصحاب التوجهات السياسية التي ترتدي مسوح الدين وهي التي يتناولها في كتابه.

■■■

القاهرة تبحث عن مستقبلها

محمد الجوادي

القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠١

يرى المؤلف أن القاهرة في عام ٢٠١٠ ستصبح مدينة العالم العربي الأدبية لاعتبارات عديدة، أهمها أنها المدينة الكبرى الوحيدة التي تمثل تاريخ الإنسانية كله، والتي يتجلى فيها أهم ما أنجزته الحضارة في الفنون والآداب وغيرها، فضلاً عن ميزات موقعها الجغرافي وميراثها الحضاري.

■■■

المسيحية، الإسلام، والنقد العلماني

وليم الشريف

بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠٠

دعوة إلى التفكير والتأمل وإعادة النظر في عديد مما يُظن أنه ثوابت، من أجل تفعيل الحوار الإسلامي المسيحي، وتحقيق درجة أكبر من العدل والسلام والحرية بين الجماعات وفق أسس عقلانية وموضوعية.

■■■

جادة الرؤيا ـ مقالات نقدية حول الشرق والغرب

أمين الريحاني

ترجمة: هنري ملكي وأنطوان عبيد

بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

مجموعة من المقالات لأمين الريحاني كتبها في عشرينيات القرن ولم يسبق نشرها، وهي تعد محاولة أولى للتصدي لإشكالية المقارنة بين خصائص المجتمع الشرقي وسمات المجتمع الغربي، وهي الإشكالية التي شغلت كثيرًا من الأدباء والمفكرين في مراحل لاحقة.

■■■

دراسات في الحداثة وما بعد الحداثة

عصام عبد الله

القاهرة: المؤلف نفسه، ٢٠٠١

خمسة فصول يتتبع فيها المؤلف الإرهاصات الأولى للحداثة، فيعرض للرشدية اللاتينية بوصفها نقطة تحول في تاريخ الفكر الحديث، ثم بومبو ناتزي قديس الفلاسفة المحدثين، ويقدم في الفصل الثالث تحليلاً لآراء «هابرماس» أبرز الفلاسفة المدافعين عن الحداثة، ويخصص الفصل الرابع لجذور ما بعد الحداثة في الفلسفة المعاصرة ثم يعرض لعديد من الأفكار المهمة التي قيلت فيما بعد الحداثة.

■■■

رهانات النهضة في الفكر العربي

ماهر الشريف

دمشق: دار المدى، ٢٠٠٠

شغل موضوع النهضة ـ ومازال ـ عشرات المفكرين العرب، وفي أوضاعنا العربية المعاصرة التي بلغت حدًا من التردي لا يمكن إنكاره، فإن الحديث عن مشروع للنهضة يبدو مشروعًا، وهو حديث لا يبدأ من فراغ، وإنما من مراجعة نقدية تقويمية لمشاريع النهضة السابقة وهو ما يجتهد فيه المؤلف، الذي يشير إلى العلاقة بين انتكاسة مشاريع النهضة ونشأة الدولة التسلطية.

■■■

هويات متغيرة

مي يماني

بيروت: دار رياض نجيب الريس، ٢٠٠١

نشر الكتاب بالأصل باللغة الإنجليزية، وتأتي ترجمته العربية لتضع بين يدي القارئ العربي نصوصًا لا تنقصها الجرأة وشجاعة التناول، حيث تعرض المؤلفة السعودية لتطور مجتمعها عبر ثلاثة أجيال، وتعالج مسائل التعليم والاقتصاد والطموح السياسي وإشكاليات الهوية.

■■■

The Islamic Roots of Democratic Pluralism

(الجذور الإسلامية للتعددية الديمقراطية)

Abdulaziz Sachedino

Foreword by Joseph Montville

Oxford/ CSIS, 2000, 208 pp., $25.00

أصبحت اليوم الديانة الإسلامية ثاني أكبر ديانة في العالم، ومنذ عدة عقود تلح على جماعة المسلمين في كل مكان قضايا الاستقلال الوطني والهوية الثقافية والتحديث والتنمية والديمقراطية والتعددية. هذا الكتاب يتناول تلك القضايا المهمة معلنًا أن الطريقة التي ستعالج بها هذه المسائل إسلامياً سوف يكون لها أثر بالغ على السياسات العالمية في القرن القادم. ويؤكد المؤلف ضرورة فتح باب الاجتهاد وإعادة النظر في التفسيرات والتشريعات المتوارثة، كما يبين كيف أن الشريعة الإسلامية أصبحت مع الوقت عاكسة للمؤثرات السياسية والاجتماعية، بشكل نأى بها عن روح القرآن.

فكر ديني

أدب الاختلاف في الإسلام

محمد علي تسخيري وآخرون

الرباط: الإيسيسكو، ٢٠٠٠

يعد تسخيري واحدًا من العلماء الإيرانيين البارزين وثيقي الصلة باللغة العربية وآدابها، وهو من ناحية ثانية معني بتنشيط العلاقات الثقافية بين إيران وجيرانها العرب، وهو في مساهمته هنا مع آخرين، يطرح رؤى مستنيرة لأدب الاختلاف بين الفرقاء في الإسلام، أو الآخرين من ذوي الديانات والثقافات الأخرى.

■■■

الردة في الإسلام

حسن غريب

بيروت: دار الكنوز الأدبية

يحاول المؤلف أن يقرأ بطريقة جديدة مفهوم الردة في الإسلام، وما إذا كان هذا المفهوم موجودًا من قبل في الديانتين اليهودية والمسيحية، حيث يدرس مواقف الفرق الإسلامية من هذا المفهوم، كما يقرأ النصوص ذات العلاقة به في الديانات المختلفة.

■■■

Adam's Contract With Satan: The Legend of the Cheirography of Adam

(تعاقد آدم مع إبليس)

Michael E. Stone

Indiana University Press, 2001, $39.95

يوجد في الثقافات المسيحية الشرقية الممتدة من اليونان غربًا إلى جورجيا وأرمينيا شرقًا، اعتقاد بأن إبليس أو الشيطان قام بخداع آدم وحواء مرة ثانية على الأرض، عندما جعلهما يوافقان على إخضاع نسلهما تحت إمرته حتى «يولد الذي لا يولد ويموت الذي لا يموت». أي أن التخلص من هذا العقد سوف يحدث مع ميلاد المسيح. يتتبع المؤلف انتشار هذا الاعتقاد في مظاهره الفنية والشعبية، ويقارنه بالنظرة الغربية التي عبر عنها القديس أوغسطين، ويحلل تأثيره في النظرة الشاملة إلى الحياة والعالم.

فن تشكيلي

وجوه الحداثة في اللوحة العربية

أسعد عرابي

الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام، ٢٠٠١

لا يقدم هذا الكتاب نقدًا تطبيقيًا مباشرًا، ولا نقدًا انطباعيًا موازيًا للوحة، بل هو نقد أقرب إلى النص، يستفيد فيه المؤلف من موهبته وتجربته كفنان تشكيلي، ودراساته النظرية وإسهاماته النقدية والصحافية وجولاته في المعارض العربية والأجنبية، وهو ما يمنح كتابه ميزات إضافية يسد بها نقصًا في المكتبة التشكيلية العربية.

■■■

Leonardo Da Vinci: The Complete Paintings

(ليوناردو دافنشي: اللوحات الكاملة)

Pietro C. Marani

Abrams, 2001, 224 PP., $ 85.00

يحتوي الكتاب على ٢٠٠ صورة ملونة من اللوحات التي صورها ليوناردو دافنشي، ويصاحبها تحليل نقدي من أستاذ تاريخ الفن الإيطالي بيترو ماراني المسئول عن ترميم لوحة «العشاء الأخير».

يقول مارانى أن أسلوب ليوناردو فى تصوير الحركة والزاوية، واعتماده على الملاحظة العلمية ودراسته للنحت الكلاسيكى، جعلت من أعماله إعلانًا عن الازدهار الكامل لحركة النهضة.

ويقول عن الموناليزا: «موهبة ليوناردو تجعلنا نرى حركة الدماء تجرى من تحت جلد الوجه، ونرى قشعريرة الشفاه التى يصاحبها انقباض طفيف فى عضلات الوجه والذى ينبئ عن بداية ابتسامة».

■■■

Colour and Meaning

(اللون والمعنى)

John Gage

Thames and Hudson, 2000, 320 pp., £19.95

هل اللون ظاهرة فسيولوجية؟ هل له أثر على مشاعرنا؟ هذه الدراسة تتناول معنى اللون الذى يماثل اللغة من حيث إنه يقع فى السياق التاريخى الذى يختبر فيه. الكتاب يتابع المعنى الرمزى للألوان من خلال الفن التشكيلى منذ العصور الوسطى وحتى القرن العشرين.

متنوعات

أحدث صيحات الجمال. الزخرفة والنقش بالحناء

وفاء رضوان

القاهرة: دار الطلائع، ٢٠٠٠

يتناول الكتاب تاريخ استخدام الحناء، للتزين أو لعلاج بعض الأمراض، حيث كانت تستخدم لأمراض الضغط والصداع، كما تزينت بها النساء قديما، ووضعت فى أماكن عديدة من الجسم، وما يصاحب ذلك من النقوش، كما تعرض المؤلفة لأنواع الحناء التى تستخدم لصبغ الشعر وغيرها مما يستخدم للجلد.

■■■

استعادة حديقة الشلالات

عادل أبو زهرة

الإسكندرية: جمعية أصدقاء البيئة، ٢٠٠٠

خاضت جمعية أصدقاء البيئة معركة حقيقية لوقف بناء فندق فوق حديقة الشلالات ذات الموقع المتميز والأثرى فى آن معًا. المؤلف يعرض فى هذا الكتاب تفاصيل المعركة وأطرافها، وكيف تطور السجال بين الطرفين المتنازعين إلى أن وصل إلى القضاء الذى أنصف أصدقاء البيئة.

■■■

أكلة جديدة كل يوم

إبراهيم مرزوق

القاهرة: الدار الثقافية، ٢٠٠٠

مجموعة من الأكلات المتعددة، من المشهيات والوجبات الرئيسية والحلوى، التى تفيد ست البيت وتجدد مطبخها.

■■■

كيف تستثمر وقتك

دنيا سمك

القاهرة: سلسلة رلد وينت

إحدى مشكلات مجتمعاتنا العربية هى إهدار الوقت، وهى قضية سلوك وعادة قبل أن تكون قضية مؤسسات ونظم. المؤلفة تذكرنا بأهمية الوقت وتطرح سبلاً لشغله واستثماره بما يحقق أعلى عائد ممكن للشخص وللمجتمع.

■■■

لبنان

عبد الرءوف فضل الله

بيروت: دار النهضة العربية، ٢٠٠١

دراسة جغرافية عن الطبيعة اللبنانية والموقع الذى كان أحد أسباب التميز الحضارى والدور الثقافى الذى لعبته لبنان طوال تاريخها.

مذكرات وسير

الرحلة المنسية

يوسف بكار

عمان: دار الفارس، ٢٠٠٠

عن الشاعرة فدوى طوقان، طفولتها وتعليمها ونبوغها الإبداعى المبكر، وشواغلها التى استطاعت أن تعبر عنها فى نصوص شعرية خالدة.

■■■

ترحالات يحيى الرخاوى

يحيى الرخاوى

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١

ثلاثة مجلدات تضم الأعمال الكاملة لأستاذ الطب النفسى المشغول بالشئون العامة، وصاحب الرؤى فى الإبداعات الأدبية والنقدية. المجلد الأول يحمل عنوان: «الناس والطريق»، والثانى: «الموت والحنين» والثالث: «ذكر ما لا يقال».

■■■

نحن.. النساء المصريات

إنجى أفلاطون

القاهرة: لوتس للنشر، ٢٠٠١

طبعة جديدة من كتاب يحكى عن عدد من النساء المصريات الرائدات فى العمل السياسى والاجتماعى والأدبى والتربوى، بينهن عائشة التيمورية وزينب فواز وهدى شعراوى وملك حفنى ناصف ولطيفة الزيات ودرية شفيق ونبوية موسى وغيرهن. يتضمن الكتاب مقدمة كتبها المؤرخ عبد الرحمن الرافعى، عن دور المرأة فى المجتمع المصرى.

■■■

Indira: the Life of Indira Nehru Gandhi

(إنديرا: حياة إنديرا نهرو غاندى)

Katherine Frank

Harper Collins, 2001, 545PP. $19.95

حكمت إنديرا غاندى الهند لما يقرب من عقدين، وقد عنفتها الصحافة كثيرًا، خاصة بعد أن أصدرت قرارًا فى ١٩٧٥ يوقف العمل بالدستور ويعلن حالة الطوارىء فى البلاد.

هذا الكتاب يتناول حياتها كامرأة، مبينًا علاقاتها بأفراد أسرتها وأصدقائها وزملائها. تبين المؤلفة كيف عانت إنديرا طفولة وحيدة وفوضوية بسبب موت أمها المبكر وانشغال أبيها جواهرلال نهرو بالسياسة، ودخوله السجن أكثر من مرة. ثم تروى لنا باقى فصول حياتها التى غطت جزءاً كبيرًا من القرن العشرين حتى تم اغتيالها عام ١٩٨٠.

■■■

The Blood of Strangers: True Stories from the Emergency Room

(قصص حقيقية من غرفة الطوارىء)

Frank Hayler

Fourth Estate, 2001, 182PP., £ 10.00

يكتب المؤلف وهو طبيب يعمل فى غرفة الطوارىء بأحد المستشفيات عن مشاعره الغامضة أثناء عمله الذى يجعله يعايش أفرادًا وأسرًا بين لحظات الحياة والموت. يروى المؤلف أحداثا وحالات حقيقية رآها وتعامل معها أثناء عمله المثير، كما يتحدث عن أخلاق الأطباء وما تتميز به من استعلاء وعجرفة، وحالة الشعور بالأهمية التى تنتاب الطبيب والتى تصعب مقاومتها عندما تتعلق عائلات بأكملها بكل كلمة يتفوه بها.

■■■

The Man Who Became Sherlock Holmes

(الرجل الذى أصبح شرلوك هولمز)

Terry Manners

Virgin, £12.99

ظل الممثل جيرمى بريت يمثل دور شرلوك هولمز فى حلقات تليفزيونية لمدة تزيد على خمس عشرة سنة. وقد تأثرت حالته النفسية والعقلية بسبب استحواذ الشخصية التى يمثلها على شخصيته الطبيعية. الكتاب يتناول شخصية جيرمى الموهوبة وما آل إليه من الهوس الاكتئابى بسبب موهبته هذه.

نقد

أستاذ الجامعة فى عالم نجيب محفوظ

مصطفى بيومى

القاهرة: دار الهدى للنشر والتوزيع، ٢٠٠١

تقدم هذه الدراسة زاوية جديدة فى عالم نجيب محفوظ، حيث تعنى بطريقة تصوير أديب نوبل لأستاذ الجامعة من خلال روايته «المرايا»، التى قدم فيها وجوهًا عديدة صادفها فى حياته، وبين من صادف أستاذ الجامعة، حيث يقدم شهادته عن الجامعة المصرية وأساتذتها منذ نشأتها وحتى نهاية الستينيات.

■■■

اللغة وبناء الشعر

محمد عبد اللطيف حماسة

القاهرة: دار غريب، ٢٠٠١

يقدم الكتاب دلائل أكيدة على العلاقة بين النص الشعرى وعلم النحو، والنحو هنا يفسر النص الشعرى ويغنى دلالاته الفنية واللغوية، خالقًا سياقًا خاصًا بالنص ذاته، وهى وظيفة للنحو لم ينتبه إليها كثيرون.

■■■

الوهم

منصور الحازمى

الرياض: المؤلف نفسه، ٢٠٠٠

بحوث فى الأدب العربى الحديث فى المملكة العربية السعودية، والمعروف أن شبه الجزيرة العربية تشهد نهضة أدبية شاملة، فى الشعر كما فى القصة والرواية والنقد الأدبى عمومًا.

■■■

صفحات من النقد المسرحى

على الراعى

القاهرة: المركز القومى للمسرح والموسيقى، ٢٠٠١

كتاب تذكارى يضم مجموعة من المقالات التى كتبها الناقد المسرحى والأدبى الراحل الدكتور على الراعى والتى اكتشفتها ابنته بعد رحيله، كما تتضمن دراسات عنه كتبها أصدقاؤه وتلاميذه، وبينهم محمود أمين العالم، وعبد القادر القط، وبهاء طاهر، وسعد أردش، وصلاح فضل، وجابر عصفور، وآخرون.

■■■

فى العلاقة بين الشعر المطلق والإعجاز القرآنى

أبو يعرب المرزوقى

بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠١

مر الشعر العربى طوال تاريخه بعديد من الأزمات والانتقالات التى أضاف بعضها إلى مسيرته، وكان تأثير بعضها الآخر عليه سلبيًا للغاية. المؤلف هنا يتناول واحدة من العلاقات الإشكالية فى الشعر العربى الذى هو ديوان العرب.

■■■

من الصمت إلى الصوت

إدوارد سعيد وآخرون

بيروت: دار الغرب الإسلامى، ٢٠٠٠

دراسات أدبية ولغوية يساهم فيها المفكر الفلسطينى البارز الذى عرف بدراساته عن الاستشراق والثقافة والامبريالية وكتاباته السياسية عمومًا، لكنه أساسًا أستاذ للأدب المقارن فى جامعة كولومبيا، ودراساته الأدبية واللغوية لا تقل أهمية عن دراساته السياسية.

■■■

Empty Figure on an Empty Stage: The Theatre of Samuel Beckett and his Generation

(شكل فارغ فوق مسرح فارغ: مسرح صامويل بيكيت وجيله)

Les Essif

Indiana University Press, 2001, $47.95

دراسة عن المسرح العبثى تبحث فى الوسائل التى تمكن كتاب المسرح من استخراج المعنى من الفراغ.

■■■

رســــــائل هيكل

أخذنا الأستاذ محمد حسنين هيكل معه في سياحة صيف طويلة عبر حلقات ثلاثة ممتعة.. داخل الوثائق الإسرائيلية، ليطوف بنا في ألم شديد ولكنه مهم داخل كنائز الخطط الاستراتيجية الإسرائيلية ضد العديد من الدول العربية وضد مصر بالذات التي اعتقد أحد جنرالاتها أن صيدهم لها لابد أن يكون بالرمح القاتل.. وليس بالشبكة المقيدة!

وبعد قراءتي للحلقة الثالثة في عدد ديسمبر ٢٠٠٠، وجدتني مشدودًا لمشاهدة الفيلم من بدايته فأعدت قراءة الحلقة الأولى والثانية والثالثة منه مرة أخرى.. واستوقفتني بعض الرسائل والأسئلة التي استأذن في عرضها «وجهات نظر» كما رآها وشعر بها شاب مصري.

أولى هذه الرسائل: أن الأستاذ هيكل أهدى لنا الحلقات أو على الأصح أخذنا معه داخلها.. لكي تبقى ذاكرتنا يقظة «وهو في حد ذاته هدف سام» لنرى ولنحس بمواجعنا مرة ثانية وبإرادة المعرفة وليس بحقن التخدير ولنتحرك خطوة نحو الديمقراطية بالتفكير ليدفعنا بعدها إلى الحوار ثم يتخذ الحوار لنفسه بحكم المعرفة موقفًا مشروعًا ربما يكون له تأثير في مجرى الحوادث!

ثانيتهما: انني أعترف انني كنت واحداً من هؤلاء الناس الذين لم يفهموا بصورة كاملة ما كان يرمي إليه الأستاذ هيكل ولأكثر من مرة وفي العديد من كتبه بأن يقول مختصراً «إن السلام الإسرائيلي الذي أتى بعد ذلك وبالتحديد في مارس ١٩٧٩ وبتوقيع اتفاقية رسمية على الجبهة المصرية.. قد أخرج مصر وبصورة نهائية من مجموع القوة العربية أو من ميزانها. ولهذا فقد استعادت مصر سيناء وسلبت الأمة قوة كبيرة وحشدًا كان ذا نفوذ واصل طوال الوقت في موضوع المواجهة مع إسرائيل».

لم أكن أفهم ـ وأعتقد أن الكثيرين مثلي حتى هذه اللحظة ـ حقائق الخسائر الفادحة التي منيت بها الأمة فور دخول مصر منفردة حلبة ما يسمى بمفاوضات السلام مع إسرائيل في عهد الرئيس الراحل أنور السادات حيث كنت دائمًا أقف أمام المكاسب المرئية التي حققتها الاتفاقية، وهي عودة سيناء رغم الشروط وليس أكثر!

إلى أن جاء لنا الأستاذ هيكل بترجمة عربية لما خطه «بن جوريون» بندًا رئيسيًا من بنود الاستراتيجية الإسرائيلية عندما قال بالنص في اجتماع لمجلس الوزراء الإسرائيلي في ١٩٤٩/٥/٢٩، وكما ورد في الحلقة الأولى من حديث الوثائق:

ـ إن مصر يجب أن تظل وراء حدودها ويجب أن يعلم الإنجليز والأمريكان أن ذلك في صالحهم من الناحية الإستراتيجية وتأمين البترول!

ـ يجب أن نمنع مصر من إقامة أية تحالفات مع بقية العالم العربي قفزًا فوق إسرائيل وخصوصًا مع سوريا بالذات.

أحسست بعدما قرأت هذا الكلام بمدى عمق الصدمة التي تلقاها العالم العربي آنذاك على يد الرئيس السادات وترتب عليها ما نراه اليوم:

ـ من تمثيل لا يعدو عن كونه مشرفًا لمصر.. ولكن غير مؤثر على الإطلاق في مفاوضات التسوية الجارية بين الفلسطينيين والإسرائيليين. إن كانت مفاوضات حول الأرض من الأساس وليست من أجل عملية تدويخ وتعليم فنون الصياغة والحوار للفلسطينيين!!

كما اعترف بذلك شيمون بيريز صراحة للرئيس الفرنسي الراحل فرانسوا ميتران ونقله عنه أ. هيكل.

فدور مصر لا يتعدى أكثر من توفير مكان محايد مكيف.. ومريح يجلس فيه الفلسطينيون والإسرائيليون معًا ولا مانع لديهم من أن يساهم الرجل المضيف ببعض عبارات المجاملة أو الترحيب أو حتى التهدئة في حالة الخناق!

ـ الثبات والاستقرار غير المريح الذي نشهده اليوم على الجبهة السورية ومنذ نحو ٢٧ عامًا منذ حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣ وعجز الجبهة السورية ـ على الأقل حتى الآن ـ عن القيام بحرب واسعة أو حتى محدودة تستعيد بها أية أجزاء من هضبة الجولان السورية المحتلة ـ على الأقل حتى الآن ـ بدون مصر التي لا تستطيع العودة!

إبراهيم شعبان مصطفى
بكالوريوس التربية
جامعة المنوفية

توضيـــح بالغ الأهمـــيـــة

في العدد الثالث والعشرين (ديسمبر ٢٠٠٠)، وعلى الصفحة ٧٣ من (وجهات نظر)، قرأت للأستاذ عماد الغزالي تعريفًا بكتاب (المرأة والدين والأخلاق) من سلسلة حوارات لقرن جديد)، وقد أسعدني كثيراً وعيه لأهمية هذه السلسلة وعرضه الشيق لها ولهذه الحلقة منها عن (المرأة) على وجه الخصوص.

غير أن فقرة وردت في آخر المقال، جعلتني ـ بوصفي الناشر لهذه السلسلة ـ أشعر بخطأ كبير ارتكبته وأنا أحسب أنني قد أحسنت صنعًا.

يقول الأستاذ عماد: «وفي سبيل ردودها على ما ساقته «نوال السعداوي» تقع «هبة» في خطأ «اصطيادي» إذ تقول: إن «نوال» أشارت إلى الحديث النبوي «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» بوصفه آية قرآنية، والحق أن د. نوال لم تفعل، بل قالت إنه حديث شريف.

وتبرئة لـ«هبة رءوف عزت» من تهمة «الافتراء» هذه، أقول: إنني أنا الذي أوقعتها في هذا الخطأ. فالنص الأصلي الذي زوّدتها به ـ كما ورد من الدكتورة السعداوي كي تعقب عليه ـ تقول فيه: «ويقول الله في القرآن: لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» (طبًا صورة عنه)، وتصويب قول الله تعالى إلى قول الرسول إنما قام به قسم التدقيق اللغوي في دار الفكر أثناء تنقيحه المعتاد للكتب قبل طبعها (طيًا صورة عن التنقيح).

إن هذا الالتباس أوقعني في حيرة بين واجبين يفرض أولهما على الناشر أن يكون لديه جهاز للتدقيق اللغوي يقوّم ما سها عنه المؤلف أو ندبه قلمه من أخطاء لغوية أو إملائية أو علمية (كالتي بين أيدينا) من دون رجوع إلى المؤلف، ويفرض عليه ثانيهما ما تقتضيه الأمانة العلمية من إبقاء كل شيء على حاله، على ما في هذا الخيار الثاني من تقصير بحق المؤلف والقارىء معًا.

من طرفي ساحل المشكلة، ربما بإشارة إلى التصويب في الحاشية، في طبعة لاحقة.. لكن تهمة الافتراء التي وجهت إلى هبة رءوف عزت بسببي، لا يرفعها إلا أنتم، بالطريقة التي ترونها مناسبة.

وإني لمعتذر وشاكر ومقدر ومعبر لكم ولـ«وجهات نظر» عن بالغ تقديري واحترامي.

محمد عدنان سالم
المدير العام ـ دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر ـ دمشق

تـاريـخ بنـى إســـــرائيـل

أود أن أسجل إعجابي الشديد بهذا الصرح الثقافي المتجدد والذي أتشرف بكوني أحد المتابعين له، وأثناء قراءتي لعدد مارس ٢٠٠١ وجدت أن هناك حاجة لإيضاح بعض النقاط التي أظن أنها كانت غير موفقة بمقالة الأستاذ عفيف البهنسي (فلسطين لم تكن وطنًا لبني إسرائيل) فمما أثار دهشتي أن الكاتب ابتدأ المقال بذكر آية من آيات سورة البقرة يستدل بها علي تحريف اليهود للتوراة، لكن ما أدهشني أنه لم يراجع سيرة بني إسرائيل المذكورة في القرآن واعتمد علي تكذيب كل ما ذكر بالتوراة حتى وإن كان متوافقًا مع ما جاء بالقرآن وقد أورد بعض النقاط ـ وليس هنا المجال لتفسير الآيات أو شرح معانيها ولست بأهل لهذا ولكن يكفي أن نقرأ الآيات لنرى مدى الفرق بينها وبين ما أورده الكاتب في مقاله.

فهو يستطرد من خلال المقال ليثبت أن من خرج من مصر مع سيدنا موسى ليسوا هم بنو إسرائيل أحفاد نبي الله يعقوب خلافًا مع آيات كثيرة في القرآن تثبت أن نبي الله موسي ـ وهو من آل عمران من بني إسرائيل ـ أرسل إلي بني إسرائيل في مصر ليخرجهم من إذلال فرعون لهم وإن شاء فليقرأ عن هجرة موسى وهلاك فرعون.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ البقرة «٥٠»

وأيضًا: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١)﴾ الدخان

وأيضًا ينفي نسب سيدنا موسى لسيدنا إبراهيم بقوله إنه أمير مصري كما يقول (إن العلماء أجمعوا على نفي العلاقة بين موسى وبين داود وسليمان وليس أصدق من هذه الآية للرد على كل العلماء:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ الأنعام (٨٤)

وإن شاء أيضًا فليقرأ الآيات من ٢٤٦ حتى ٢٥١ من سورة البقرة وبها توضيح كامل لإنشاء دولة بني إسرائيل وظهور نبي الله داود من بينهم حتى قوله تعالى:

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ البقرة (٢٥١)

كما يقول أيضًا (لم تبين البرديات التي تضمنت تاريخ مصر القديم أي وجود لبني إسرائيل أو لليهود علي أرض مصر) فلا أدري أيهما أوجب بالتصديق البرديات أم القرآن الكريم.

كما يورد الكاتب قول أحد المؤرخين بقوله (إن الملك سليمان لم يكن أكثر من حاكم صغير يحكم مدينة صغيرة) وهنا لا أدري من هو المقصود بالملك سليمان؟ هل هو نبي الله سليمان أم لا؟ وهو ما لم يوضحه الكاتب فإن كان المقصود هنا هو نبي الله سليمان فكيف يكون ملكًا صغيرًا لمدينة صغيرة وهو الذي قال عنه القرآن:

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠)﴾

وكيف يكون (كنعانيًا بعقيدته) كما ينقل القول وهو مسلم كما في الآية:

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ النمل (٤٤)

كل ما سبق يثبت أن القوم الذين خرجوا من مصر مع نبي الله موسى هم بنو إسرائيل وأنهم من نسل سيدنا إبراهيم وأنهم كانوا يعيشون في مصر وأن هناك علاقة نسب بين نبي الله موسي وبين نبي الله داود وسليمان وأن نبي الله سليمان لم يكن حاكمًا صغيرًا لمدينة صغيرة.

ولكن هل يعطي كل هذا لليهود حقًا شرعيًا في فلسطين؟ وهل لمجرد أن نكذب كل ما يقولونه يدفعنا انفعالنا بالقضية لأن نهدم المعبد فوق رؤوسنا ونطيح بثوابت لا يمكن، بل لا يجب أن نحيد عنها.

رسائل

الكتب.. وجهات نظر

أخيرًا كان يجب علي الكاتب ـ وهو الذى بذل مجهودًا ملموسًا في بحثه ـ أن يستعين أولاً بالقرآن وأن يتخذ منه مرجعًا أساسيًا لبحث سيرة بني إسرائيل إلي جانب الحقائق العلمية الموجودة والحقائق الأثرية ـ والمتخصص فيها كاتبنا ـ ولا أظن أن الحقائق العلمية سوف تكذب القرآن ـ وهو الحق ـ وإن حدث اختلاف فكم من حقائق علمية ثبت كذبها بعد حين وظل القرآن هو كلمة الحق إلي أبد الأبدين.

صلاح خلاف
محاسب

نكسة ثقافية

نشكر الأستاذ «قاسم عبده قاسم» علي المقال الذى نشره في مجلة «وجهات نظر» في عددها الخامس والعشرين (فبراير ٢٠٠١) بعنوان: «التاريخ.. كيف يدرسه التلاميذ في مصر» والذي يتناول بتركيز مراحل تدريس التاريخ من التعليم الأساسي إلي الثانوى العام، ولأنني كنت دائم الاهتمام بمادة التاريخ أعلم مدى سطحية وتفاهة المادة التاريخية في كتب الدراسة المصرية. وأنا لا أعلم لماذا لا تتم دراسة مادة التاريخ في الجامعات المصرية حتى نرفع من النكسة الثقافية لشباب الجامعات المصرية وفي حين أن هناك مواد كثيرة لا تستحق الدراسة أساسًا.

وعلي سبيل المثال، نحن ندرس مادة «الكمبيوتر» من الناحية النظرية فقط علي طريقة خذ فكرة، والإدارة الجامعية لها العذر، فهى ليس لديها القدرة علي توفير أربعة آلاف جهاز كمبيوتر لطلبة الجامعة كلها.

هذه مشكلة من مشاكل كثيرة فى الحياة الجامعية. ولعلى أتساءل: لماذا انحدر منحنى الثقافة للطلبة الجامعيين إلي هذا التدنى لدرجة أنهم لا يعلمون شيئًا عن اهم الأحداث في تاريخ مصر الحديث وبالطبع فإنني لا أعمم هذا الرأى علي جميع الطلبة ولكن معظمهم علي هذا النحو من الجهل التاريخي.

ونرجو من الأستاذ «قاسم عبده قاسم» أن يكتب مقالات أخرى في سلسلة الكبوة التعليمية التى تمر بها مصر.

وفي النهاية نشكر مجلة «الكتب.. وجهات نظر» على هذه المساهمة في رفع مستوى الثقافة وعلى الموضوعات المهمة التى تعرضها.

محمد عبد الله أحمد
كلية التجارة (الفرقة الأولى)
الإسماعيلية

أمنياتى للمجلة

كل عام وحضرات أعضاء هيئة التحرير بالصحة والسعادة. وأمنياتى للمجلة فى عام ٢٠٠١ هى كالآتى:

١ـ أن تتحرر المجلة من قيود الثقافة الموجهة.

٢ـ أن تخرج المجلة من المحلية والإقليمية إلى العالمية بمعنى أن نرى العالم من خلالها، كأن نرى كتبًا من اليابان، الصين، البرازيل وأفريقيا وفى صورة مقالات حتى وإن كانت على حلقات.

٣ـ أن تكون هناك صفحة أو صفحتان، واختيار حرف أو كلمة من الموسوعات، ولتكن البريطانية مثلاً «بتصريح».

٤ـ أن تقسم أبواب المجلة كما يحدث فى المجلات العالمية إلى باب السياسة، الاجتماع، العلوم، الفكر، .....

٥ـ أن نتعرف على مجالات جديدة، من خلال المجلة لم تكتب من قبل مثل علوم الطيران ومشاكله، علوم الأقمار الصناعية، علوم المناجم، علوم الغواصات، علوم البحث عن البترول، علوم الموسوعات، زيارة إلى المعابد فى شرق آسيا، العبادات فى العالم، القبائل المتخلفة فى أمريكا اللاتينية.. الخ وخاصة أن هذه المجلة تخاطب فئة معينة من المثقفين.

٦ـ أن تخرج المجلة من الحداد الذى هى فيه، وتصبح الرسومات والمقالات بألوان وليست الإعلانات فقط.

هانى بولس زكى
محاسب

تنويه

جاء بمقال الأستاذ وديع فلسطين بالعدد الرابع والعشرين للمجلة بأن المحكمين اختارا البروفسير جورج ساوسوهول.. رئيسًا لهيئة التحكيم وفيصلاً فى النزاع «Referee» وصحتها «Umpire» من حيث إن الاسم الأول هو اسم الحكم الرياضى. أما «Umpire» فهو الاسم الصحيح وإن كان هذا الاسم يطلق علي حكم كرة المضرب «التنس» لأن قراره نهائى نظرًا لوجود أكثر من مراقب خطوط.

وقد راجعت جميع قوانين التحكيم قبل الكتابة إليكم.

برجاء التنويه ولكم جزيل الشكر وخالص التحيات.

محمد السمنودى
محكم معتمد
لدى غرفة التحكيم الدولية بباريس

كتاب الزاوية

عمارة الفقراء

٦ـ التراث المعمارى ميت

مصر الحديثة ليس فيها أسلوب محلى، فالبصمة مفتقدة: وبيوت الأغنياء والفقراء هى على السواء بلا طابع، بلا لهجة مصرية. لقد ضاع التراث، وانفصمنا عن ماضينا منذ قطع محمد على رأس آخر مملوك. وهذه الثغرة فى تواصل التراث المصرى قد أحس بها أناس كثيرون. فطرحت لها كل صنوف العلاج. والحقيقة أن هناك نوعًا من الغيرة بين أولئك الذين يعدون القبط السلالة الحقيقية المنحدرة من قدماء المصريين، وأولئك الذين يؤمنون بأن الأسلوب العربى هو ما ينبغى أن يمد بنموذج للمعمار المصرى الحديث.

ومما لا يفهم حتى الآن أن المعمار الحقيقى لا يمكن أن يكون موجودًا إلا فى تراث حى، وأن التراث المعمارى فى مصر هو الآن تقريبًا ميت.

وكنتيجة مباشرة لضياع التراث فإن مدننا وقرانا أصبحت تزيد وتزيد قبحًا. وكل بناء بمفرده يؤدى إلى زيادة هذا القبح. وكل محاولة لعلاج الموقف لا تؤدى إلا لتأكيد هذا القبح تأكيدًا أثقل.

ولكن مدارس العمارة ليس فيها أية دراسة لتاريخ البنايات المنزلية وهى تدرِّس العصور المعمارية عن طريق ما هو أسلوب عارض ليس إلا، كمعالم الظاهرة من مثل بوابات المعبد الضخمة وسدائل المقرنصات.

وهكذا فإن المهندس المعمارى يتخرَّج وهو يعتقد أن هذا هو كل ما يعنيه «الأسلوب»، ويتخيل أن البناء يمكن أن يغير أسلوبه بمثل ما يغير الإنسان ملابسه.

طالبان تضع العالم الإسلامى فى مواجهـــة مـــع الـــذات

لم يكن العالم الإسلامى أقرب إلى المواجهة مع نفسه فى لحظة صدق تاريخية، كما كان فى الأزمة التى أثارتها أخيرًا حركة طالبان، حين قررت ثم أقدمت على تدمير التماثيل البوذية المنحوتة فى الصخر فى أفغانستان، والتى يرجع تاريخها إلى عدة قرون خلت.. بزعم أنها مخالفة للشريعة الإسلامية التى تحرم عبادة الأوثان.

وقد انقسم العالم الإسلامى على نفسه بين مدافع عن حق حركة طالبان فى تحطيم هذه التماثيل استنادًا إلى أنها مسألة دينية صرفة لا شأن للآخرين بها.. خاصة أن العالم لم يتحرك حين هدم الهندوس مسجد بابرى الأثرى فى الهند، ولم ينزعج كثيرًا حين تعرض المسجد الأقصى فى القدس للاعتداءات الإسرائيلية.. ومن ثم فإن الاحتجاج الدولى الذى قادته اليونسكو على تحطيم تراث ثقافى عالمى لا يصدر عن نيات خالصة، بقدر ما يصدر عن نعرات ثقافية وازدواجية فى الحكم لا يؤبه لها.

وعلى الجانب الآخر فى العالم الإسلامى، كانت الأصوات الأعلى والأكثر غضبًا هى تلك التى رأت فى تحطيم التماثيل إهدارًا لتراث ثقافى عالمى، ينتمى إلى حقبة تاريخية مضت منذ قرون. وأن المسلمين الأوائل حين فتحوا أفغانستان وأدخلوا إليها الإسلام لم يهتموا بإزالتها، بل تركوها قائمة. وظلت كذلك دون أن تتحول إلى مصدر للغواية والضلال على مر مئات السنين. فما الحكمة إذن فى هدمها الآن، إلا أن تثير ثائرة العالم ضد الإسلام والمسلمين، وتثبت الصورة النمطية الجاهزة التى تصم العالم الإسلامى بالجهل والتأخر والتعصب؟

وما سبب إصرار طالبان على تجاهل النداءات العالمية، إلا أن حكامها وأمراءها الذين يرتدون عباءة الإسلام، لم يعد يهمهم شىء، ماداموا قد سقطوا فى وهدة الرجعية الدينية والانغلاق الفكرى، فحرموا على المرأة الخروج من البيت، ومنعوها من التعليم، وأنكروا على الناس استعمال التليفزيون وسمحوا بزراعة وتجارة المخدرات؟!

وعلى الرغم من أن ما تردد حول الأوضاع فى أفغانستان، سواء حول الدواعى التى حملت زعماء طالبان على تحطيم التماثيل البوذية، أو ما تردد حول زراعة المخدرات واحتجاز النساء والبنات فى بيوتهن دون تعليم، لا تخلو من المبالغات، بل ربما كانت - على الأرجح - جزءًا من حملات الحصار والعزل والضغط التى تشنها الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا والهند بسبب الحماية التى أسبغتها طالبان على بن لادن من ناحية، وبسبب مؤازرتها القوية للحركات الإسلامية التى تناوئ النفوذ الروسى فى الجمهوريات الخمس التى كانت جزءًا من الاتحاد السوفيتى، وتمثل تعضيدًا للشيشان ضد موسكو من ناحية أخرى، ثم أخيرًا بسبب تأييد طالبان للمقاومة الكشميرية ضد الهند من ناحية ثالثة.

لكل هذه الأسباب مجتمعة ومنفردة، ونظرًا لحواجز الفرقة والتباعد التى صارت تفصل بين الأمم والأقطار الإسلامية، فلا يعرف بعضها عن بعض شيئًا.. بل ربما أكرهت بعضها على قطع الروابط التى كان من شأنها أن تصلح بعض الأوضاع فى بلد مثل أفغانستان.. فإن الخلط الشديد بين ما هو دينى عقيدى وما هو سياسى واقتصادى، دون تمييز دقيق بين الخصوصية الثقافية التاريخية والهوية الحضارية من ناحية، وبين الأسس والمصالح الدولية المشتركة القائمة على تبادل المنافع أو اغتصابها من ناحية أخرى، هو الذى يطرح تحديًا عصريًا على الأمة الإسلامية وشعوبها، فى وقت يتآكل فيه مفهوم سيادة الدولة ويعطى العالم لنفسه حق التدخل لمقاومة ما يظنه تهديدًا لتراث عالمى مشترك.

تتصل هذه الإشكالية بإشكالية أخرى، باتت من أكثر ما يميز الحياة المعاصرة فى العالم الإسلامى، هى ذلك الطموح القديم المتجدد لإقامة حياة سياسية تجمع بين حكم الدين أو بمعنى أصح رجال الدين، وبين أساليب الحياة العصرية القائمة على الحرية والديمقراطية وتداول السلطة.. وقد أدى الإخفاق فى تحقيق هذه المعادلة حتى الآن، إلى إصابة نظم الحكم التى حاولت تطبيقها فى العالم الإسلامى بالوهن والضعف والصراعات الداخلية الحادة.

فلم تكن الحجج الشرعية والدينية التى استخدمتها طالبان لتدمير التماثيل البوذية، سوى ذريعة لمقاومة ضغوط سياسية خارجية فضلاً عن صراعات داخلية على السلطة بين طالبان والفصائل الأفغانية الأخرى. ومن المؤكد أن الوضع المتردى فى أفغانستان المحاصرة والجائعة والمنبوذة إسلاميًا ودوليًا فى قلب صراع دولى، أعقد من أن يحل فى إطار التضاد بين فتوى دينية بتحطيم الأوثان وبين مبدأ المحافظة على التراث الإنسانى الثقافى باعتباره ملكًا عامًا مشتركًا للإنسانية جمعاء.

فالخطاب الدينى الطالبانى الذى يعبر عن وضعية محاصرة ومحصورة، يصطدم بخطاب سياسى عالمى إنسانى يضم بين جوانبه من الاعتبارات الدينية والسياسية والثقافية ما يستجيب للنزعة الإنسانية الحضارية، وقد اختلفت الرؤية اختلافًا جذريًا بين علماء الدين الأفغان وبين علماء الدين الذين حملتهم الطائرة من أنحاء العالم الإسلامى.. إلى كابول لمجادلتهم بالتى هى أحسن، ودعوتهم إلى إعادة النظر فى تحطيم التماثيل البوذية. فلم يكن الاختلاف بين الطرفين غير اختلاف بين عالمين وعصرين وفهمين للخطاب الدينى بمعناه الواسع. كلاهما قد يكون صحيحًا، ولكنهما ينطلقان من منطلقات مختلفة، وينطبقان على أزمان مغايرة وأقوام متباينة.

وعلى الرغم من عدم تطابق وجهتى النظر فى إطار خطاب دينى واحد، يستند إلى مرجعية واحدة، فإن دخول البعد السياسى تعبيرًا عن مصلحتين متباعدتين أو متناقضتين، هو الذى أوجد الهوة الفاصلة بين ملالى طالبان وعلماء الدين الذين جاءوا من أنحاء العالم الإسلامى.

وهنا، فلابد من الاعتراف بأن ثوابت الدين يجب أن تظل بمنأى عن الصراع السياسى. وأنه فى كل مرة وقع خلط بين ثوابت العقيدة وأهداف السياسة، اشتعلت الفتنة وتأججت حدة الصراع، وتاهت المرجعيات فلم يعد أحد يفرق بين الخطأ والصواب.

سوف نلاحظ هذه الظاهرة فى إيران وفى السودان وفى باكستان.. وفى كل التجارب السياسية الحديثة التى خلطت بين مبادئ العقيدة فى ثباتها ووضوحها وبين مقاصد السياسة فى تقلباتها ومقتضياتها العملية، وملاءماتها ومتغيراتها البرجماتية. لم يتحقق النجاح المطلوب ولا استقرت المفاهيم والنظم التى تضمن للشعوب والدول إنجاز تقدم مطرد على وتيرة ثابتة. بل إن ما نراه تحت أعيننا اليوم هو ذلك الصراع المتأجج على السلطة بين التيار المعتدل الذى يسعى إلى إزالة التناقضات بين الدين ومفاهيم العصر والذى يقوده خاتمى فى إيران، وبين المتشددين الذين يلوذون بسلطان رجال الدين لإبقاء الأوضاع جامدة على ماهى عليه، استنادًا إلى مقولات دينية وسلطات حاكمية لا سبيل إلى زعزعتها أو تبديلها.

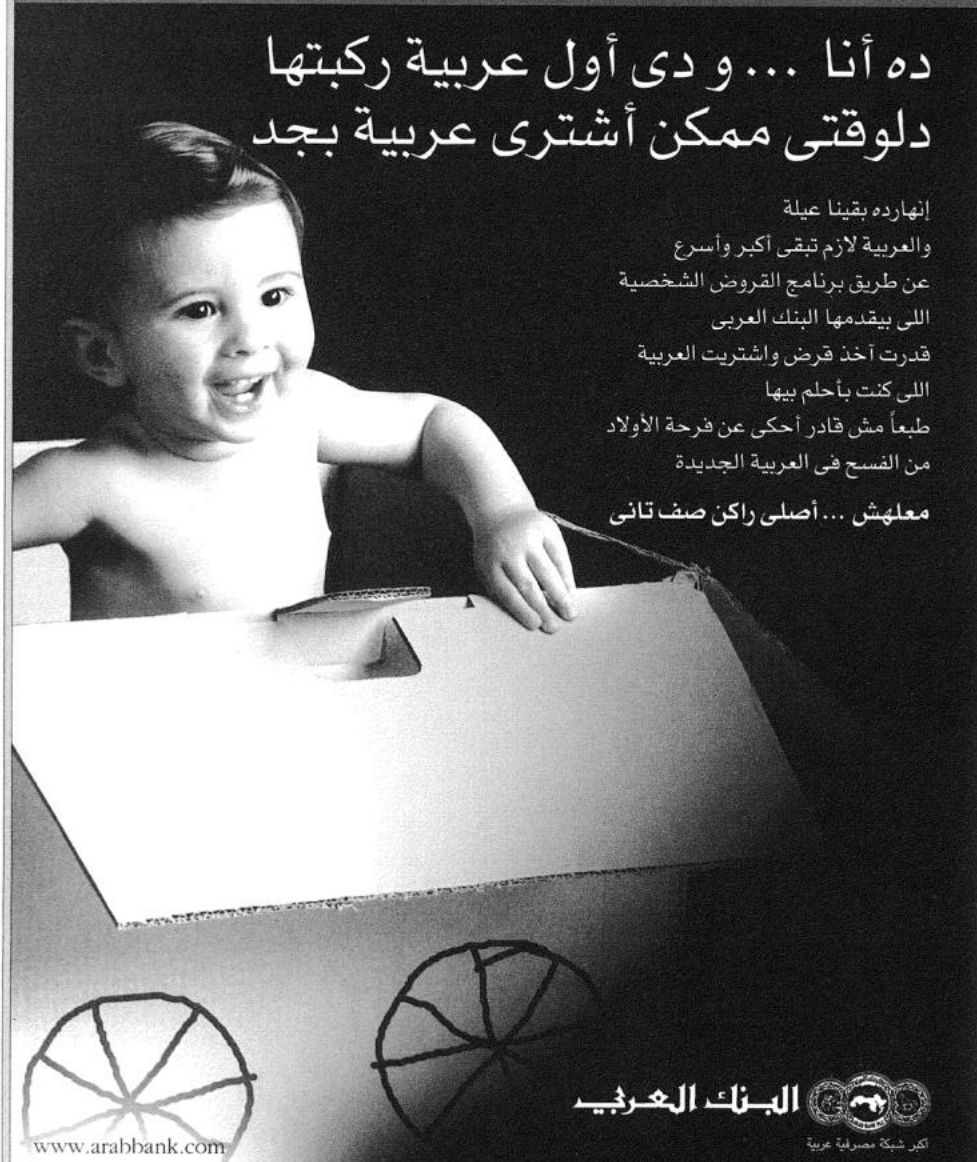
وتتكرر تنويعات الصراع بأشكال ودرجات مختلفة فى دول ومجتمعات وجماعات إسلامية عديدة يقودها سياسيون إسلاميون.. تستغل المقولات الدينية كواجهة للصراع، بينما تكشف الأعماق عن صراع محض على السلطة. ولا بأس من تغيير المواقف من النقيض إلى النقيض، وتغيير التحالفات والارتباطات طبقًا لمصالح آنية، وتوازنات سياسية، ومغانم دنيوية فى كثير من الأحيان، تتغير معها الحجج الشرعية والتأويلات الدينية وتشكك فى شرعية النظام الإسلامى.

إن التغير المتسارع الذى يشهده العالم الآن، لابد أن يحملنا على التفكير العميق فى دلالات أزمة التماثيل البوذية، والتطور الحادث فى الخطاب العالمى، والحاجة الملحة إلى إعادة النظر فى الخطاب الإسلامى وقدرته على مخاطبة العالم، فلم يعد ممكنًا أن يظل الخطاب الدينى فى العالم الإسلامى عاجزًا ومحصورًا فى أطره الضيقة التى تصطدم بكثير من القيم الإنسانية السائدة، بسبب الخلط بين ثوابت العقيدة ومتغيرات السياسة، أو بسبب سيطرة أفكار جامدة.

لقد اتسع الخطاب العالمى الآن لكل ما هو اقتصادى وثقافى وسياسى واجتماعى، بل ودينى. وأصبح قادرًا على استيعاب هذه الأبعاد جميعًا فى وقت واحد. ولهذا لم يكن غريبًا أن يطالب المدير العام لليونسكو بتوقيع عقوبات على الدول أو الجماعات التى ترتكب جرائم فى حق الثقافة والتراث المشترك للإنسانية، باعتباره تراثًا دينيًا فى الأساس.. إذ من الواضح أن الديانات كانت ومازالت هى مهد الثقافة والفكر والفن. احتضنت وأنتجت على مر العصور أغلب ما أبدعه العقل البشرى فى هذه المجالات جميعًا. ومن ثم لم يعد الخطاب السياسى العالمى قصرًا على الحديث عن حقوق الشعوب فى الحرية والاستقلال أو فى الالتزام باتفاقيات دولية أو معاهدات سياسية، بل اتسع ليشمل الأبعاد الدينية كما تنعكس فى حرية الاعتقاد والعبادة، بقدر ما يشمل الحفاظ على التراث الثقافى الإنسانى، وبقدر ما يتسع لمتغيرات الاقتصاد العالمى.

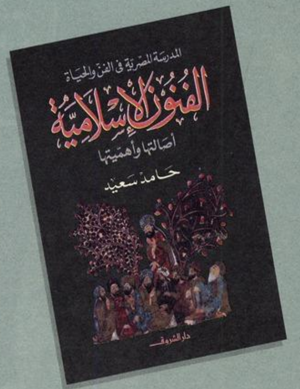
لم يعد واردًا أن ترتكب الجرائم الثقافية والسياسية باسم الدين. ولم يعد من مصلحة العالم الإسلامى أن تستمر الصراعات السياسية على السلطة بين المسلمين فى أجزاء متفرقة من العالم باسم تطبيق الشريعة. وعلى عاتق المفكرين الذين يتصدون للحديث عن النهضة الإسلامية أن يضعوا الحلول الحقيقية لتجريد الدين من صراعات السياسة وأباطيلها وتقلباتها. فلم تعد الشعوب الإسلامية مستعدة لتجرع المزيد من هذه الصراعات التى عطلت تقدمها وشلت حركتها، ولم يعد العالم قابلاً لمفهوم السيادة الوطنية التى تقوم على منع حريات الشعوب وحرمانها من حقوقها، أو على تدمير التراث الإنسانى المشترك، أو تلويث البيئة وإهدار الثروات الطبيعية، تحت أية ذريعة من الذرائع!

سلامة أحمد سلامة


ده أنا ... و دى أول عربية ركبتها
دلوقتى ممكن أشترى عربية بجد
إنهارده بقينا عيلة
والعربية لازم تبقى أكبر وأسرع
عن طريق برنامج القروض الشخصية
اللى بيقدمها البنك العربى
قدرت آخد قرض واشتريت العربية
اللى كنت بأحلم بيها
طبعاً مش قادر أحكى عن فرحة الأولاد
من الفسح فى العربية الجديدة
معلهش ... أصلى راكن صف تانى
البنك العربي
اكبر شبكة مصرفية عربية
www.arabbank.com

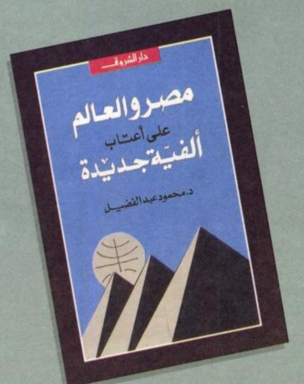
دار الشروق

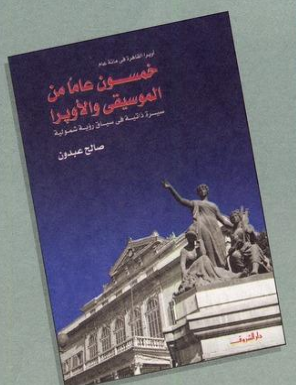
تقدم أحدث وأهم إصداراتها



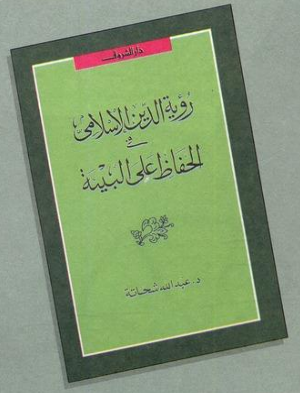
















تطلب من دار الشروق ٨ شارع سيبويه المصرى . رابعة العدوية مدينة نصر ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ومكتبة الشروق ١ ميدان طلعت حرب ت: ٣٩١٢٤٨٠
مبنى «فرست» . الجيزة . أمام حديقة الحيوان ٣٥ ش الجيزة مبنى فرست مول محل رقم ١٩ . ت . فاكس ٥٧٣٥٠٣٥ . ٥٦٨٥١٨٧

ومن والمكتبات الكبرى